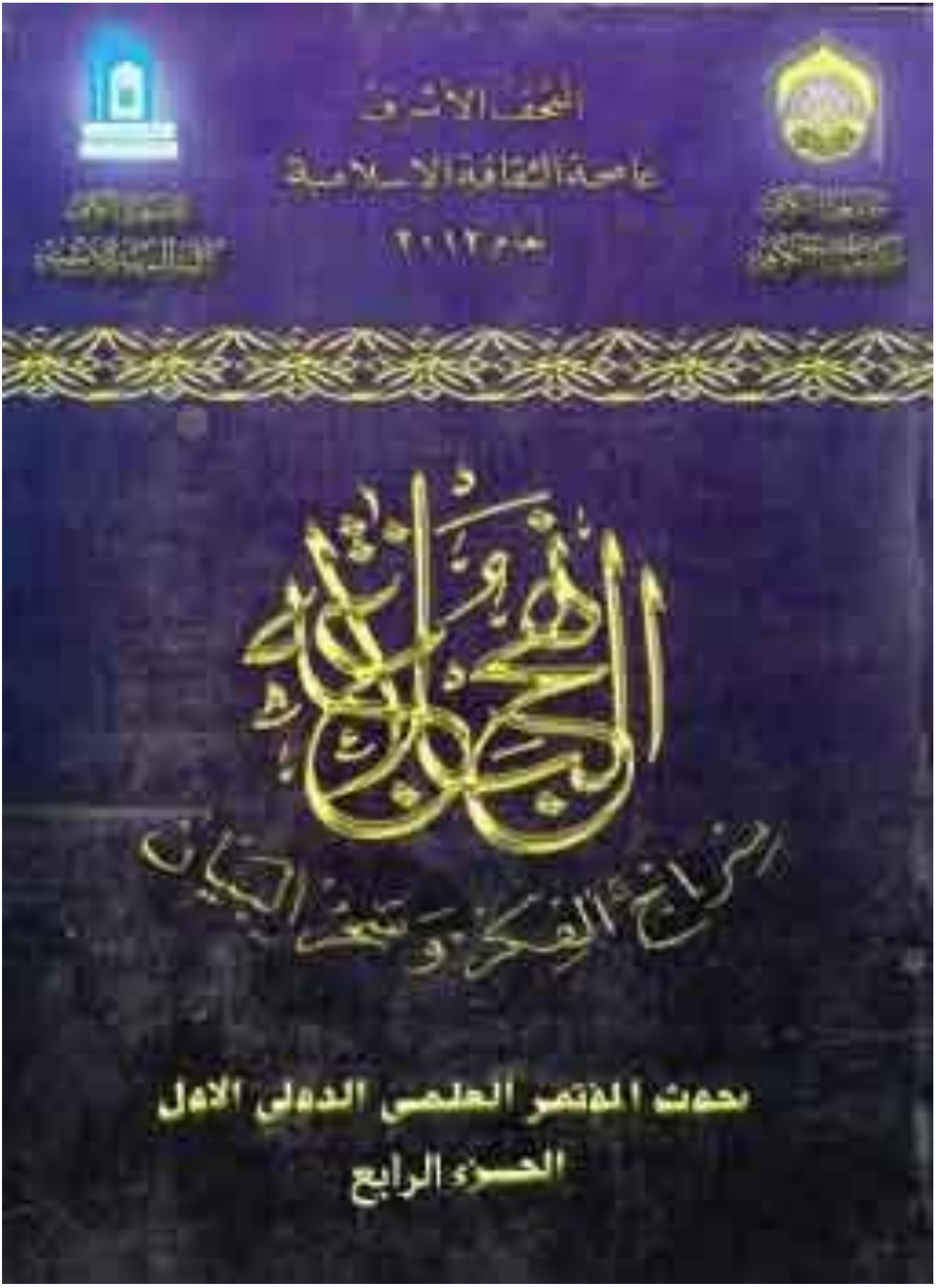
المتحف الأثري
عاصمة الثقافة الإسلامية
٢٠١٢م
الإسلام
والحضارة
والتراث
والفكر
والعلم
والإنسان
بحوث المؤتمر العلمي الدولي الأول
الجزء الرابع

دراسة مناهج البحث في نهج البلاغة (الدراسات الإيرانية نموذجا)

الأستاذة المساعدةالدكتورة: كبري روشنفكر(جامعة تربيت مدرس)

الملخص

حدد خبراء البحث لكل من يقوم ببحث علمي ثلاثة مناهج دراسية بما فيها الأدبية و اللغوية و العلمية. هذا وقد اقبل الباحثون بعيد الثورة الاسلامية في ايران عام ١٩٧٨ الى الان الى دراسة نهج البلاغة بوصفه كتاباً دينياً اخلاقياً تربوياً ادبياً و ... . فإن البحوث التي تضمنت المجالات المختلفة بما فيها اللغويات و الأدبيات و الإجتماعيات و السياسيات و ما الى ذلك، أخذت بعضها منهجا خاصا من مناهج البحث و البعض الآخر لم يتطرق الى اسلوب معين. يقوم هذا المقال خلال المنهج الوصفي - التحليلي استقراء المناهج المتخذة من قبل الباحثين ضمن دراسة ٢٠ بحثاً من البحوث الجامعية بطريقة عشوائية ليبين مدي إهتمام الدارسين بمناهج البحث العلمي اولاً ثم صلة الموضوع بنوع المنهج الذي إختاروه و كمية نجاحهم في الوصول الى نتائج واضحة و مرتبطة ارتباطا وثيقا بسؤالات التحقيق.

المقدمة

قلما نجد اثرا شاملا جميع ما نتمناه من علم و ادب و عبرة و تاريخ و فلسفة و حكمة و بعبارة أخرى خلاصة الدين و الدنيا. هذا ان دل علي شيء فهو يدل بالتحقيق علي أن صاحب الأثر ذخر المعرفة والتجاريب ومعدن البرهان و الأحاسيس فهو الذي جعل الدنيا وراءه ليتجه نحو ما يكون أبقي و... . خير دليل علي قيمة الأثر كهذا، كثرة إهتمام الدارسين في الحفلات العلمية و الآكاديمية حيث نجد مئات دراسة و تحقيق. قام الدارسون خلالها ايضاح و تبيين جانب من جوانب الفكرة و المضمون و الأداة أو الأسلوب لكتاب نهج البلاغة حيث إن درجنا العنوان علي موقع من مواقع الشبكة العنكبوتية أو الأنترنت باللغة العربية والفارسية والإنجليزية أو لغات أخرى نجد إن النتائج أكثر و أكبر ما يتصور؛ لهذا يقوم هذا المقال دراسة البحوث المنتقية الى المراكز العلمية ـ الإيرانية ليبين من جهة إهتمام الجامعيين الإيرانيين الى مثل هذه النقاط ويوضح مدى عنايتهم بالأساليب العلمية الدارجة في الدراسات.

التعاريف

أساليب البحث

البحث لغة: البحث معناه لغة التفحص و التفتيش و هذا مفهومه يعادل مفهوم الدراسة تعني التقصي و التدقيق في كل الجوانب و لابد له من مصادر و مراجع لتغذيته و من مخطط ينتهجه الباحث و استخدام أسلوب رصين يعتمد المفردات والتعابير الخاصة بنوعية موضوع البحث وطبيعته[١].

فقد ذكرت الكتب المتخصصة تعاريف عدة للبحث و من مجموع هذه التعاريف نستنتج أن البحث «هو دراسة مفصلة لمشكلة معينة ودراسة المشكلة تعتمد على أسس ومعايير علمية يتبعها الباحث لكي يتوصل إلى حقيقة المشكلة التي يبحثها و إن الأبحاث بمختلف أنواعها تعتبر مصدرا مهما لإثراء المعرفة البشرية»[٢].

هذا وإن العمليات التحقيقية يعود زمنها الى السنوات الأولي من البعثة النبوية حيث كانت إجراءات اساسية واعية لتحقيق النص الرباني المجيد بالمقابله والعراض مراراً، فهذا هو تحقيق

---

١ . التونجي، ١٩٩٣، ص١٦٢.
٢ . الشريف، ١٩٩٦، ص١٥.

شفوي خالص وقد يمتزج بالتسجيل بين يدي الرسول والصحابة فيتحصّل مع الشفوية تحقيق كتابي ايضاً[1].

مناهج البحث: هناك صلة وثيقة بين إختيار المنهج للبحث العلمي وبين أهدافه وماهيته والإمكانيات اللازمة له.
إذن فإن التحديد القطعي للبحث يقع في المرتبة الثانية.
وذلك بعد تعيين الأهداف وماهية الموضوع ومداه.
ومن ثمّ فإنّ مجالات البحوث واسعة ومتعددة في مستوياتها العلمية ويمكن أن تقع في قسمين:
الف: أبحاث نظرية بحتة.
ب: أبحاث علمية تطبيقية.
إلا أننا في معظم الأحيان لانستطيع تفكيك البحوث الى بحوث نظرية و تطبيقية.
إن أي بحث تطبيقي يحتاج الى اساس نظري[2].

ومن حيث المنهج فهناك بحوث تاريخية ووصفية وتجريبية وتنبؤية ومسحية و غيرها[3].

وقد يتداخل بين المناهج كما أن استخدام الاسلوب الوصفي سمة أغلب البحوث والدراسات و هذا يجعلنا أن نقسم المناهج الى ثلاث:
المنهج الوصفي، المنهج التاريخي والمنهج التجريبي[4].

المنهج الوصفي: إن الهدف من هذا النوع من البحث هو الوصف العيني و الواقعي والمنتظم عن ميزات موقف أو موضوع ما.
بعبارة أخرى فإن الباحث يسعى الى التقرير عن «ما هو موجود» دون أي تدخل شخصي أو إستنتاج ذهني ليصل الى نتائج عينية.
المنهج التاريخى: يعد التاريخ عنصراً لا غنى عنه فى إنجاز الكثير من العلوم الإنسانية وغير الإنسانية، فكثير من الدراسات للظواهر الإجتماعية لا تكفي الملاحظة والدراسة الميدانية لفهمها بل يحتاج الأمر لدراسة تطور تلك الظواهر وتاريخها ليكتمل فهمها.
ويعتمد المنهج التاريخى على وصف وتسجيل الوقائع والأنشطة الماضية و دراسة وتحليل الوثائق والأحداث المختلفة وايجاد التفسيرات الملائمة والمنطقية لها على أسس علمية دقيقة بغرض الوصول الى نتائج تمثل حقائق منطقية وتعميمات تساعد فى فهم ذلك الماضى والاستناد على ذلك الفهم فى بناء حقائق للحاضر وكذلك الوصول الى قواعد للتنبؤ بالمستقبل.
فالمنهج التاريخى له وظائف رئيسية تتمثل فى التفسير والتنبؤ وهو أمر مهم للمنهج العلمى.
المنهج التجريبى: هو طريق يتبعه الباحث لتحديد مختلف الظروف والمتغيرات التى تخص ظاهرة ما والسيطرة عليها والتحكم فيها .
ويعتمد الباحث على هذا المنهج عند دراسة المتغيرات الخاصة بالظاهرة محل البحث بغرض التوصل إلى العلاقات السببية التي تربط بين المتغيرات المستقلة والمتغيرات التابعة.
واستخدام المنهج التجريبي لم يعد مقتصرا على العلوم الطبيعية فقط بل أصبح يستخدم على نطاق كبير أيضا فى العلوم الاجتماعية[5].

كتبت في الجدول، الرسائل وعناوينها بالفارسية والعربية ونوع تحقيقها و مناهجها وتاريخ المناقشة:
جدول الدراسات الإيرانية (الرسائل الجامعية) ومناهجها في البحث عن نهج‌البلاغة

---

١ . أسد، ٢٠٠٥، www.almultaka.net
٢ . الشريف، ١٩٩٦، ص١٦.
٣ . المصدر نفسه، وحافظ نيا، ١٣٧٧هـ.ش، ص٤٢.
٤ . نادري وسيف نراقي، ١٣٨٠ هـ.ش، ص٧٢.
٥ . www.slidefinder.net

العنوان (بالعربية و الفارسية)	نوع التحقيق	تاريخ المناقشة	الجامعة	منهج التحقيق	أسئلة التحقيق
١. جهاد از ديدگاه نهج البلاغه امام علي (ع) «جامعه‌شناسي جنگ و نيروهاي نظامي» الجهاد من وجهة نظر نهج البلاغة	رسالة ماجستير	١٣٧٣ الهجري الشمسي	جامعة الفردوسي بمشهد	يبدو أن المنهج هو الوصفي و التحليلي	
٢. الهيات بالمعني الأخص في نهج‌البلاغة	رسالة ماجستير	١٣٧٥ الشمسي	جامعة الفردوسي بمشهد	يبدو انه هو المنهج العلمي	
٣. بررسي اسرار و احكام فقهي از ديدگاه نهج نهج البلاغه دراسة الرموز و الأحكام الفقهية في نهج البلاغة	رسالة ماجستير	١٣٧٩ الهجري الشمسي	الجامعة الحرّة، اراک	يبدو انه منهج وصفي و تحليلي و علمي و دراسة موازنة مع المذاهب المختلفة و آراءالغربيين	١.هل توجد للأحكام رموز؟ ٢.ما هي رموز احكام الإلزامات و الحلال في الإسلام؟ ٣.ما هي فلسفة أحكام الحرام؟ ٤. كيف يدرس الدين من طريق العلم؟
٤. بررسي آموزه‌هاي تربيت سياسي بر مبناي نهج البلاغه دراسة تعالىم التربية السياسية على اساس نهج البلاغة	رسالة ماجستير	١٣٨٥ الهجري الشمسي	العلامة طباطبائي	الوصفي و التحليلي	١. ما هو مفهوم التربية السياسية علي اساس نهج البلاغة؟ ٢. ما هي التعالىم و اهداف التربية السياسية في نهج البلاغة؟ نتائج البحث: ايصال الإنسان الى الحرية الفكرية، ايجادالأمن و السلام، تربية الروح،العدالة،توسيع التعليم و التربية،الجهاد ضدالفقر،الصدق، المسئوليةالسياسية والمشاركة،وفاءالعهد، الجهاد ضدالظلم، الإلزام بالقانون و الوحدة
٥. صور خيال در نهج-البلاغه صور الخيال في نهج-البلاغة	رسالة ماجستير	١٣٦٩ الشمسي	شيراز	المنهج الأدبي و البلاغي	

٦. شرح لغات غريب نهج‌البلاغه، بخش نامه-هاي امام علي به معاويه شرح الكلمات الغريبة في نهج البلاغة، قسم رسائل الإمام الى معاوية	رسالة ماجستير	١٣٧٢ الشمسي	إصفهان	المنهج اللغوي، الوصفي و التحليلي	
٧. نهج البلاغه از منظر علم معاني نهج‌البلاغة في ضوء علم المعاني	رسالة ماجستير	١٣٨٩ الشمسي	كلية علوم الحديث في قم	يبدو انه هو المنهج الأدبي و البلاغي و الوصفي و التحليلي	
٨. اسلام و ايمان در نهج‌البلاغه الإسلام و الإيمان في نهج‌البلاغة	رسالة ماجستير		قم	يبدو المنهج الوصفي و التحليلي	
٩. بررسي عوامل مؤثر در حيات و ممات قلب از ديدگاه نهج-البلاغه دراسة المؤثرات في حيات و موت الفؤاد في نهج البلاغة	رسالة ماجستير	١٣٨٦ الشمسي	كلية علوم الحديث في قم	يبدو انه هو المنهج العلمي و الوصفي و التحليلي	
١٠. اصلاح فرهنگ عمومي از منظر نهج-البلاغة تعديل الثقافة العامّة في نهج‌البلاغة	رسالة ماجستير	١٣٨٦ الشمسي	كلية علوم الحديث في طهران	يبدو الوصفي و التحليلي	
١١. جامعه مطلوب در نهج‌البلاغه المجتمع الفاضل في نهج‌البلاغة	رسالة ماجستير		كلية علوم الحديث في قم	يبدو المنهج الوصفي و التحليلي	
١٢. آسيب‌شناسي رفتار كارگزاران با مردم از ديدگاه نهج البلاغه باثولوجيا سلوك العمّال مع الناس في نهج‌البلاغة	رسالة ماجستير	١٣٨٩ الشمسي	كلية علوم الحديث في طهران	يبدو المنهج الوصفي و التحليلي	
١٣. اخلاص و ريا از ديدگاه قرآن و نهج-البلاغه الإخلاص و الرئاء في القرآن و نهج‌البلاغة	رسالة ماجستير	١٣٨٩ الشمسي	جامعة شيراز	يبدو المنهج الوصفي و التحليلي	
١٤. توحيد ذاتي و صفاتي در نهج البلاغه توحيدالذات و الصفات في نهج‌البلاغة	رسالة ماجستير	١٣٧٦ الشمسي	جامعة الفردوسي بمشهد	يبدو المنهج العلمي	

١٥. تفسيرپذيري كتاب و سنت از ديدگاه امير مؤمنان (ع) در نهج البلاغه تفسير الكتاب و السنة من وجهة نظرعلي عليه السلام في نهج‌البلاغة	رسالة ماجستير	١٣٨٦ الشمسي	جامعة الإمام الصادق	يبدو انه هو المنهج الوصفي و التحليلي	
١٦. تصوير و تمثيل در نهج‌البلاغه التصوير و التمثيل في نهج‌البلاغة	رسالة ماجستير	١٣٧٦ الشمسي	جامعة شيراز	يبدو انه هو المنهج الوصفي و التحليلي	
١٧. امثال و حكم نهج البلاغه الأمثال و الحكم في نهج‌البلاغة	رسالة ماجستير	١٣٧٦ الشمسي	تربيت مدرس	يبدو انه هو المنهج اللغوي	
١٨. خردگرايي در نهج‌البلاغه العقلانية في نهج‌البلاغة	رسالة ماجستير	١٣٧٨ الشمسي	جامعة الإمام الصادق	يبدو انه هو المنهج العلمي و الوصفي	
١٩. ملاك‌هاي انتخاب و انتصاب نيروي انساني در مديريت اسلامي با تأكيد بر نهج‌البلاغه معايير الإختيار و إنتصاب العمال للإدارة الإسلامية في نهج-البلاغة	رسالة ماجستير	١٣٧٨ الشمسي	جامعة الإمام الصادق	يبدو انه هو المنهج الوصفي و التحليلي	
٢٠. دعا در قرآن و نهج البلاغه الدعاء في القرآن و نهج البلاغة	رسالة ماجستير		يبدو أن المنهج هو اللغوي، المنهج العلمي، دراسة مقارنة و موازنة في المعنى و المضمون		ما هي محتوى الدعاءات القرآنية؟ كيف يعلّم القرآن الدعاءَ؟

اختيرت هذه الدراسات في مرحلة الماجستير من الجامعات الإيرانية بما فيهم: الفردوسي بمشهد؛ علوم الحديث بقم و طهران، الأمام الصادق، تربيت مدرس، اصفهان، العلامة طباطبائي، الجامعة الحرة وحدة أراك.
تكون هذه من سنة ١٣٧٣ الشمسية حتى ١٣٨٩.
إن الدراسات العشرين والتي اختيرت عشوائيا في مختلف المجالات العلمية و الأدبية تدل علي أن عدد قليل من الباحثين خطوا خطوات علمية من كتابة أبحاثهم ورسائلهم الجامعية. فالملخصات تعاني من ضعف البناء و الكتابة حيث لابدّ أن يتضمن المنهج وبعض النتائج والمسألة التي تهدف المقالة لتبيينها و توضيحها أو حلها فإن الغالبية تشتمل فصول البحث.
كما أن الفصول ترزح تحت نير الإطالة وذكر الموضوعات الهامشية دون القضايا الأساسية المتصلة بصلب البحث.
ثم ان الدراسات متنوعة وهي تتمحور حول الموضوعات المختلفة مثل: الأدب واللغة (صور الخيال، علم‌المعاني، امثال وحكم، لغات غريبة، التصوير و التمثيل)؛ السياسة (التربية السياسية،سلوك العمال مع الناس، الجهاد)؛ الدين (توحيد الذات والصفات، الاسلام والإيمان، التفسير، الالهيات بالمعنى الأخص، الأحكام)؛ الأخلاق (الموت والحياة، الإخلاص والرياء،

الدعاء)؛ علم الإجتماع (تعديل الثقافة العامة، المجتمع الفاضل)؛ الفلسفة (العقلانية) وعلم الإدارة (معايير اختيار العمال).

قائمة المصادر والمراجع

– أسد، أيمن حاج، ٢٠٠٥م، علم التحقيق؛ الفيلولوجيا الاستشراقية والنقد المعاصر www.Almultaka.net

– التونجی، محمد، ١٩٩٣م؛ المعجم المفصل فی الأدب، ج١، دارالكتب العلمية، بيروت

– حافظ نيا، محمدرضا، ١٣٧٧هـ‌ش؛ مقدمه ای بر روش تحقيق در علوم انسانی (مقدمة فی منهج البحث فی العلوم الإنسانية)، سمت، طهران.

– الشريف، عبدالله محمد ١٩٩٦م؛ مناهج البحث العلمی، ط١، مكتبة الشعاع للطباعة و النشر و التوزيع، اسكندرية، مصر.

– نادری، عزت‌الله و مريم سيف نراقی، ١٣٨٠هـ‌ش؛ روشهای تحقيق و چگونگی ارزيابی آن در علوم انسانی (مناهج التحقيق و كيفية تقويمها فی العلوم الإنسانية) ط٢، بدر، طهران.

ملامح المنهج التربوي عند الإمام علي (عليه السلام)

الشيخ الدكتور: جون حنون علي العتابي (كلية الشيخ الطوسي الجامعة)

مقدمة

إن تراث أهل البيت (عليهم السلام) مدرسة جامعة لشتى فروع المعرفة الإنسانية، وقد قدم هذا التراث المعرفي الأجوبة والحلول على مدى القرون المتتالية لمشاكل الإنسان والحياة في مختلف المجالات، ومن أهم الموضوعات التي احتواها هذا التراث هو المنهج التربوي و النفسي الذي تأطر برؤية واقعية تستند إلى فهم الطبيعة البشرية و خوالج النفوس المؤثرة فيها سلباً وإيجابا.
وللإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) الريادة في هذا الباب بسبب ذلك الثراء والارتباط المباشر بمصدر الأحكام والرؤى الواقعية، أعني بذلك القران الكريم ومدرسة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) لقد حاول علماء التربية وعلماء النفس ان يجدوا أفضل السبل الموصلة الى أكمل النتائج في دراساتهم وتجاربهم في مضمار التربية والتعليم وقواعد السلوك الاجتماعي، غير اننا نجد اختلافاً كبيراً في النتائج، وبمقدار هذا الاختلاف والتعدد للنظريات التربوية والنفسية فقد أمست فيما بعد تعبر عن مدارس لها مناهجها وتصوراتها ورؤاها.
وإزاء ذلك يقف منهج أمير المؤمنين (عليه السلام) إذ يرى أن التربية لابد لها من أساس عقيدي، ونبع تغترف منه يعين المربين على سلوك الطريق المستقيم، ومصدر تهتدي به لتحدد أهدافها وتعيَّن وسائل الوصول إلى هذه الأهداف، وغني عن البيان ان هذا الأساس العقيدي، وذلك النبع الفياض والمصدر الملهم قائم في كتاب الله عز وجل وسنة الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) يضاف إلى ذلك فان خبرة الحياة وحركة الدنيا مصدر هام لابد من حسن التعامل معه.
هذه هي الأطر المؤثرة في العملية التربوية بشكلها العام التي حددها الإمام علي (عليه السلام)، وفي ضوء هذه الأفكار تدور محاور البحث.
...ومن الله نستمد العون والسداد....
الباحث

تمهيد

إن الناظر إلى الواقع المعاصر لأغلب المجتمعات الإسلامية، لابد أن تفزعه الصورة التي أصبحت عليها من التخلف العلمي والحضاري،وليس من المعقول بأي حالٍ من الأحوال أن تجتمع بين أيدينا تلك الثروة الفكرية العظيمة من كتاب وسنة وأعمال فكرية وتراث علمي كبير وجدناها في كتاب نهج البلاغة وكلمات وأقوال الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، دون أن تستنهضنا لتجاوز واقعنا المعاصر بكل ما يحمله من مرارة،وبالتأمل في قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)[1] نجد أن الإسلام حاول أن يضع للإنسان منهجاً تربوياً تغييرياً يُشعره فيه بالمسؤولية العامة عن حياة الإنسان من خلال مفاهيم ورؤى الشريعة الواسعة الممتدة في كل مجالات الحياة.
إن المنطق يدعونا للاستجابة والاقتناع بالعودة إلى التراث والايدولوجيا الإسلامية، ومن أهم معالمه ذلك الوعي والمنهج التربوي العميق الذي احتوته الرسالة المنقذة الخالدة وحدد معالمه الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام)، وفي طليعتهم الإمام علي (عليه السلام).
ولا بد قبل الشروع ببحث ذلك من الوقوف على أهم مميزات النظام التربوي الإسلامي.

---

١ . سورة الرعد، ١١.

مميزات النظام التربوي الإسلامي:

تمتاز التربية في الإسلام بأنها ذات حس ديني معنوي، وهي تتفوق على غيرها من ضروب التربية الأرضية البعيدة عن إشعاع السماء من حيث علاقتها بالعالم الغيبي وواقعيتها لتجاوبها مع الفطرة البشرية، وطبيعتها العلمية من حيث إنها – من وجهة نظر الإسلام – سلوك عملي ملموس قبل أن تكون نظرية مسطورة في الكتب، وتمتاز كذلك بدعوتها إلى الأخلاق الرفيعة.. فهي تمتاز بنقاوة مفرداتها من شوائب الأفكار الدخيلة والوافدة،هذا والإسلام يؤمن بان التربية تلازم كل المجالات الحياتية المتنوعة ولا تنفك عنها بأي حال من الأحوال، وهذه سمة تفضي إلى تفوق النظام التربوي في الإسلام على غيره من النظم[1].

لقد اهتم الإسلام بالتربية بدرجة أن قدمها على التعليم، مع عدم تغافله عن أهميته، فقد قال تعالى: «**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**»[2]، فالإسلام يؤكد على التربية اولاً ثم التعليم، لأن البعد التربوي في المجتمع بدائرته الوسيعة أهم من البعد التعليمي.

إن النظام الفكري الإسلامي لا يشبه الأنظمة الأخرى، ذلك انه ليس نظاماً هجيناً ترقيعياً فهو ذو بعد تربوي بميزات معينة، فلا الفرد وحده هو المحور ولا المجتمع، وللحرية فيه معنى منسجم مع الحس الإنساني الرفيع، وفي رحاب الحرية نفسها يكون الفرد مكلفاً مسؤولاً وتضمن مصالحه عندما لا تتزاحم مع المصالح الاجتماعية العامة على نحو من التنازع أو التعارض.

وتمتاز التربية الإسلامية بأنها صالحة للتطبيق على جميع أفراد النوع الإنساني لكمالها المطلق وشموليتها في معالجة الشخصية الإنسانية، بخلاف تلك النظريات التي غالباً ما تكون مبتورة، فالتربية الإلهية بما تتصف به من الكمال وعدم تأثرها بعامل الزمان والمكان تنسجم مع طبيعة الإنسان وحاجاته بمقدار الحاجة والضرورة مثلما تراعي البعد المعنوي فيه[3].

أهداف التربية في الإسلام:

١- الإيمان:

في مقدمة قواعد التربية التي رسمها الإسلام أن توجد عملياتها التربوية القدوة الحسنة والمثل الأعلى للخير والصلاح[4].

ولا يتم إيجاد هذه القدوة الحسنة في المجتمع إلا من خلال الإيمان العملي، فإذا كان الإيمان بالله يضع أيدينا على معرفة المصدر الأول الذي صدر عنه الوجود الممكن، والإيمان باليوم الآخر يحقق المعرفة بمصير الوجود ويضع أيدينا على النهاية التي ينتهي إليها الكون، فأن الإيمان وحده لا يكفي لتحقيق الارتباط بالله سبحانه بصيغته الصالحة، لأن ذلك يرتبط بطريقة إشباع فطرة الإنسان وأسلوب الاستفادة منها كما هي الحال في كل طاقات الإنسان وقواه واستعداداته الفطرية، فان التصرف السليم في إشباعها هو الذي يحقق المصلحة النهائية للإنسان، كما أن السلوك على وفق الفطرة أو ضدها هو الذي ينمي تلك الفطرة ويعمقها أو يضمرها ويخنقها، ومن هنا كان لابد للإيمان بالله والشعور العميق بالتطلع نحو الغيب والانشداد المطلق إليه من توجيه يحدد طريقة إشباع هذا الشعور، ومن سلوك عملي يرسخه ويعمقه على نحو يتناسب مع سائر المشاعر الأصيلة للإنسان، وبدون توجيه قد ينقلب هذا الشعور ويمنى بألوان الانحراف كما وقع ذلك بالنسبة إلى الشعور الديني غير الموجه في أكثر مراحل التاريخ، وبدون سلوك

---

١ . الدكتور علي شريعتمداري، التربية والتعليم في الإسلام، ترجمة علي هاشم،نشر مجمع البحوث الإسلامية، مشهد ١٤١٥ ه، ص٦.
٢ . سورة آل عمران / ١٦٤.
٣ . التربية والتعليم في الإسلام، ص٤١.
٤ . باقر شريف القرشي، النظام التربوي في الإسلام،بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ١٩٩٧، ص٨٣.

موجه ومعمق قد يزول هذا الشعور ولا يعود الارتباط بالله والإيمان بهِ حقيقة فاعلة في حياة الإنسان وقادرة على تفجير طاقاته وإمكاناته الصالحة[1].

إن الإيمان بالله هو الهدف التربوي الأساس للرسالة الإسلامية، قال تعالى «**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**».[2]

فالإيمان بالله يحول دون انحراف الفرد والجماعة بنحو يبعث على الاطمئنان والابتعاد عن الظلم والهوى والنزوات الزائفة والروح الأنانية.

٢- التقوى:

التقوى هدف تربوي جوهري، وهي حالة وقائية يكون فيها الإنسان مسيطراً على نزواته وأهوائه النفسانية مبعدا نفسه عن كل ما لا يليق بإنسانيته قال تعالى «**أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ**».[3]

إن النظام التربوي الإسلامي لا ينظر في تمييزه للإفراد على أساس الفوارق المادية والعرقية والمهنية التي ابتدعها الإنسان، بل على أسس وموازين حددتها السماء، قال تعالى «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**».[4]

فالتقوى والقرب من الله هي الميزان في منظور الإسلام، وهي التطبيق العملي لروح الإيمان والزاد المصحوب الذي لا ينفد، قال تعالى: «**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**».[5]

يقول الإمام علي (عليه السلام): (فان التقوى مفتاح سداد وذخيرة معاد وعتق من كل ملكة ونجاة من كل هلكة بها ينجح الطالب وينجو الهارب وتنال الرغائب)[6]، ويوصي الناس فيقول:

(أوصيكم عباد الله بتقوى الله فإنها الزمام والقوام، فتمسكوا بوثاقها، واعتصموا بحقائقها، توَّل بكم إلى اكنان الدّعة وأركان السّعة، ومعاقل الحرز، ومنازل العز).[7]

ويقول (عليه السلام) في خطبة أخرى (فان تقوى الله دواء داءِ قلوبكم، وبَصرُ عمى أفئدتكم، وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فسادِ صدوركم، وطهور دنسَ أنفسكم، وجلاء عشا أبصاركم)[8].

أبصاركم)[8].

وهكذا فان من شأن الإيمان بالله وتقواه أن يوصلا الإنسان إلى حالة الكمال والإيمان بالحياة الأخرى، وهكذا يحدد النظام التربوي الإسلامي مسارات الفرد ليجعله فاعلاً في حياته الدنيا غير منقطع عن حياته الأبدية الآخرة بجعل الأولى مقدمة لها، لا كما عليه المناهج والأنظمة التربوية العلمانية التي تحدد حياة الإنسان في المسافة الواقعة بين الإخصاب والموت، فان الحياة المؤقتة لا تتلاءم مع العقل والطموح نحو الكمال في الإنسان، وكذلك فإنها لا تتماشى مع أهدافه الأخلاقية والمعنوية بالنسبة إلى الآخرين والى خالق الكون.

إن القول بالحياة المؤقتة يقلص من حافز السعي لدى الإنسان ويصور له الحياة حالة من العبثية ويجعله يشعر بالقلق وعدم الثبات، وحالة التراخي وضعف الأمل، في حين يدعو الإمام علي (عليه السلام) الإنسان قائلاً: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً)[9].

---

١ . محمد باقر الصدر: موجز في أصول الدين، مطابع صوت الخليج، د.ت، ص٨٨.
٢ . الذاريات / ٥٦.
٣ . التوبة / ١٠٩.
٤ . الحجرات / ١٣.
٥ . البقرة / ١٩٧.
٦ . نهج البلاغة، خطبة ٢٢٨.
٧ . نهج البلاغة، خطبة ١٩٣.
٨ . في ظلال نهج البلاغة ج٣ ص٢.
٩ . في ظلال نهج البلاغة ج٣ ص١٢٨.

أما الإيمان بعالم الغيب والاعتقاد بان وجودنا من الله تعالى، وأننا كادحون إليه فملاقوه، فهذا يهب حياة الإنسان حركتها ويمنحها صفتها السرمدية الخالدة، قال تعالى:«**يَأَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ**»[1] ، وفي ظل هذا التوجه يصبح للحياة الإنسانية معنى وغاية يحفزان الإنسان نحو الجد والسعي لبلوغ حالة الكمال.

٣- الدعوةإلى العدل:

العدل من الدعائم الأصيلة للحياة الإنسانية، والمجتمع الذي يسوده الظلم والإجحاف هو مجتمع تنعدم فيه الإنسانية، وهو احد أهم المبادئ التي قام عليها الإسلام. ولذا فان أرقى مهمة رفع شعارها الأنبياء هي العمل على تربية المجتمعات البشرية وإنقاذ الناس من الجهل والظلم والاستبداد.

والعمل على إصلاح النوع الإنساني – أفراداً ومجتمعات – على ضوء ما استفادوه من الهدي الإلهي.

قال تعالى: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ.....»[2].

بِالْقِسْطِ.....»[2].

ويقول تعالى: «**وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**»[3] إن إرساء قواعد ومفاهيم العدالة في في المجتمعات من الأهداف التي احتواها المنهج التربوي الإسلامي،من اجل خلق مجتمع يرفض مهادنة الباطل على حساب الحق، ويهدف إلى صيانة الحقوق الاجتماعية على أسس ومقاييس حقيقية.

وفي كلام الإمام علي (عليه السلام) حول العدل يمكن استنتاج مفهوم كامل وتعريف شامل للعدالة منه، وهو: (انه سُئل (عليه السلام)، أيهما أفضل: العدل أم الجود ؟ فقال (عليه السلام): العدلُ يضعُ الأمور مواضعها، والجودُ يُخرجها عن جهتها، والعدل سائس عام،والجودُ عارض خاص، فالعدلُ أشرفهما وأفضلهما)[4]، وهذا ينطبق على التعريف المشهور للعدل وهو «وضع كل شيء فيما وضع له».[5]

ولعل أهم مقومات العدل في المجتمع هو الحاكم العادل،مهما كان هذا الحاكم، قال تعالى: « يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ»[6] وقد حدد الإمام علي (عليه السلام) صورة الحاكم وصفاته فقال: (وقد علمتم انه لا ينبغي ان يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام، وإمامة المسلمين البخيل، فتكون في أموالهم نُهمتُهُ،ولا الجاهل فيضلهم بجهلهِ، ولا الجافي فيقطعهم بجفائهِ والحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق، ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطّل للسَّنة فيهُلك الأمة)[7].

٤- الحرية:

يرى أمير المؤمنين (عليه السلام) إن الحرية قضية أصيلة في حياة الإنسان، يقول: (لا تكن عبد غيرك وقد خلقك الله حراً)، إذ لا يمكن للإنسان أن يمتلك ويستمتع بحياته وثمرات عمله ما دام يرزح تحت نير العبودية على مختلف مفاهيمها.والحرية في المنظور الإسلامي حرية مقيدة بقيود عدة من أبرزها إنها لا تتعارض مع المصالح العامة ولا تتجاوز الأحكام الشرعية

---

١ . سورة الانشقاق: ٦.
٢ . سورة الحديد /٢٥.
٣ . سورة النساء / ٥٦.
٤ . نهج البلاغة – الخطبة ١٦٤.
٥ . خليل رزق، مجتمع العدالة في نهج البلاغة، بيروت، دار الولاء، ٢٠٠١، ص١٧.
٦ . سورة ص٢٦.
٧ . نهج البلاغة: الكتاب ١٤٦.

والقواعد الاجتماعية العامة،ومن ثم فهي فضاء إنساني لا إفراط فيه ولا تفريط يعطي الإنسان القدرة على الخلق والإبداع.

مبادئ المنهج التربوي عند الإمام علي (ع):

إن الإمام (عليه السلام) وهو أب ومربي هذه الأمة بعد الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) قد نظر إلى أفضل الطرق والوسائل التي تنمي حياة المجتمع الإسلامي وترتفع بها إلى ذروة الرفاهية والوفرة والأمن، فأوضح وبين أهم مبادئ وقواعد التربية من خلال خطبه وكتبه وحكمه القصيرة، ومن يتتبع تراثه العظيم يستطيع ان يلمس ملامح هذا المنهج وتشخيص تلك المبادئ التي يمكن لنا ان نحددها بالأبعاد الآتية، لنشكل منها الأسس التي شخصها الإمام (عليه السلام):

١-البعدالعقلي:

إن العقل هو احد أهم مرتكزات العملية التربوية، وقد أبرزته النصوص الدينية الإسلامية بكل وضوح ودعمته بشكل كبير.

يقول الإمام علي(عليه السلام): (كفاك من عقلك ما أوضح لك سبل غيِّك مِن رُشدك)[١] فالعقل هو الدليل إلى الغي والى الرشاد في الوقت نفسه، ويقول (عليه السلام) (العقلُ حسام قاطع)[٢].

إن قابلية الإنسان على الإدراك وتمييز الأشياء، وعقد المفارقات والتنبؤ والتوقع تدخل ضمن دائرة البعد العقلي.بل ان إنسانية الإنسان مرتبطة بقدرته العقلية فيشخص مشاكله، ويحدد المثل والقيم، ويحسن علاقاته مع الآخرين، لذا فكل نظام يعتمد العقل يستطيع أن يخطو خطوات أفضل على طريق الرقي والتطور الإنساني ومن ثم فان قابليات الفرد منوطة بقدرته العقلية ومستوى الذكاء لديه، وكذلك فان تقدم وتطور أي مجتمع منوط بانتهاجه المذهب العقلي، وتأثير عقلائه ونفوذهم فيه.

إن العقل الذي نعنيه ليس فقط العقل في حدوده المعرفية الضيقة، إنما العقل المقصود هو العقل الاستدلالي الذي لا يقبل الفكرة دون بحث ولا يؤمن بعقيدة ما لم يكن لها برهان، ليكون هذا العقل الواعي ضماناً للحرية الفكرية وعاصماً للإنسان من التفريط فيها بدافع التقليد أو التعصب أو الركون الى الخرافة، وفي الواقع ان هذا جزء من معركة الإسلام لتحرير المحتوى الداخلي للإنسان، فهو كما حرر الإرادة الإنسانية من عبودية الشهوات كذلك حرر الوعي الإنساني من عبودية التقليد، وبهذا وذاك أصبحَ حراً في تفكيره وحراً في إراداته.[٣]

ولذا نجد الإمام أمير المؤمنين يصف العقل بأنه ولادة إنسانية تكوينية وهبها الله تعالى للإنسان ليضفي عليه إنسانيته. فيقول (عليه السلام): (العقلُ ولادة، والعلمُ إفادة)[٤]، ثم يقول مشيراً إلى حالة التأثر بالوسط الجاهل: (مَنْ صحبَ جاهلاً نقصَ عقلهُ)[٥].

والنقطة المهمة هنا هي طبيعة العلاقة القائمة بين الدين والعقل، حيث يشكل الدين ركيزة أمينة للعقل، وهو الذي يحدُّ من انحرافاته، ويوجههُ في طريق المجتمع وصلاحه[٦].

١- البعد الفطري:

---

١ . نهج البلاغة: حكمة ٤١٥.
٢ . نهج البلاغة: حكمة ٤٢٤.
٣ . محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، بيروت، دار الزهراء، ١٩٥٨ ص١٢٦.
٤ . النهج البلاغة: حكمة ٢٥٨.
٥ . النهج: قصار الحكم
٦ . التربية والتعليم في الاسلام، مصدر سابق،ص٧٤.

لقد أبان الإمام (عليه السلام) ركيزتين أساسيتن لا قيام للتربية بدونهما: الفطرة الإنسانية اولاً وثانياً الميل الفطري لدى الإنسان إلى التقليد، والتربية عملية إنسانية بالدرجة الأولى، حيث خلق الله الإنسان قادراً على التعلم قابلاً بحكم ما في فطرته من مرونة وقدرة على التكيف.
والفطرة هي النية السليمة والنفس الصافية، مما يزرع الخير ويثمر الفضائل، أما غلبات الهوى وفتن الدنيا فتزرع الشرور[١].

وقد اجمع الباحثون والمحققون على ان للتربية في سن الطفولة دور كبير في بناء شخصية الإنسان وتكوين صفاته، لأنها كالأرض الخالية كما وصفها الإمام (عليه السلام) في وصيته لولده الإمام الحسن (عليه السلام) إذ يقول: «أيّ بني إني بادرت بوصيتي إليك، وأوردت خصالاً منها قبل ان يسبقني إليك بعض غلبات الهوى، وفتن الدنيا، فتكون كالصعب النفور، وإنما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقي فيها من شيء قبلته، فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لُبك، فما طاب سقيه طاب غرسه وحلت ثمرته، وما خبث سقيه خبثَ غرسهُ، وأمرت ثمرتهُ»[٢].

وفي هذه العبارات الخالدة يشخص الإمام (عليه السلام) حالة التزاحم بين الخير والشر على عقل الحدث، فان دخل الخير اولاً استقر وإن سبق الشر سيطر على حركات الانسان وأفعاله، ثم يصعب بعد ذلك ترويضه وتقويمه وأعادته الى الخير، ويصبح حينئذ كالفرس النفور الذي لا يقبل الترويض.
ويحدد الإمام عمق الصورة التربوية الحقيقية في المنظومة التربوية- التعليمية – حين يدعو إلى التبكير في طلب العلم والتأدب،في حكمته المشهورة: (التعلم في الصغر كالنقش في الحجر)، ويقول (عليه السلام): (فبادروا العلمَ قبل تصويح نبته ومن قبل أن تُشغلوا بأنفسكم عن مستثار لعلم من عندِ أهله)[٣] (وتصويح نبته) بمعنى يباس شجرة العلم والعبارة تحتمل معنيين:

أ - إن شجرة العلم في داخل الانسان تذوي وتيبس بمعنى إن قوى الإنسان الإدراكية تتجه نحو الركود، أو إن قواه تنشغل بأمور أخرى غير التعلم.
ب - أن يراد ركود العلم وفتور الحركة العلمية بموت العالم (المربي)[٤]

ثم أن الإمام (عليه السلام) يلحظ الجانب التكويني والصفات والمؤهلات للفرد ويعدها احد أهم الأسباب المؤثرة في الجانب العلمي والتربوي.. يقول في وصيته لصاحبه كميل بن زياد: (إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها.)[٥]

٣– البعد العاطفي:
إن حالات الخوف والغضب والكراهية والسرور والحزن، تدخل في دائرة هذا البعد من شخصية الإنسان، ولهذا البعد أهمية كبيرة لأسباب عدة، ذلك انه بعد معقد جداً لما له من أرضية فسيولوجية وصلة حميمة مع الأرضية الاجتماعية، كما إن العواطف تدفع الإنسان نحو الجد والسعي بوصفها محفزات قوية والعكس صحيح.
وهنا تكمن مهمة المربي في تعليم المتعلم كيفية التعبير عن عواطفه والتحكم بها بوصفها محفزات قوية تطبع علاقات الناس فيما بينهم سلبا وإيجاباً.
ولذا فان باستطاعة المربي مدّ جسور المودة والألفة وخلق الأجواء المناسبة في داخل حلقات العلم والاجتماع، ومن ثم يمهد السبل للاتصال والإرشاد والنصح، ولذا ورد في مجالسة العلماء

---

١ . الدكتور عباس نصر الله، جمهورية الحكمة في نهج البلاغة، بيروت، دار القارئ، ٢٠٠٦م، ص٢٠٢.
٢ . نهج البلاغة، الرسالة ٣١.
٣ . نهج البلاغة: خطبة ١٠٥.
٤ . عبد المجيد زهادت، التربية والتعليم في نهج البلاغة، ترجمة الشيخ حسن النمر، مؤسسة أم القرى للتحقيق، ٢٠٠٥، ص ٤١.
٥ . نهج البلاغة: الكتاب ٥٣.

قول الإمام علي (عليه السلام): (مَن جالس العلماء وقر ومن خالط الأنذال حُقر).[1]

٤- البعد الاجتماعي:

يحظى البعد الاجتماعي لشخصية الإنسان، بأهمية خاصة كونه كائن اجتماعي بالطبع، فان إنسانيته تبع لهذا البعد في حياته إلى حد بعيد، ذلك أن اغلب انفعالات الإنسان وتوجهاته يخلقها الواقع الاجتماعي، أو لا اقل يكون له دور كبير فيها.

وقد نظر الإمام علي (عليه السلام) في التراث الحضاري للمجتمعات وركز على عاملين ثابتين في طبيعة الحركة البشرية وطبيعة الحياة على الأرض:

الأول: عامل التغيير والتقلب في الحياة: فالحياة بما هي حركة،وبما هي تفاعل وطاقات وقوى تتفاعل وتتكامل، فهي في حالة صيرورة دائمة لا تستقر على حال ولا تثبت على وتيرة واحدة.

الثاني: عامل الزمن،وهو الحاكم على الموجودات الأرضية بالتبدل والتغير والزوال وقد أدرك الانسان بعقله الوجه المأساوي لعمل هذين العاملين في الوجود، ووعيه لهذين العاملين يجعله قادراً على مواجهة الحياة ومباهجها المؤقتة.[2]

ومن خلال هذين العاملين تتبدل ثقافة وحضارة المجتمعات الإنسانية، وتمتد تأثيرات السابق إلى اللاحق منها، سلباً أو إيجابا. والذي يطالع كلام الإمام (عليه السلام) يلمس مدى الوعي بالدور الذي يجب أن يقوم به المربي من نقل لخبرات وتجارب الآخرين إلى الأجيال الجديدة، لا لنستوعبها كما هي، وإنما لتنتقي وتختار منها ما يعينها على سلامة المسير وعمق الفهم وسعة الإحاطة بقوله لولده الإمام الحسن (عليه السلام): (أي بني، إني وان لم أكن عمرتُ عمرَ من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم وفكرت في أخبارهم وسرتُ في آثارهم حتى عدتُ كأحدهم بل كأني بما انتهى إلى من أمورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره ونفعه من ضرره فاستخلصت لك من كل شيء أمر نخيله وتوخيت لك جميله، وصرفت عنك مجهولة، ورأيت حيث عناني من أمرك ما يعني الوالد الشفيق، وأجمعت عليه من أدبك إن يكون ذلك وأنت مقبل العمر و مقتبل الدهر ذو نية سليمة ونفس صافيه)[3].

والإمام هنا مدرك لأهمية النظر في تجارب الماضيين والمعاصرين وفي تجارب الإنسان نفسه، إذ يوصله هذا الوعي التراكمي لديه إلى معرفة القيم الكامنة والخطأ والصواب.

فللتجارب دور أساسي في تأصيل المفاهيم والقيم والأعراف المطلوبة.[4] يقول (عليه السلام): (العقلُ غريزة تربيها التجارب)[5] ويقول: (العاقل من وعظته التجارب)[6] ويقول: (في التجارب علم مستأنف، والاعتبار يفيدك الرشاد).[7]

٥- البعد العلمي والتطبيقي:

حرص الإمام (عليه السلام) على أن يوثق الصلة بين التربية النظرية والتربية التطبيقية ببيان أهمية العمل بما نعلم، ويظهر هذا فيما ورد بقوله: (الدنيا كلها جهل إلا مواضع العلم، والعلم كله حجة إلا ما عمل بهِ، والعمل كلهُ رياء إلا ما كان مخلصاً، والإخلاص على خطر حتى ينظر العبد بما يختم به).[8]

---

١ . محمد مهدي شمس الدين، حركة التاريخ عند الإمام علي (ع)، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٨٥، ص٤٣.
٢ . م.ن، ص٤٤.
٣ . نهج البلاغة: خطبة ٢٩٠.
٤ . سعيد كاظم العذاري، المنهج التربوي عند اهل البيت. قم، مطبعة ليلى، ١٤٢٧ هـ ص٢٠.
٥ . شرح نهج البلاغة ٢٠: ٣١٤.
٦ . تصنيف غرر الحكم: ٤٤٤.
٧ . شرح نهج البلاغة: ٢٠/ ٢٥٩.
٨ . النهج حكمة ٣٦٦.

أما الأثر الذي يتركه المربي والإمام في الناس فيعود الى شخص المربي بمقدار تطبيقه لعلمه يكون أثره في الآخرين، والإمام هنا يؤكد هذهِ القضية بقوله (عليه السلام): (من نصب نفسه اماما للناس فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه،ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم).[1]

أما المنهج العلمي فقد وضحه الإمام بالعلم النافع بقوله: (وقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم).[2]

وفي هذا بيان لعمق الخطورة التي تحيق بالإنسان من أول سنوات عمره وشبابه وعشوائية ما يكتسبه مما يحيط به، فحين اخبره والد الفرزدق بان ولده الفرزدق شاعرا يجيد قول الشعر فأمره الإمام بتعليمه القرآن إشارة منه إلى تعليمه العلم النافع المفيد،وهذا ما تؤكده أعمق النظريات الحديثة والمعاصرة في علم النفس التربوي والاجتماعي، وهو ما يجب أن ينتفع من مغزاه الثر في تهيئة استراتيجيات المؤسسات الثقافية والتربوية لبناء الخطط والمناهج التربوية الصحيحة.

والحمد لله رب العالمين.

---

١ . نهج البلاغة،ص٤٨٠.

٢ . نهج البلاغة: خطبة ١٩٣.

اثر المفاهيم نهج البلاغة الاخلاقية في الادب الفارسي

المدرس المساعد سيد محمد رضي مصطفوي نيا (المدرس المساعد رسول دهقان ضاد)

لاشك ان نهج البلاغه على قمة الادب العربي وذالك باعتراف كل من سرح ويسرح عيونه بين سطوره ومنذ جمعه الشريف الرضي، قد مال الىه الشعراء والادباء والعلما ء لكي يشرب من منهله قدرعطشهم سواءا مسلما او غير مسلم، عربيا او عجميا... وهذا الشرب قد يكون على شكل الاقتباس وقد يكون بصورة استخدام المفاهيم من نهج البلاغة.
والمقالة هذه تدارس تاثير مفاهيم كلام الامام (عليه السلام) على الادب الفارسي في مجال الشعرمن شعر اول شاعر ايراني – رودكي – الى شهريار.
جدير بالذكر اننا لانجد شاعرا فارسيا الا وقد استفاد من مفاهيم كلامه (عليه السلام)خاصة في مجال الحكمة و الموعظة وفي هذا المسار اكثرهم اوردوا مستخلص كلامه(عليه السلام) اي انهم مالوا الى تعجين كلام الامام بابياتهم .
تطرقنا في دراستنا على ذكر مقتطفات من كلام الامام (عليه السلام) حول موضوعات حكمية نحو:الكذب، الصدق، التواضع، الكبر، الوفاء، الصبر، القناعة، الزهد و...ثم استشهدنا باشعارالفارسيين واثبتنا ان السبب الرئيسي الى حياكة مفاهيم نهج البلاغة بكلامهم لايكون الا مذهبهم التشيع وان كان هناك اسباب اخري.
الكلمات الرئيسة: الحكمة، الشعر، الشعراء، التاثير، الايرانيون .

المقدمة

إنّ نهج البلاغة مجموعة ثمينة من دُرَر كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) وقد جمعه الشريف الرضي سنة ٤٠٠للهجرة ولاشك أنه بحر العلم والمعرفة وينبوع الفصاحة والبلاغة وقد مالت الىه عيون الأدباء والعلماء من أي فرقة وشعب.
وهو كتاب يعرف بأخ القرآن الذي قد قرأه الجمهور وأخذوا من معارفه القيمة وذابوا في شخصية الإمام(عليه السلام) فصاروا متعجّبين من بيانه وعلمه و....والحق، أنّ التكلم عن الإمام(عليه السلام) وكلامه أمر صعب بل غير ممكن إذ ذلك يتطلب أن يكون المتكلم معصوما إذ المعصوم يعرف مكانة المعصوم وحقه، ولكن هذا لايعني ألا نغوص ونعمق في نهج البلاغة قدر مستوي عقولنا وفهمنا .
وجدير بنا أن نقتطف من كلام ابن ابي الحديد حيث قال إن كتابه (عليه السلام) وكلامه (عليه السلام) يتضمّن عجائب البلاغة ونفائس الفصاحة ويحوي مفاهيم ثمينة حول الدين والدنيا وهذه الميزات لم تجمع في كتاب غير نهج البلاغة لإن الإمام(عليه السلام) منشأ البلاغة وأصل الفصاحة فكل بليغ استنجد من ينابيع كلامه وكل واعظ استفاد من قصاره[١].

نهج البلاغة رمزالأخلاق

إنّ ما اتفق عليه المسلمون وغير المسلمين من الملمّين بنهج البلاغة مثل جرج جرداق وانطاكي وسلامة و....هوجامعية كلامه (عليه السلام) في نهج البلاغة بعبارة أخري إنّ نهج البلاغة كتاب يبين طريقة الحياة الصحيحة للبشر فالمواعظ والنصايح والأوامروالخطب كلها صدرعن الذي كلامه فوق المخلوق ودون الخالق ولايخفي أنّ كلامه نفس سيرته العملية وقد جري على لسانه لهداية البشر، فالإمام(عليه السلام) أشار الى كل ما يحتاج الإنسان في مراحل كماله في الدنيا والآخرة.

---

١ . ابن ابي الحديد، ١٩٩١م:ج١ص،٣٧.

ومما يجدر الاشارة اليه أنّ كلامه (عليه السلام) لا يختصّ بمذهب او دين خاص بل يشتمل كل من هو حرّ في التفكر والتعقل فلذلك نري فضائله في الأدب المسيحيين وغيرهم من أتباع المذاهب الأخرى.
وربّما يرجع أحد الأسباب الى أنّ الأخلاق يتجسّد في كلامه أو نقول:الهدف الرئيس من إلقاء الخطب والمواعظ والنصايح هو رجوع الإنسان الى نفسه والاجتناب عن الغفلة والسير الى الله فلا عجب أن بعض أساتذة الأخلاق في الحوزة العلمية في قم المقدسة قد جعلوا نهج البلاغة محور درسهم في الأخلاق .

نهج البلاغة والأدب

بما أنّ نهج البلاغة قد تربّع على ذروة الكمالات والفضائل والبلاغة والفصاحة، فتمتدّ قلوب الناس اليه لرفع عطشهم خاصة الشعراء والأدباء طوال القرون فهؤلاء على قدر عقولهم ونبوغهم وأذواقهم، أوردوا مفاهيم كلام الإمام(عليه السلام) من موضوعات المختلفة السياسية والدينية والاقتصادية والأخلاقية و... في أشعارهم وكتبهم.
ومما لايشك أحد فيه أن جزءا كبيرا من أشعار الشعراء قد بُنيت على الأخلاق والحكمة، لأن الشاعر هو إنسان حرّ ومتعلّق بشعبه وهو لسان قومه ففي الحقيقة شعره كان مرآة آلام شعبه وهو يعرف أنّ أحد مهمّته هي تبيين طرق المعيشة الصحيحة لقومه وفي هذا المسار لابدّ له أن يشير الى الحكمة والموعظة فههنا لا مهربَ له من التأثر من كلام الإمام(عليه السلام) وقد اعترف كبار الأدباء بهذا التاثر وهذا قول عبد الحميد الذي بُدئت الكتابة منه: حفظت سبعين من خطب الأصلع ففارَ ذهني بالبلاغة.

طريقة البحث

في هذه المقالة أوردنا مقتطفات من كلام الإمام(عليه السلام) حول الفضائل والرذائل الأخلاقية ثم شرحناها شرحا مختصرا وأخيرا استشهدنا بشواهد من شعر الشعراء الفارسيين وحاولنا ألا يطول البحث لعدم وسعة المجال وحاولنا في اقتطاف الفضائل والرذائل أن تكون مما يفتقراليها مجتمعنا اليوم خاصة شبابنا الجامعيون.

١.الحسد

الحسد: هو تمني زوال نعمة الغير (نعمة المحسود) وإن لم يَصِر للحاسد مثلُها ويُعرفُ الحسدُ باسم العين أي الإصابة بالعين ويقال: رجل عائن أو معيان أو عيون أي شديد الإصابة بالعين ومن المعلوم أنّ الكثير من الصفات الرذيلة تتناغم مع بعضها وبينها تأثير متقابل، والحسد أيضاً من هذه الصفات حيث ينشأ من صفات قبيحة أخرى، وهو بنفسه يعَدّ منبعاً ومصدراً لرذائل كثيرة أيضاً.
ويذكر علماء الأخلاق للحسد منابع كثيرة منها: العداوة والحقد بالنسبة الى الآخرين حيث يتسبّب في أن يتمنّى الإنسان زوال النعمة عن الطرف الآخر الذي يحمل له العداء ويبطن له الحقد.
والآخر هو الكبر والغرور، ولهذا إذا رأى المتكبر غيره يتمتّع بنعم أكثر منه فإنه يتمنّى زوالها بل يسعى في إزالتها أيضاً لكي يحرز تفوّقه على الآخرين.
ولكن الأهمّ من ذلك فإنّ الحسد يمكن أن يمتدّ بجذوره الى عنصر العقيدة ومكامن الدين، فمن كان يؤمن بالله تعالى وقدرته ولطفه ورحمته وعدالته وحكمته، كيف يمكنه أن يجد في نفسه حالة الحسد للآخرين؟
إنّ الشخص الحسود يكاد يعترض على الله تعالى بلسان حاله وأنّه لماذا رزقت فلاناً تلك النعمة؟ وأين العدالة؟ وأين الحكمة؟ ولماذا لا تعطيني مثله؟ بل قد يتصور نسبة العجز الى الله تعالى عندما يعطي غيره ولا يعطيه هو ولهذا يفضّل أن تسلب تلك النعمة من ذلك الشخص وتصل اليه.

وعلى هذا الأساس فالحاسد في الحقيقة يعيش في حالة من اهتزاز دعائم الإيمان والتوحيد الأفعالي في واقعه الروحي، لأنّ الإنسان المؤمن بأصل التوحيد الأفعالي يعلم جيداً أن تقسيم النعم الإلهية على العباد لا يكون اعتباطياً، بل وفقَ ما تقتضيه الحكمة الإلهية، ويعلم كذلك أنّ الله تعالى يملك القدرة في أن يرزقه أكثر وأفضل من ذلك الشخص فيما لو كان يتمتّع باللياقة لمثل هذه النعم والمواهب، إذن عليه أن يسعى لتحصيل القابلية واللياقة لذلك.

والخلاصة أنّ الحسود لا يتمتع في الحقيقة بدعائم إيمانية وعقائدية راسخة وإلاّ فإنه يعلم أنّ حسده ما هو إلاّ نوع من أنواع الإنحراف عن خطّ التوحيد وعن الحقّ.

قال الإمام العلى (عليه السلام):

ولا تحاسدوا فإنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار[1].

فاتقوا الله ولا تكونوا لنعمه عليكم أضداداً ولا لفضله عندكم حسّادا[2].

قال الشعراء:

صائب تبريزي:

صائب از دهل حسد مي گذرد بر دل من آنچه بر آينه از صحبت غم مي گذرد[3]

الترجمة العربية: الشاعر يخاطب نفسه فيقول: أيها الصائب! ما يمرّ بي من الهمّ والوجع إنما يرجع الى حسد الطبل على قلبي.

پيش ارباب حسد مهربه لب زن صائب گوش اين بدگهران لائق گفتار تو نيست[4]

الترجمة العربية: أيها الصائب! ينبغي عليك أن تكون صامتا أمام هؤلاء الحسّاد إذ إنهم لايقدّرون قيمة كلامك.

مولوي :

اگر در حصن تقوي، راه يابي زحاسد و ز حسد جاويد رستي[5]

الترجمة العربية: إذا دخلت في حصن التقوى نجوت من الحاسد والحسد.

ناصر خسرو:

مكر و حسد راز دل آوار كن وين تن خفته ت را بيدار كن[6]

الترجمة العربية: اِقض على الخدعة والحسد في القلب، وأيقِظ هذاالجسم النائم.

الهي قمشه اي:

ترك هوا گوي و ره عقل پوي محو حسد كن كه فروزد شرار[7]

الترجمة العربية: أترك الهوى واتّبع طريق العقل، وامحُ الحسد إذ إنّ الحسد ينير النار.

بهار:

حاسد زحسد سوزد بدخواه زبدخواهي من زابلهي آنها مي سوزم ومي سازم[8]

---

١ . الخطبة٨٦/١٢.
٢ . الخطبة ١٩٢/٣٢.
٣ . كليات صائب تبريزي، ١٣٦٢ه: ١٩٩.
٤ . نفس المصدر.
٥ . ديوان شمس، ١٣٨١ه:٩٨٧.
٦ . ديوان ناصر خسرو، ١٣٦١ ه: ٢١٣.
٧ . ديوان،١٣٨٣هـ: ٤٠.
٨ . ديوان،١٣٧٤هـ: ١٧٧.

الترجمة العربية: إنّ الحاسد يحرَق من الحسد، والحقود من الحقد، وأنا أُحرَق من حماقة كليهما وأتحمّل هذه الحالة.

فيض كاشاني:

هر كه زكينه و حسد آتش خشم برفروخت او زتنور آتشي سوي تنور مي رود[1]

الترجمة العربية: من أشعلَ نار الغضب بالحقد والحسد، كأنه يذهب من نار الى نار أخرى.

رودكي:

به روز نيك كسان گفت غم مخور زنهار بسا كسا كه به روز تو آرزمند است[2]

الترجمة العربية: حذار! لاتبك من يومك، فكم رجل يتمنّى يومك.

عنصري:

و گر زدرد بترسي حسد مكن كه حكيم مثل زند كه حسد هست درد بي درمان[3]

الترجمة العربية: إذا خفت من داء فلا تحسد أبدا إذ إنّ الحسد داءٌ لا يبرَأ.

فردوسي:

چو چيره شود بر دل مرد رشك يكي دردمندي بود بي پزشك

الترجمة العربية: إذا تغلّب الحسد على قلب الرجل، فاعلَم أنه أصيبَ بداء ليس له طبيبٌ.

٢. القناعة

القناعة هي الرضا بما قسم الله، ولو كان قليلا، وهي عدم التطلع الى ما في أيدي الآخرين، وهي علامة على صدق الإيمان.

عليه؛ المسلم يقنع بما قسم الله له فيما يتعلق بالدنيا، أما في عمل الخير والأعمال الصالحة فإنه يحرص دائمًا على المزيد من الخيرات، مصداقًا لقوله تعالى: «**وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى**»[4].

وقوله تعالى: «وسارعوا الى مغفرة من ربّكم وجنّة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين»[5].

الإنسان القانع يحبه الله ويحبه الناس، والقناعة تحقق للإنسان خيرًا عظيمًا في الدنيا والآخرة، ومن فضائل القناعة:القناعة سبب البركة: فهي كنز لا ينفد، القناعة سبيل للراحة النفسية: المسلم القانع يعيش في راحة وأمن واطمئنان دائم، أما الطماع فإنه يعيش مهمومًا، ولا يستقرّ على حال.

قال الإمام(عليه السلام):

مع قَناعةٍ تملأُ القلوبُ و العيونُ عني[6] .

القناعة تُغني.[7]

القناعة عزٌّ [8]

القناعة عفا.[9]

القناعة نعمة.[1]

---

١ . . ديوان،١٣٧٥ هـ: ١٣٧.
٢ . معجم معين، ١٣٦٥ ه:ج ١، ٥٢٥.
٣ . امثال و حكم، ١٣٦٠ هـ:ج٢، ٦٩٥.
٤ . البقرة: ١٩٧.
٥ . آل عمران: ١٣٣.
٦ . الخطبة ٤٨/١٩٢.
٧ . الآمدي،د.ت: الكلمات القصار ٤٠.
٨ . نفس المصدر:٨٧.
٩ . نفس المصدر:٢٠٥.

القناعة أبقي عزّ .[2]

القانع ناجٍ من آفات المطامع.[3]

قال الشعراء:

صائب:

چون مور هر كه قناعت به تلخي عيش — به هر طرف كه رود گرد شكر انگيزد
قناعت كن به نان خشك تا بي آرزوگردي — كه خواهش هاي الوان هست نعمت هاي الوان را[4]

الترجمة العربية: اقنع بالقليل والخبز اليابس حتى تخلو من الآمال فإنّ النعم المتعددة تجلب الأهواء المتعددة.

وحشي:

فراغت بايدت جادر سركوي قناعت كن — سركوي قناعت گير تا باشي فراغت كن[5]

الترجمة العربية: إذا أردت أن تخلو من الهمّ فاقنع بما فيه، فإذا رضيت باليسير طابت معيشتك.

سعدي:

مطلب گر توانگري خواهي — جز قناعت كه دولتي هست هني
هر كه در دنيا شود قانع بكم — سرخ رو باشد به عقبي چون بكم[6]

الترجمة العربية: إذا أردت أن تكون غنيا فاعلم أنّ خير الغنى هو القناعة، فمن عاش قنعا في الدنيا يسعد به في الآخرة.

٣ – الصبر:

الصبر لغة: الحبس والكف، قال تعالى:«واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي...» الآية، أي احبس نفسك معهم.

واصطلاحاً: حبس النفس على فعل شيء أو تركه ابتغاء وجه الله قال تعالى: «والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم».

فالصبر هو أن يلتزم الإنسان بما يأمره الله به فيؤديه كاملا، وأن يجتنب ما ينهاه عنه، وأن يتقبل بنفس راضية ما يصيبه من مصائب وشدائد، والمسلم يتجمل بالصبر، ويتحمل المشاقّ، ولا يجزع، ولا يحزن لمصائب الدهر ونكباته.

يقول الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين»[7].

وهو أبرزالأخلاق الوارد ذكرها في القرآن حتي لقد زادت مواضع ذكره فيه عن مائة موضع، وما ذلك إلا لدوران كل الأخلاق عليه، وصدورها منه، فكلما قلبت خلقاً أو فضيلة وجدت أساسها وركيزتها الصبر، فالعفة: صبر عن شهوة الفرج والعين المحرمة، وشرف النفس: صبر عن شهوة البطن، وكتمان السر: صبر عن إظهار مالا يحسن إظهاره من الكلام، والزهد: صبر عن فضول العيش، والقناعة: صبر على القدر الكافي من الدنيا، والحلم: صبر عن إجابة داعي الغضب، والوقار: صبر عن إجابة داعي العجلة والطيش، والشجاعة: صبر عن داعي الفرار والهرب، والعفو: صبر عن إجابة داعي الانتقام، والجود: صبر عن إجابة داعي البخل، والكيس: صبر عن إجابة داعي العجز والكسل وهذا يدلك على ارتباط مقامات الدين كلها بالصبر، لكن اختلفت الأسماء واتحد المعنى، والذكي من ينظر الى المعاني والحقائق أولاً ثم

---

١ . نفس المصدر: ٢٢٠.
٢ . نفس المصدر: ٦٧.
٣ . نفس المصدر: ١٧٩٦.
٤ . كليات صائب، ١٣٧٥ه: ٤٢١.
٥ . ديوان، ١٣٦٩ه: ١٢٨.
٦ . صباحي، ١٣٨٢ ه: ص ١٨٤.
٧ البقرة: ١٥٣.

يجيل بصره الى الأسامي فإن المعاني هي الأصول والألفاظ توابع، ومن طلب الأصول من التوابع زل.
ومن هنا ندرك كيف علّق القرآن الفلاح على الصبر وحده «وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا» «أولئك يجزون الغرفة بما صبروا، ويلقون فيها تحية وسلاماً» «سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدا».
وترجع عناية القرآن البالغة بالصبر الى ماله من قيمة كبيرة في الحياتين الدنيا والأخرى، فليس هو من الفضائل الثانوية، بل من الضرورات اللازمة التي لا انفكاك للإنسان عنها، فلا نجاح في الدنيا ولا نصر ولا تمكين إلا بالصبر، ولا فلاح في الآخرة ولا فوز ولا نجاة إلا بالصبر، فلولا صبر الزارع والدارس والمقاتل وغيرهم ماظفروا بمقاصدهم:
قال الإمام (عليه السلام):
الصبر رأس الايمان[١] .

الصبر يهون الفجيعة.[٢]

الصبر عنوان النصر.[٣]

واستشعروا الصبر فإنّه أدعى الى النصر.[٤]

وإن ابتليتم فاصبروا فإنّ العاقبة للمتقين.[٥]

قال الشعراء:

سعدي:

سعدي اگر طالبي راه رو و رنج بر كعبه ديدار دوست صبر بيابان اوست[٦]

الترجمة العربية: الشاعر يخاطب نفسه ويقول: أيها السعدي! إذا رغبت في زيارة الصديق فعليك أن تمشي في الطريق وتتحمّل المشاقّ وتكون صبورا.

مولوي:

صبر تلخ آمد و ليكن عاقبت ميوه شيرين دهد پرمنفعت[٧]

الترجمة العربية: الصبر مُرّ ولكن ثمرته حلو ونافع.

صائب:

صبر كن بر تلخ كامي ها كه آخر روزگار چشمه سار نوش سازد بوسه گاه نيش را[٨]

الترجمة العربية: اصبر على مرارة الحياة، فمن صَبَرَ على مرّ الحياة يذق حلوها في النهاية.

جامي:

خاتم صبر كه عالى گهر است نقش آن من صبر قد ظفر است[٩]

الترجمة العربية: إنّ خاتم الصبر الذي يعدّ شيئا نفيسا، تكون ثمرته الظفر دائما.

حافظ:

صبر و ظفر هر دو دوستان قديمند بر اثر صبر نوبت ظفر آيد[١٠]

---

١ . الآمدي،د.ت:٣١٣.
٢ . نفس المصدر،٥٨٦.
٣ . نفس المصدر،٨١١.
٤ . خ ٦/٢٦.
٥ . ٤/٩٨.
٦ . كليات سعدي،١٣٦٠ه:٤٥١.
٧ . مثنوي، نسخه رمضاني، دفتر اول، ١٣٧٢هـ: ٤و ٧٧.
٨ . كليات نفس المصدر، ١٧٣و ١٢٨.
٩ . ديوان، ١٣٨٠ه: ٢٠١ و ٢١١.
١٠ . لغت نامه دهخدا، ١٣٧٠ه: ٢٦٧.

الترجمة العربية: إنّ الصبر والظفر صديقان قديمان، فإنّ الظفر ثمرة الصبر.

سنايي:

يار دل به ز صبر ننهادند ظفر و صبر هر دو همزادند[1]

الترجمة العربية: لايوجد صديق أفضل من الصبر للفؤاد فإنّ الظفر والصبر توأمان.

ابن يمين:

دلا زبخت بدخود جزع مكن زنهار صبور باش كه روزي نكو شود اي دل[2]

الترجمة العربية: يخاطب الشاعر قلبه ويقول: لاتجزع ولاتشتك من الحظّ السيئ، واصبر فإنّ الصبر مفتاح الفرج.

نظامي:

گر صبر كني به صبر بي شك دولت بتوآيد اندك اندك
دريا كه چنين فراخ رويست پالايش قطره هاي جويست
وان كوه بلند كابرناك است جمع آمده ريزه هاي خاكت[3]

الترجمة العربية: إذا صبرت يبتسم لك الحظّ وتصبح سعيدا في الحياة، فإنّ البحر يتكوّن من القطرات الصغيرة، والجبل الشامخ يتكوّن من الحصى و التراب.

ناصر خسرو:

چون روزگار بر تو بياشويد يك چند پيشه كن تو شكيبايي[4]

الترجمة العربية: إذا أدبرت الدنيا علىك فاصبر عليها.

بابا طاهر:

بيا تا دست از اين عالم بداريم بيا تا پاي دل از گل برآريم
بيا تا برديم پيشه سازيم بيا تا نخم نيكويي بكاريم[5]

الترجمة العربية: هيا نغضّ الطرف عن هذا العالم وننسى الوردة، هيا نصبر ونزرع بذور الإحسان.

سنايي:

چون شدي بر قضاء اوصابر خواند آنگاه مرترا شاكر[6]

الترجمة العربية: إذا صبرت على القضاء يعتبرك الله من الشاكرين.

تجسس عيوب الناس:

العيب في اللغة هو بمعني عدم الشيء اوالصفة وفي مقابله، الصحة والسلامة[7] وتجسس عن عيوب الاخرين هو احد الرذائل الاخلاقية التي نهاها القرآن بطرق مختلفة[8] وفي مقابله، اخفاء عيوب الناس ويكفينا في فضيلته ان هو احد اوصاف الله تبارك وتعالى[9].

قال الإمام(عليه السلام):

يا عبد الله لا تعجل في عيب أحد بذنبه[1].

---

١ . ديوان حديقه الحقيقه،١٣٦٢ه: ٥٧٧.
٢ . ديوان،١٣٦٥ه:١٥٢
٣ . ديوان،د.ت: ٤٨٧.
٤ . ديوان : ٦.
٥ . ديوان، ١٣٨٠ه: ١٠٦.
٦ . حديقة الحقيقة:٩٩و ٥٧١.
٧ . مصطفوي،١٣٦٨ه:ج٢٧٠،٨.
٨ . خرمشاهي،١٣٧٧ه:ج٢،ص١٥٠١.
٩ . نراقي،١٣٦٦ه:٣٦٠.

فكيف بالعائب الذي عاب أخاه و عيره ببلواه أما ذكر موضعَ ستر الله عليه من ذنوبه[2].

يا ايها الناس طوبي لمن شغله عيبه عن عيوب الناس[3].

قال الشعراء:

نظامي:

نيك و بد ملك بكار بكار تواند — در بد و نيك آيينه دار تواند
كفش دهر باز دهندت كلاه — پرده دري پرده درندت چو ماه
خيز و مكن پرده دري صبح وار — تا چو شبست نام بود پرده دار[4]

الترجمة العربية: من غربل الناسَ نخلوه، قم ولاتغتتب ولاتنظر الى عيوب الناس.

فردوسي:

چنين داد پاسخ كه باري نخست — دل از عيب جستن بيايدت شست[5]

الترجمة العربية: ينبغي عليك أن تغضّ الطرف عن عيوب الناس.

فيض كاشاني:

عيب جلي خويش نبيني به دو ديده — عيب خفي غير بيابي به فراست
گويي همه جا عيب كسان را به علا لا — در خويش نبيني شره و بخل شراست[6]

الترجمة العربية: لاتري عيبك الواضح بعينيك وتري العيب الخفي في غيرك؛ تتحدّث عن عيوب الناس في كل مكان بينما لاترى عيب الشره والبخل في نفسك.

واعظ قزويني:

از ديدن عيب ديگران اعمي شو — در ديدن عيب خويشتن احول باش[7]

الترجمة العربية: كن أعمى أمام عيوب الناس وكن أحول أمام عيوبك.

عطار:

گر به عيب خويشتن دانا شوي — كي به عيب ديگران بينا شوي[8]

الترجمة العربية: من نَظَرَ في عيوبه عمي عن عيوب الناس.

بهار:

گر عيبي اندر آن نگري عيب پوش باش — زيرا تو زود بگذري اين نيز بگذرد[9]

الترجمة العربية: إذا رأيت عيبا فغُضّ الطرف عنه إذ إنك والحياة تمضيان بسرعة.

مولوي:

عيب كم گوينده الله را — متهم كم كن به دزدي شاه را
ورنه باشي هيچ هيچ از هيچان — پس روهر ديو باشي مستهان[10]

الترجمة العربية: غُضّ الطرف عن العيوب ولاتتهم الملك بالسرقة دائما.

صائب:

---

١ . خ ١٤٠ / ٥.
٢ . خ ١٤٠ /٢.
٣ . خ ١٧٦/٣٥.
٤ . ديوان،ص ٧٢.
٥ . شاهنامه، ١٣٦٤ه:ج ٣، ٥٠٣.
٦ . ديوان، ص ٣٥.
٧ . ديوان،١٥٢.
٨ . امثال و حكم،ج ١،ص ١٣١و ج ٣، ص ١٢٧٥.
٩ . نفس المصدر:٣١.
١٠ . نفس المصدر، دفتر ٢،ص ١٣٢- دفتر ٣، ص ١٧٨- دفتر ٧٠، ص ٤٣٩.

عيب صاحب نظران چند به بازار آري چند از آن گلبن پر گل تو كف خار آري[1]

الترجمة العربية: الى متى تجلب عيوب هؤلاء العلماء والمفكرون الى السوق، الى كم تجلب من الحديقة المملوءة من الورود، الشوكة.

ابو سعيد ابوالخير:

آن را كه حلال زادگر عادت و خو است عيب همه مردمان به چشمش نيكو است
معيوب همه عيب كساني مي نگرد از كوزه همان بدون تراود كه در اوست[2]

الترجمة العربية: وعين الإنسان الطيب وابن الحلال عن كل عيب كليلة بينما عين الإنسان الخبيث تظهر المساوئ والعيوب، فإن الإناء ينضح بما فيه.

عطار:

موي بشكافي به عيب ديگران ور بپرسم عيب تو كوري در آن
گر به عيب خويشتن مشغوليي گر چه بس معيوبيي مقبوليي
هر كه او عيب گنهكاران كند خويش را از ضل جباران كند[3]

الترجمة العربية: تنظر الى عيوب الناس بدقة بينما تعمى عن عيوبك؛ ومن نظر في عيوبه عمي عن عيوب الناس ومن نظر الى عيوب الآثمين قد جعل نفسه في ضلالة الظالمين.

سعدي:

مكن عيب خلق اي خردمند فاش به عيب خود از خلق مشغول باش
چو باطل سرايند مگمار گوش چو مي ستر بيني بصيرت بپوش[4]

الترجمة العربية: لاتنظر الى عيوب الناس ولا تفشها بل انظر الى عيوبك حتى تشتغل عن عيوب الناس، وتستمع الى الكلام الباطل الذي يقال عن عيوب الناس.

٥-الصدق:

الصدق هو قول الحق ومطابقة الكلام للواقع. وقد أمر الله -تعالى- بالصدق، فقال: «**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**»[5].

وأثنى الله على كثير من أنبيائه بالصدق، فقال تعالى عن نبي الله إبراهيم: «**واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقًا نبيًا**»[6].

وقال الله تعالى عن إسماعيل: «واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيًا»[7].

وقال الله تعالى عن يوسف: «**يوسف أيها الصديق**»[8].

وقال تعالى عن إدريس: «واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقًا نبيًا»[9].

وكان الصدق صفة لازمة للرسول (صلي الله عليه و آله وسلم)، وكان قومه ينادونه بالصادق الأمين فأثنى الله على الصادقين بأنهم هم المتقون أصحاب الجنة، جزاء لهم على صدقهم، فقال تعالى: «**أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**»[10].

---

١ . نفس المصدر: ٨٧٧.
٢ . ديوان، ص ١٠٥
٣ . منطق الطير، ١٣٨١هـ: ١٦٨-١٠٤
٤ . بوستان،ص ٣٤٦.
٥ . التوبة: ١١٩.
٦ . مريم: ٤١.
٧ . مريم: ٥٤.
٨ . يوسف: ٤٦.
٩ . مريم: ٥٦.
١٠ . البقرة: ١٧٧.

قال الإمام(عليه السلام):
اَلصدقُ أقوى دَعائِمِ الايمان.[1]

شَيئان هُما مِلاكُ الدّين؛ الصِّدْقُ وَاليقينُ.[2]

اِذا اَحَبَّ اللهُ عَبْداً الهَمَهُ الصِّدقَ.[3]

الصادق على شفا منجاةٍ وكرامةٍ.[4]

قال الشعراء:

فردوسي:

همه راستي كن كه از راستي نيايد بكار اندرون كاستي
بزرگ آن كسي كه به گفتار راست زبان را بيار است و كژي نخواست[5]

الترجمة العربية: كن صادقا طول حياتك فإن الصدق منجاة؛ إنّ الكريم هو الذي يصدق في كلامه ولن يكذب.

حاج ملا هادي سبزواري:

بگذر از مرحله ريب و ريا اي سالك رو به صدق آر كه سر منزل درويشان است[6]

الترجمة العربية: اقض على الريب والرئاء، واتجه الى الصدق الذي يكون منجاة السالكين.

ناصر خسرو:

جز راست مگوي گاه و بيگاه تا حاجت نايدت به سوگند[7]

الترجمة العربية: لاتقل إلا الصدق حتى لاتحتاج الى القسم.

سعدي:

طاعت آن نيست كه بر خاك نهي پيشاني صدق پيش آر كه اخلاص به پيشاني نيست[8]

الترجمة العربية: ليست الطاعة أن تسجد بل إنّما الطاعة تتحقق بالصدق.

ابو سعيد ابوالخير:

در صدق طلب نجات زيرا كه بصدق شايسته فيض نور انوار شوي[9]

الترجمة العربية: ابحث النجاة في الصدق إذ إنك تكتسب نور الله بالصدق.

٦-التكبر:

التكبر في اللغة هو التعظم أي إظهار العظمة .. قال صاحب اللسان:التكبر والاستكبار: التعظم ومنه قوله تعالى:«**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**»[10] أي أنهم يرون أنهم أفضل الخلق وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم ..

---

١ . السابق:،ج٤،ص٦.
٢ . نفسه،ج٤،ص١٨٤.
٣ . نفسه،ج٣ص١٦٠.
٤ . .خ١١/٨٦.
٥ . شاهنامه،ج٤،ص٥١٢.
٦ . ديوان، ٤٣.
٧ . نفس المصدر:١٣٥
٨ . امثال وحكم، ج ٢، ٥٨٤
٩ . ديوان، ص ١٠١.
١٠ . الأعراف: ١٤٦.

أمـا في اصـطلاح الدعـاة أو العاملـين فـإن التكبـر هـوإظهـار العامـل إعجابـه بنفسـه بصـورة تجعلـه يحـتقر الآخـرين في أنفسـهم وينـال مـن ذواتهـم ويترفـع عـن قبـول الحـق منهـم .. التـكـبـر صفة ينكرها الله تعالى و ينهينا عنهـاولا يريد أن يتصف بها عباده لمـا فيهـا من سـوء طبـع ..ومجالاً للبغضاء بين النـــاس وقـد شـدد الله تعـالى وكـره الاتصـاف بهـا وقـد حـرص النبـي الكريـم على تحذرنـا مـن هذه الآفـة الخطـرة يقـول تعالى: **«ولا تصعّر خدك للناس، ولا تمش في الأرض مرحاً إن اللّه لا يحبُّ كل مُختال فخور»**[1].

قال الإمام(عليه السلام):
عَجِبتُ لِلمُتَكَبِّرِ الَّذي كانَ بِالمسِ نُطفَةً وَيَكونُ غَدا جيفَةً[2].

ضَع فخرك واحطط كبرك[3].

فالله فالله ... و سوء عاقبة الكبر[4].

فلا يغرّنكم كثرة ما يعجبكم فيها لقلّة ما يصحبكم منها[5].

قال الشعراء:

شمس تبريزي:

غره مشو گر ز چرخ كار تو گردد بلند زانك بلندت كند تا بتواند فكند[6]

الترجمة العربية: لاتكن فخورا إذا أقبلت علىك الدنيا إذ إنّ الحياة ترفعك حتي تسقطك على الأرض وبقدر الصعود يكون الهبوط.

ناصر خسرو:

غره مشو به زور و توانايي كآخر ضعيفي است توانا را [7]

الترجمة العربية: لاتغترّ بقوتك وقدرتك إذ إنّ نهاية كل قدرة هو الضعف.

الهي قمشه اي:

سركشان را فلك از پاي برآرد خوش باش هر كه افتادگي آموخت سرافراز آيد[8]

الترجمة العربية: اعلم بأنّ الحياة ستلقن المتمرّدين درسا لن ينسوا، فالتواضع يرفع منزلة الإنسان.

مولوي:

نخوت و دعوي و كبر و ترهات دور كن از دل كه تا يابي نجات[9]

الترجمة العربية: اجتنب عن الغرور والفخر والغطرسة حتى تصل الى النجاة.

ابو سعيد ابوالخير:

از كبر مدار هيچ در دل هوسي كز كبر بجايي نرسيدست كسي[10]

الترجمة العربية: ينبغي عليك أن تخلو من الغطرسة والغرور إذ إنّ الإنسان لن يصل الى شيء بالغطرسة والغرور.

عطار:

---

١ . لقمان: ١٨.
٢ . نهج البلاغة، الحكمة ١٢٦.
٣ . خ ٦/١٥٣.
٤ . خ٦٦/١٩٢.
٥ . خ٣/١٠٣.
٦ . حديقة الشعراء، ١٣٧٨ هـ:ج ١، ١٩٦.
٧ . نفس المصدر، ص ١٦٧.
٨ . ديوان: ٥٦٥.
٩ . مثنوي،ج٢،ص١٢٤.
١٠ . ديوان،ص ٩٤.

مكن زنفس تكبر، تو چشم بازگشاي كه تا همه شكم خاك سيم و زر بيني
اگر خود را سر مويي شماري سر مويي نيايي در شماري[1]

الترجمة العربية: يجدر بك أن تخلو من التكبر والغرور بحيث لاتعتبر نفسك شئيا ولو بقدر شعرة، لأنك إذا اعتبرت نفسك بقدر تلك الشعرة لايقدّر الناس لك قيمة حتى بمقدار تلك الشعرة التافهة.

شيخ محمود شبستري:

مرد توحيد خود نگويد گر چه باشد چو جرم خور روشن[2]

الترجمة العربية: ينبغي على الإنسان ألا يمدح نفسه ولو كان يتمتع بمنزلة رفيعة.

٧. الجهد والعمل:

إحدي الأسباب التقدم في كل المجتمع هي الجهد والعمل دون شك، وكان الأنبياء يشتغلون بالعمل فالنبي (صلى الله عليه و آله وسلم) كان يشتغل برعاية الأنعام أو كان يتجر بأموال خديجة (عليها السلام) وإبراهيم كان بناءً وإدريس كان خياطا ونوح كان نجارا[3].

إذا نمعن النظرالى سنة النبي (صلى الله عليه و آله وسلم) نرى أنه كان يبجّل العمال ويقبّل أيديهم وقال:إنّ هذه اليد يحبها الله ورسوله فهذا يدلّ على مكانة العمال والعمل عند الله والرسول (صلى الله عليه و آله وسلم)[4].

وها هو أمير المؤمنين (عليه السلام) قد كان يشقّ الأرض ويزرع فيها ويحفر الآبار[5].

قال الإمام(عليه السلام)
قد تكفل لكم بالرزق وأمرتم[6].

ولا يدرك الحق الّا بالجِدّ[7].

قال الشعراء:

فرخي:

يا فشاري كن حقوق زندگان آور به دست ورنه هم چون مرده تا محشر فشار آيد ترا
به هنگام سيه روزي علم كن قد مروي را خون سرخ فام خود بشوي اين رنگ دزدي را[8]

الترجمة العربية: إذا حاولتَ وألححتَ تكتسب حقوق الحياة وإن لم تفعل ذلك يجب عليك أن تتحمّل المشاقّ.

حافظ:

مكن زغصه شكايت كه در طريق ادب به راحتي نرسيد آنكه زحمتي نكشيد[9]

الترجمة العربية: لاتشتك من الهمّ فلا يوجد راحة بدون التعب.

عنصري:

دلي كه رامش جويد نيايد او دانش سري كه بالش جويد نيابد افسر[10]

الترجمة العربية: إنّ الراحة لايكسِب للإنسان العلمَ كما إنّ الكسل لايعطيه السيادة.

---

١ . ديوان، ص ٥٣٤-٥٠٨.
٢ . گلشن راز، ١٣٨٢هـ: ١٦٩.
٣ . قريشي،١٣٦٦ه:٥.
٤ . جرداق،١٣٧٦هـ:ج٣،ص١٧٢.
٥ . برقعي،د.ت:٥٥.
٦ . خ ١١٤ /١٦.
٧ . خ ٣/٢٩.
٨ . ديوان، ١٣٧٩ه: ٨٢-٧٩.
٩ . ديوان،١٣٨٥ه: ٥٥.
١٠ . امثال وحكم، ج٢،ص٨٢٤.

سعدي

گر چه بيرون زرزق نتوان خورد در طلب كاهلي نشايد كرد[1]

الترجمة العربية: مع أنّ الإنسان لايصيبه إلا نصيبه ولايأكل إلا ما قد قدّر له إلا أنه في الوقت نفسه يجب ألا يتوانى في طلب رزقه.

مولوي:

هر كه رنجي ديد گنجي شد پديد هر كه جدي كرد در جدي رسيد[2]

الترجمة العربية: من تحمّل الشدائد اكتسب الكنوز، ومن جدّ في الحياة أقبلت الدنيا عليه.

سنايي:

راه جستن زتو هدايت از او جهد كردن زتو عنايت از او[3]

الترجمة العربية: إنما علىك أن تبتغي الطريق فتكون الهداية من الله؛ وإنما عليك أن تجتهد وتحاول فالعناية تكون من الله سبحانه وتعالى.

فردوسي:

به رنج اندر است اي خردمند گنج نيابد كسي گنج نابرده رنج[4]

الترجمة العربية: بقدر الكدّ تكتسب المعالي ومن طلب العلى سهر الليالي.

اسدي طوسي:

به درياي ژرف آنكه جويد صدف بيابدش جان برنهادن بكف[5]

الترجمة العربية: يغوص البحر من طلب اللآلئ.

خواجوي كرماني:

نيابد مراد آنكه جوينده نيست كه جويندگي عين يابندگيست[6]

الترجمة العربية: من لايجدّ ولايجتهد لايصل الى ما يريده، فمن جدّ وحاول وجد ما يريد الوصول اليه.

٨- بساطة الحياة

مكانة بساطة الحياة في الإسلام

يعتبر الإسلام للحياة البسيطة والرضا بالقليل قيمة معنوية.

ويعتقد زعماء الدين أنّ للحياة البسيطة والقناعة قيمة كثيرة بحيث إنهم يمدحون دائما هؤلاء الذين يرضون و يكتفون بالقليل في الحياة.

قال الإمام العلي (عليه السلام) عن (صعصعة بن صوحان): (إنك ما علمت حَسَنُ المعونة خفيفُ المؤونة)[7].

ومما يجدر الإشارة اليه أنّ جميع الأنبياء ابتداء من آدم الى خاتم الأنبياء محمد (صلى الله عليه و آله وسلم) كان حياتهم قائمة على القناعة الحقيقة وهوالرضى والاكتفاء بالقليل وضبط النفس عن كل إفراط.

قال الإمام (عليه السلام):

فانّ الساعة أمامكم وانّ ورائكم الساعة تحدوكم تخفّفوا تلحقوا[8].

---

١ . گلستان، ١٣٧٢ه: ١١٥- ١١٨.
٢ . مثنوي،ج٢،ص٩٩.
٣ . حديقة الحقيقة،٧٨.
٤ . شاهنامه،ج٣ص٣١٢.
٥ . ديوان،١٢٥.
٦ . ديوان،١٣٦٦ه: ٢٥.
٧ . ابن واضح يعقوبي، ١٩٨٦م: ج٢، ٢٠٤ .
٨ . خ١/٢١.

قال الشعراء:

سعدي:

مرد درويش كه با رستم فاقه كشيد به در مرگ همانا كه سبكبار آيد
و آنكه د رنعمت و آسايش زيست مردنش زين همه شك نيست كه دشوار آيد[1]

الترجمة العربية: إنّ المفلس الذي تحمّل مرارة الفقر لايخاف من الموت أبدا بل إنّ من يصعب عليه الموت هو الذي عاش في رغد من العيش ولم يذق مرارة الفقر أبدا.

جامي:

مكن تعلق خاطر به نقش صفحه دهر جريده وار همي زي و ساده وش مي باش[2]

الترجمة العربية: ينبغي عليك أن تكتفي بالقليل وترضى باليسير في الحياة الدنيا حتى تعيش سعيدا.

بابا طاهر:

دلا راهت پر از خار و خسك بي گذارت بر سر چرخ و فلك بي
گر از دستت برآيد پوست از تن بر آور تا كه بارت كمترك بي
شو تار و بيابان بر ورك بي همه صحرا پر از خار و خسك بي
نباشد اندر اين ره روشنايي خوشا آنكس كه بارش كمترك بي[3]

الترجمة العربية: يخاطب الشاعر نفسه ويقول: يحسن بك أن تخلو من أعباء الحياة فتصبح خالي البال فراحة البال خير من أي مال والثروة القليلة تساوي الهمّ القليل ومن رضي باليسير في الحياة الدنيا طابت معيشته.

بهار:

هر كه بار او سبكتر راه او نزديكتر بار تن بگذار و سير أنجم و افلاك كن[4]

الترجمة العربية: تخففوا تلحقوا، فمن يريد الصعود الى النجوم والسماء يجب عليه أن يكتفي بالقليل ويرضى باليسير ويزاول حياة بسيطة.

النتيجة

توصّلنا من خلال دراسة المواضيع المطروحة الى النتائج التالية:

١- ليست الأخلاق الفردية منفصلة عن الأخلاق الاجتماعية.

٢- إنّ المدرسة الصادقة الوحيدة للهداية هي مدرسة أهل البيت (عليهم السلام).

٣- يوجد أكمل و أفضل القدوات العملية للأخلاق الفردية والاجتماعية في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام).

٤- يعتبر الإمام علي (عليه السلام) الشخصية الوحيدة التي لاتختصّ بالمسلمين فقط بل إنّه أحسن قدوة لجميع الناس في العالم للوصول الى الكمال.

٥- إنّ كلام الإمام علي (عليه السلام) يعكس لنا أعماله (عليه السلام) التي تمثلت في الخطب والحكمة والكلمات القصار.

٦- عُني العلماء والمفكرون والأدباء بمفاهيم نهج البلاغة على مرّ الزمن وفي كل مكان.

٧- فقد توافد الشعراء في اللغة الفارسية والعربية على نهج البلاغة منذ القدم حتى يومنا هذا للاستفادة من المعاني الثمينة والمفاهيم الفذة التي يتضمنها نهج البلاغة.

---

١ . گلستان،ص ٦٣.
٢ . ديوان،ص ٤٦٢.
٣ . ديوان،ص ٧١.
٤ . ديوان: ١٤٣.

٨- عرضنا في المفاهيم المطروحة نتيجة كلام الإمام على (عليه السلام)، فعلى سبيل المثال في حديثنا عن الحسد، إنّ ملخص كلام الإمام (عليه السلام) هو أنّ الحسود يحرق من حسده، الأمر الذي تمّ عرضها في الأمثلة الشعرية المطروحة.
٩- بالتأكيد يعتبر نهج البلاغة بالدرجة الأولى كتابا للأخلاق والذي يحفل بالتعالىم الأخلاقية القيمة التي تكون أفضل النماذج للأخلاق العملية وذلك لإيصال الإنسان الى الكمال.
١٠- وخلاصة القول أنّ السيرة العلوية أو نهج البلاغة هي في الحقيقة تعبير طبيعي وحقيقي عن حياة الإمام (عليه السلام) وإنما يرجع سرّ كلامه (عليه السلام) الى أنّ هذا الكلام يعكس لنا أعماله (عليه السلام) في الحياة.

المصادر والمراجع

- قرآن
- نهج البلاغة
- ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، قاهرة، ١٣٢٩ق
- ابو سعيد، ابو الخير، ديوان رباعيات، تهران، بلا تاريخ
- اسدي طوسي، شاهنامه، تهران، ١٣٦٠ه
- الهي قمشه اي، مهدي، ديوان، تهران ، انتشارات انوار دانش، ١٣٧٨ه
- بابا طاهر عرياني، ديوات، انتشارات اقبال، ١٣٨٣ه
- برقعي قمي، علي اكبر، جلوه حق در سيرت مولاي متقيان علي (عليه السلام)، تهران، انتشارات حافظ، بلا تاريخ
- بهار، محمد تقي، ديوان، انتشارات امير كبير، ١٣٣٥ش
- جامي، عبد الرحمن، ديوان، انتشارات نگاه، ١٣٨٠ه
- جرج جرداق، امام علي صداي عدالت انساني، قم، نشر خرم، ج ١، چ ٣، ١٣٧٦
- حافظ، شمس الدين محمد، ديوان، تهران، ١٣٦٨ه
- خرمشاهي، بهاءالدين، دانش نامه و قران پژوهي، تهران، دوستان و ناهيد، ج ٢، ١٣٧٧
- خواجوي كرماني، محمود بن علي، ديوان، تهران، بلا تاريخ
- سبزواري، حاج ملا هادي، ديوان اسرار، تهران، نشر ما، ١٣٨٠ه
- دهخدا، علي اكبر، امثال وحكم، تهران، ١٣١٠ق
- دهخدا، علي اكبر، لغت نامه، تهران، انتشارات دانشگاه تهران، ١٣١٩ش
- رودكي، جعفر بن محمد، ديوان، انتشارات توس، ١٣٧٤ه
- سعدي، ابو محمد مصلح، كليات سعدي، انتشارات پگاه، ١٣٧٧ه
- سنائي ، ابو المجد مجدود بن آدم، حديقة الحقيقة، انتشارات اساطير، ١٣٧٧ه
- شبستري، شيخ محمود، گلشن راز، تهران، انتشارات الهام، ١٣٧٦ه
- تبريزي، شمس، ديوان غزليات، نشر طلوع، ١٣٧٤ه
- عطار نيشابوري، فريد الدين، ابو حامد، منطق الطير، انتشلرات ماد، ١٣٧٣ه
- عنصري، حسن بن محمد، ديوان، تهران، ١٣٦٣ه
- فردوسي، ابوالقاسم، شاهنامه، انتشارات اساطير، ١٣٧٧ه
- فرخي سيستاني، ابو الحسن، انتشارات زوار، ١٣٨٨ه
- صائب تبريزي، ميرزاء محمد علي، كليات صائب تبريزي، تهران، انتشارات نوين، ١٣٦٢ه
- صباحي، حاج سليمان، ديوان، تهران ١٣٨٢ه
- فريومدي، ابن يمين، ديوان، تهران، ١٣٤٤ش
- فيض كاشاني، ملا محسن، ديوان، تهران، انتشارات اسوه، ١٣٧١ه
- قريشي، شريف، كار و حقوق كارگر، تهران، دارالكتب الاسلاميه، ١٣٦٦ه

- مصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مركز نشر آثار علامه مصطفوي، ١٣٨٥ه
- مولوي، جلال الدين محمد بلخي، مثنوي معنوي، انتشارات پيمان، ١٣٧٨ه
- قبادياني بلخي، ناصر بن خسرو بن حارث، ديوان، تهران، انتشارات مهر ازاد، ١٣٨١ه
- نراقي، مهدي، علم اخلاق اسلامي) جامع السعادات) ترجمه جلال الدين مجتبوي، تهران، حكمت، ١٣٦٦ه
- نظامي گنجوي، جمال الدين، ابو محمد الياس بن يوسف، كليات خمسه، تهران، انتشارات امير كبير، ١٣٧٠ه
- واعظ قزويني، ملا رفيع، ديوان، انتشارات على اكبر علمي، ١٣٥٩ه
- يعقوبي، ابن واضح، تاريخ يعقوبي، بيروت، ١٩٨٦م.

أدب الدعاء في (نهج البلاغة) دراسة دلاليّة

المدرس الدكتورة: هناء عبد الرضا رحيم

المدرس الدكتور: مرتضى عبّاس فالح (جامعة البصرة ـ كليّة التربية)

تقديـم:

يمثّل الدعاء جانباً مهمّاً من آداب العربيّة، أغفل البعض الإشارة إلى بلاغته، على الرغم من أنّه نثر فنّيّ رائع، وأسلوب ناصع من أجناس الكلام المنثور، ونمط بديع من أفانين التعبير، وطريقة بارعة من أنواع البيان، ومسلك معجب من فنون الكلام[١].

والدعاء قبل أن يتبلور في ألفاظ وجمل وعبارات إنّما هو نور مضيء ينقدح في قلب العبد ليفيض بعد ذلك على لسانه، وبمقدار صفاء ذلك القلب وخلوّه من الكدر يكون نور دعائه منبعثاً في الآفاق لا تحدّه حدود ليبلغ ملكوت الرحمن[٢]، خاصّة إذا كان العبد قد خلصت نفسه للعبوديّة الحقّة، فكيف إذا كان هذا العبد قد مثّل العبوديّة بحدّ ذاتها، رجل شهد له أعدائه قبل محبّيه في تقدّمه في فنون البلاغة والفصاحة والبيان، رجل ترك أثراً ظاهراً وملمحاً لا يمكن نسيانه على مرّ الأجيال والعصور، تمثّل ذلك الأثر في كتابه نهج البلاغة، ولا نحتاج بعد ذلك إلى ذكر الإسم لأنّ الكتاب عبّر عن قدرة صاحبه وتقدّمه في البلاغة والبيان أجمل تعبير وأكمله.

ولا شكّ في أنّ معاني الدعاء التي من الممكن أن تتبلور في نفس شخص اجتمعت له هذه الخصال عبّرت عن قمّة النقاء الروحيّ المتحقّق في التوجّه العميق الى الله سبحانه وتعالى في كلّ ما يخصّ القضايا الروحيّة الذاتيّة، أو ما ارتبطت بها من قضايا روحيّة عامّة تخصّ مجتمعه: سياسيّاً واجتماعيّاً واقتصاديّاً.

ولأنّ (نهج البلاغة) مثّل معلماً في البلاغة والبيان- مثلما ذكرنا سابقاً- وكلمات صاحبه فيه كانت بمثابة القلائد المنظومة من الأحجار الكريمة والنفيسة في الوقت نفسه فإنّ الدعاء داخل هذه الهالة الكبيرة من الأنوار عكس المعاني القيّمة من الصدق المتناهي الذي تبلور في نفس الإمام، معبّراً عن النقاء الروحي المتحقّق في انسان مبتهل خاشع، متوجّهاً توجّهاً حقيقيّاً إلى الله سبحانه وتعالى، فقد عُرف عنه أنّه كان رجلاً دعّاءً، وقد جاءت أدعيته آية من آيات البلاغة العربيّة، في كلّ ما يخصّ القضايا الروحيّة المتعلّقة بها، فضلاً عن أنّ الدعاء يعدّ سمة من سمات العبوديّة الخالصة لله سبحانه، وعليّ بن أبي طالب (عليه السلام) أجدر من يتّصف بهذه الصفة عبر ما حفظه لنا التأريخ من سيرته العطرة.

من هذا المنطلق كان (أدب الدعاء) و(نهج البلاغة) بالذات هما منطلقا هذا البحث عبر محاور ثلاث، هي:

- أولاً: مفهوم الدعاء في (نهج البلاغة).
- ثانياً: تراكيب الدعاء في (نهج البلاغة).
- ثالثاً: السمات الدلاليّة للدعاء.

وسنعرض هذه المحاور تباعاً.

- أولاً: مفهوم الدعاء في (نهج البلاغة):

الدعاء (لغة) يعني الاستغاثة، والرغبة إلى الله سبحانه وتعالى، يقال: دعا الرجل دعْواً ودُعاءً: ناداه، ودعوتُ فلاناً، إذا صحْتُ بهِ واستدعيْتُهُ، وإنّما سميّ دعاءً لأنّه يصدّر بالقول: يا الله، يا

---

١ . ظ: الصحيفة السجاديّة: حسين علي محفوظ، مقال منشور في مجلة (البلاغ) الكاظميّة، السنة الأولى، ع ٦.
٢ . ظ: من أدب الدعاء في الإسلام: ٣.

ربّ، يا رحمن[1]. وفي (الاصطلاح) فإنّ الدعاء يمثّل أسلوباً إنشائيّاً قائماً بذاته، مقترناً بصيغتين بلاغيّتين هما: الأمر والنهي. وعلى هذا الأساس فإنّ الدعاء يشمل نمطين، الأوّل: مباشر يعتمد الاستعمال اللغويّ لدلالة لفظة (دعا)، والثاني: غير مباشر يعتمد الاستعمال المجازيّ لأسلوب (الأمر)، و(النهي) في البلاغة.

وقد تحقّق وجود الدعاء بنوعيه في نهج البلاغة، والمتأمّل لمواضع ورود الدعاء فيه يجد أنّ بعض أساليبه ورد في أثناء الخطب التي ألقيت في مناسبات خاصّة، وبعضها ورد في صيغ انشائيّة بلاغيّة، وبعضها ورد في كلمات قصار احتوت على جوامع الكلم، أو ورد بهيئة النصح والإرشاد والموعظة فجاء في جمل قصيرة اشتملت على السجع ليدلّ على العناية بخصوص الكلمات والألفاظ الواردة فيه، فضلاً عن نصوص الأدعية المأثورة الواردة في ظرف معيّن من زمان أو مكان أو مناسبة خاصّة.

ومع هذا التعدّد في الأساليب فقد اشتمل الدعاء أيضاً تعدّداً في المضامين، فقد اشتملت أدعيته مضامين عالية في مجالات مختلفة، منها: العقيدة والسلوك والوجدان، والبلاغة والفصاحة والبيان، والمنطق والفلسفة والإلهيّات، فضلاً عن أنّنا نرى شخصيّة المعصوم واضحة من خلالها.

وقد شكّل الدعاء وسيلة ناجحة لتوجيه الأمّة وتبليغها بما ينبغي أن تكون عليه من تصفية القلوب وصلاح الأعمال، فهو أسلوب غير مباشر ولكنّ نتائجه فعّالة، وهو المفضّل والمؤثّر أكثر في التبليغ، وقد استعمله النبيّ ابراهيم الخليل (عليه السلام) في تذكير قومه بانحرافهم عن عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد، إذ عبدوا الشمس والقمر والنجوم التي سرعان ما تزول وتأفل[2].

إضافة الى أهمية هذا الأسلوب في تنقية الإنسان من شوائب الذنوب فهو الوسيلة المختارة للتحاور مع الله سبحانه وتعالى وبثّ الشكوى إليه لغرض استجلاب الثواب والجزاء العميم؛ لذا تكرّر الحثّ على الدعاء في أكثر من مناسبة وحدث في (نهج البلاغة)، والغرض من هذا التكرار التأكيد على ضرورة تعميق علاقة الإنسان المؤمن بربّه ليزداد إيمانه بوجود الخالق الذي يسمع ويرى كلّ شيء.

وقد اشتمل الكتاب على عدّة موضوعات تخصّ الدعاء، من: طريقة صوغ الدعاء، وشروطه لتحقيق الإجابة، وعلّة تأخّرها، وفائدته في التحقّق أو عدمه، وغيرها، وسنحاول أن نعرض بعضاً ممّا يسمح به البحث من هذه المفردات الثريّة.

من الموضوعات التي تحدّث عنها الإمام فيما يخصّ الدعاء الحديث عن أنّ أبواب الدعاء مفتوحة على الدوام لكلّ إنسان مهما بلغ ذنبه، وأنّ المعصية هي التي تمنع العبد من الدعاء والتذلّل إلى الله سبحانه وتعالى وطلب المغفرة، لا أنّ الأبواب مغلقة في وجهه، فأبواب السماء مفتوحة على الدوام لإجابة الدعاء، والله – سبحانه وتعالى- لا يمكن أن يغلق أبواب الإجابة وهو الذي أمرنا بالدعاء عند كلّ مناسبة، فقال (عليه السلام): «ما كان الله ليفتح على عبد باب الشكر ويغلق عنه باب الزيادة، ولا ليفتح على عبد باب الدعاء ويغلق عنه باب الإجابة، ولا ليفتح لعبد باب التوبة ويغلق عنه باب المغفرة»[3].

وقال: «من أعطي أربعاً لم يُحرم أربعاً: من أعطي الدعاء لم يُحرم الإجابة، ومن أعطي التوبة لم يُحرم القبول، ومن أعطي الإستغفار لم يُحرم المغفرة، ومن أعطي الشكر لم يُحرم الزيادة»[4].

وقد وضع الإمام المعادلة التي تقوم عليها فكرة الدعاء برمّتها، إذ قال: «وأعلم أنّ الذي بيده خزائن السموات والأرض، قد أذن لك في الدعاء، وتكفّل لك بالإجابة، وأمرك أن تسأله ليعطيك،

---

١ . ظ: لسان العرب: ابن منظور، مادّة (دعا): ١٧/ ١٣٨٥.
٢ . ظ: عقائد الإماميّة: محد رضا المظفر: ٨٩، وينظر: سورة الأنعام: ٧٦- ١٨٠.
٣ . نهج البلاغة: شرح محمد عبدة: ٤/ ٧٢٣.
٤ . المصدر السابق: ٤/ ٦٥٧.

وتسترحمه ليرحمك، ولم يجعل بينك وبينه من يحجبك عنه، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه»[1]، بموجب هذه المعادلة ضمن الإنسان الكرامة والحرّيّة والإستقلاليّة البعيدة عن أي شكل من أشكال الخنوع والخضوع إلا لله سبحانه وتعالى.

أمّا الشرط الواجب لتحقّق الدعاء، ويعدّ من أوائل مقدّماته إذ بدونه لا ينعقد الدعاء إلا بعد أن تذكره، وأن تلهج به قبل أن تلهج بدعائك فهو أن تقدّم الصلاة على محمد وآل محمّد قبل الدعاء، وعلّة ذلك حسبما يفسّرها الإمام في قوله: «إذا كانت لك الى الله سبحانه حاجة، فأبدأ بمسألة الصلاة على رسوله صلّى الله عليه وآله، ثمّ سل حاجتك، فإنّ الله أكرم من أن يسأل حاجتين فيقضي أحداهما، ويمنع الأخرى»[2].

أمّا الفائدة المتحقّقة من الدعاء بشتّى صوره فيبيّنها الإمام لنا، وهي:

- إنّه وسيلة مهمّة لدفع البلاء الذي يتعرّض له الإنسان في الحياة الدنيا، إذ قال: «سوسوا ايمانكم بالصدقة، وحصّنوا أموالكم بالزكاة، وأدفعوا أمواج البلاء بالدعاء»[3]، فالدعاء من الأمور اليقينيّة الوقوع، وهي ملازمة للثواب العميم مثلما هو حال الصدقة والزكاة.

- ولغفران الذنوب والمعاصي وطلب التوبة والمغفرة: «ولم يمنعك- أي الله سبحانه- إن اسأت من التوبة، ولم يعاجلك بالنقمة، ولم يعيّرك بالإنابة، ولم يناقشك بالجريمة، ولم يؤيّسك من الرحمة، بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة، وحسب سيئتك واحدة، وحسب حسنتك عشراً، وفتح لك باب المتاب وباب الاستعتاب»[4].

- ولطلب أمور المعاش التي لا يستطيع تلبيتها سواه: «وسألته من خزائن رحمته ما لا يقدر على اعطائه غيره، من زيادة الأعمار، وصحّة الأبدان، وسعة الأرزاق، ثمّ جعل في يديك مفاتيح خزائنه، بما أذن لك فيه من مسألته، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته، واستمطرت شآبيب رحمته»[5].

فإذا ما تأخّرت إجابة الدعاء فإنّما هو لمصلحتك وخيرك، وليس لأذيّتك وعقوبتك، «فلا يقنطنّك غبطاء إجابته؛ فإنّ العطيّة على قدر النيّة، وربّما أخّرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل، وأجزل لعطاء الآمل، وربّما سألت الشيء فلا تؤتاه وأوتيت خيراً منه، عاجلاً أو آجلا، أو صرف عنك بما هو خير لك، فلربّ أمر قد طلبت فيه هلاك دينك لو أوتيته، فلتكن مسألتك في ما يبقى لك جماله، وينفى عنك وباله، فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له»[6].

ثمّ إنّ الحاجة الى الدعاء ليست حاجة ماسّة للإنسان المحتاج إلى الدعاء فقط، بل هو أمر أشدّ ضرورة، وأكثر فائدة للإنسان المعافى من سواه المبتلى، إذ قال: «ما المبتلى الذي قد اشتدّ به البلاد بأحوج الى الدعاء من المعافى الذي يأمن البلاء»[7]؛ لأنّه يدفع البلاء قبل وقوع الهمّ والحزن الذي لا يُهتدى لدفعه.

والدعاء متاح لكلّ إنسان، فليس بينك وبين الله سبحانه من وساطة أو شفاعة فتتكبّد المعاناة في سبيل الوصول إليه، وإنّما طريقك سالك للتخاطب معه – سبحانه- مباشرة في أيّ مكان وفي أيّ وقت، «فإذا ناديته سمع نداءك، وإذا ناجيته علم نجواك فأفضيت إليه بحاجتك، وأبثثت ذات نفسك، وشكوت إليه همومك، واستكشفته كروبك، وأستعنت على أمورك»[8].

---

١ . المصدر السابق: ٣/٥٣٤.
٢ . المصدر السابق: ٤/ ٧٠٧.
٣ . المصدر السابق: ٤/ ٦٥٩.
٤ . المصدر السابق: ٣/ ٥٣٤- ٥٣٥.
٥ . المصدر السابق: ٤/٥٣٥.
٦ . المصدر السابق نفسه.
٧ . المصدر السابق: ٤/ ٦٩٥.
٨ . المصدر السابق: ٣/٥٣٥.

وبذلك فالدعاء يمثّل اسلوباً ناجحاً في تربية الأمّة وتوجيهها الوجهة الصحيحة في كلّ الميادين الاجتماعيّة، والأخلاقيّة، والسياسيّة، والدينيّة؛ لأنّه الوسيلة السهلة واليسيرة التي يمكن من خلالها التخاطب مع عقول أبناء الأمّة على اختلاف مستوى إدراكهم.

ثانياً: تراكيب الدعاء في نهج البلاغة:

لقد اختلفت تراكيب الدعاء التي استعملت في الأدعية الواردة في نهج البلاغة، فاشتملت على صيغ مختلفة، منها:

- صيغة الخبر.
- استعمال الجمل الفعلية والجمل الإسميّة.
- الفعل الماضي المسبوق بـ(لا) النافية، أو الفعل المضارع المسبوق بـ(لا) النافية.
- صيغة فعل الأمر الخارج إلى الدعاء مجازاً.
- صيغة النهي الخارجة إلى الدعاء مجازاً.
- أسلوب النداء المتمخّض للدعاء.
- صيغة المصدر.
- صيغة الجملة الاعتراضيّة.
- معاني الدعاء المضمّنة في الكلام عبر دلالات تراكيب ألفاظها مجتمعة.

وفي سياق الكلام لا ينفرد الدعاء باستعمال صيغة من دون صيغة أخرى، أو تتّحد الصيغ، وإنّما نجد الصيغ تتداخل فيما بينها، والجمل تترابط في نصوصها، لتشكّل نسقاً مترابطاً في نصّ واحد.

ومن صيغ الدعاء التي استعملت في نهج البلاغة – مثلما لاحظنا سابقاً- الدعاء بصيغة الجملة الخبريّة التي فعلها ماض أو مضارع، من ذلك قول الإمام في الترغيب بالآخرة: «...فلو شغلت قلبك، أيّها المستمع، بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونقة لزهقت نفسك شوقاً إليها، ولتحمّلت من مجلسي هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالاً بها، جعلنا الله وإيّاكم ممّن يسعى بقلبه إلى منازل الأبرار برحمته»[1]، فقد جاء الدعاء بصيغة الجملة الخبريّة التي فعلها ماض (جعلنا الله...)، جاعلاً الدعاء شاملاً للطرفين: الإمام أوّلاً، والمخاطبين ثانياً؛ لأنّ الإمام هو القدوة للآخرين فقدّم الدعاء لنفسه على الدعاء للآخرين لهذه العلّة، وقد جاء مقدّم الدعاء ممهّداً ومشوّقاً لما ختم به (عليه السلام) الكلام، فالصورة المشرقة التي طبعت تصويره للآخرة من أنّها مجموعة من المناظر المشرقة التي قد يتصوّرها العقل الصافي إنّما هي صورة قد توهم السامع أنّه (عليه السلام) يتحدّث عن الدنيا لا الآخرة، ولكنّ الأمر يزول من خلال النظر إلى يقين القلب وصدقه فإذا ما تحقّق هذا الأمر تحققت الرؤيّة وتحقّق الشوق إلى هذه المنازل، فجاء الدعاء خاتماً لهذه الصورة من خلال الجمع بين شخص الإمام وشخص المتكلّمين.

فضلاً عن أنّ الدعاء بصيغة الفعل الماضي ممّا يبعث على التفاؤل بتحقّق الدعاء وكأنّ التوفيق الالهيّ قد تمّ[2]، وهذا الأمر يعزّز الدلالة التي ذكرناها سابقاً.

ومثل ذلك قوله عليه السلام من كتاب له إلى معاوية: «عجباً للدهر إذ صرت يقرن بي من لم يسع بقدمي، ولم تكن له كسابقتي التي لا يدلي أحد بمثلها، إلا أ ن يدّعي مدع ما لا أعرفه، ولا أظنّ الله يعرفه، والحمد لله على كلّ حال»[3]، فالإمام يتوجّه بالدعاء إلى الله سبحانه من خلال الحمد له والشكر على ما آلت إليه الأمور من مساواة بعض الناس له (عليه السلام)- على ما له من المنزلة القديمة في الاسلام- ومعاوية في منزلة واحدة وهذا الأمر عجيبة من عجائب الدهر وغرائبه؛ فلا أحد يعلم بمعاوية أكثر منه إلا أنّ يدّعون معرفة العلم الإلهيّ الذي اختّصه سبحانه

---

١ . المصدر السابق: ٢/ ٣٣٨.
٢ . ظ: علم المعاني: د. قصي سالم علوان: ١١٠.
٣ . المصدر السابق: ٣/ ٤٩٨.

وتعالى به وهو أمر غير واقع في حقيقة الأمر لهم؛ لذا خصّ الحمد بالله سبحانه وتعالى لأنّه عليه السلام في معرض الابتلاء لا الإختبار.
إلى جانب هذه الصيغة نجد أنّ استعمال صيغة النداء (اللهمّ) في الدعاء كثيرة الورود في نهج البلاغة، وهذه الصيغة إذا اقترنت بالدعاء أفادت الشكوى إلى الله سبحانه، مثال ذلك قوله (عليه السلام) حين سمع قوماً يسبّون أهل الشام أيّام حرب صفين: «اللهمّ احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، وأهدهم من ضلالتهم، حتّى يعرف الحقّ مَنْ جهله، ويرعوي عن الغيّ والعدوان من لهج به»[1].

فقد استفتح الإمام الدعاء بأسلوب النداء في (اللهمّ)، وهو أسلوب متعارف عند العرب الفصحاء، ثمّ استعمل صيغة فعل الأمر الخارج مجازاً إلى الدعاء في (احقن، اصلح، اهد)، وتبدو جماليّة هذا الدعاء في تعميمه له على الطرفين، فهو دعاء لأنصاره وأعدائه معاً.
وقد تقترن صيغة النداء بـ (اللهمّ) بشكل من أشكال الطلب الأخرى كالأمر والنهي فيفيد التوسّل بالله سبحانه وتعالى في هذه الحالة، مثل قول الإمام: «اللهمّ اغفر لي ما أنت أعلم به منّي، فإن عدت فعد عليّ بالمغفرة... اللهمّ اغفر ما وأيت من نفسي ولم تجد له وفاء عندي. اللهمّ اغفر ما تقرّبت به إليك بلساني ثمّ خالفه قلبي. اللهمّ اغفر لي رمزات الالحاظ، وسقطات الالفاظ، وشهوات الجنان، وهفوات اللسان»[2]، فقد جاء الدعاء بصيغة فعل الامر (اغفر) لأنّ المغفرة من الصفات الذاتيّة لله عزّ وجلّ لم يشاركه فيها أحد، ومن ثمّ لا يحمل الامر هنا على الحقيقة بل يحمل على المجاز، فكان التوسّل مخصوصاً بالله سبحانه من دون أن تتضمّن الصيغة الدعاء على أحد، فضلاً عن أنّ أسلوب التكرار للصيغة منحها بعداً دلاليّاً أسهم في توكيد الرغبة في تحقّق الدعاء وتحقّق الإجابة.
ومثله قول الإمام في حقّ طلحة والزبير: «اللهمّا إنّهما قطعاني وظلماني، ونكثا بيعتي، وألبسا الناس عليّ، فأحلل ما عقدا، ولا تحكم لهما ما أبرما، وأرهما المساءة فيما أمّلا وعملا، ولقد استتبتهما قبل القتال، واستأنيت بهما أمام الوقاع، فغمطا النعمة، وردّا العافية»[3]، وهنا يعرض الإمام شكواه إلى الله سبحانه بحقّ طلحة والزبير، فكأنّه يبيّن أنّه ما لجأ إلى الدعاء عليهم إلا لأنّهما خالفا أمر الله سبحانه في أمر خلافته، فهما قطعا صلة رحمه، وظلماه، ونكثا بيعته؛ إذ بايعاه ثمّ ارتدّا، ولم يكتفيا بذلك بل حشّدا الناس عليه وقلبوهم عليه، فضلاً عن ذلك فالإمام يعرض لنا أنّه حاول معهم كلّ جهده كي يتراجعا عمّا اقدما عليه ولكن لم ينفع معهما ذلك، فكانت كلّ تلك الاسباب مجتمعة سبباً ودافعاً له عليه السلام للدعاء عليهم.
وصيغة النهي الخارجة إلى الدعاء مجازاً أيضاً تدلو بدلوها في هذا الميدان، من ذلك قوله (عليه السلام): «اللهمّ لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني افضل ممّا يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون»[4]، فقد تضمّن الدعاء التوسّل إلى الله سبحانه وتعالى وطلب عدم المؤاخذة عن المكنون في القلوب، والمغفرة عن الذنوب عبر أسلوب النهي (لا تؤاخذني)، والأمر (إجعلني)، و(اغفر) الخارجين مجازاً إلى الدعاء.
ومثله قوله عليه السلام: «اللهمّ إنّا نسألك أن لا تردّنا خائبين، ولا تقبلنا واجمين، ولا تخاطبنا بذنوبنا، ولا تقايسنا بأعمالنا»[5]، والملاحظ من خلال استعمال صيغة النداء (اللهمّ) أنّ ما بعدها جاء بصيغة الطلب: (نسأل) فأفادت الصيغة التوسّل بالله سبحانه وتعالى.

---

١ . المصدر السابق: ٢/ ٤٣٧، ٤٣٨.
٢ . المصدر السابق: ١/ ١٥٥.
٣ . المصدر السابق: ٢/ ٢٨٥، ٢٨٦.
٤ . المصدر السابق: ٢/ ٤١٦.
٥ . المصدر السابق: ٢/ ٢٩١.

إلى جانب ذلك فإنّ الإمام يراعي الملحظ البيانيّ الذي يتناسب واستعماله للصيغ، ففي موقف التقرير والإخبار تكثر الجمل الخبريّة، ولا سيّما في أنماط الدعاء المباشرة، أمّا الجمل الإنشائيّة – النداء، والأمر، والنهي- فتكثر عندما يكون الغرض من الدعاء هو الوعظ للانسان المتهالك على حطام الدنيا مع ما تؤدّيه الصيغ من معانيها الأصليّة[1].

فإذا ما تعدّدت أساليب الدعاء بين الاحتجاج مع الله تعالى لطلب العفو والمغفرة، والالتذاذ بالقرب منه سبحانه ومن مشاهد كرامته، وأسلوب التعليم للعباد فممّا لا شكّ فيه أنّ الصيغ تتعدّد بحسب مقامات هذه الأساليب، مثل استعمال أسلوب الشرط في الدعاء، من ذلك قوله عليه السلام: «اللهمّ إن فهمت عن مسألتي، أو عميت عن طلبتي فدلّني على مصالحي، وخذ قلبي إلى مراشدي، فليس ذلك بنكر من هداياتك ولا ببدع كفاياتك»[2]، فاشترط تحقّق الدعاء من خلال تحقّق جملة الشرط، أي إن أصابتني فترة وغفلة عن معرفة المسألة التي اقصدها، والطلبة التي أريدها، فيا الهي دلّني عليها، وخذ بيدي الى طريق الرشد والهداية، والإمام في هذا الإشتراط متيقّن من الإجابة فهو أمر ليس بمنكر عند ربّ العباد.
ومثله قول الإمام: «اللهمّ إن أظهرتنا على عدوّنا، فجنّبنا البغيّ، وسدّدنا للحقّ، وإن أظهرتهم علينا، فأرزقنا الشهادة، وأعصمنا من الفتنة»[3].

وصيغة الدعاء بالمصدر كان لها حضور فاعل في نهج البلاغة، فاستعمالها يفيد الدلالة على المبالغة والتأكيد فهي تدلّ على الحدث مضافاً إليها دلالتها على الاسميّة، من ذلك قول الإمام في سياق حديثه عمّن لحق بمعاوية من أهل المدينة: «... وإنّما هم أهل دنيا، مقبلون عليها، ومهطعون إليها، قد عرفوا العدل، ورأوه، وسمعوه، ووعوه، وعلموا أنّ الناس عندنا في الحقّ أسوة، فهربوا إلى الأثرة، فبعداً لهم وسحقاً»[4]، والملاحظ أنّ الإمام يستعمل الجمل الاسميّة لوصف هؤلاء المرتدّين: (مقبلون على الدنيا)، (ومهطّعون إليها)، فضلاً عن أنّ الجمل الفعليّة جاءت مؤكّدة بصيغة (قد): (قد عرفوا الحقّ، ورأوه، وسمعوه، ...)؛ ممّا يدلّ على ثبات هذه الأوصاف وثباتها فيهم فناسب ثبات الدعاء عليهم أن يأتي بصيغة المصدر (فبعداً لهم، وسحقاً)، وهذا الدعاء يشتمل على الدلالة الدنيويّة والأخرويّة، فالدعاء بالبعد عنهم – من قبل الإمام- مرغوب فيه في الدنيا والآخرة.
وقد يستعمل المصدر المؤول بدلاً من المصدر الصريح، مثل قول الإمام: «وأنا أسأل الله بسعة رحمته، وعظيم قدرته على إعطاء كلّ رغبة أن يوفّقني وإيّاك لما فيه رضاه»[5]، فقد جاء السؤال السؤال بالتوفيق لأداء العمل الصالح عبر المصدر المؤول.
ومن الأساليب التي استعملها الإمام صيغة الجملة الاعتراضيّة المتضمّنة للدعاء، فالغرض الذي تحققه الجمل الاعتراضيّة في الكلام إنّما هو التوسّع في الكلام من خلال إضافة معنى جديداً فيه، وقد تراوحت هذه الجمل بين الدعاء بالخير أو بالشرّ، من ذلك قول الإمام في خطبة له: «اعملوا – رحمكم الله- على اعلام بيّنة، فالطريق نهج، يدعو الى دار السلام، وانتم في دار مستعتب على مهل وفراغ، والصحف منشورة، والأقلام جارية، والأبدان صحيحة، والألسن مطلقة، والتوبة مسموعة، والأعمال مقبولة»[6]، فجملة (رحمكم الله) فيها نوع من التلطّف والترحّم مع المخاطبين، إذ أفادت الدعاء لهم بالرحمة، فكأنّ سياق الكلام استوجب هذا النوع من الدعاء لأنّه عليه السلام في معرض الحديث عن مطلق الاعمال الصالحة الحاصلة في دار الحياة الدنيا حيث

---

١ . ظ: روائع البيان في خطب الإمام: ٩٥.
٢ . نهج البلاغة: ٢/ ٤٧٢.
٣ . المصدر السابق: ٢/ ٣٤٥.
٤ . المصدر السابق: ٣/ ٦١٧.
٥ . شرح ابن أبي الحديد: ١٧/ ١١٧.
٦ . المصدر السابق: ١/ ٢١٣.

الصحف لم تزل منشورة تسجّل فيها الأعمال، فلم تغلق السجلات بعد، مثلما هو الأمر في يوم القيامة، وأبواب التوبة لا زالت مفتوحة، ففي الكلام نوع من الحثّ والتوجيه لهذه الأعمال.
ومثله قول الإمام في الوصيّة بالتقوى: «فسابقوا- رحمكم الله- إلى منازلكم التي امرتم أن تعمّروها، والتي رغبتم فيها ودعيتم إليها»[1]، وهنا أيضاً كان المقام مقام تلطّف لأنّه عليه السلام يحثّهم على التزوّد للآخرة.
ولا تتحدّد دلالة الجملة الاعتراضيّة بهذا السياق، وإنّما قد تأتي في سياق الشدّة والذمّ، من ذلك قوله عليه السلام في الحثّ على الجهاد وذمّ المتقاعسين عن النهوض به: «يا أشباه الرجال ولا رجال! حلوم الأطفال، وعقول ربّات الحجال، لوددت أنّي لم أركم ولم أعرفكم، معرفة ، والله، جرّت ندماً، وأعقبت سدماً، قاتلكم الله، لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرّعتموني نغب التهامّ أنفاساً»[2]، فالجملة (قاتلكم الله) أفادت الدعاء عليهم من باب الذمّ لهم لأنّهم تخلّفوا عن ركن مقدّس من أركان الاسلام الذي لا يسقط عنهم بتخاذلهم، ولهذا كان تشبيههم بـ (حلوم الأطفال)، و(عقول ربّات الحجال) إنّما هو من باب إسقاط هذا الركن عنهم لأنّهم اتّصفوا بسمات حرمتهم من صفة الرجولة لأنّ عقولهم إلى عقول الأطفال والنساء أقرب، وهو من باب الذمّ لهم أيضاً.
ولا تتحدّد صيغة الجملة الاعتراضيّة في الدعاء بالشرّ عند هذه الصيغة بل نجد في نهج البلاغة استعمالاً لصيغ أخرى عرفها العرب وألفوها في كلامهم، منها صيغة (لا أبا لكم)، في مثل قوله في ذمّ أصحابه: «فلم آت – لا أبا لكم- بُجراً، ولا ختلته عن امركم ولا لبّسته عليكم»[3]، وصيغة (لله ابوهم)، في مثل قوله عن الحرب وأهوالها: «لله أبوهم- وهل أحد منهم أشدّ مراساً وأقدم فيها مقاماً منّي !»[4]، وسياق استعمال الصيغتين هو الذمّ.

- ثالثا: السمات الدلاليّة للدعاء:

تميّز أسلوب الدعاء في نهج البلاغة بخصائص مميّزة جعلت منه درراً مضيئة في وسط كتابات الإمام علي (عليه السلام) النورانيّة، ومثّلت في الوقت نفسه الملامح والمميّزات الفنيّة التي اتسمت بها أدعيته (عليه السلام)، ومن هذه الخصائص:
- تأثّر أسلوب الإمام كثيراً بأسلوب القرآن، فنجد في أدعيته إشارات كثيرة (إقتباسات) لألفاظ قرآنيّة وأحاديث نبويّة.
- اقترن أسلوبه بالظواهر البلاغيّة التي جمعت بين الشكل والمضمون فجاءت عباراته سلسلة متتالية خالية من التكلّف.
-اعتمد أسلوبه على المنطق، حيث يقنع المخاطب بالحجّة، والدليل العقليّ؛ لذا اتسم دعاؤه بمخاطبة العقول قبل القلوب.
- يعتمد على التصوير الرائع فجاءت عباراته أعمق أثراً في النفس من خلال استعماله لفنون البيان: التشبيه والاستعارة والكناية.
- مثّل السجع والتوازن والازدواج والمحسّنات معلماً بارزاً لأسلوب الإمام وإن لم يلتزم به في كلّ أسلوبه ولكنّه يبقى السمة البارزة التي اتّصف بها الاسلوب الأدبيّ في عصر الإمام.
- دقّة استعمال الألفاظ، وحسن الديباجة والرصف.
- عبّرت أدعيته عن الأوضاع الاجتماعيّة والسياسيّة والبيئيّة المعاصرة لحياة الإمام.
- الصدق المتناهي في المشاعر ممّا عكس تجربته الثريّة في الحياة وحقّق التأثير الفعّال في متلقيه، فصدق الخطاب والتجربة يعدّ عنصراً فعّالاً في الصدق الفنّي المتحقّق في أدعيته.

---

١ . المصدر السابق: ٢/ ٣٨٦.
٢ . المصدر السابق: ١/ ٩٢.
٣ . المصدر السابق: ٢/ ٢٦٥.
٤ . المصدر السابق: ٢/ ٧٥

- تأثر معانيه بمبادئ الاسلام، وقيم الفضيلة السامية، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، وطغيان الجدّية على نصوص أدعيته.
- شملت أدعيته خلاصة المعارف الدينيّة من الناحية الخلقيّة والتهذيبيّة للنفس، فضلاً عن الآراء الفلسفيّة والمباحث الالهيّة.
وسنحاول استيفاء هذه الملامح الدلاليّة جميعها في أثناء البحث.

- التأثّر بأسلوب القرآن:

يبدو تأثّر الإمام عليّ (عليه السلام) واضحاً بنصوص القرآن الكريم ومعانيه من خلال جانبين:
الأوّل: الاستشهاد بالنصوص القرآنيّة في معرض أدعيته.
والثاني: الاقتباس الشموليّ لألفاظ القرآن وتعابيره، فضلاً عن الاقتباس من آيات القرآن.
وقد يبدو للناظر أنّ كلا الجانبين يصبّان في مجرى واحد وهو التأثّر الواضح لأسلوب الدعاء بالقرآن وإن كانا يختلفان في أنّ الجانب الأول لا يخلو من ذكر لفظ (قوله تعالى)، أو (قال تعالى) قبل إيراد النصّ القرآنيّ، والجانب الثاني يخلو من هذا القول تماماً ليرد النصّ القرآنيّ مندمجاً ومتداخلاً مع كلام الإمام نصّاً أو معنى.
وللإستشهاد بالنصّ القرآنيّ وظيفة دلاليّة تضاف إلى دلالات الألفاظ، فالنصّ يستمدّ دلالات إضافيّة بما يوفّره استحضار الغرض الرئيس الذي ذكر فيه النصّ القرآنيّ، وما أحاطته من معاني جديدة، ولا يخفى على كلّ باحث منصف أنّ عليّ بن أبي طالب تربّى في حجر النبوّة، وتلازم وجوده مع نزول القرآن وتعاليمه على الرسول الكريم، فلا شكّ في أنّ بيانه ومنطقه تشبّع بهذا النصّ الإلهيّ الفائق في بلاغته وفصاحته كلّ فصاحة، وبهذا البيان الرساليّ للرسول الكريم جاءت ألفاظه انعكاساً لما تغذّى عليه من رحيق مختوم.
ومن الشواهد التي يمكن من خلالها الاستدلال بتأثر أسلوب الدعاء في نهج البلاغة بنصوص القرآن قوله عليه السلام في الاستسقاء: «إنّ الله يبتلي عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات، وحبس البركات، واغلاق خزائن الخيّرات، ليتوب تائب، ويقلع مقلع، ويتذكّر متذكّر، ويزدجر مزدجر. وقد جعل الله سبحانه الاستغفار سبباً لدرور الرزق، ورحمة الخلق، فقال سبحانه:**(اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ)** فرحم الله امرأ استقبل توبته، واستقال خطيئته، وبادر منيّته»[1]، فالنصّ القرآنيّ – ربّما- يستحضر حالة الصبر على الشدائد التي عاشها نوح (عليه السلام) مع قومه، مع تفانيه في دعوتهم حتّى أمتدّ به العمر طويلاً، فكأنّ الإمام يستحضر حالة النبيّ نوح ويطبّقها على علاقة قومه بالله سبحانه وتعالى أوّلاً، وعلاقتهم به ثانياً، وهذا الاستحضار لهذه الدلالات ما كان له أن يكون إلا من خلال الإستدلال بالنصّ القرآنيّ في داخل السياق الوارد فيه، فالاستغفار هو السبيل لدرور أنواع الرزق من الغيث والأموال والبنين.
ومثله قوله (عليه السلام) في كتاب له إلى قثم بن العبّاس وهو عامله على مكّة، «ومُر أهل مكّة أن لا يأخذوا من ساكن أجراً، فإنّ الله سبحانه يقول: **(سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ)**. فالعاكف: المقيم به، والبادي: الذي يحجّ إليه من غير أهله، وفّقنا الله وإيّاكم لمحابّه، والسلام»[2]، فالإمام يبيّن لنا أنّ التوفيق الالهيّ يأتي من خلال أداء محابّه، ومن هذه المحابّ عدم أخذ الأجر من الحجّاج: من قبل أهلها، أو من غير أهلها مستدلاً بالنصّ القرآنيّ الذي أشار إلى هذا الأمر.
وقال (عليه السلام) في توجيه الناس إلى كيفيّة الدعاء للتخلّص من الفتن التي ظهرت بعد وفاة الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، أو ستظهر بعد وفاته: «لا يقولنّ أحدكم: (اللهمّ إنّي أعوذ بك من الفتنة)؛ لأنّه ليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلات

---

١ . المصدر السابق: ٢/ ٢٩٠، والسورة الواردة في النصّ: (نوح/ ١٠- ١٢).
٢ . المصدر السابق: ٣/ ٦١٤، والسورة الواردة في النصّ: (الحجّ/ ٢٥).

الفتن، فإنّ الله سبحانه يقول: **(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ)**»[1]، فالإنسان المؤمن يجهل حجم الفتن المحيطة به أو مدى قربها منه، والآية القرآنيّة تشير إلى أنّ الأموال والأبناء من جملة الفتن التي قد يتعرّض لها الإنسان في حياته، والاستعاذة من الفتن يشملهم؛ لذا كان التوجيه بأن يستعيذ الإنسان من مضلات الفتن التي تبتعد بالإنسان عن دينه لا من مجمل الفتن التي من ضمنها نعم الله سبحانه على العبد التي هي فتن يختبر الله سبحانه عباده من خلالها.

إلى جانب هذا التأثّر الواضح – بالقرآن- في أسلوب الإمام نجد في أدعيته اقتباسات متعدّدة، تراوحت بين الألفاظ، والعبارات، والجمل والتراكيب، ولم تكن هذه الاقتباسات مقحمة على أسلوب كلامه لغرض التزويق اللفظيّ، وإنّما تداخلت مع نصوص الأدعية خاصّة، ومع كلّ نصوص نهج البلاغة عامّة، فلا نكاد نشعر بوجودها لشدّة سبكها مع النصّ، ولا نكاد نحسّ بها إلا وهي موجودة في نصّ بشريّ بعد أن كانت موجودة في نصّ الهيّ.

- إقتباس المفردات القرآنيّة:

يبدو أثر القرآن واضحاً بشكل لا يمكن إغفاله، «فالنصّ القرآنيّ له حضوره، وتجلّى بمظاهر عدّة، يأتي في مقدّمتها اقتباس المفردة القرآنيّة والتي تبدو إشارة مركّزة لنصّ غائب قد تكفي المفردة لاستحضار فاعليّته»[2]، فالاستعمال الأوليّ للألفاظ يبدو حاضراً في نصوص الإمام لا منقطعاً عنها أو دالاً على دلالات مغايرة لما وجدت عليه أصلاً، وهذا أمر يمكن التنبّه إليه بشكل واضح جدّاً، فاستحضار هذه المفردات بدلالاتها الأصليّة ضمن سياقات نصوصها أمر حاضر بكلّ حيثيّاته في كلّ نماذج المفردات القرآنيّة التي وردت في نماذج أدعيته، من دون أن تكون الألفاظ دالّة على معانيها المعجميّة الأصليّة فقط.

ومن أمثلة ذلك قوله عليه السلام: «اللهمّ ربّ السقف المرفوع، والجوّ المكفوف، الذي جعلته مغيضاً لليل والنهار، ومجرى الشمس والقمر، ومختلفاً للنجوم السيّارة، وجعلت سكّانه سبطاً من ملائكتك، لا يسأمون من عبادتك، وربّ هذه الأرض التي جعلتها قراراً للأنام، ومدرجاً للهوامّ والانعام، وما لا يحصى ممّا يرى وما لا يرى، وربّ الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتاداً، وللخلق اعتماداً، إن أظهرتنا على عدوّنا، فجنّبنا البغي، وسدّدنا للحقّ، وإن أظهرتهم علينا، فأرزقنا الشهادة، وأعصمنا من الفتنة»[3]، فأنظر إلى هذا النصّ كيف تظافرت الألفاظ التي تستحضر دلالاتها من النصّ القرآنيّ، فهي ألفاظ لم تكن معهودة في كلام العرب قبل نزول القرآن، فضلاً عن المعاني الجديدة التي لم يألفها الإنسان العربيّ وإلا فالإمام يعرض للسماء وما اشتملت عليه من كواكب ونجوم سيّارة، وملائكة، ثمّ يعرض للأرض التي هي قرار المخلوقات من بشر وهوامّ وأنعام، وموازنتها من خلال الجبال، وهذه الحقائق لم تكن مألوفة ولا معروفة أصلاً قبل نزول القرآن الذي تحدّث عن هذه الحقائق بإسهاب، وقد استحضر الإمام الألفاظ الدالة على هذه الحقائق كي يظهر لنا من خلال التوجّه إليه سبحانه بالدعاء استقلاليّته بإجابة الدعاء.

ومثله قوله عليه السلام: «واعظم ما هنالك بليّة نزول الحميم، وتصلية الجحيم، وفورات السعير، وسورات الزفير، لا فترة مريحة، ولا دعّة مريحة، ولا قوة حاجزة، ولا موتة ناجزة، ولا سنّة مسليّة بين أطوار الموتات، وعذاب الساعات، إنّا بالله عائذون»[4]، وهنا نوع آخر من إظهار القدرة وذلك من خلال تصوير جهنّم، وما فيها من ألوان العذاب وهذه الفكرة عن عذاب اليوم الآخر جديدة في المجتمع الإسلاميّ، فانظر إلى هذه الألفاظ: (الحميم، الجحيم، السعير، الزفير) التي اسندت بدلالاتها التي وردت في القرآن المضامين التي تحدّث عنها الإمام في سياق الكلام الذي أوردها فيه.

---

١ . المصدر السابق: ٤/٦٤٥، والآية الواردة في النصّ: (الانفال/ ٢٨).
٢ . الإقتباس والتضمين في نهج البلاغة: ١٦.
٣ . نهج البلاغة: ٢/ ٣٤٥.
٤ . المصدر السابق: ١/ ١٧٣، ١٧٤.

- إقتباس التراكيب القرآنيّة:

اشتملت إقتباسات التراكيب على نوعين:

أ- الإقتباس المباشر (النصّيّ):

وفي هذا النوع من الإقتباس يتمّ إقتباس آية بنصّها من دون تغيير، وفي هذا النوع نستجلي دلالات الآية الأصليّة لتدلّ عليه داخل نصّ جديد، مثال ذلك قوله في دعائه لاستسقاء الناس: «اللهمّ أنشر علينا غيثك، وبركتك، ورزقك ورحمتك، وأسقنا سقياً ناقعة مرويّة، معشبة، تنبت بها ما قد فات، وتحيي بها ما قد مات، نافعة الحيا، كثيرة المجتنى، تروى بها القيعان، وتسيل البطنان، وتستورق الأشجار، وترخّص السعار، إنّك على ما تشاء قدير»[1]، ففي إيراد قوله تعالى: **(إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)** في سياق هذا الدعاء إنّما هو استحضار للسياق الذي وردت فيه هذه العبارة في داخل النصّ القرآنيّ، من قوله تعالى: **(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)**[2]، فمفاتيح الخير كلّها بيد الله سبحانه وباب هذه المفاتيح هو الدعاء فهو المالك والمعزّ والمذلّ ولا تحقيق لهذه المفاتيح إلا من خلاله.

ومثله قوله تعالى في ملاقاة الأعداء: «اللهمّ اليك أفضت القلوب، ومدّت الأعناق، وشخصت الأبصار، ونقلت الأقدام، وأنضيت الأبدان، اللهمّ قد صرّح مكنون الشنآن، وجاشت مراجل الأضغان، اللهمّ إنّا نشكو اليك غيبة نبيّنا، وكثرة عدوّنا، وتشتّت أهوائنا، **(رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ)**»[3]، فسياق الآية القرآنيّة تداخل مع سياق الدعاء بحيث لم ينفصل أحدهما عن الآخر، فجسّدت الآية القرآنيّة مفهوم الدعاء بأكمله من الدعوة إلى الفتح والنصر.

وقد يغيّر الإمام سياق الآية لتتناسب مع مقام الكلام، فالكلام موجّه من العبد الى سيّده ومولاه، وإذا ما وجّه كلاماً أو آية من النصّ القرآنيّ وفيه يتحدّث – سبحانه - عن نفسه فإنّ الكلام سوف يعود مدلوله على الإمام (عليه السلام)؛ لذا تأدّباً فإنّه يغيّر دلالة الضمير في هذه الآيات لتتناسب مع المقام، مثل قوله في الاستسقاء: «اللهمّ سقياً منك تُعشب به نجادنا، وتجري به وهادنا، ويخصب بها جنابنا، وتقبل به ثمارنا، ..، وأنزل علينا سماء مخضلة، مدراراً هاطلة، يدافع الودق منها الودق، ويحفز القطر منها القطر، غير خلّب برقها، ولا جهام عارضها، ولا قزع ربابها، ولا شفّان ذهابها، حتّى يخصب لأمراعها المجدبون، ويحيا ببركتها المُسنِتُون، فإنّك تنزل الغيث من بعد ما قنطوا، وتنشر رحمتك وأنت الوليّ الحميد»[4]، فقول الإمام: (فإنّك تنزل الغيث من بعد ما قنطوا، وتنشر رحمتك، وأنت الوليّ الحميد) هو كلام مقتبس من قوله تعالى: **(وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ)**[5] ولمّا كان الكلام في النصّ القرآنيّ في مقام الغيبة، فإنّ الإمام غيّر صيغة الكلام ليكون دالاً على الخطاب المباشر مشيراً بذلك الى أنّ الله سبحانه وتعالى حاضر في مقام دعائنا له في كلّ الأحوال.

ب- الإقتباس غير المباشر:

ويضمّن النصّ القرآنيّ في هذا النوع من الإقتباس داخل السياق فلا تجده يُنقل بنصّه وإنّما يُنقل بمعناه، فيستدعيك النصّ عند قراءته مشيراً إلى النصّ الأصليّ بالبنان، من ذلك قول الإمام في الوصيّة بالقرابة والعشيرة: «إنّ المال والبنين حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة، وقد يجمعهما الله لأقوام، فأحذروا من الله ما حذّركم من نفسه، وأخشوه خشية ليست بتعذير، نسأل

---

١ . المصدر السابق: ٢/٢٩١.
٢ . آل عمران/٢٦.
٣ . نهج البلاغة: ٣/٥٠٤.
٤ . المصدر السابق: ١/٢٥٤- ٢٥٥.
٥ . الشورى/٢٨.

الله منازل الشهداء، ومعايشة السعداء، ومرافقة الانبياء»[1]، فقد أشار النصّ في قوله: (إنّ المال والبنين حرث الدنيا) إشارة واضحة إلى قوله تعالى: **(نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ)**[2]، وقوله تعالى: **(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا)**[3]، أمّا قول الإمام: (والعمل الصالح حرث الآخرة) ففيه إشارة واضحة إلى قوله تعالى: **(مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ)**[4]

ويختم النصّ بالدعاء: (نسأل الله منازل الشهداء، ومعايشة السعداء، ومرافقة الانبياء) وفي هذا الدعاء إلماحة واضحة لقوله تعالى: **(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا)**[5]، فالنصّ كثّف العبارات الموصلة إلى فكرة الدعاء عبر عبارات موجزة شملت كلّ هذه الآيات القرآنيّة في مضامينها.

ومن ذلك أيضاً قوله عليه السلام: «اللهمّ داحي المدحوّات، وداعم المسموكات، وجابل القلوب على فطرتها، شقيّها وسعيدها، إجعل شرائف صلواتك ونوامي بركاتك على محمد عبدك ورسولك»[6]، فقد استحضر السياق من خلال عباراته قوله تعالى في حديثه عن السماء: **(رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا)**[7]، فكان الدعاء مضمّناً معنى القول القرآنيّ مع توجيه الكلام إلى الله سبحانه وتعالى.

- الإقتباس من الحديث والأمثال العربيّة:

لا يقتصر التأثر الحاصل في نهج البلاغة على القرآن الكريم بل يظهر تأثيراً واضحاً للحديث النبويّ الشريف والمثل العربيّ في سياق أدعيته، من أمثلة ذلك قوله عليه السلام عند عزمه على المسير إلى الشام بعد حرب الجمل: «اللهمّ إنّي أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال والولد، اللهمّ أنت الصاحب في السفر، وأنت الخليفة في الأهل، ولا يجمعهما غيرك؛ لأنّ المستخلف لا يكون مستصحباً، والمستصحب لا يكون مستخلفاً»[8]، فقد كان مقدّم الدعاء مرويّاً عن الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ، ثمّ أعقبه الإمام بتتمّة تكمل الدعاء وتعلّل له فالله سبحانه وتعالى ليس من جنس الموجودات حتّى ينعدم وجوده في مكان بمجرّد إنتقاله إلى مكان آخر، فهو خارج عن أن تحيط بكنهه المخلوقات[9].

ومثله قوله في ذمّ أصحابه: «الذليل والله من نصرتموه، ومنْ رمي بكم فقد رمي بأفوق ناصل، وإنّكم والله لكثير في الباحات، قليل تحت الرايات، وإنّي لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم، ولكنّي لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي. أضرع الله خدودكم، وأتعس جدودكم، لا تعرفون الحقّ كمعرفتكم الباطل، ولا تبطلون الباطل كإبطالكم الحقّ»[10]، فقول الإمام: (كثير في الباحات، قليل تحت الرايات) نقيض لما قاله الرسول الكريم عن الأنصار، مادحاً لهم: (إنّكم لتكثرون عند الفزع، وتقلّون عند الطمع)[11]، وفي سياق حديث الإمام فقد جاء قسمه (والله) مؤكداً حقيقة

---

١ . نهج البلاغة: ١/ ٨٢.
٢ . البقرة/٢٢٣.
٣ . الكهف/٤٦.
٤ . الشورى/ ٢٠.
٥ . النساء/ ٦٩.
٦ . نهج البلاغة: ١/ ١٤٦.
٧ . النازعات/٢٨- ٣٠.
٨ . نهج البلاغة: ١/ ١٢٠.
٩ . ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٣/ ١٦٦.
١٠ . نهج البلاغة: ١/ ١٤٣.
١١ . النهاية في غريب الحديث: ٢/ ٤٤٣.

أصحابه ومبيّناً معدنهم الحقيقيّ، ساعده على ذلك استدعاء أكبر قدر ممكن من التوكيدات الممثّلة بـ (إنّ، القسم، اللام)، رغبة منه في توكيد حالهم، وتيقّنه منهم، فضلاً عن استعماله للمفردات: (الباحات، الرايات) التي تمثّل كنايتين مبيّنتين حقيقة موقفهم المتناقض من: الغنائم والجهاد في الحرّ من واقع الطباق المعنويّ الذي مثّلته اللفظتان، فضلاً عن الطباق اللفظيّ بين: (كثير، و قليل)، فهم كثير في وقت الدعّة والأمان، والغنائم، قليل في الحروب والدفاع عن الإسلام.
وقد يتضمّن الدعاء إقتباساً من المثل القرآنيّ وهذا الإقتباس أفاد الدلالة على الدعاء، مثل قول الإمام في توبيخ أصحابه على التباطؤ على نصرة الحقّ: «... أشهود كغيّاب، وعبيد كأرباب، أتلو عليكم الحكم فتنفرون منها، وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرّقون عنها، وأحثّكم على جهاد أهل البغي فما آتي على آخر قولي حتّى آراكم متفرّقين أيادي سبأ ...»[1]، فالمثل المضمّن في السياق (أيادي سبأ) يضرب للتفرّق والفرقة، وأصله مأخوذ من قوله تعالى عن أهل سبأ: **(وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ)**[2]، ويقال: ذهبوا أيدي سبأ وأيادي سبأ، أي ذهبوا متفرّقين، ويضرب هذا المثل لبيان تفرّق الجمع المقصود بهم، وللدعاء عليهم، أي لا تفارقه الفرقة، فيكون تضمين المثل في كلام الإمام دعاء عليهم بهذا التفرّق[3].

ـ إعتماده على المنطق:

الملاحظ أنّ الإمام في نهج البلاغة عامّة، وفي أدعيته خاصّة يعتمد على المنطق وأسلوب الجدل والمحاججة، حيث يقنع المخاطب بالحجّة والدليل العقليّ، فهو لا يترك الأمور على علاتها، وهذا الأسلوب أوقع في التأثير على المتلقّي، وإحداث التأثير المطلوب في نفسه، من ذلك قوله: «الحمد لله الذي لم يصبح بي ميّتاً ولا سقيماً، ولا مضروباً على عروقي بسوء، ولا مأخوذاً بأسوأ عملي، ولا مقطوعاً دابري، ولا مرتدّاً عن ديني، ولا منكراً لربّي، ولا مستوحشاً من إيماني، ولا ملتبساً عقلي، ولا معذّباً بعذاب الأمم من قبلي، أصبحت عبداً مملوكاً ظالماً لنفسي، لك الحجّة عليّ، ولا حجّة لي، لا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني، ولا أتّقي إلا ما وقيتني»[4]، فالتوجّه إلى الله سبحانه والشكر له كان معلّلاً بتعداد كلّ هذه النعم التي ذكرها، ولو ذكرنا واحدة منها لكان قليلاً أمام هذا الشكر الذي نقدّمه إلى الله سبحانه وتعالى، وقد استعمل الإمام أسلوب ذكر لوازم النعم من دون النعم ذاتها؛ لتكون أبلغ في استحضار المعنى، فالموت والسقم يستجلبان ضدّها وهي نعمة الصحّة، ووقوع البلاء والعقوبة بسبب الذنوب تستجلب البعد عن إيقاع السيئات والعبادة الحقّة، والإرتداد عن الدين والكفر يستجلبان الإيمان، وعدم وقوع الشكّ في الدين أو المسّ في العقل يستجلبان سلامة السريرة وصفائها، فكلّ هذه النعم إذ تحققت فهي مدعاة لتحقق العبوديّة المطلقة لله سبحانه، هذا الأسلوب من تعداد النعم إنّما هو وسيلة بسيطة تتلائم مع عقول البسطاء من الناس فضلاً عن العلماء تبيّن علّة وقوع العبوديّة للإنسان والقصور عن الإحاطة بنعم الله عليه أو تمام شكره عليها.
ومثله قوله في التظلّم من قريش: «اللهمّ إنّي استعديك على قريش ومن أعانهم، فإنّهم قد قطعوا رحمي، وأكفأوا إنائي، وأجمعوا على منازعتي حقّاً كنت أولى به من غيري»[5]، فالدعاء على قريش كان بسبب استوجب وقوعه، فهم قطعوا رحمه، وأبعدوه عنهم، ونافسوه في حقّه، وانتزعوه منه، فكلّ هذه الأمور كانت سبباً وجيهاً لأن يطلب معونة الله سبحانه وتعالى للنصر عليهم.

---

١ . نهج البلاغة: ١/ ٢١٦.
٢ . سبأ/ ١٩.
٣ . ظ: الأمثال في نهج البلاغة: ٢٩.
٤ . نهج البلاغة: ٤٤٨/٢.
٥ . المصدر السابق: ٤٥٣/٢.

ومثله قوله في ذمّ الدنيا وزينتها: «وإنّ دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها، ما لعليّ ولنعيم يفنى، ولذّة لا تبقى !! نعوذ بالله من سبات العقل وقبح الزلل، وبه نستعين»[1]، فالزهد في هذه الدنيا إنّما لأنّ نعيمها زائل، ولذّتها غير باقية، فاستعاذ الإمام بالله سبحانه من وقوع السبات في العقل لأنّه مدعاة إلى الركون إليها والإغترار بزينتها.

- التصوير الرائع:

لم يغلّب الإمام (عليه السلام) في نهج البلاغة أعلى نصّ بيانيّ بعد كلام الله سبحانه وتعالى وكلام رسوله، لم يغلّب في إستعماله للدلالات الدلالة المجازيّة على الحقيقيّة؛ إذ لم يكن دافعه الجمال الشكليّ الذي تحقّقه البلاغة في مضامينها التحسينيّة، ولكنّ هذه الدلالات تعاضدت وتوازنت لتؤدّي الوظيفتين: الحقيقيّة والمجازيّة من دون خلل أو اضطراب وهذه السمة وسمت نهج البلاغة في كلّ مضامينه الدلاليّة.

وتظهر القدرة التصويريّة- التي تمثّل واحدة من الدلالات المجازيّة- في أدعية نهج البلاغة من خلال استعمال الفنون التصويريّة المختلفة من تشبيه، واستعارة، وكناية، هذه الفنون لم تكن طارئة على أسلوب الكلام ونسقه، وإنّما وظّفت توظيفاً متناسقاً لتخدم الأسلوب وتظهره بشكل آخر تتّسع فيه الدلالات لتشمل أموراً لا يمكن إظهارها إلا من خلال هذه الفنون، بل إنّ التصوير هو العنصر الفعّال الذي يوصل إلى الدعاء ويعطي الحقّ والرغبة في تحققه، والقول بأنّ الدعاء لا يحتمل الركون إلى التصوير في غالب الأحيان لأنّه يميل إلى المباشرة والتقريريّة[2] رأي فيه إطلاق غير مبرّر؛ إذ قد يصدق الأمر مع الدعاء عند طبقة العامّة من الناس أمّا مع إمام البلاغة والفصاحة والبيان فهو أمر يحتاج إلى إعادة نظر.

فمثلاً قوله: «رحم الله امرأً تفكّر فاعتبر، واعتبر فأبصر، فكأنّ ما هو كائن من الدنيا عن قليل لم يكن، وكأنّ ما هو كائن من الآخرة عمّا قليل لم يزل، وكلّ معدود منقضٍ، وكلّ متوقّع آتٍ، وكلّ آتٍ قريب دانٍ»[3]، فالتشبيه في هذا النصّ استند إلى أساس من المقابلة بين متضادّين، هما: الدنيا والآخرة، محدثاً مفارقة ساخرة بين قليل الدنيا الذي لا يغني شيئاً لتفاهته بدلالة الوصف (لم يكن)، ومنبّهاً على عظمة قليل الآخرة بدلالة الوصف (لم يزل)، وهو وصف يتجاوز الحاضر الى المستقبل ممّا يكسبه صفة الديمومة والخلود.

وانظر الى قوله في كتاب له إلى أحّد عماله: «... وكأنّك إنّما كنت تكيد هذه الأمّة عن دنياهم، وتنوي غرّتهم عن فيئهم، فلمّا أمكنتك الشِّدَّة في خيانة الأمّة أسرعت الكرّة، وعاجلت الوثبة، واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم المصونة لأراملهم وايتامهم، اختطاف الذئب الأزلّ، دامية المعزى الكسيرة، فحملته الى الحجاز رحيب الصدر بحمله، غير متأثّم من أخذه، كأنّك -لا أبا لغيرك- حدرت الى أهلك تراثك من ابيك وامّك»[4]، فالتشبيه في هذا النصّ يوحّد بين طرفين، الأوّل: صورة أحّد عمّاله- عمرو بن العاص- وهو يستغلّ الأمانة التي اؤتمن عليها من خلال منصبه، فيسلب أموال الايتام والأرامل. والطرف الثاني: صورة الذئب الخفيف، السريع الذي يهجم على المعزى الكسيرة الدامية، فيكون الجامع بين الطرفين ضعف الآخر، واستلاب حقّه، ووضع قدرة المطاولة في غير موضعها، وكان هذا التشبيه ممهّداً للدعاء عليه بهذه الصيغة (لا أبا لغيرك)، متجاوزاً الصيغة المعهودة عند العرب (لا أبا لك)؛ لأنّ الذين أوصلوه إلى هذا الأمر ومكّنوه منه هم الآخرين بتزيين الأمر له وسكوتهم عنه، فكان الدعاء شاملاً له ولهم.

ومثله قوله في الإستسقاء: «اللهمّ اسقنا ذلل السحاب دون صعابها»، فقد جرى التشبيه في هذا الدعاء على غير أساليب التشبيه المألوفة، إذ «شبّه السحب ذوات الرعود والبوارق، والرياح،

---

١ . المصدر السابق: ٤٦٩/٢.
٢ . ظ: البلاغة الحديثة، في ضوء المنهج الاسلاميّ: د. محمود البستاني: ١٥١- ١٥٢.
٣ . نهج البلاغة: ١/ ٢٢٥.
٤ . المصدر السابق: ٣/ ٥٥٣.

والصواعق، بالإبل الصعاب التي تقمص برحالها، وتتوقص بركبانها، وشبّه السحائب الخالية من تلك الزوابع بالإبل الذلل، التي تحتلب طيّعة، وتقتعد مسمحة»[1]، فالدعاء باستجلاب هذا النوع من السحب دون النوع الآخر؛ لأنّ هذه السحب هي التي ستحقّق المراد منها من سقي الأرض وتحقّق صفة الإحياء والنماء بكلّ يسر وسهولة فيكون أدعى لحصول البهجة في النفس والرضا والإطمئنان.

ومثله في الدعاء على طلحة والزبير: «... فأحلل ما عقدا، ولا تُحكم لهما ما أبرما، وأرهما المساءة فيما أمّلا وعملا»[2]، فقد وقعت الإستعارة التصريحيّة في الألفاظ: (احلل) و(لا تحكم) وسيلة لتقريب مفهوم الكلام إلى الذهن، وتصوير ما وقع فعلاً على أرض الواقع من التعاقد على إلحاق الضرر بالدين من خلال محاربة الإمام والخروج على بيعتهم له، وإحكامهم لهذا العقد وإبرامه إبراماً، فكان استحضار وصف الحبل وعقده وإبرامه وسيلة مضمونة لبيان المقصود من الكلام.

ومن التراكيب الاستعاريّة التي حفلت بها أدعية الإمام قوله في الإستشفاء: «اللهمّ صن وجهي باليسار، ولا تبذل جاهي بالإقتار، فأسترزق طالبي رزقك، واستعطف شرار خلقك، وأبتلى بحمد من أعطاني، وأفتتن بذمّ من منعني»[3]، فالإستعارة في صون الوجه إنّما هو تعبير مبيّن عن مدى الحاجة الملحّة لحماية كرامة الإنسان وعزّته المتحقّقة من دلالة الوجه باليسار، فهو السبيل إلى حماية الوجه من كلّ ما يشينه ويقلّل من عزّه، فكان استهلال الدعاء للإستشفاء بهذه الصيغة الإستعاريّة إنّما هو السبيل لبيان أنّ لا ملجأ لتحقّق الشفاء إلا هو سبحانه، ولا ملجأ إلا إليه.

وقد تتظافر الصيغ المجازيّة مع بعضها بعضاً في نصوص الدعاء، من ذلك قوله: «اللهمّ إليك أفضت القلوب، ومُدّت الأعناق، وشخِصت الأبصار، ونُقلت الأقدام، وأُنضيت الأبدان، اللهمّ قد صرّح مكنون الشنآن، وجاشت مراجل الأضغان، اللهمّ إنّا نشكو إليك غيبة نبيّنا، وكثرة عدوّنا، وتشتّت أهوائنا، ربّنا أفتح بيننا وبين قومنا بالحقّ وأنت خير الفاتحين»[4]، فالكنايات المتلاحقة عبّرت عن الرغبة الملحّة في تحقّق الهدف المراد من النصر، فإفضاء القلوب، وامتداد الأعناق، وشخوص الأبصار، ونقل الأقدام، ونضوّ الأبدان إنّما هي كنايات عبّرت عن التطلّع إلى رحمة الله سبحانه وتعالى وكرمه، ثمّ جاء التعبير بالصور الاستعارية معبّراً عن العجز أمام هذه الابتلاءات، (صرّح مكنون الشنآن)، و(جاشت مراجل الأضغان)، فتشخيص الحقد وتصريحه بذاته عن الضغائن المكنونة المزروعة في نفوس أعداء الإسلام، وغليان الأضغان استعداداً للانفجار إنّما هو تصوير رائع لشدّة الحاجة لوجود الرسول الكريم بين ظهرانيهم كي يخفّف عن شخص الإمام بعضاً من هذه الفتن من غيبة الناصح الأمين، وكثرة العدو، وتمزّق الأمّة بين أهواء ونزعات متعدّدة.

ـ إستعماله المحسّنات البديعيّة:

ذكر بعض الباحثين أنّ نهج البلاغة اتّسم بصفة عامّة غلبت على مفاصله وهي سمة التنميق الأدبيّ القائم على السجع والتزويق اللفظيّ ممّا لم يعهده العصر الاسلاميّ الأوّل، والحقّ أنّ هذه السمة لم تكن واردةً إلا عرضاً، وحسبما تقتضيه الأصول البلاغيّة، وبشكل أقلّ ممّا ورد في القرآن[5]، وعندما نذكر قضيّة السجع والتزويق اللفظيّ فإنّنا لسنا بمعزل عن النظر إلى هذه المحسّنات البديعيّة في أدب الدعاء، إذ إنّ قضيّة التأثير في الذوق العربيّ تأخذ مداها عندما

---

١ . المصدر السابق: ٢٠/ ٢٢٩.
٢ . المصدر السابق: ٢/ ٢٨٥، ٢٨٦.
٣ . المصدر السابق: ٢/ ٤٦٩.
٤ . المصدر السابق: ٣/ ٥٠٤.
٥ . ظ: ملامح من عبقرية الإمام: د. مهدي محبوبة: ١٠٩.

تتقارب المقاطع محدثة إيقاعاً خاصّاً بها، وهذا التقارب لا يحدثه السجع فقط بل تشترك فيه أغلب المحسّنات البديعيّة التي تعدّدت في أساليب الدعاء الواردة في نهج البلاغة، فتحقّق الإيقاع الذي كان سمّة مميّزة لأسلوب نهج البلاغة عامّة، وأسلوب الدعاء خاصّة، ومن هذه النصوص التي نستدلّ بها على استعمال المحسّنات البديعيّة استعمالاً مدروساً قوله عليه السلام في وصيّته: «أمّا وصيّتي، فالله لا تشركوا به شيئاً، ومحمّد (صلّى الله عليه وآله) فلا تضيّعوا سنّته، اقيموا هذين العمودين، وأوقدوا هذين المصباحين، ... ربّ رحيم، ودين قويم، وإمام عليم، أنا بالامس صاحبكم، وأنا اليوم عبرة لكم، وغداً مفارقكم، غفر الله لي ولكم»[1]، ففي هذا النصّ أكثر من فنّ بديعيّ، فمثلاً المقاطع المستعملة في هذا النصّ متوازنة من حيث الوزن الموسيقيّ: (فالله لا تشركوا به شيئاً)، و(ومحمّد فلا تضيّعوا)، و(اقيموا هذين العمودين)، و(أوقدوا هذين المصباحين)، وقد ساند هذا الجانب الموسيقيّ ورود السجع في العبارات اللاحقة: (اليوم عبرة لكم)،(غداً مفارقكم)،(غفر الله لي ولكم) فتحقّق التوازن اللفظيّ والمعنويّ في النصّ.

ومثله كلام الإمام عن أهل الكوفة يقول: «يا أهل الكوفة: منيت بكم بثلاث واثنتين: صمّ ذوو أسماع، وبكم ذوو كلام، وعمي ذوو أبصار، لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا أخوان ثقة عند البلاء، تربت أيديكم»[2]، فقد جمع السياق بين التوازن الموسيقيّ، وحسن التقسيم المتأتي من أسلوب التعداد (منيت بثلاثة واثنتين) وهو أسلوب معروف عند الإمام، فضلاً عن الطباق الجامع بين أطراف العبارات، إضافة إلى الفاصلة غير الموحّدة الجامعة بين العبارات والموازنة بينها، وقد بلغت مقاطع العبارات في نهج البلاغة من التوازن ما لا يقارن به أيّ نصّ فصيح آخر عدا القرآن الكريم.

ومن المحسّنات الواردة أيضاً الطباق، في مثل قوله: «الحمد لله على ما تأخذ وتعطي، وعلى ما تعافي وتبتلي»[3]، فقد جمع السياق بين لفظتيّ: تأخذ، وتعطي، وهما متضادّتان، ومثلها لفظتيّ: تعافي وتبتلي، والصيغ التي كانت عليها الألفاظ هي صيغ موحّدة من الفعل المضارع الدالّ على استمراريّة هذه القدرة الالهيّة، والمسوّغ لهذا الجمع بين هذه الصفات المتضادّة هو تحقّق القدرة الإلهيّة على هذه الصفات مجتمعة؛ ولهذا لم يستحق الحمد إلا الله سبحانه وتعالى.

ومثله: «اللهمّ...إجعل شرائف صلواتك، ونوامي بركاتك على محمد عبدك ورسولك الخاتم لما سبق، والفاتح لما انغلق، والمعلن الحقّ بالحقّ»[4]، في هذا السياق افترقت صيغ الطباق، إذ جُمع بين: (الفاتح) وهي صيغة اسم الفاعل، و(انغلق) وهي صيغة فعل ماضي، وفي باب الدلالة فإنّ صيغة الاسم أقوى وأثبت فأفاد الطباق الحادث بين اللفظتين أنّ سمة الفتح هي السمة الغالبة على شخص الرسول الكريم، هذا الفتح يشتمل على الفتح المعنويّ والمادّيّ.

ومن أمثلة الطباق أيضاً قوله عليه السلام: «اللهمّ إنّي أعوذ بك أن افتقر في غناك، أو أضلّ في هداك، أو أضام في سلطانك، أو أضطهد والامر لك»[5]، وسياق الطباق في هذا النصّ يقترب من من سياق النصّ السابق، فالطباق الواقع بين (افتقر) و(غناك)، و(أضلّ) و(هداك)، و(أضام) و(سلطانك)، و(أضطهد) و(الامر لك)، والملاحظ أنّ الطباق في وجهه الأول الخاصّ بالعبد جاء بصيغة الجمل الفعليّة التي فعلها فعل مضارع ممّا دلّ على الحاجة المستمرّة إلى الله سبحانه، والوجه الثاني الخاصّ بالله سبحانه وتعالى جاء بصيغة الأسماء المعرّفة بالاضافة إلى ضمير المخاطب، ممّا يشير إلى ثبوت هذه الصفات بذات الله سبحانه وتعالى فهو المستقلّ بهذه القدرة.

---

١ . نهج البلاغة: ٢/ ٢٩٨.
٢ . المصدر السابق: ١/ ٢١٦، ٢١٧.
٣ . المصدر السابق: ٢/ ٣١٨.
٤ . المصدر السابق: ١/ ١٤٦.
٥ . المصدر السابق: ٢/ ٤٤٨.

والملاحظ في هذه الأمثلة جميعها أنّها توازنت موسيقيّاً فتظافرت المحسّنات من سجع وطباق وحسن تقسيم وموازنة وغيرها من المحسّنات في خدمة التوازن الخارجيّ فضلاً عن التوازن الداخليّ الذي اشتملت عليه.

ـ دقة إستعماله الألفاظ:

ممّا لا شكّ فيه أنّ فصاحة أيّ نصّ وبلاغته تعتمد اعتماداً كليّاً على حسن إنسجام ألفاظه مع بعضها بعضاً، وعمليّة الإنسجام هذه تنطلق تبدأ من إختيار اللفظة المفردة ووضعها في موضعها الذي لا ينبو عنه أو يتخلخل في دلالته، وإذا ما نظرنا إلى نهج البلاغة نجد أنّ صاحب الفصاحة والبيان أبدع أيّما إبداع في توظيف الألفاظ عبر دلالات محدّدة ومقصودة في الوقت نفسه، إذ لم تكن اختياراته نابعة من منطلق تناسب الألفاظ لتحقيق التزويق اللفظيّ فقط، وإنّما نابعة من ضرورة ملحّة يستدعيها اللفظ مع المعنى.

ومن الأمثلة التي تؤيّد ما ذكرناه سابقاً قول الإمام للمغيرة بن الأخنس: «أبعد الله نواك، ثمّ أُبلِغ جهدك فلا أبقى الله عليك إن بقيت»[1]، وقد استعمل الإمام في الدعاء عليه لفظة (نواك) وهي لفظة شاع استعمالها عند العرب في الدعاء، والمراد منها: نوءك، من أنواء النجوم التي كانت العرب تنسب المطر إليها، وكانوا إذا دعوا على إنسان قالوا: أبعد الله نوءك، أي خيرك[2]، والمراد من إستعمال هذه الصيغة الدعاء عليه بالبعد والإشارة إلى أنّه لا خير في قربه أو بعده.

ومثله قوله (عليه السلام) في الإستسقاء: «اللهمّ انشر علينا غيثك وبركتك، ورزقك ورحمتك، وأسقنا سقياً نافعة مرويّة، معشبة، تنبت بها ما قد فات، وتحيي بها ما قد مات ، نافعة الحياء، كثيرة المجتنى، تروي بها القيعان، وتسيل البطنان، وتستورق الاشجار، وترخص الأسعار، إنّك على ما تشاء قدير»[3]، فالألفاظ تعاضدت لتؤدّي المعنى أكمل تعبير وأتمّه، فلفظة (أنشر) تعني البسط للغيث الذي يمثّل عنوان البركة والرزق والرحمة على كلّ جزئيّات الأرض المقفرة، العطشة، فالبسط يعطي معنى شموليّة هذه العنوانات مجتمعة من دون تميّز لجانب أو منطقة على أخرى، وقد تعاضدت الألفاظ الدالّة على الرغبة في تحقّق الرحمة والحياة وهو الغرض من الدعاء للإستسقاء، مثل: (نافعة، مروية، معشبة، تنبت، تحيي، نافعة الحياء، كثيرة المجتنى)، فضلاً عن ذلك فإنّ الدعاء تضمّن الوصول إلى ما يتجاوز حدود إرواء العطش فقط إلى ما ريّ الأراضي الواسعة من قيعان الأرض، فتكون سبباً في أن تستورق الأشجار، وتنمو الثمار فيكون ذلك مدعاة إلى رخص الأسعار بسبب بذلها وتوفّرها.

ومثله قوله (عليه السلام): «نحمده على ما كان، ونستعينه من أمرنا على ما يكون، ونسأله المعافاة في الأديان، كما نسأله المعافاة في الأبدان»[4]، فلمّا كانت نعم الله سبحانه وتعالى في الماضي معلومة جعل الحمد بأزائه، أمّا المجهول الذي لا يدرك فلا يُحمد عليه وإنّما نستعين الله عليه، على ما فيه من خير أو شرّ؛ لذا جعل الإستعانة بأزائه؛ لأنّ الماضي لا يستعان عليه، ولقد ظرف وأبدع (عليه السلام) في سؤاله المعافاة في الأديان والأبدان؛ وذلك أنّ للأديان سقماً وطبّاً وشفاءً كما للأبدان[5].

ـ التعبير عن الاوضاع الاجتماعيّة والسياسيّة والبيئيّة المعاصرة:

لقد كان للظروف التي عاصرها الإمام: الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة أثراً فاعلاً في الخصائص الأدبيّة لكلامه عموماً؛ لأنّه عايشها وتفاعل معها، وقد تأثّرت أدعيته غير المباشرة

---

١ . المصدر السابق: ٢/ ٢٨٤.
٢ . شرح ابن أبي الحديد: ٨/ ٣٠١.
٣ . نهج البلاغة: ٢/ ٢٩١.
٤ . المصدر السابق: ١/ ٢١٩.
٥ . شرح ابن ابي الحديد: ٧/ ٨١.

وهي التي تندرج ضمن موضوعات أخرى بالغرض الرئيس الذي يتحدّث عنه، فمثلاً في مجال حديثه عن الأمور السياسيّة، من دعوة الى الإستعداد للحرب، أو الجهاد، أو رسائله الى أعدائه نجد أنّ أسلوبه يميل إلى الشدّة فإمّا أن يكون الدعاء لهم أو عليهم أو لنفسه، أي أنّ الدعاء يكون مندرجاً في السياق نفسه الذي يندرج فيه كلام الإمام العامّ.
ونلحظ هذه الشدّة في الخطاب في كتاباته إلى معاوية، فهو يقول له في أحد كتاباته تلك: «ومتى كنتم - يا معاوية- ساسة الرعيّة، وولاة أمر الأمّة ؟ بغير قدم سابق، ولا شرف باسق، ونعوذ بالله من لزوم سوابق الشقاء، وأحدّرك أن تكون متمادياً في غِرّة الأمنية، مختلف العلانيّة والسريرة»[1]، فالدعاء وإن كان للنفس إلا أنّه جاء متناغماً مع ما افتقده معاوية للمطالبة بإمارة الشام من السبق في الدخول للإسلام، أو شريف النسب، فجاء الدعاء للنفس بهذه الصيغة (نعوذ بالله من لزوم سوابق الشقاء)، فالسابقة حتى وإن تحقّقت لا بدّ من أن تقترن بإيمان حقيقيّ، لا أن يكون السبق متحقّق لمعاوية في إرتكاب المعاصي التي توجب الشقاء في جهنّم، فضلاً عن أنّ الجناس المتحّقق بين قوله (باسق)، (سابق) وجمعه على (سوابق) يربط بين المفترض الذي ينبغي أن يكون عليه معاوية، وبين ما هو عليه في الحقيقة.
ومثله قوله (عليه السلام) في التبرّؤ من الظلم: «والله لو اعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت، وإنّ دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها، ما لعليّ ولنعيم يفنى ولذّة لا تبقى !! نعوذ بالله من سُبات العقل، وقُبح الزلل، وبه نستعين»[2]، وهنا تبدو البلاغة والفصاحة في أوجها، فكأنّ الدعاء الذي اختتم به كلامه مثّل الحدّ الفاصل بينه وبين الوقوع في الظلم لنفسه أو للآخرين: (نعوذ بالله من سبات العقل).
أمّا الأثر الاجتماعيّ فيبدو واضحاً في دعوته إلى مكارم الأخلاق، والإبتعاد عن الغيبة، والنميمة، والدعوة إلى الثقة بين المسلمين، والحديث عن الساعة، أو الجنّة والنار، أو الدنيا، والحثّ على أداء الحقّ على وجهه الصحيح، والتأكيد على طاعة الله سبحانه، والإبتعاد عن المعصية، مثال ذلك قوله عليه السلام: «وأعلموا أنّه ما من طاعة الله شيء لا يأتي إلا في كره، وما من معصية الله في شيء إلا يأتي في شهوة، فرحم الله رجلاً نزع عن شهوته، وقمع هوى نفسه، فإنّ هذه النفس أبعد شيء منزعاً، وإنّها لا تزال تنزع إلى معصية في هوى»[3].

وقوله في التحذير من الموت وأهواله: «تجهّزوا- رحمكم الله- فقد نودي فيكم بالرحيل، وأقلّوا العُرجة على الدنيا، وانقلبوا بصالح ما بحضرتكم من الزّاد، فإنّ أمامكم عقبة كؤوداً، ومنازل مخوفة مهولة، لا بدّ من الورود عليها، والوقوف عندها»[4].

أمّا أثر بيئته الجغرافيّة فيبدو واضحاً في وصفه المظاهر الطبيعيّة السائدة في بيئته من جبال أو صحارى أو وديان، وهذا الأمر يتحقّق كثيراً في أدعيته للاستسقاء، أو في وصفه لأراضي المعارك التي ستجري في منطقة ما، من ذلك قوله في الإستسقاء: «اللهمّ خرجنا إليك حين اعتكرت علينا حدابير السنين، واخلفتنا مخايل الجود، فكنت الرجاء للمبتئس، والبلاغ للملتبس، ندعوك حين قنط الأنام، ومُنع الغمام، وهلك السوام، ألا تؤاخذنا بأعمالنا، ولا تأخذنا بذنوبنا، وأنشر علينا رحمتك بالسحاب المنبعق، والربيع المغدق، والنبات المونق، سحّاً وابلاً، تحيي به ما قد مات، وتردّ به ما قد فات»[5]، فأنظر إلى روعة التشبيه في صورة (الحدابير) وهي النوق الهزيلة التي انكشفت فقار ظهورها بسبب ذوبان شحم السنام من شدّة الجوع والقحط، فالجامع بين النوق والمعنى الأصليّ الذي أخذت منه اللفظة -(الحدب)- هو التحدّب والقفر، وإضافتها

---

١ . نهج البلاغة: ٣/ ٤٩٩.
٢ . المصدر السابق: ٢/ ٤٦٨، ٤٦٩.
٣ . المصدر السابق: ٢/ ٣٥٣.
٤ . المصدر السابق: ٢/ ٤٣٥.
٥ . المصدر السابق: ١/ ٢٥٣، ٢٥٤.

إلى (السنين) التي هي مقحطة مجدبة أصلاً للمبالغة في وصف الجوع والقحط لهذه السنين المتوالية المتتابعة، فكأنّ وصف النوق الهزيلة أصبح ملازماً لهذه السنين[1].

وانظر إلى الإستعمال الجميل للألفاظ الدالة على السرعة والإمتلاء في نطقها الصوتيّ: (المنبعق)، و(المغدق)، و(المونق)، إذ عكست هذه الألفاظ الحالة التي يدعو إليها الإمام من الرغبة في سرعة إجابة الدعاء، وأنّه ينبغي أن يكون من الجواد الكريم سبحانه ريّاً غزيراً محيلاً هذا الجدب والقحط إلى ربيع وخضرة زاهرة.

ومثله قوله: «اللهمّ قد انصاحت جبالنا، وأغبرّت أرضنا، وهامت دوابّنا، وتحيّرت في مرابضها، وعجّت عجيج الثكالى على أولادها، وملّت التردّد في مراتعها، والحنين إلى مواردها، اللهمّ فأرحم أنين الآنّة، وحنين الحانّة، اللهمّ فأرحم حيرتها في مذاهبها، وأنينها في موالجها»[2]،

فالدعاء عكس طبيعة البيئة الجغرافيّة للمنطقة التي يصفها الإمام من: تشقّق الجبال إثر جفاف التربة من شدّة العطش، واغبرار الأرض من تيبّس النباتات التي تعلوها، وهيام الدوابّ، وتحيّرها في مرابضها فلا ملجأ تذهب إليه لتروي عطشها، أو تسدّ جوعها، وتتلخّص هذه الأحوال جميعاً في صورة التشبيه التي أوردها الإمام للدلالة على حالة اليأس والجوع والشدّة التي يمرّون بها من خلال قوله (وعجّت عجيج الثّكالى على أولادها) فقد شكّل التشبيه منعطفاً غير مألوف في قواعد التشبيه إذ شبّه البهائم التي تئنّ من شدّة الجوع والقحط بحالة النساء الثّكالى في عويلهنّ على أبنائهنّ الأموات الذين لا يرجى عودتهم أبداً، فاليأس من عودتهم قد بلغ مداه لديهنّ.

- الصدق المتناهي في المشاعر:

يبدو واضحاً للعيان من خلال النصوص التي تضمّنت الدعاء بأشكاله عامّة أنّه (عليه السلام) يتحدّث فيها حديث الخبير بالأمور، العارف بحيثيّات وقوعها؛ ولذلك صدرت أدعيته (عليه السلام) عن المتكلّم الواعي لحقائق الأمور، العارف بها يقين المعرفة، فعلمه عليه السلام مستمدّ من علم الرسول الكريم الذي أخذ علمه عن جبرائيل عن الله سبحانه وتعالى، فهو الناطق عن الله سبحانه، لا ينطق عن الهوى، ومن كان منطقه منطق رسول الله لأحقّ أن يتّبع كلامه فهو غصن من شجرة النبوّة الطيّبة.

فمن تصريحات الإمام في أدعيته، قوله: «فو الذي لا إله إلا هو إنّي لعلى جادّة الحقّ، وإنّهم لعلى مزلّة الباطل، أقول ما تسمعون، واستغفر الله لي ولكم»[3]، فالإمام على يقين من إيمانه، وأنّه على الحقّ لا يحيد عنه، وأنّ أعداءه على الباطل.

ومن حديثه المقترن بصدق المشاعر وكلّه صادق قوله عن خبّاب بن الأرت- أحّد عمّاله- بعد وفاته: «يرحم الله خبّاب بن الأرت، فلقد أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وقنع بالكفاف، ورضي عن الله، وعاش مجاهداً»[4]. فقد لخّص حياة (خبّاب) بأوجز عبارة وأدلّها، وقد صدّر كلامه عنه بالدعاء له بصيغة الجملة الفعليّة (يرحم الله)، فهو المطالب له بالرحمة الالهيّة التي تتجاوز ميزان العدل الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، ثمّ أنظر إلى وصفه له (عليه السلام) بأنّه (رضي عن الله) ولكنّه لم يوضّح لنا الموقف الإلهيّ من رضوان الله سبحانه عنه؛ لأنّه أمر متروك له سبحانه.

---

١ . ظ: غريب نهج البلاغة: ١٨٣، ١٨٤.
٢ . نهج البلاغة: ١/ ٢٥٣.
٣ . المصدر السابق: ٢/ ٤٢٥.
٤ . المصدر السابق: ٤/ ٦٣٧.

ومثله قوله في ذمّ أصحابه: «أضرع الله خدودكم، وأتعس جدودكم، لا تعرفون الحقّ كمعرفتكم الباطل، ولا تبطلون الباطل كإبطالكم الحقّ»[1]، فانظر إلى حديثه عنهم حديث المتيقّن بهم وبتصرفاتهم، بما اكتسبه من خبرة عن أحوالهم تجاوزت حدود المعرفة العاديّة إلى المعرفة اليقينيّة، وقد اسند هذه المعرفة القيم الدلاليّة التي تظافرت لخدمتها وبيانها على أكمل وجه وأتمّه.
ومنه قوله عليه السلام لبعض أصحابه في علّة أعتلّها: «جعل الله ما كان من شكواك حطّاً لسيئاتك، فإنّ المرض لا أجر فيه، ولكنّه يحطّ السيئآت، ويحتّها حتّ الأوراق، وإنّما الأجر في القول باللسان، والعمل بالأيدي والأقدام، وإنّ الله سبحانه يُدخل بصدق النيّة والسريرة الصالحة من يشاء من عباده الجنّة»[2]، وقد «صدق عليه السلام إنّ المرض لا أجر فيه؛ لأنّه ليس من قبيل ما يُستحقّ عليه العوض؛ لأنّ العوض يُستحقّ على ما كان في مقابلة فعل الله تعالى بالعبد من الآلام والأمراض وما يجري مجرى ذلك، والأجر والثواب يستحقّان على ما كان في مقابلة فعل العبد، فبينهما فرق قد بيّنه عليه السلام كما يقتضيه علمه الثاقب ورأيه الصائب»[3]، فدعاء الإمام نبع عن شخص صادق في إيمانه، وكان فيه على درجة عالية منه فاستحقّ منزلته بجدارة.

ـ التأثّر بمباديء الاسلام والدعوة الى مكارم الاخلاق:

اجتمعت للإمام عليه السلام خصال انفرد بها ولم تجتمع لأحد غيره من الصحابة، وهي العلم الغزير والشجاعة العالية، والفصاحة الباهرة القويّة، ومجاهدة النفس، وصدق السريرة، ونبل الهدف وسموّه، يضاف إلى ذلك محامد الأخلاق ومكارم الطباع[4]، التي ما خرجت عن مباديء الإسلام ومكارمه، وقد اكتسب كلامه (عليه السلام) بشدّة التأثير في سامعيه؛ لأنّه كلام نابع عن ناصح أمين، وواعظ على درجة عالية من الايمان، وباب الدعاء خير من تضمّن الدعوة إلى هذه المحامد والمكارم؛ لأنّه من باب التوجّه الصادق إلى الله سبحانه وتعالى، وفي هذه اللحظة يتجرّد الإنسان من شوائب النفس الشيطانيّة فيكون أقرب ما يكون إلى النفس الرحمانيّة المبنيّة على الفطرة، ومن أمثلة ذلك قول الإمام، «اللهمّ اغفر لي ما أنت أعلم به منّي، فإن عدت فعد لي بالمغفرة، اللهمّ اغفر لي ما وأيت من نفسي ولم تجد له وفاء عندي، اللهمّ اغفر لي ما تقرّبت به إليك بلساني ثمّ خالفه قلبي، اللهمّ اغفر لي رمزات الألحاظ، وسقطات الألفاظ، وشهوات الجنان، وهفوات اللسان»[5]، فقد انطلق الإمام من الدعاء للنفس إلى أسلوب تدريب الأمّة وتهذيبها على حسن العبادة وأسلوب التذلّل إلى الخالق، فالعمل لا بدّ من أن يقترن بالنيّة الصادقة التي تبتعد عن كلّ ما يكدّرها أو يحوّلها إلى نيّة سيئة بفضل الجوارح.
ومن مكارم الاخلاق التي دعا إليها الإمام وهي مبدأ من مباديء الإسلام: الدعوة إلى الصدق، وتجنّب الغدر، وهذه الصفة وإن كانت غالبة على المجتمع، فعلى المؤمن أن يجنّب نفسه الوقوع في براثن هذه الخصلة؛ لأنّ الايمان مانع له وناهي من الوقوع في الإنحراف الأخلاقيّ، مثلاً قوله عليه السلام: «أيّها الناس إنّ الوفاء توأم الصدق، ولا أعلم جُنّة أوقى منه، ولا يغدر من علم كيف المرجع. ولقد أصبحنا في زمان قد اتّخذ أكثر أهله الغدر كيساً، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة، ما لهم – قاتلهم الله- قد يرى الحوّل القلّب وجه الحيلة، ودونها مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين»[6]، ويبيّن لنا سياق الكلام أنّ من توافرت فيه صفة الوفاء، فلا بدّ من أن تجتمع معها صفة الصدق،

---

١ . المصدر السابق: ١/ ١٤٣.
٢ . المصدر السابق: ٤/ ٦٣٦.
٣ . المصدر السابق: ٤/ ٦٣٧.
٤ . ظ: روائع البيان في خطاب الإمام: ١٩٣.
٥ . نهج البلاغة: ١/ ١٥٥.
٦ . المصدر السابق: ١/ ١١٥.

فهما توأمان يجتمعان معاً ولا يفترقان، ويكشف لنا عن حقيقة أخرى وهي أنّ إطلاق المسمّيات الرنّانة التي تجيز الخروج عن مبدأ من مباديء الإسلام لا تنطلي على الإنسان المؤمن؛ لأنّه ينظر بعين البصيرة التي تمنعه من الوقوع في الزلل متّبعاً أمر الله ونهيه.
ومن المباديء التي أقرّها الاسلام وحثّ عليها نهج البلاغة من هذا المنطلق نصرة الحقّ والإعانة عليه، إذ قال عليه السلام: «رحم الله امرأ رأى حقّاً فأعان عليه، أو رأى جوراً فردّه، وكان عوناً بالحقّ على صاحبه»[1]، فنصرة الحقّ تبعد الإنسان عن المفاسد والأهواء والبدع الباطلة التي قد يتيحها التملّص من قول الحقّ وترك الأمور وزمامها بيد من لا يرعون حقّ الله في عباده.
ومثله قوله في نصرة المظلوم: «اللهمّ إنّك تعلم أنّه لم يكن الذي كان منّا منافسة في سلطان، ولا إلتماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنردّ المعالم من دينك، ونُظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطّلة من حدودك»[2]، وهذا الذي يبيّنه الإمام هو جوهر قضيّة نصرة الحقّ وهو: إقامة حدود الله، وتحقيق الإمان للعباد، والدعاء إلى الله سبحانه وتعالى بهذه الحقيقة التي لم تكن خافية عليه، وإنّما الغرض من هذا الدعاء إنّما تهذيب أخلاق العباد وتوجيهها نحو الإقتداء بهذه المباديء وتطبيقها.
ومن هذا الباب أيضاً ما رسمه الإمام لنا في بعض أدعيته بعضاً من مواصفات الوالي على الأمّة، إذ قال: «اللهمّ إنّي أوّل من أناب وسمع وأجاب، لم يسبقني إلا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بالصلاة، وقد علمتم أنّه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج، والدماء، والمغانم، والأحكام، وإمامة المسلمين، البخيل، فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلّهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه»[3]، فإمامة المسلمين ليست منصباً فخريّاً يعطى بحسب الأهواء فيتولّاه تبعاً لذلك: البخيل، والجاهل، والقاسي؛ وإنّما هو منصب يتولاه من هو أجدر بذلك؛ لتعلّق حقوق العباد من الحفاظ على الشرف، والدمّ، وأموال المسلمين.

ـ شملت ادعيته خلاصة المعارف الدينيّة من الآراء الفلسفيّة والالهيّة:

وصف ابن أبي الحديد هذا الوجه الدلاليّ عند الإمام عليّ (عليه السلام) بقوله: «إنّ التوحيد والعدل والمباحث الشريفة الالهيّة، ما عرفت إلا من كلام هذا الرجل، وإنّ كلام غيره من اكابر الصحابة لم يتضمّن من ذلك أصلاً، ولا كانوا يتصوّرونه ولو تصوّروه لذكروه، وهذه الفضيلة عندي أعظم فضائله (عليه السلام)»[4]، ومن مزايا هذا الرجل الذي عاش بين ظهرانيّ أهل مكّة، مكّة، ولم يخالط الحكماء والفلاسفة أنّه مثّل التلميذ النابه لأستاذ الحكمة وسيّد الحكماء الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) الذي انتقاه سبحانه وتعالى لمنصب النبوّة بفضل مواصفاته الفريدة التي أهّلت له هذا الانتقاء؛ ليكون الاستاذ والمعلّم والمربّي لشخص الوصيّ (عليه السلام).
لقد تجسّدت المباحث الالهيّة بشكل واضح في أسلوب الدعاء؛ لأنّه الميدان الذي يظهر فيه ذلّ العبد وخضوعه لسلطان الله وعظمته، فهو الواهب الفرد، والمنعم بالعطاء من دون سواه، وقد تداخلت هذه المباحث مع جزئيّات الدعاء بحيث لا نشعر بوجودها، ولا نحسّ باستقلالها، من ذلك قوله عليه السلام في بيان عظمة الله سبحانه: «أمره قضاء وحكمة، ورضاه أمان ورحمة، يقضي بعلم، ويعفو بحلم، اللهمّ لك الحمد على ما تأخذ وتعطي، وعلى ما تعافي وتبتلي، حمداً يكون أرضى الحمد لك، وأحبّ الحمد لك، وأفضل الحمد عندك، حمداً علا على ما خلقت، ويبلغ

---

١ . المصدر السابق: ٢/ ٤٣٧.
٢ . المصدر السابق: ٢/ ٢٧٨.
٣ . المصدر السابق: ٢/ ٢٧٨، ٢٧٩.
٤ . شرح ابن أبي الحديد: ٦/ ٣٤٦.

ما أردت، حمداً لا يحجب عندك، ولا يقصر دونك، حمداً لا ينقطع عدده، ولا يفنى مدده»[1]، فتقدّم الكلام ببيان نتيجة الأوامر الالهيّة وما ترتّب عليها من قضاء وحكمة، وأمان ورحمة للعبد، وتخصيص هذا الوصف بذات الله سبحانه وتعالى يتجّسد في سياق الكلام بتقديم الخبر المتألّف من الجار والمجرور (لك) على مبتدأه، ومجيء الجمل الواصفة لأفعال الله سبحانه بصيغ فعليّة فعلها مضارع: (تأخذ، تعطي، تعافي، تبتلي) يفيد استمراريّة هذه الصفات، ثمّ إنّ استعمال الصيغ الدالّة على مواصفات الحمد الذي يوجّهه الإمام إلى الله سبحانه وتعالى: (أرضى، أحبّ، أفضل)، جاءت بصيغ التفضيل التي تمثّل المرتبة العليا على ما سواها، فضلاً عن الأوصاف الأخرى التي تثبّت الحمد له- سبحانه- وتقصره عليه من دون سواه: (لا يحجب عنك، ولا يقصر دونك، لا ينقطع عدده، لا يفنى أمده).

ولا يهمل الإمام وهو في معرض الدعاء مقام التوحيد الذي ينزّه الله سبحانه من أن يكون له شريك في الملك فيستحقّ الدعاء من سواه، يقول الإمام في هذا المقام: «اللهمّ وهذا مقام من أفردك بالتوحيد الذي هو لك، ولم ير مستحقّا لهذه المحامد والممادح غيرك، وبي فاقة إليك لا يجبر مسكنتها إلا فضلك، ولا ينعش من خلّتها إلا منّك وجودك، فهب لنا في هذا المقام رضاك، وأغننا عن مدّ الأيدي إلى سواك، إنّك على ما تشاء قدير»[2]، فكأنّ مقام الكلام فيه تربية للنفس البشريّة، فالدعاء لا بدّ من أنّ يكون فيه رضا الله متحقّقاً عن العبد كي يضمن الإجابة عليه، وإلا ما الفائدة في دعاء لإنسان سخط الله عليه وغضب فكيف يجيبه إلى ما طلبه، وإلا فهذه الحالة لم تتحقّق لدى الإمام وإنّما كان الغرض منها تهذيب النفوس وتربيتها.

ومثله قوله عليه السلام في وصف نعم الله على عباده: «اللهمّ أنت أهل الوصف الجميل، والتعداد الكثير، إن تؤمّل فخير مؤمّل، وإن ... فأكرم مرجوّ، اللهمّ وقد بسطت لي فيما لا أمدح به غيرك، ولا أثني به على أحد سواك، ولا أوجهه إلى معادن الخيبة ومواضع الريبة، وعدلت بلساني عن مدائح الآدميين، والثناء على المربوبين المخلوقين، ... وقد رجوتك دليلاً على ذخائر الرحمة وكنوز المغفرة»[3]، فمن اتّصف بصفات القدرة والكمال استحقّ أن يُعبد، وأن يُلجأ إليه، وأن يُثنى عليه من دون الخلق.

وفي الختام فهذا غيض من فيض من دلالات أدعية الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) في نهج البلاغة، استعرضنا بعضاً منها وما أحطنا بها كلّها، ولكنّنا حاولنا قدر الإمكان، وإلا فما اشتمل عليه أسلوب الدعاء في نهج البلاغة يتجاوز ما ذكرناه بمرّات؛ لأنّ الكلام لم يكن صادراً من شخص عاديّ بلغ مرتبة من الفصاحة والبيان مع تمتّعه بذوق أدبيّ لا بأس به، وإنّما صدر عن ربيب القرآن وبيت النبوّة، صاحب الفصاحة كلّها، والبلاغة والبيان، فكيف تكون كلماته وتراكيبه؟؟ لا شكّ في أنّها بلغت الذروة في الأداء الدلاليّ، بعضه وصلنا إليه إعتماداً على مفهومنا القاصر، وبعضه نتركه للأيّام تظهره لنا، ومحاولتنا تأتي في باب استكشاف بعضاً من هذه الدلالات وتوضيحها، ومن الله التوفيق.

مصادر البحث ومراجعه:

- القرآن الكريم.
- الإقتباس والتضمين في نهج البلاغة، دراسة أسلوبيّة: كاظم عبد فريح، أطروحة دكتوراه مقدّمة إلى جامعة البصرة/ كليّة التربية بإشراف الدكتور سوادي فرج مكلّف، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.
- الأمثال في نهج البلاغة: محمد الغروي، ط١، منشورات فيروز آبادي، قم، ١٤٠١ه.

١ . نهج البلاغة: ٢/ ٣١٨.
٢ . المصدر السابق: ١/٢٠٨.
٣ . المصدر السابق: ١/ ٢٠٨.

- البلاغة الحديثة، في ضوء المنهج الاسلاميّ: د. محمود البستاني، ط١، دار الفقه للطباعة والنشر، قمّ المقدّسة، ١٤٢٤هـ.
- روائع البيان في خطاب الإمام، الجوانب البلاغيّة واللغويّة في بيان أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب: د. رمضان عبد الهادي، ط١، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
- شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، ط٢، دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٣٧م.
- الصحيفة السجاديّة: حسين علي محفوظ، مقال منشور في مجلّة (البلاغ) الكاظميّة، س١، ع٦.
- عقائد الإماميّة: محمد رضا المظفّر، تحقيق: محمد جواد الطريحيّ، المكتبة الحيدريّة، النجف، ١٣٧٠ه.
- علم المعاني: د. قصي سالم علوان، ط٢، مطابع جامعة البصرة، ٢٠٠٥م.
- غريب نهج البلاغة، أسبابه، أنواعه، توثيق نسبته، دراسته: د. عبد الكريم حسين السعداوي، ط١، مكتبة الغدير، طهران، ١٤٢٩ه، ٢٠٠٨م.
- لسان العرب: ابن منظور (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، (د. ت).
- ملامح من عبقريّة الإمام: د. مهدي محبوبة، مطبعة الزهراء، ١٩٦٧.
- من أدب الدعاء في الإسلام: السيّد محمد رضا الحسيني الجلاليّ، جزء من كتاب: الدعاء في الإسلام، ما هو؟ وكيف؟ ولماذا؟ منشور على الانترنت: www.m.alhassanain.com/ad٣yah/adab.
- النهاية في غريب الحديث: ابن الأثير (ت٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الراوي، ومحمود محمد الطناحي، مؤسّسة اسماعيليان، ط٤، قمّ المقدّسة، ١٣٦٤هـ.
- نهج البلاغة، وهو مجموع ما اختاره الشريف الرضيّ من كلام سيّنا ومولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، شرح الإمام محمد عبدة، ط١، مطبعة ذوي القربى، قمّ المقدّسة، ١٣٨٤م.

الأثر الفكري في تمييز رجال الحديث من خلال نهج البلاغة

المدرس الدكتور: حســن كاظـم أسـد (جامعة ميسان - كلية التربية)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لما كان دور أهل البيت، الأساس في الترصين والتنظير الفكري لفهم المراد من الخطاب الإلهي لئلا يقع تحت طائلة الأذواق الشخصية والتوجهات المذهبية، والرؤى الفرقية؛ ولكون الرسول، هو الرائد الأول في وضع الأسس لمدرسة أهل البيت، الحديثة ومن بعده الإمام علي، سار على نحوه بإقامة الحجة، والسير بالناس على الجادة القويمة، فكان نعم المؤل والمنهل، فهو قد أسس الإنطلاقه في العلوم الدينية بوجه عام وعلوم الحديث بوجه خاص، فقد وضع القواعد التي من خلالها تمحص الروايات؛ وسد الباب لمن حاول توجيه الخطاب الإلهي غير الوجهة الإلهية الحقيقية.

لهذا قسم البحث إلى ثلاثة مطالب وهي:

الأول: تأسيس الإمام علي العلوم الإسلامية.

أ- شخصية الإمام علي الفكرية.

ب- الدورالفكري في تفسير القرآن الكريم.

ج- الدورالفكري في تأصيل قواعد الحديث.

د-الدور الفكري في تأسيس العلوم الأخرى.

الثاني:علم الحديث وأدواره:

أ- التلقي.

ب- التأسيس.

الثالث:الاختلافات.

أ- مباني التوثيق الرجال.

ب- القواعد الكلية في كلام أمير الكلام.

خاتمة البحث.

المبحث الأول: تأسيس الإمام علي العلوم الإسلامية.

أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لفت انتباه الفكر الإنساني بصورة عامة بشخصية فذة عميقة جدا إذ تألق ليعانق مختلف ميادين العلم والحكمة، بحيث تلازم علي والفكر والعلم والحكمة، فتجده مؤسساً لكثير من العلوم بمختلف تقسيماتها، وذلك ليس غريبا إذ أنه استقى العلم والحكمة من رسول الله إذ خصه بعلم لا يتأتى إلا من قبله، إذ قال: (علمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح من كل باب ألف باب)، بل هناك دلالة أخرى نجدها في قول الرسول الأكرم: (علي مع القرآن والقرآن معه)، وهي من بين دلالات عديدة يمكن أن تفاد من هذا الحديث، وهي الاتحاد في المفاهيم العلمية والفكرية التي سلّم بإعجازها العلماء من عهد النزول إلى يومنا هذا وهي باقية إلى يوم القيامة، فالقرآن معجزة خالدة، وعلم وفكر مساوقان للقرآن الكريم لهما من الخلود المعجز لما للقرآن الكريم من خلود إعجازي، فالإمام يجسد القرآن، فهو القرآن الناطق. فعلم الإمام من مقومات الرسالة السماوية الخاتمة، إذ أنها رسالة عامة تكفلت بما يعنى بصلاح البشرية جمعاء، وعلي وصي الرسول الخاتم فلا شك أن(علمه من منبع الرسالة، المستمد من علم العلام جل شأنه)، فعن عبد الله بن عباس(ت٦١هـ)، قال: (والله لقد أعطي علي بن أبي طالب تسعة أعشار العلم، وأيم الله لقد شارككم في العشر العاشر)، وذلك أن الله تعالى حباه

بذلك ليكون مزودًا بمؤهلات فكرية ووقدرات ذهنية ارتفعت به إلى مستوى يفوق الذكاء عند سائر البشر، لما ألقي على عاتقه من تحمل مسؤوليات الرسالة بعد النبي، ومن ذلك يتضح الداعي لما قام به من أداء فكري و هو في معرض إرساء أسس العلوم من عدة زوايا انسانية ولاسيما منها الزوايا الفكرية والعلمية والسياسية والروحية النفسية، فعن سعيد بن المسيب، قال: (ما كان أحد من الناس يقول: سلوني غير علي بن أبي طالب)، ويطل البحث على بعض تلك الملامح من خلال:

أ- شخصية الإمام علي (عليه السلام) الفكرية.

لو نظرنا إلى شخصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بصفة بشرية مجردة، فإن تكوين شخصية الإنسان يرجع إلى عوامل مهمة كل منها تسهم في تكوين الشخصية ويكون لها أثر عميق في بناء كيانها. ومن أهم هذه العوامل، الوراثة والتربية والبيئة، إذ أن كل ما يتصف به الإنسان من حسن الصفات أو قبيحها، تنشأ وتنمو من خلال هذه العوامل. فالأبناء لا يرثون من آبائهم المال والأوصاف الظاهرية فقط كملامح الوجه وغير ذلك، بل يمكن أن يرثون من كل ما يتمتع به الآباء من خصائص روحية وصفات أخلاقية عن طريق الوراثة أيضا. فالوراثة تؤثر في تحديد بعض صفات الشخصية، من حيث الاستعداد في النفس، فاذا وجدت البيئة المناسبة نمت وترعرعت بالاتجاه المناسب لها. من صفات جسمية، وصفات عقلية: كحدة الذكاء أو البلادة، والسجايا والميول والاهتمامات والاتجاهات، كالاهتمام أو عدم المبالاة، والرعونة وحدة الطبع، وسرعة الاجابة أو الخمول والجمود، والاحساس أو تعب الأعصاب، والانشراح والاكتئاب والسيكولجية الأخرى. إذ يؤثر عامل الوراثة في باطن كل إنسان بصورة فطرية جبلية أو الموجودة في كيانه بسبب الوراثة من الأبوين. كما أن التربية والبيئة لهما الأثر الواضح في بناء الشخصية (فإن في مقدور كل معلم أن يرسم مصير الطفل ومستقبله من خلال ما يلقي إليه من تعليمات وتوصيات وما يعطيه من سيرة وسلوك ومن آراء وأفكار، فكم من بيئة حولت أفرادا صالحين إلى فاسدين، أو فاسدين إلى صالحين)، وعلي بن أبي طالب، ولد من أبوي شرف ورفعة وعفة، وأسرة تسنمت سنام الفخر والعزة، وتربى في حجر سول الله، فهو معلمه، وأشار إلى ذلك، إذ قال: (أنا وضعت في الصغر بكلاكل العرب، وكسرت نواجم قرون ربيعة ومضر. وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة. وضعني في حجره وأنا ولد يضمني إلى صدره، ويكنفني إلى فراشه، ويمسني جسده ويشمني عرفه. وكان يمضغ الشئ ثم يلقمنيه. وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل... ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علما ويأمرني بالاقتداء به. ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري). وهذه المكونات انتجت شخصية فكرية سامية، سددها مقتضى الحكمة الإلهية لتحمل أعباء مسؤلية الإمامة الكبرى. فكان للإمام دور فكري ظاهر في تأسيس العلوم.

ب- الدور الفكري في تفسير القرآن الكريم.

تفسير القرآن الكريم على وجه الجزم والقطع لا يعلم إلا بأن يصح نصّ عن المعصوم في ذلك التفسير بعينه، ولما كان ذلك متعذرا إلا في آيات قلائل، فاستكشاف المراد يكون بتوسط مقدمات ودلائل وأمارات، وبذلك يكون التفسير -فيما لا نصّ فيه بالخصوص- كسائر العلوم الشرعية الأخرى، وعليه فيتركب التفسير من شقين نظري وآخر تطبيقي كأغلب العلوم، لتكون معياراً لتقويم المجال التطبيقي في التفسير، وقد كان لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب الدور الأهم بعد رسول الله في الجانب التطبيقي، فهو مثال العمل الذي أراده القرآن الكريم، كما أنه قد فسر القرآن الكريم، فقد ورد عنه الكثير من التفسير لا سيما في نهج البلاغة، وقد جمع أحد الفضلاء التفسير الوارد عنه في كتاب، كما أن ما ورد من تفسير للقرآن عن طريق ابن عباس(ت٦١هـ) وابن مسعود(ت٣٢هـ) فهو عنه لأنهما تلميذاه، وكذا الأئمة المعصومون من أبنائه عليهم السلام. ثم أنه فتح باب تأسيس القواعد الأولية للجانب النظري في التفسير، فهو أعرف بذلك وأجدر، فهو الثاني بعد الرسول الأكرم في فهم خطاب الباري جلّ وعلا، عن عبد الله بن

مسعود(ت٣٢هـ)، قال: (إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلا له ظهر وبطن وإن علي بن أبي طالب عنده علم الظاهر والباطن)، وعن أبي الطفيل، قال: (قال علي: سلوني عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار، قي سهل أم في جبل)، وروي عنه أنه قال: (والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت وأين أنزلت، إن ربي وهب لي قلبا عقولا، ولسانا سؤولا)، ومن هذا المنطلق نجد أنه، فإنه جمع القرآن الكريم حفظاً وتدوينا، روى الكليني(ت٣٢٩هـ) بإسناده عن سليم بن قيس الهلالي قال سمعت أمير المؤمنين يقول... إلى أن قال: «ما نزلت آية على رسول الله إلا أقرأنيها وأملاها عليَّ فكتبتها بخطي وعلمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها ودعا الله لي أن يعلمني فهمها وحفظها فما نسيت آية من كتاب الله ولا علما أملاه علي فكتبته منذ دعا لي بما دعا وما ترك شيئا علمه الله من حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهي كان أو يكون ولا كتاب منزل على أحد قبله من طاعة أو معصية إلا علمنيه وحفظته فلم أنس منه حرفا واحدا ثم وضع يده على صدري ودعا الله أن يملأ قلبي علما وفهما وحكمة ونورا. فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي مذ دعوت الله لي بما دعوت لم أنس شيئا ولم يفتني شيء لم أكتبه أوَ تتخوف علي النسيان فيما بعد؟ فقال: لست أتخوف عليك نسيانا ولا جهلا»، وروى أبو نعيم(ت٤٣٠هـ) في الحلية بإسناده عن علي قال: «لمّا قبض رسول الله أقسمت أن لا أضع ردائي على ظهري حتى أجمع مابين اللوحين، فما وضعت ردائي حتى جمعت القرآن»، وقد أسس للعلوم التي بها يمكن التوصل إلى فهم المراد من الخطاب الإلهي في القرآن الكريم، من علوم مساعدة وعلوم أصيلة في تفسير القرآن الكريم، كعلم النحو فعن أبي الأسود الدؤلي رضي الله عنه قال: (دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فرأيته مطرقا متفكرا فقلت فيم تفكر يا أمير المؤمنين قال إني سمعت ببلدكم هذا لحنا فأردت أن أصنع كتابا في أصول العربية، فقلت إن فعلت هذا أحييتنا وبقيت فينا هذه اللغة ثم أتيته بعد ثلاث فألقى إلي صحيفة فيها بسم الله الرحمن الرحيم الكلام كله اسم وفعل وحرف فالاسم ما أنبأ عن المسمى والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل)، وعلم النحو من أهم العلوم الأساسية التي توظف جزئياتها في الأداء التفسيري المنهجي ليفضي إلى فهم القرآن الكريم، إذ أن النص القرآني عبارة عن بناء لغوي قائم على نظام اللغة العربية، وذلك يعطي لعلم النحو أهميته في الكشف عن المعنى المراد في ذلك النص، ومما ورد عنه «(عليه السلام)» من أسس عامة يمكن أن تعتبر آدابا في الآداء التفسيري، قوله: (اعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب. وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدى، أو نقصان في عمى. واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى فاستشفوه من أدوائكم واستعينوا به على لأوائكم، فإن فيه شفاء من أكبر الداء وهو الكفر والنفاق والغي والضلال. فاسألوا الله به، وتوجهوا إليه بحبه، ولا تسألوا به خلقه إنه ما توجه العباد إلى الله بمثله. واعلموا أنه شافع مشفع، وقائل مصدق. وأنه من شفع له القرآن يوم القيامة شفع فيه، ومن محل به القرآن يوم القيامة صدق عليه، فإنه ينادي مناد يوم القيامة: «ألا إن كل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله غير حرثة القرآن» فكونوا من حرثته وأتباعه واستدلوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آراءكم، واستغشوا فيه أهواءكم. العمل العمل، ثم النهاية النهاية. والاستقامة الاستقامة، ثم الصبر الصبر، والورع الورع. إن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم.

وإن لكم علما فاهتدوا بعلمكم. وإن للاسلام غاية فانتهوا إلى غايته. واخرجوا إلى الله بما افترض عليكم من حقه، وبين لكم من وظائفه. أنا شاهد لكم وحجيج يوم القيامة عنكم ألا وإن القدر السابق قد وقع، والقضاء الماضي قد تورد)، فانتظم ذلك الآداب التي لابد أن يتحلى بها المفسر من آداب موضوعية، وآداب نفسية، فصحة الاعتقاد، وإخلاص والتفويض والتدبر والتفكر، من اعتقاد بجميع شرائط الإيمان والإسلام الذي دعا القرآن الناس إليها، وهي على ضربين: العلم والعمل، فالعلم هو معرفة الله تعالى والاعتقاد به والإيمان به، وبملائكته ورسله واليوم الآخر

والعمل غايته معرفة أحكام الدين والعمل بها، فالعلم مبدأ، والعمل تمام، فلا يتم العمل بدون العلم، ولا بد للمفسر من الموضوعية في بحثه وهي أن يتخلى عن مؤثرات البيئة وشوائب العاطفة، فإذا تحقق ذلك تحققت الموضوعية وبرزت الحقائق العلمية، ووذلك من أسس تفسير القرآن، واستكشاف معانيه للوصول للمراد كما أراده الله تعالى، وهو الذي يحقق الشرعية للتطلع على أسرار القرآن أما المفسر الذي يتبع هواه فهو المتعدي على جمال القرآن الكريم ووحدته ومن مخالفات ذلك فسح المجال لأعداء الإسلام للنفوذ والنيل من كرامة وعظمة القرآن.
كما يستكشف النهي عن التفسير بالرأي في كتابه، لمعاوية، إذ جاء فيه: (وقد ابتلاني الله بك وابتلاك بي فجعل أحدنا حجة على الآخر، فعدوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن، فطلبتني بما لم تجن يدي ولا لساني، وعصبته أنت وأهل الشام بي، وألب عالمكم جاهلكم، وقائمكم قاعدكم. فاتق الله في نفسك).
بل إن جملة علوم القرآن بمصطلحه الفني بما يضم من مباحث تتعلق بمسائل التفسير عموماً، وتفسير آيات الأحكام خصوصاً، لتوقف العملية الاستنباطية على الاضطلاع من هذه المباحث، فعلوم القرآن بوصفه اسماً للعلم المدوّن، وهو منقول من المعنى التركيبي ليجعل عَلَماً، إذ أصبح مدلوله فناً قائماً بذاته، وهو أخصَّ من مدلوله بالمعنى التركيبي، ليشير إلى: المباحث التي تتعلق بالقرآن الكريم في ناسخه ومنسوخة ومحكمه ومتشابهه ومطلقه ومقيده و خاصه وعامه ومجمله ومفصله، ومبهمه ومبينه، وقصصه وأمثاله، وفنه الجدلي، وما قارب ذلك.
وهذا المعنى يشمل كل علم وظف لفهم القرآن أو استند إليه، كعلم الناسخ والمنسوخ وعلم الفقه وعلم التوحيد، وعلم الفرائض وعلم اللغة وغير ذلك من العلوم التي تلتقي وتشترك في اتخاذها القرآن موضوعا لدراستها، وتختلف في الناحية الملحوظة فيها من القرآن الكريم' وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، أول من أسس لعلوم القرآن، (فإنه أملى ستين نوعا من أنواع علوم القرآن، وذكر لكل نوع مثالا يخصه، وذلك في كتاب نرويه عنه من عدة طرق، موجود بأيدينا إلى اليوم، وهو الأصل لكل من كتب في أنواع علوم القرآن. وأول مصحف جمع فيه القرآن على ترتيب النزول بعد موت النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو مصحف أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، والروايات في ذلك من طريق أهل البيت متواترة)، وقد روى أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن جعفر النعماني (ت٣٨٠هـ) في كتابه المعروف بتفسير النعماني ما أملاه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في بيان كثير من أنواع علوم القرآن ومفرداتها، إذ ذكر فيه ستين نوعاً، ومثل لكل نوع مثالاً يخصه.

ج- الدور الفكري في تأصيل قواعد الحديث.

أن أغلب العلوم تأتلف من شقين، شق نظري وشق تطبيقي، وذلك ظاهر في علم الحديث، فعلم الدراية الذي يعنى بقواعد الرواية تحملاً وأداءً، نشأ لمواكبة الجانب التطبيقي وهو المتعلق بالمتون الحديثية ذاتها، وكذا الفقه الإسلامي الذي يمثل الجانب التطبيقي، إذ اكتنفه علم أصول الفقه الذي يمثل الجانب النظري، ولا يختلف الحال بالنسبة إلى النحو وغيره من علوم اللغة. فقد مرّ الحديث أولاً بمرحلة تلقي الحديث الشريف عن النبي الأكرم، ثم احتيج إلى وضع مبادئ يرجع إليها من أجل معرفة صحة صدوره عن الرسول الأكرم، وما إلى ذلك من الضوابط، لما حصل جراء البعد الزمني بين عصر النص، فبعد أن قبض الرسول الكرم إلى الرفيق الأعلى ونتيجة لظروف منع تدوين الحديث، وكثرت الكذابة على النبي الأكرم، فكان لا بد من جعل معايير وضوابط تمثلت بالتنظير لمبادئ علم الحديث، لما يشكل الحديث الشريف من أثر بالغ الأهمية في كونه المصدر الثاني للتشريع (إذ لولاها لما اتضحت معالم الإسلام، ولتعطل العمل بالقرآن، ولما أمكن أن يستنبط منه حكم واحد بكل ما له من شرائط وموانع، لان أحكام القرآن لم يرد أكثرها لبيان جميع خصوصيات ما يتصل بالحكم، وإنما هي واردة في بيان أصل التشريع، وربما لا نجد فيه حكما واحدا قد استكمل جميع خصوصياته قيوداً وشرائط وموانع)' فلا بد من مراعاة الضوابط وفق قواعد مفادة من علوم الحديث ومصطلحاته، وأول تنظير لهذه القواعد ما جاء عن أمير المؤمنين، وقد سئل عن وجوه اختلاف الحديث عن الرسول الأكرم، ومن كلام له

- وهو من الخطب في نهج البلاغة- وقد سأله سائل عن أحاديث البدع وعما في أيدي الناس من اختلاف الخبر، كلاماً مشتملا على إسس مهمة، كقواعد ضبط الإسناد والسند، وضبط مفردات المتن وجمله، وضبط توظيف الدلالة، وملاحظة ما يعرض للمنقول التفسيري من مشكلات داخلية وخارجية توجب تركه تارة كالحديث المنسوخ، وتجعله في مراتب المحتملات أخرى، كالمنقول بالمعنى.

وقد أشار المرجع الديني الأعلى السيدعلي الحسيني السيستاني «دام ظله» إلى بعض تفاصيل هذه المشكلات التي تعرض للحديث، فمن أبرز أسباب المشكلات الداخلية التي تعرض للمنقول التفسيري كنسخ الحديث أو تخصيصه أو تقييده بحديث مثله وانقسام الحديث من حيث انقسام حكمه، إذ قد يكون الحكم قانونياً، وقد يكون اجتماعياً عاماً وخفاء بعض الوقائع المكتنفة للحديث والكتمان، بالتورية أو بالتعريض، إذ قد يستدعي ظرف الحديث الإجمال وعدم التصريح، والاختلاف في أسلوب تبليغ الراوي، نصاً، أو تعليماً، أو إفتاءا. والمشكلات الخارجية من الدس في النصوص بين الزيادة والنقصان، والنقل بالمعنى وما يترتب عليه من أخطاء قد تؤدي إلى صرف النص لمعنى غير مراد، والإدراج، بإلحاق لفظ أو كلام في متن الحديث وهو ليس منه، من دون فرز أو تمييز بينهما، وتقطيع نصوص الأحاديث، بحسب الحاجة، مما يفوت ما تحمله وحدة السياق من دلالة، والخلط بين حديثين مستقلين بسند واحد، أثناء الاستدلال أو التفسير.

كما أن كلام الإمام (عليه السلام) فيه بيان انقسام الحديث من حيث انقسام الحكم الذي اشتمله، إذ يحمل الحديث من العمومية أو الخصوصية بحسب مناسبة حكمه وموضوعه ولحاظ مقام الولاية العامة للنبي أو من يقوم مقامه كالأوامر الصادرة عن رسول الله بعنوان السلطنة الإلهية، كل ذلك من استجلاء الوقائع الخفية التي يمكن أن تكتنف الحديث الشريف إذ قد يروى الحديث بألفاظ معينة أو بيان معين لا تظهر منها بعض الدلالات إلا بالتأمل في ظروفه مثل التفريق بين المكي منها والمدني أو ما كان في الغزوات أو غيرها. وكل ذلك يتعلق بعلم الحديث ودرايته كالنقد المتعلق بالإسناد، فلا بد من الوقوف على معرفة المرفوع من الموقوف، وتقصي الوثاقة في الرواة، كما لا بد من مراعاة ألفاظ المتن وجمله لدخالته في الصحة أيضاً، فهو (من المهمات المتعلقة بفهم الحديث والعلم والعمل به)' ثم التأمل في اللفظة الغريبة قبل الحكم بمراد الحديث، وعدم إنكار اللفظة أو التسرع في الحكم على معنى معين، إذ أن الغرابة قد تنشأ من تفاوت الاستعمال بين زمن إطلاقها والزمن المتأخرة عنه.

والحق (إن هذه الوثيقة العلمية وضعت أسس علمي الرجال و الحديث، مستخلصة من واقع الرواة من الصحابة، و من خلال ما نسميه الآن بالدراسة الميدانية، و هذه الدراسة ألصق بالواقع و أصدق تعبيرًا عنه)، إذ انطوت على التنبيه لإعمال الفكر في الإسناد وما يعتريه، والسند ورجاله، والمتن وما فيه، والدلالة وما إليها.

د-الدور الفكري في تأسيس العلوم الأخرى.

إن لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب السبق في العلم والحكمة، وذلك ضرورة لازمة في الإمام لأجل أن يكون أهلا لمنزلة الإمامة الكبرى، وكفؤا لهذه المسؤولية، وقطبا تلتف حوله الناس وتطمئن إلى سبقه في العلم والحكمة والمعرفة، وقدرته الفائقة في مواجهة ما تبتلى به الأمة والدولة، فلا يحتاج إلى غيره ممن هم محتاجون إلى إمام يهديهم ويثبتهم. وهذه خصلة أشد ما تكون ظهورا في علي وأولاده المعصومين، فقد كان مرجعا لأهل زمانه من خلفاء وغيرهم، يرجعون إليه في كل معضلة، ويلجأون إليه في كل مأزق، وأمرهم في ذلك مشتهر، وقد تكرر قول عمر بن الخطاب: لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن، ولم يكن فضله على عمر بأكثر منه على الآخرين، فلم تعرف الناس أحدا غيره قال: «سلوني، فوالله لا تسألوني عن شئ إلا أخبرتكم».

وقال: (اندمجت على مكنون علمٍ لو بُحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية فى الطوىّ البعيدة)، فقد حباه الله تعالى بعلوم الشريعة والعلوم المساعدة التي تصب في خدمة الشريعة، والعلوم التي تتعلق بالنشأتين، كأحوال أهل الجنة والنار، ففي نهج البلاغة ورد وصف المتقين إذ وصفهم

لصاحبه همام الذي صعق من ذلك الوصف الذي كشف له وجه الحقيقة، أما بالنسبة للمخلوقات فقد جاء في نهج البلاغة مما يتعلق بالهيئة والجغرافية وعلم الحيوان من أوصاف المخلوقات كالطيور والحشرات وغير ذلك من الحيوانات، مما يعد أسسا علمية في علمي الوظائف والتشريح.
وقد أسس لعلم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم التاريخ، وعلم الذرّة، وعلم الحساب، وعلم الفيزياء، وعلم طبقات الأرض وحركة الجوّ، زائدا على العلوم الأخرى كعلم الآداب وعلم الموعظة وغيرها. ويمكن أفادة ذلك من مواضع كثيرة في نهج البلاغة، وقد ألف محمد الريشهري في تلك العلوم فاتسعت اثني عشر مجلدا، تحت عنوان «موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الكتاب و السنة و التاريخ.
وبعد أن يلحظ الباحث الدور الفكري لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، في هذه العلوم فالكلام حول تأسيسه لقواعد علم الحديث يكون جلياً لا غبار عليه، لما للحديث الشريف من أهمية في ديمومة الرسالة التي أراد لها الله تعالى أن تكون خاتمة وعامة».

المبحث الثاني:علم الحديث وأدواره.

تقدم الكلام حول أهمية الحديث الشريف في التشريع وشئون الحياة الدنيا والآخرة، وقد مر الحديث الشريف بأدوار منذ عهد الرسول الأكرم، وما تعرض له من منع التدوين، وتوافر دواعي الكذب ووضع الحديث، فمنذ أن التحق النبي بالرفيق الأعلى منع تدوين الحديث، حتى أصبح كبار الصحابة محذورا عليهم تدوين الحديث خصوصا في عهد الخليفة الثاني وقد اشتهر عنه قوله «حسبنا كتاب الله»، في حين بقيت الأمة حائرة وهي بأمس الحاجة إلى تدوين الحديث لمعرفة أحكامها الفقهية من الحلال والحرام والحدود في الدماء والفروج والأموال، ومسائلها العقائدية، وأمورها الحياتية، إلى أن أجاز عمر بن عبد العزيز تدوين الحديث بعد القرن الأول من الهجرة. غيران أهل البيت قاموا بتدوين الحديث رغم الحظر الشديد، وذلك ابتداء من عصر النبي فقد دوّن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فعن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام، أنه قال (والله ان عندنا لصحيفة طولها سبعون ذراعا فيها جميع ما يحتاج إليه الناس حتى أرش الخدش املاء رسول الله صلى الله عليه وآله وكتبه على بيده صلوات الله عليه)، فإذ أملى عليه الرسول الأكرم، جميع ما يحتاج إليه الناس، فالحديث الشريف داخل فيه فهو أولى ما تدعو إليه الحاجة بعد كتاب الله تعالى، وقد قال: (واني قلت لرسول الله انك منذ دعوت الله لي دعوة لم انس مما تعلمني شيئا، ولم يفتني شيء، ولم اكتبه، فلم تمله علي؟ ولم تأمرني بكتابته؟ أتتخوف علي النسيان؟ فقال: يا أخي، لست أتخوف عليك النسيان ولا الجهل، وقد أخبرني الله عز وجل انه قد استجاب لي فيك، وفي شركائك الذين يكونون بعدك، وإنما تكتبه لهم...)، وذلك يدل على أنه، دوّن الحديث الشريف، ثم عنه دوّن الحديث سلمان المحمدي وأبو ذر الغفاري، ومن بعدهم أبو رافع مولى رسول الله وابنه علي وعبيد الله، وهما كاتبا أمير المؤمنين علي، وقد كان عصر النبي الأكرم دور تلقٍ للحديث الشريف، ثم دعت الظروف لتأسيس قواعد تضبط صحة صدوره عنه، لئلا يختلط الصادر بالموضوع، كما تضبط توجيه الدلالة، للحيلولة دون وقوع الاختلافات التي قد تخرج في بعض اتجاهاتها عن الخط العام للشريعة، والحديث الشريف ينظر له رواية ودراية، فالرواية: تتمثل بمعرفة الأحاديث والآثار، وأما دراية: فلأجل تشخيص مما يصح الاستناد إليه من الأخبار والآثار، بمعنى أن علم الرواية يمثل الجانب التطبيقي الذي يهتم بالرواية وهو المتعلق بالنصوص الحديثية من حيث التحمل والأداء، ويتكفل علم الدراية أو أصول الحديث الجانب النظري، فالحديث الشريف مرّ بأدوار أو مراحل:

أ- التلقي.

كان عهد رسول الله دورتلق، إذ كان قد تولى بأمر الله تعالى أمر التبليغ، والتشريع الموحى به إليه، ويجري التطبيق تحت نظره، فكان مبلغاً ومبيناً، فقوله وفعله وإقراره هو الوسيلة

الكبرى والذريعة العظمى في ثبوت الحجة في بيان النظام والأحكام تنجيزاً وتعذيرا، لذا لم تكن هناك حاجة إلى تقنين مبادئ خاصة للحديث ككثير من العلوم الإسلامية القريبة من عهد النص.
وقد كان علي بن أبي طالب الأول في تدوين الحديث رغم كل المحن والمصاعب التي ابتلي بها.

ب- التأسيس.

والمقصود به تأسيس القواعد النظرية، فأساس علم الحديث موجود بالقران الكريم والسنة النبوية الشريفة، فمن القران قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا)** وقوله تعالى **(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)** فهذين الآيتين تدعوان إلى التثبت في الخبر.
ومن السنة قوله: «بلغوا عني ولو آية»، وقال: «فليبلغ الشاهد منكم الغائب»، فهوأمر بالتبليغ، وأمر بضبط ما يسمع من حديثه، فقال: «نضر الله أمروء سمع مقالتي فأدها كما سمعها»، ونهى عن الكذب وحذّر منه، إذ قال: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، وبعد مرور الزمن وما حمله من تغيرات طرأت على المجتمع الإسلامي بواسطة الفتوحات، وإفرازات الحاجة الإنسانية عموماً، وما إلى ذلك من العوامل التي لها الدخل في ضرورة التقنين والتأسيس، برزت تقنينات لعلوم إسلامية شتى، خصوصاً وإن الحديث الشريف تعرض للدس من جهة كالوضع ودخول الإسرائيليات فيه، ومنع التدوين من جهة أخرى، يضاف إلى ذلك ما يستدعيه البعد الزمني وتداخل الحضارات الأخرى، وقد حدثت اختلافات في بعض ضوابط الحديث، وموازين توثيق رجاله.

المبحث الثالث:الاختلافات.

في العصور التي تلت الإذن من قبل السلطة أي بعد المائة الأولى من الهجرة، كان الحديث يكتب بصورة تدوين الحديث دون ضوابط، فمن الأحاديث النبوية ما تكون مختلفة الألفاظ، من ناحية المتن، وقد يصل هذا الاختلاف إلى التعارض أحياناً فتسقط إحدى الروايتين، أو تسقط كلاهما بسبب الاضطراب، وذلك بسبب تفاوت الرواة في ضبط الرواية وحفظها، فكيف إذا كان الراوي وضاعا؟!، فلذا أخذت مسائل علم الحديث دراية تجمع في كتب خاصة، ولكن دون استيعاب أو تبويب أو تفصيل لجميع مسائل هذا العلم، كما يتضح للمتتبع لكتاب «اختلاف الحديث» للشافعي (ت٢٠٤هـ)، وكتاب «المحدث الفاصل بين الراوي والسامع» للرامهرمزي (ت ٣٦٠هـ)، .
وهذا الاختلاف له أسباب كثيرة قد تكون راجعة إلى الرواة، أو إلى الحديث نفسه، وقد تكون راجعة أيضاً إلى سبب رئيس، وهو جواز الرواية بالمعنى عند جمهور المحدثين، ولذلك يجد الباحث كثيراً من الأحاديث والمتون والنصوص قد اختلف بعضها عن بعض، إما بالمبنى فقط، وإما بالمعنى أيضاً.
وقد اصطلح علماء الحديث اصطلاحات دعت الحاجة إليها، وذلك لمحتملات منها تباعد الأزمنة بين من تأخر وبين الصدر السابق، واندراس بعض كتب الأصول أو التباس الأحاديث المأخوذة من الأصول المعتمدة بالمأخوذة من غير المعتمدة، واشتباه المتكررة في كتب الأصول بغير المتكررة.
وخفاء كثير من الأمور التي اعتمدها القدماء بسبب وثوقهم بكثير من الأحاديث، بحيث لم يمكن الجري على أثر القدماء في تمييز ما يعتمد عليه. أما بالنسبة للمصطلح فالحديث ينقسم عندهم إلى أكثر من تقسيمات الجمهور' وقد تأخر الإمامية في وضع تقسيمات الحديث عن الجمهور وذلك من اعتبار العصمة في الإمام فيكون مصدراً امتدادياً للسنة الشريفة، وقصر الطريق إليه، فلم تكن الحاجة إلى التقسيمات كمصطلح مدون، ثم لا داعي لطريق أخرى لسنة النبي الأكرم مع وجود الإمام الذي يحكي سنة النبي، ولا أقل من كون الإمام راو عادل مجزوم بعدالته، مما يورث حجية حديثه، ويؤيد ذلك قول أبي عبد الله الصادق: «حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي وحديث جدي حديث أمير المؤمنين وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله قول الله

عزّ وجل»، ولا شك في أن هذه السلسلة المطهرة المنيفة تغني عن تجشم ما يحتمل الخطأ، لأن الطريق الأخرى لا أقل من كونها محتملة الخطأ، لاحتمال ما يشوب الحديث.

ولما بعد عهد المعصوم وتعددت الطبقات واشتدت الدواعي، فثَمَّ سلك الإمامية مسلك الجمهور في تقسيمات الحديث وتدوين هذه التقسيمات، وإن اختلفت في العدد وبعض نواحي الاعتبار، والمشهورأن العلامة الحلي(ت٧٢٦هـ) هو أول من سلك ذلك المسلك تبعا لشيخه السيد ابن طاووس(ت٦٧٣هـ)، وهناك دعوى بأن أول من دون في ذلك من الإمامية هو الحاكم النيسابوري(ت٤٠٥هـ).

ويرد على هذه الدعوى أن الحاكم النيسابوري لم يثبت كونه إمامياً، وأصل دعوى كونه إمامياً ما قال الخطيب البغدادي(٤٦٣هـ) في ترجمته (كان البيع يميل إلى التشيع)، وكونه كان يراسل آل بويه والسامنيين.

وهذا لا يكفي في كونه إماميا، إذ أن توصيفه بالميل للتشيع ناتج من إخراجه لبعض الأحاديث على شرط البخاري(٢٥٦هـ) ومسلم(ت٢٦١هـ)، ومن هذه الأحاديث ما يدعم القول بالإمامة، فرمي بذلك وغيره مما يوهنه عند الجمهور، لأن تلك الأحاديث من المناكير عندهم. ثم أن كتبه التي وضعت في تقسيمات الحديث» كالمدخل إلى الإكليل في أصول الحديث»، و «معرفة علوم الحديث»، لم يتعرض فيها لتقسيمات الحديث على طريقة الإمامية، ثم أن الميل للتشيع يدل على أنه ليس شيعيا ولا إمامياً، فقول بعض الأجلاء بأن الحاكم النيسابوري: (شيعي مستتر... لاشك في تشيعه) و(لم يشك أحد في تشيعه)، غير تامة جزماً.

ويمكن القول أن القطب الراوندي(ت٥٧٣هـ)، كان من أبرز من عالج تقسيمات الموضوع من الأمامية، وذلك لما ذكر من تصنيفه في أحوال روايات الإمامية، في كتابه «رسالة في أحوال أحاديث أصحابنا» وقد نقل عنها محمد بن الحسن الحر العاملي (ت١١٠٤هـ)، في كتابه وسائل الشيعة، وعلى ذلك يعتبر الأول أو من الأوائل في هذا المجال.

لكن لم يصل هذا المؤلف إلى أيدي الباحثين، ليحكم بكونه تناول التقسيمات كما هو مصطلح، فيكون الأول بلا منازع في تفصيل تقسيمات الحديث هو الشهيد الثاني زين الدين بن علي العاملي(ت٩٦٦هـ) في كتبه المعروفة في الدراية، فقد فصل أقسام الحديث، وجعلها أربعة أقسام، ليعرف بذلك طرق الحديث صحيحها من سقيمها... ليعرف المقبول منه من المردود، ولتجعل مراتب للحديث بحيث يؤخذ بالحديث بحسب درجات قربه للعلم بالصدور، وكذا لو تعارض مفاد خبرين مختلفين في من حيث هذه الأقسام، فيقدم الأقرب للعلم بالصدور.

وهذا لا يعني أن متقدمي الإمامية لم يعتنوا تماما بتمييز الحديث قبل التسالم على المصطلح وتدوين هذه المصطلحات، إذ أنهم تثبتوا من هوية المخبر وحاله، لأجل العمل بما يصح العمل به، وترجيح خبر على خبر، استنادا إلى قوة السند وضعفها، قال الشيخ الطوسي(ت٤٦٠هـ): (إنا وجدنا الطائفة ميزت الرجال الناقلة لهذه الأخبار، ووثقت الثقات منهم، وضعفت الضعفاء وفرقوا بين من يعتمد على حديثه وروايته، ومن لا يعتمد على خبره، ومدحوا الممدوح منهم، وذموا المذموم وقالوا فلان متهم في حديثه، وفلان كذاب، وفلان مخلط، وفلان مخالف في المذهب والاعتقاد، وفلان واقفي، وفلان فطحي وغير ذلك من الطعون التي ذكروها وصنفوا في ذلك الكتب، واستثنوا الرجال من جملة ما رووه من التصانيف في فهارستهم، حتى أن واحدا منهم إذا أنكر حديثا نظر في إسناده وضعفه بروايته. هذه عادتهم على قديم الوقت وحديثه لا تنخرم فلولا أن العمل بما يسلم من الطعن ويرويه من هو موثوق به جائز، لما كان بينه وبين غيره فرق، وكان يكون خبره مطروحا مثل خبر غيره، فلا يكون فائدة لشروعهم فيما شرعوا فيه من التضعيف والتوثيق وترجيح الأخبار بعضها على بعض)، إلا أن المصطلحات لم تتبلور بصورة تامة عند المتقدمين، والحال ذاته عند الجمهور بلحاظ ما قبل التقسيمات، قال ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ): (وقد كان قدماء العلماء يعرفون صحيح المنقول من سقيمه، ومعلوله من سليمه، ثم يستخرجون حكمه ويستنبطون علمه، ثم طالت طريق البحث من بعدهم فقلدوهم فيما نقلوا، وأخذوا عنهم ما هذبوا، فكان الامر متحاملا إلى أن آلت الحال إلى خلف لا يفرقون بين

صحيح وسقيم)، ثم قسم أصول أقسام الحديث إلى ستة، فالأول ما خرجه البخاري (ت٢٥٦هـ) ومسلم (ت٢٦١هـ) في صحيحيهما، والثاني ما أخرجه أحدهما، والثالث ما وافق شروطهما ولم يخرجاه كالأحاديث التي أخرجها الحاكم النيسابوري(ت٤٠٥هـ)، والرابع ما فيه ضعف قريب محتمل، والخامس شديد الضعف كثير التزلزل، والسادس الموضوعات المقطوع بأنها محال وكذب، إلا أن الأكثر من الجمهور اعتمدوا في أصول الأقسام ثلاثة:

أ- مباني التوثيق الرجال.

إن أصول أقسام الحديث على مصطلح المتأخرين أربعة عند الإمامية، ثلاثة عند الجمهور:

الأول: الصحيح، وضابطه عند الإمامية (ما اتصل سنده إلى المعصوم بنقل العدل الإمامي عن مثله في جميع الطبقات، وإن اعتراه شذوذ).

أما عند الجمهور فهو (الحديث المسند الذي يتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه، ولا يكون شاذاً ولا معللا).

وهذا التعريف يدخل فيه حديث جميع فرق المسلمين، وعليه تقبل رواية المخالف العدل، ما لم يبلغ خلافه حد الكفر، أو يكن ذا بدعة ويروي ما يقوي بدعته، على أصح الأقوال.

وبهذا الاعتبار: كثرت أحاديثهم الصحيحة، وقلت أحاديث الإمامية الصحيحة بحسب الاصطلاح، مضافا إلى ما اكتفوا به في العدالة، من الاكتفاء بعدم ظهور الفسق، والبناء على ظاهر حال المسلم، فالأخبار الحسنة والموثقة باصطلاح الإمامية صحيحة باصطلاح الجمهور، إذا سلمت من الشذوذ والعلة.

وقيد السلامة من الشذوذ: احتراز عما يرويه الثقة، مع مخالفته ما روى الناس، أسند الحاكم النيسابوري(ت٤٠٥هـ) إلى الشافعي(ت٢٠٤هـ) قوله: (ليس الشاذ من الحديث أن يروي الثقة ما لا يروي غيره، إنما الشاذ أن يروي الثقة حديثا يخالف ما روى الناس).

أما قيد السلامة من العلة: فاحتراز عما فيه أسباب خفية قادحة، يستخرجها الماهر في الفن. وعلة الحديث سبب غامض خفي قادح في الحديث، مع أن ظاهره السلامة من أي قادح، ويتطرق ذلك إلى الإسناد الذي رجاله ثقات.

وهذا القيد غير منضبط إذ أن تحديد العلة راجع إلى ذوق مرتكز في كثير من الأحوال على اعتقادات قد تكون متوهمة، أو عدم موافقة اعتقاد معنى معين يفيده ذلك الخبر، فينشأ منه ظن بعدم الصدور من المعصوم، إذ أن معرفة علة الحديث عندهم الهام، فلو سئل أحدهم عما عل به الحديث لم يكن له حجة على إعلاله، ولذلك ردّ الجمهور روايات كثيرة لعدم موافقتها اعتقادات خاصة بعالم معين والتي بنيت على أساس غير شرعي أحياناً، من دواعي قد تكون عن قلة البضاعة أو القناعات الشخصية، أو التعصب، وقد أشار الألباني إلى جملة مما علل من الحديث وليس بمعل، أما ما خالف ضرورة دينية أو عقلية فلا ضير في إعلاله وإن كان صحيح السند، وقد يقبل الحديث الصحيح حتى مع شذوذه وعلته عند الجمهور، وعلى خلاف ذلك فإن الإمامية وإن لم يقيدوا الصحيح بالسلامة من الشذوذ والعلة، فقد يردونهما، وأشار إلى ذلك الشهيد الثاني(ت٩٩٦هـ) بقوله: (الخلاف في مجرد الاصطلاح، وإلا، فقد يقبلون الخبر الشاذ والمعلل، ونحن قد لا نقبلهما، وإن دخلا في الصحيح، بحسب العوارض).

ويكتسب الحديث صفته من الصحة والحسن والقوة والضعف من مما يتصف به الإسناد والسند.

فالسند: طريق المتن.

والإسناد: رفع الحديث إلى المعصوم.

ويتميز الإسناد بما يلحقه من الأوصاف كالاتصال والانقطاع والاضطراب والإرسال، ويقابل الإسناد الوقف، فالحديث أما مرفوع وإما موقوف.

فالمرفوع ما عزاه راويه إلى المعصوم، والموقوف ما لم يعزه، في حال أن السند يوصف بما يكتسبه من أوصاف الرواة من العدالة أو الضبط وعدمها.

وقد يطلق الإسناد على السند بلحاظ أنهما طريق إلى المتن، فيقال- مثلا-: إسناد هذا الحديث صحيح، وذلك من جهة أن المتن إذا ورد فلا بد له من طريق موصل إلى قائله، فباعتبار كونه سنداً ورائده معتمدا في الصحة والضعف يسمى سندا، وباعتبار تضمنه رفع الحديث إلى قائله يسمى إسنادا.

وأما مرفوع فيتحقق من أحوال رجال سنده من الراوي الأخير إلى النبي، أو الأئمة من أهل بيته، (فإنهم المراجع في الدين، والذين أوصى النبي صلى الله عليه وآله بوجوب التمسك بهم)، إذ قال: «إني قد تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدي ما إن تمسكتم بهما: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإن اللطيف الخبير قد عهد إلي أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض كهاتين - وجمع بين مسبحتيه - ولا أقول كهاتين - وجمع بين المسبحة والوسطى - فتسبق إحداهما الأخرى، فتمسكوا بهما لا تزلوا ولا تضلوا ولا تقدموهم فتضلوا» فلا شك بعد ذلك (في ثبوت قولهم (عليه السلام) إذا دل عليه طريق قطعي لا شك فيه، كما أنه لا شبهة في عدم ثبوته إذا دل عليه خبر ضعيف غير جامع لشرائط الحجية)، وعلى أي حال فالراوي عن المعصوم إن كان ثقة أخذ بالحديث مع مراعاة ضوابط أخرى، وإن لم يكن ثقة طرح حديثه، وهناك مبانٍ لتوثيق الرجال، وهذه المباني تتفاوت تبعاً لأمور منها: اعتقاد العصمة لأئمة أهل البيت، بالنسبة للإمامية.

والحكم بفسق المخالف، فلا تقبل شهادته في حق الراوي. وتبديع بعض الرواة بحسب اعتقاد المُبَدِّع. وتعارض الجرح والتعديل. واشتراط كون الجرح عن حس، إلى غير ذلك. وتنقسم التوثيقات بحسب تقسيم السيد أبو القاسم الخوئي(ت١٤١٣هـ)، إلى التوثيقات الخاصة، والوثيقات العامة. والمراد من التوثيقات الخاصة، التوثيق الوارد في حق شخص أو أكثر من دون أن يكون هناك ضابطة خاصة في ذلك التوثيق لتعمم على غير الموثق، ويثبت التوثيق الخاصّ بوجوه:

١- نص المعصوم على الوثاقة.

فإذا نصّ أحد المعصومين، على وثاقة رجلٍ، فيكشف ذلك عن وثاقته قطعاً، كقولهم: «ثقتي» «ثقتان» «مؤمونان» «فاسمع له وأطع» الثقة المأمون العارف.

وهذا طريق واضح في معرفة الوثاقة.

٢- نص أحد الأعلام المتقدمين.

مما تثبت به الوثاقة أو الحسن أن ينصّ على ذلك أحد الأعلام، كالبرق، واب قولويه، والكشي، والصدوق، والمفيد، والنجاشي، والشيخ الطوسي، وأضرابهم.

ويكون ذلك من جهة الشهادة وحجية خبر الثقة.

٣- نص أحد الأعلام المتأخرين.

وهوأن ينص أحد الأعلام المتأخرين عن عهد الشيخ الطوسي، كأعلام القرن السادس الهجري وما بعده، كمنتجب الدين بن بابويه (ت٥٨٥هـ) صاحب الفهرست، وابن شهر آشوب (ت٥٨٨هـ) صاحب معالم العلماء، والعلامة الحلي(ت٧٢٦هـ) صاحب خلاصة الأقوال في علم الرجال وإيضاح الاشتباه في أسماء الرواة، وابن داود الحلي (ت٧٤٠هـ)، والتبريزي (ت٧٤١هـ) صاحب الإكمال في أسماء الرجال.

ويشترط في توثيقات هؤلاء الأعلام معاصرتهم أو قرب عصرهم لمن أخبروا عن ثوثيقه، وإن كانوا بعيدين عن عصر الموثق فلا عبرة في ذلك التوثيق، لأنه مبني على الحدس والاجتهاد، شأنهم شأن أي رجالي متأخر، وعلى ذلك فلا تعتمد الكثير من توثيقاتهم، إلا أن البعض مال إلى قبول توثيقات المتأخرين أو تصحيحاتهم، بناءً على أنها من الظنون الاجتهادية سواء كانت من المعاصر أو البعيد، إذ أنه خبير بذلك، فيورث توثيقهم الظن في الوقت الحاضر، هذا فيمن لم يرد فيه ثوثيق من المتقدمين، فإن ورد توثيق من المتقدمين فتكون توثيقات المتأخرين فضلة لا حاجة لها.

٤- دعوى إجماع المتقدمين على التوثيق.

مما تثبت به وثاقة الراوي دعوى أحد من علماء الجرح والتعديل الأقدمين الأخيار الإجماع على وثاقته، فإن ذلك وإن كان إجماعا منقولا، حيث أنه - والحال هذه- يكون توثيقاً من مدعي الإجماع، وينضم إليه ما نقله في حقه من توثيق جماعة آخرين.

التوثيقات العامّة

وهو أن يشهد الثقة بوثاقة راوٍ في ضمن جماعة، فيكون ذلك كشهادته بالوثاقة بالخصوص، على اعتبار إن العبرة بالشهادة بالوثاقة، سوء أكانت الدلالة مطابقية أم تضمنية، فالفرق هو بين التفصيل والإجمال في التوثيق.

ولكن إرسال هذا المبنى على إطلاقه غير تام، فمنه ما هو صحيح يمكن اعتماده، ومنه ما هو سقيم لا يمكن الركون إليه، فالمفيد من التوثيقات العامة قليل بالنسبة إلى التوثيقات الخاصة، ومثل هذه التوثيقات وإن كثر الكلام فيها لدى الإمامية، إلا أن للجمهور مثل هذه المباني أيضاً.

فمن هذه التوثيقات عند الإمامية:

١- أصحاب الإجماع.

اصطلاح حدث بين متأخرين الإمامية، وأصل ذلك ما عبر الكشي عنه بـ«تسمية الفقهاء من أصحاب الباقرين عليهما السلام» أو «تسمية الفقهاء من أصحاب الصادق (عليه السلام)» أو «تسمية الفقهاء من أصحاب الكاظم والرضا عليهما السلام»، وذكر ثمانية عشر علماً.

٢ - مشايخ الثقات.

وهو اعتبار وثاقة جماعة من الرواة الواقعين في أسانيد روايات الثقاة، على اعتبار أن الثقات المجزوم بوثاقتهم تلمذوا عليهم وأخذوا عنهم، فلو لم يكونوا ثقات لم يتلمذ عليهم الثقات ويعتمدوهم في الحديث الشريف بما له من القدسية والأهمية. والتزم هذا المبنى جمع من الأعلام، ورفضه آخرون.

٣- أسانيد بعض الكتب.

ويعني ذلك ورود الرواة في أسانيد الكتب المعتبرة، ثقات، إلا ما استثني من قبل خبير ثقة معتمد، ومثلوا لذلك بكتاب «نوادر الحكمة» لمحمد بن أحمد بن يحيى الأشعري القمي وهو من أجلاء الإمامية ووجهائهم. وكتاب «كامل الزيارات» لأبي القاسم جعفر بن محمد بن قولويه(ت٣٦٧، أو ٣٦٩هـ)، الفقيه النبيه، المحدث النبيل، الثبت بالاتفاق.

وكتاب «التفسير» لعلي بن إبراهيم القمي(ت٣٠٧هـ) الثقة في الحديث، الثبت المعتمد.ويبتني ذلك التوثيق على اعتبار أن إثبات هؤلاء الإجلاء وأمثالهم لجملة من الرواة الذين وقعوا في أسانيد كتبهم التي صدروها بكلمات تشعر بوثاقة جملة رواة أسانيدها.

إلا أن هذا المبنى لا يكون بذلك الإطلاق الذي يدخل فيه الرواة المباشرين لصاحب الكتاب والرواة الذين يلونهم إلى نهاية السند، وقد استدرك السيد أبو القاسم الخوئي على ما بنا عليه أولا من إطلاق التوثيق، إلى تضييق الدائرة.

أما التوثيقات العامة عند الجمهور، فقد بنى الأكثر على توثيق من له صحبة مع النبي الأكرم، بل ادعي (الإجماع على قبول شهاداتهم ورواياتهم وكمال عدالتهم...لأنهم الذين شهدوا الوحي والتنزيل، وعرفوا التفسير والتأويل، وهم الذين اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ونصرته، وإقامة دينه وإظهار حقه فرضيهم له صحابة.

وجعلهم لنا أعلاما وقدوة. فحفظوا عنه ما بلغهم عن الله عز وجل، وما سن وما شرع وحكم وقضى، وندب وأمر ونهى وحظر وأدب)، ومنهم من اعتبر الصحابة كغيرهم من حيث خضوعهم لضوابط الجرح والتعديل، (ويؤكد البعض من السنة أن الصحابة كغيرهم من الرواة من حيث وجوب الفحص عن عدالتهم والتوثق منها، وأنصار هذا القول بين من يرى أنهم كغيرهم من الناس، وان الصحبة لا ترفع من شان أحد طالت أم قصرت، وبين من يدعى أن عدالتهم استمرت إلى أن وقع الخلاف بينهم، وباشروا الفتن وأراقوا الدماء، وتنافسوا على أمور

الدنيا، ومنذ ذلك الحين أصبحوا كغيرهم معرضين للنقد والتجريح والتفسيق ولغير ذلك مما يجوز على جميع الناس).

هذا بالنسبة للصحابة. أما بالنسبة للتابعين فقد وقع الكلام فيهم، بين التعديل مطلقاً وبين الإخضاع للضوابط، إذ ثبت تدليس بعضهم، فتجري الضوابط على الجميع ليميز الثقة عن غيره.

أما من عدا هؤلاء فقد اتفقوا على تمحيص رواياتهم بإخضاعهم لقواعد الجرح والتعديل، إلا أنهم اختلفوا في التوثيقات العامة من قبيل دلالة الرواية في أحد الصحيحين أو غيرهما ممن جعل شروطاً لما أثبتوه في مجامعهم، بين من قال بتوثيق راو الحديث الوارد في صحيح البخاري، أو مسلم، أو ما اتفق له رواية عندهما، ومنهم حكم بصحة الحديث دون إطلاق التوثيق على جميع رواته، ومنهم من حكم بوثاقة من له رواية في أحد الكتب الستة.

قال النووي(ت٦٧٦هـ): (وما اختلفوا في صحته من الأحاديث فقد يكون سبب اختلافهم انتفاء شرط من هذه الشروط وبينهم خلاف في اشتراطه كما إذا كان بعض الرواة مستورا أو كان الحديث مرسلا وقد يكون سبب اختلافهم أنه هل اجتمعت فيه هذه الشروط أم انتفى بعضها وهذا هو الأغلب في ذلك)، ثم فرق النووي بين الوثاقة وتصحيح الحديث، بعد أن علق على قول مسلم(ت٢٦١هـ): (إنما وضعت ههنا ما أجمعوا عليه)، بقوله: (فمشكل فقد وضع فيه أحاديث كثيرة مختلفا في صحتها لكونها من حديث من ذكرناه ومن لم نذكره ممن اختلفوا في صحة حديثه... أن مراده أنه لم يضع فيه إلا ما وجد عنده فيه شروط الصحيح المجمع عليه وان لم يظهر اجتماعها في بعض الأحاديث عند بعضهم والثاني أنه أراد أنه لم يضع فيه ما اختلفت الثقات فيه في نفس الحديث متنا أو إسنادا ولم يرد ما كان اختلافهم إنما هو في توثيق بعض رواته وهذا هو الظاهر من كلامه).

كما قد وردت توثيقات عامة، أخبر فيها أئمة الجرح والتعديل بوثاقة راوٍ في ضمن جماعة، كقول بعضهم في جماعة: «كلهم ثقات سواء سموا أو لم يسموا» أو «كلهم ثقات» أو «كلهم ثقات أثبات» وكقولهم: «شيوخ حريز كلهم ثقات» و«بنو عبيد الطنافسيون، كلهم ثقات» و «ما سقط من أهل أيلة إلا الحكم بن عبد الله الأيلي الأيليون كلهم ثقات» «بنو عقبة كلهم ثقات» وقولهم في أولاد سيرين: «هؤلاء الإخوة كلهم ثقات» وقول بعضهم: «أحمد بن سعد بن إبراهيم هذا من ثقات المسلمين وأبوه وأهل بيته كلهم ثقات» وكتوثيق بعضهم لمشايخه: «كتبت عن ألف شيخ وكسر كلهم ثقات».

ويجري ما تقدم في التوثيقات العامة عند الإمامية، في التوثيقات العامة لدى الجمهور إذ أن تعميم توثيق جماعة كبيرة، قد يراد به العموم المجموعي، أي أن التوثيق يشمل مجموع الموثقين بما هم مجموع في الجملة، لا العموم الاستغراقي ليلحظ فيه التفصيل بحيث يكون حكم التوثيق سارعلى كل فردٍ فرد، في حين أن التوثيق المطلوب لشخص راوٍ معين، لا بد أن يعرف ذلك التوثيق له بنحو الجزم.

فالتوثيقات العامة تقرب وتبتعد عن التوثيقات الخاصة بحسب القرائن التي قد تدل على إرادة الشمول والاستغراق، وقد تدل على إرادة المجموع الإجمالي، إذ أن تحديد أحد أنواع العموم تابع إلى إرادة الموثق، إذ أن العموم المجموعي والاستغراقي ينشئان من كيفية اللحاظ والاعتبار.

ب- القواعد الكلية في كلام أمير الكلام.

ورد في نهج البلاغة ومن أجل ذلك نهض جماعة من علماء هذه الأمة بحفظ هذه الأحاديث في الصدور، ونقشها في السطور، وقطعوا في سبيل ذلك الصحارى والقفار، ووصلوا الليل بالنهار، لقصد الحفظ والتبليغ، والتزام الأمانة والصدق، وهناك من كذب على الرسول بدواعي قصدية أو غير قصدية، فقد كذب على النبي وهو حي فكلما بعد العهد ازدادت دواعي الكذب والتغيير، فلا بد من تمييز ناقل الحديث.

روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في بيان محتملات ناقل الخبر، أنه قال: « فقال (عليه السلام): (إن في أيدي الناس حقا وباطلا، وصدقا وكذبا، وناسخا ومنسوخا وعاما وخاصا، ومحكما ومتشابها، وحفظا ووهما)».

ولقد كذب على رسول الله صلى الله عليه وآله على عهده حتى قام خطيبا فقال: «من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»، وإنما أتاك بالحديث أربعة رجال ليس لهم خامس: رجل منافق مظهر للإيمان، متصنع بالاسلام لا يتأثم ولا يتحرج، يكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله متعمدا، فلو علم الناس أنه منافق كاذب لم يقبلوا منه ولم يصدقوا قوله، ولكنهم قالوا صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله رأى وسمع منه ولقف عنه فيأخذون بقوله، وقد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبرك، ووصفهم بما وصفهم به لك، ثم بقوا بعده عليه وآله السلام فتقربوا إلى أئمة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والبهتان، فولوهم الأعمال وجعلوهم حكاما على رقاب الناس، وأكلوا بهم الدنيا.

وإنما الناس مع الملوك والدنيا إلا من عصم الله فهو أحد الأربعة، ورجل سمع من رسول الله شيئا لم يحفظه على وجهه فوهم فيه ولم يتعمد كذبا فهو في يديه ويرويه ويعمل به ويقول أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله، فلو علم المسلمون أنه وهم فيه لم يقبلوه منه، ولو علم هو أنه كذلك لرفضه ورجل ثالث سمع من رسول الله صلى الله عليه وآله شيئا يأمر به ثم نهى عنه وهو لا يعلم، أو سمعه ينهى عن شئ ثم أمر به وهو لا يعلم، فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ، فلو علم أنه منسوخ لرفضه، ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنه منسوخ لرفضوه وآخر رابع لم يكذب على الله ولا على رسوله، مبغض للكذب خوفا من الله وتعظيما لرسول الله صلى الله عليه وآله ولم يهم، بل حفظ ما سمع على وجهه، فجاء به على ما سمعه لم يزد فيه ولم ينقص منه، فحفظ الناسخ فعمل به، وحفظ المنسوخ فجنب عنه، وعرف الخاص والعام فوضع كل شئ موضعه، وعرف المتشابه ومحكمه.

وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله الكلام له وجهان: فكلام خاص وكلام عام، فيسمعه من لا يعرف ما عني الله به ولا ما عني رسول الله صلى الله عليه وآله، فيحمله السامع ويوجهه على غير معرفة بمعناه وما قصد به وما خرج من أجله. وليس كل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يسأله ويستفهمه حتى أن كانوا ليحبون أن يجئ الأعرابي والطارئ فيسأله (عليه السلام) حتى يسمعوا.

وكان لا يمر بي من ذلك شئ إلا سألت عنه وحفظته. فهذه وجوه ما عليه الناس في اختلافهم وعللهم في رواياتهم.

وفي هذا الكلام الجليل قواعد كلية لضبط الإسناد والسند والمتن ومراعاة الدلالة، ويلحظ في السند الإلفات إلى أحوال الرجال، إذ قسمهم إلى أربعة:

القسم الأول: المنافق

وهو ما عبر عنه بقوله: (رجل منافق مظهر للإيمان، متصنع بالاسلام لا يتأثم ولا يتحرج، يكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله متعمدا) ثم بين أن الله تعالى أخبرعن المنافقين في القرآن الكريم، ووصفهم بما وصفهم به.

ومن هؤلاء الوضاعين الذين يضعون الحديث تقرباً للأئمة الضلال، وذلك ما ذكره بقوله: (تقربوا إلى أئمة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والبهتان، فولوهم الأعمال وجعلوهم حكاما على رقاب الناس، وأكلوا بهم الدنيا. وإنما الناس مع الملوك والدنيا إلا من عصم الله).

القسم الثاني: ضعيف الحديث (غيرالضابط)

وهو ما عبر عنه، بقوله: (رجل سمع من رسول الله شيئا لم يحفظه على وجهه فوهم فيه ولم يتعمد كذبا فهو في يديه ويرويه ويعمل به ويقول أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله).

القسم الثالث: الجاهل بالحديث، (عدم مراعاة الجمع بين الأحاديث)

وهو ما عبر عنه، بقوله: (رجل ثالث سمع من رسول الله صلى الله عليه وآله شيئا يأمر به ثم نهى عنه وهو لا يعلم، أو سمعه ينهى عن شئ ثم أمر به وهو لا يعلم، فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ).

القسم الرابع: الثقة الحافظ

وهو ما عبر عنه، بقوله: (لم يكذب على الله ولا على رسوله، مبغض للكذب خوفا من الله وتعظيما لرسول الله صلى الله عليه وآله ولم يهم، بل حفظ ما سمع على وجهه، فجاء به على ما سمعه لم يزد فيه ولم ينقص منه) ثم هناك قواعد تفاد من قوله: (فحفظ الناسخ فعمل به، وحفظ المنسوخ فجنب عنه، وعرف الخاص والعام فوضع كل شئ موضعه، وعرف المتشابه ومحكمه).

وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله الكلام له وجهان: فكلام خاص وكلام عام، فيسمعه من لا يعرف ما عني الله به ولا ما عني رسول الله صلى الله عليه وآله، فيحمله السامع ويوجهه على غير معرفة بمعناه وما قصد به وما خرج من أجله. وليس كل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يسأله ويستفهمه حتى أن كانوا ليحبون أن يجئ الأعرابي والطارئ فيسأله (عليه السلام) حتى يسمعوا.

وكان لا يمر بي من ذلك شئ إلا سألت عنه وحفظته. فهذه وجوه ما عليه الناس في اختلافهم وعللهم في رواياتهم) منها مراعاة النسخ، والتخصيص، والغريب من الألفاظ، ثم أشار إلى أن الدلالة الحقة قد أخذها هو، عن الرسول، إذ كان يسأله عن تلك الدلالات، وذلك يرشد إلى أن الأئمة من أبنائه، الذين أخذوا عنه هو الحق، لأنه متصل بالنبي الأكرم.

ومن تلك القواعد تفرع حرص العلماء على الوقوف على أحوال الرواة بالبحث عن مواليدهم وأسمائهم وكناهم وألقابهم وبلدانهم ورحلاتهم وأمانتهم وثقتهم وعدالتهم وضبطهم وغير ذلك من كذب أو غفلة أو علة أو نسيان وما إلى ذلك ووضعوا كل واحد منهم مادام قد تصدى للرواية في سجل يجمع كل هذا حتى يعرف من كان من أهل الشأن من غيره.

وقد ميزوا الرجال الناقلة لهذه الأخبار، ووثقوا الثقات منهم، وضعفوا الضعفاء وفرقوا بين من يعتمد على حديثه وروايته، ومن لا يعتمد على خبره، ومدحوا الممدوح منهم، وذموا المذموم وقالوا فلان متهم في حديثه، وفلان كذاب، وفلان مخلط، إلى غير ذلك من الطعون التي ذكروها وصنفوا في ذلك الكتب وابتنى على ذلك نشأة علم الجرح والتعديل أو علم فحص الرجال أو علم ميزان أو معيار الرواة. إذ قام بهذه المهمة الجليلة جمع من علماء هذه الأمة لرفع لواء علم الجرح والتعديل، العلم الجليل قدرا، إذ من شأنه حفظ السنة الشريفة. فهو: علم يبحث فيه عن أحوال الرواة من حيث اتّصافهم بشرائط قبول أخبارهم وعدمه. وبتعبير آخر: هو علم يبحث فيه عن أحوال رواة الحديث التي لها دخل في جواز قبول قولهم وعدمه، فبواسطته يشخص رواة الحديث ذاتاً لمعرفة هوية الراوي وشخصه، من كونه فلان ووصفاً، من كونه ممدوح أو مقدوح.

خاتمة البحث

إن كتاب «نهج البلاغة» بما فيه من كلام سيد الأوصياء وإمام الأتقياء لهو معين ثر لما تحتاجه البشرية من علوم، أولها المعارف الإلهية والعلوم الشرعية، والعلوم المساعدة، فأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، هو وصي الرسول الخاتم لذا ألقيت على عاتقه مسؤوليات تفسير القرآن بعد النبي، وحفظ حديث الرسول، فقد ورد في نهج البلاغة الكثير من حديث الرسول الأكرم، يضاف إليها جملة من القواعد الأساسية لعلم دراية الحديث تلمسها الباحث في من خلال خطبة انتظمت ذلك، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، معروف بعلمه الغزير سواء كانت علوما دينية أو دنيوية. فقد عرف ببراعته في الرياضيات وسرعته في حل المسائل الحسابية، كما ذُكر له وصف الذرة. وقد أسس لعلوم اللغة كالنحو والبلاغة، بل تروى بعض المصادر ان خادمته فضة كانت تعلم علم الكيمياء.

ولما كان البحث منصبا حول تأسيس الإمام (عليه السلام) لقواعد تخص علم الحديث، بالأخص تمييز الرجال، في ضوء ما ورد في «نهج البلاغة» فقد تتبع نشأة علم الحديث وأدواره، ثم أهم ما يلحظ من قواعد كلية في تمييز الرجال استخلصت من كلام الإمام (عليه السلام) في النهج.

البناء التركيبي في حِكَم الإمام علي (عليه السلام)

الأستاذ المساعد الدكتور: رزاق عبد الأمير مهدي الطيار (جامعة الكوفة – كلية التربية الأساسية)

مقدمة:

تسابقت حِكَمُ الإمام علي(ت٤٠هـ) مع أخبار شجاعته، فانتشرت في أصقاع المعمورة مترابطة مع اسمه الكريم، فأينما وجد اسم أمير المؤمنين لأبدَّ أن نجد معه قولا مأثورا من حكمه البالغة، وخبرا تليدا عن شجاعته الفائقة وإقدامه الفذ.

وفي طبيعة البشر المعتادة تنبع الحكمة عن التروي والتأمل، في حين تكون الشجاعة والإقدام قرينة للعاطفة والانفعال، فكيف يجمعهما شخص واحد؟

هذه ميزة تفرَّد بها الإمام أمير المؤمنين، فكثرة الحِكم في أقواله كانت معبرا واضحا عن نفاذ بصيرته في الأمور، وتمرسه في الحياة وطرقها، ومعرفته بمصير المخلوقات ومآلها، ومن جهة أخرى، فهي دليل واضح على تمكنه من ناصية اللغة والبلاغة، فقد جُبِل على الفصاحة، وكان كلامه صنوا للغة القرآن الكريم، حتى أنه قدَّم للناس مقدارا عظيما من التجارب والمواقف بأقوال حِكميَّة بليغة حفظت وسارت بين الناس مسير النسيم العذب تثير فيهم مواطن التأمل والتدبر، وتدعوهم للفضيلة وتبعدهم عن الرذيلة، وتدعوهم للاعتبار بغيرهم من الأقوام.

من الناحية اللغوية تمتاز أقوال (الحِكَم) بميزات لغوية خاصة فهي أقوال نظمت بعناية فائقة بشكل يمكنها من نقل نتائج آلاف من التجارب البشرية بعبارة بسيطة منمَّقة سهلة الحفظ في الأذهان عذبة الجريان على اللسان. ولعلَّ الناقد البصير يجد أن صياغة أقوال الحكمة أكثر صعوبة من نظم بيت من الشعر بل قصيدة كاملة، لذا نجد أن الشعراء ينظمون بعض القصائد الطوال لكن بيت الحكمة في تلك القصائد يكون فريدا، وقد تكون تلك الأبيات (الحكميَّة) الأسرع حفظا والأكثر حضورا بين الناس، ولم نجد في تراثنا العربي من الحكمة بقدر ما نجده من الشعر، فالحِكَمُ سواء نظمت على شكل أبيات شعرية أو أقوال نثرية أعزُّ من القصيد وأندر من المنظوم.

قد يفوق ما أثر عن الإمام علي من الحِكَم ما وصلنا من حكماء العرب وأدبائهم في عصر الفصاحة والبلاغة مجتمعين، فقد بلغ مجموع ما اختاره الشريف الرضي(ت٤٠٤هـ) في باب الحكم والمواعظ من كتاب (نهج البالغة) (٣٤٤) ثلاثمئة وأربعة وأربعين قولا، وقد تميزت تلك الأقوال بسمات أسلوبية وتركيبية خاصة كانت كتوقيع خاص من منشئ النص يدلل صراحة على نسبة تلك الحكم إليه.

وقد اختار هذا البحث (٢٨٠) مئتين وثمانين قولا مما اختاره الشريف الرضي لتكون هذه الأقوال الحكمية محورا للدراسة واستبعدت الدراسة بعض الأقوال التي هي في حقيقتها جزءا من خطب أو رسائل، واستبعد البحث أيضا بعض الفقرات التي شكلت مجاميع حكمية وسبب استبعاد هذين النوعين أننا نعتقد أنها يجب أن تدرس في بحث مستقل ذلك أن الخطب والرسائل وإن كانت تحتوي في بعض فقراتها أقوالا حكمية إلا أن تلك الأقوال ستبقى مرهونة بالسياق العام الذي وردت ضمنه، أما المجاميع الحكمية فينبغي أن تدرس على أنها وحدات كبرى لها سياقها الخاص وليس من الصحيح خلطها مع هذه الدراسة لذا تم فرزها على أمل أن نوفق إلى دراستها مستقبلا.

وجمال الحكم نابعٌ من شيئين: الأول بساطة الألفاظ ووضوحها، وثانيهما: فرادة التركيب ودقة النظم، وهذا ما يصل بها إلى المراتب العالية في درجات الجمال، فقد ربط الإمام أمير المؤمنين تلك المفردات المختارة بعناية بشبكة من العلاقات اللغوية ما جعلها نسيجا خاصا لم يتمكن غيره من أن ينسج مثله، وقد حوَّل كما هائلا من المعاني (التجارب) إلى قول (كلام) ليصل به إلى المتلقي مغذيا به روحه ومطربا به سمعه.

ويسعى البحث جاهدا إلى الكشف عن العلاقات التركيبية التي ربطت بين المفردات في (حكم الإمام علي المجموعة في كتاب نهج البلاغة) وبيان ما تفردت به تلك الأقوال من علاقات سياقية كانت سببا في براعة القول وخلوده.
وحينما شرعت بالبحث كنت أنوي التقدم به للاشتراك في مؤتمر نهج البلاغة سراج الفكر وسحر البيان ولكن ما أن حددت الأقوال وبدأت بدراستها حتى شدني الموضوع بجماله وقيدني بسعته وتبين لي أن حجمه أكبر من بحث يقدم للمؤتمر فسعته ووفرة مادته جعلتني أنطلق فيه لأستكمله بكتاب كامل وقد وفقني الله تعالى بمنه لتلمس مواطن الجمال في كلام أمير المؤمنين وسيد البلغاء، فعقدت العزم على إتمامه لأنفق فيه أجمل الأوقات وأمتعاها أتتبع فيها جميل القول وأغوص في الحكم لأستكشف سر خلودها. وقررت ان أتقدم للمؤتمر بمبحث واحد من مباحثه ذلك هو المبحث الأول (أثر القرائن في تكثيف معاني الجمل البسيطة) داعيا من الله التوفيق لإتمام البحث.

تمهيد: دلالة التركيب في الجملة العربية:

الجملة في اللغة هي تركيب للمفردات بعضها مع البعض الآخر وائتلاف فيما بينها لتكوين معنى معين، وقد اشترط النحاة تمام الفائدة في الجملة بل حُسنَ السكوتِ عليها قال المبرد(ت٢٨٥هـ) «الفعل والفاعل جملة يحسن السكوت عليها وتجب بها الفائدة للمخاطب» وقد دعا التلازم بين (معنى الجملة) و(تمام المعنى) أو (حسن السكوت عليها) إلى أن يصبح الكلام والجملة عند بعض النحاة مترادفين قال ابن جني(ت٣٩٢هـ): «وأما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه مفيد بمعناه»، وقال أبو البركات العلوي (ت٥٣٩هـ) في سبب اقتصار العرب على الاسم والفعل والحرف: «إنَّ الكلام لما كان موضوعا على الفائدة كما ذكرنا، وكان الاسم مع الاسم يأتلف فيكون منهما كلامٌ مفيدٌ نحو قولنا(زيدٌ كريمٌ، وعمرو منطلقٌ)، والفعل يأتلف مع الاسم فيكون منهما كلام مفيد نحو قولنا(خرج بكرٌ، وضرب عبد الله)، وكان في الجمل ما لا يصح اتصال بعضه ببعض جاؤوا بالحروف لتربط بين الجملتين، وذلك نحو قولنا (مررت بزيدٍ)، فالباء وصلت المرور بزيد، ولولاها لما صحَّ الكلام فكملت الفائدة بالاسم والفعل والحرف، فلم يحتاجوا إلى رابع، ولم يقتصروا على اثنين.))، يتضح ما نُقِلَ أن (الكلام المفيد) يساوي (الجملة) فمعيار الفائدة هو الذي جعل الكلام المركب جملة، بل هو السبب في إنشاء الكلام ووضعه من قبل المتكلم،وهكذا نرى ابن الخشاب (ت٥٦٧هـ) يُعرِّف الكلام بقوله:((وحدُّ الكلام أنَّه جملة من الحروف المسموعة المتمايزة المفيدة فائدة تامة يحسن السكوت عليها». ولما كان الحديث عن تحصيل الفائدة من الكلام فلابد من طرح بعض الأسئلة:
من أين تأتي الفائدة في الجملة ؟
هل تأتي الفائدة من جمع المعاني المعجمية للمفردات فقط؟
هل تأتي الفائدة من تلك المعاني المعجمية للمفردات مضافا إليها معان صرفية توفرها صيغة الكلمة مثل: (فاعل، مفعول، فعَّال، مفعال، فواعل، أفعل،...إلخ) أو توفرها بعض اللواصق، مثل حروف المضارعة التي تسبق المفردة أو بعض اللواحق التي تأتي في نهاية بعض الكلمات مثل (ــون، ــين، ــان، ــات،...إلخ) ؟
هل تأتي الفائدة من رصف الكلمات(بما تحتويه من معان معجمية و صرفية) بعضها مع البعض الآخر بحسب النموذج القياسي للجمل في لغة ما؟
هل تأتي الفائدة التي يتمكن المتكلم من السكوت معها من أشياء غير هذه التي ذكرت آنفا ؟
قبل محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة يمكن أن ننعم النظر في الكلمات المجموعة في النموذجين الآتيين:
«إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ»

الألبابِ خَلْق لِأولي إنَّ لآياتٍ و السماوات في الليل و الأرض و اختلاف النهار
في المجموعة الأولى وهي آية شريفة من القرآن الكريم جُمعت الكلمات المفردة على نحو مقصود، وقد روعي في الجمع على هذا النحو أشياء خاصة قرنت بعضها مع بعض فأضحت الكلمات المفردة مربوطة بشبكة من العلاقات جعلتها تفيد معنى خاصا لا يمكن الوصول إليه إلا بترتيب الكلمات على النحو التي وردت الآية به؛ فالترتيب (المقصود) لا (الاعتباطي) هو الذي جعل دلالة الألفاظ المفردة تأتلف فيما بينها فتعطي معنى مضافا زائدا على ما كانت تدل عليه من معنى قبل ائتلافها على هذا النحو.
أما الكلمات في المجموعة الثانية فهي نفسها في المجموعة الأولى دلالاتها المعجمية لم تتغير ودلالاتها الصرفية لم تتبدل لكنها جمعت على نحو يختلف عما هي عليه في المجموعة الأولى،وباختلاف الترتيب وجمع الألفاظ على غير قصد من منشئ معين سيكون عبثا لغويا لا يفضي إلى معنى مفهوم في لغة العرب، إنَّ أيَّ اختلافٍ في ترتيب المفردات داخل الجملة سينعكس على المعنى ويقينا لن يتساوى معنى جملتين ما دام ترتيب الألفاظ فيهما مختلفا، وهذا ما أراده السيرافي(ت ٣٦٨هـ) عندما رد على متي بن يونس(ت٣٢٨هـ) حينما صرَّح أنه يكفيه من الإحاطة بلغة العرب أن يعرف (الاسم والفعل والحرف) قائلا: «أخطأت، لأنك في هذا الاسم والفعل والحرف فقير إلى رصفها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها» ثم أردف قائلا:«وكذلك أنت محتاج بعد هذا إلى حركات هذه الأسماء والأفعال والحروف، فإن الخطأ والتحريف في الحركات كالخطأ أو الفساد في المتحركات» إنَّ كلام السيرافي فيه إشارة واضحة على أن مما يفيد المعنى وتمامه في الجملة قرينتان الأولى الترتيب أو (الرتبة) والثانية (الإعراب) هاتان القرينتان أساسيتان في نظم الكلام على طريقة العرب ثم إن زيادة المعنى في الجمل يأتي من خلال قرائن أخرى تضاف إلى هاتين القرينتين وعند تضافر القرائن المتعددة يمكن لمنشئ النص الاعتماد عليها واختزال عدد من الألفاظ في صياغة جملته بذلك يتركز المعنى وتزداد شحنة الدلالة في الجملة وإن كانت ألفاظها أقل من غيرها وهذه هي سمة الكلام البليغ فمع ازدياد بلاغة الكلام تتعقد شبكة العلاقات بين القرائن التي تنظم الكلام هذا ما عبر عنه الجرجاني(ت٤٧١هـ) فيما عرف بعد حين بـ(نظرية النظم).
إن تجاور الوحدات الدلالية وارتباطها فيما بينها يجعل معاني هذه الوحدات غير قابل للوصف أو التحديد إلاَّ بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها، وقد أشار إلى هذا المعنى بوضوح عبد القاهر الجرجاني عندما رجع سبب حُسْنِ المعنى إلى ائتلاف الكلمات فيما بينها في التأليف والترتيب ، إذ إن معظم الوحدات الكلامية اللغوية تعتمد في تفسيراتها على السياق الذي تستعمل فيه، وإن أغلبها له مدى أوسع من مدى المعنى الذي يخطر ببال المتلقي أول وهلة.

المبحث الأول: أثر القرائن في تكثيف معاني الجمل البسيطة

عندما يريد الفرد أن يعبر عن غرض من أغراضه فإنه سيؤلف كلاما ويركب بعض المفردات رابطا بعضها مع البعض الآخر على نول معين من الأنوال المألوفة في الكلام العربي.
لا تنفك الجملة في اللغة العربية من أن تبنى من اسمين (مبتدأ وخبر) وهي الجملة الاسمية أو اسم وفعل(فعل وفاعل) وهي الجملة الفعلية فالبناء القياسي للجمل في اللغة العربية اقل ما يكون من كلمتين فقط نحو(زيد طويل) (قام زيد) وهذين النموذجين من الجمل إنما يلجأ إليه المتكلم في لغته اليومية البسيطة التي لا يجد في نفسه حاجة إلى تعقيد الدلالة فيها، ولا يقتضي الموقف الذي يريد أن يعبر عنه إلى تركيب متطور للعناصر اللغوية، والفائدة المتحققة من هذين النوعين من الجمل لاشك أنها فائدة بسيطة أولية، وعلى مستوى الدلالة فإن دلالة هذه الأنواع من الجمل غالبا ما تكون دلالة حقيقية ظاهرية وليست باطنية مجازية .
تأسيسا على ما تقدم فلنا أن نسأل قائلين:
هل يمكن أن تصاغ جمل بلاغية من مبتدأ وخبر فقط ؟

هل يستطيع حكيم من الحكماء أن يقدم خلاصة فكره، وجميع تجاربه في قول بليغ مكون من مبتدأ وخبر فقط ؟
ما وصلنا من أشعار للجاهليين وبعض الخطب لبلغاء العرب قبل الإسلام وفي صدره الأول تجيب عن هذين السؤالين بالنفي، وإن كانت تلك الأشعار أو الخطب تحوي في تضاعيفها على بعض الأبيات الحكمية لكنها أبيات كاملة مركبة من جمل طويلة مترابطة بعلاقات معقدة وليست مما نحن بصدده .
لكن أمير الفصاحة والبيان علي بن أبي طالب لم يمتنع عليه استعمال اللغة بمستوياتها المتعددة البسيطة والمركبة ليصوغ منها حكما تبقى خالدة ما مرَّ الجديدان. فلدى فحص النصوص التي اختيرت للدراسة وجدنا الإمام علي يستعمل النموذج البسيط في بناء الجملة العربية لينظم بها حكما بليغة سهلة عذبة ويتفنن في ذلك وهي على أنواع:

النوع الأول:

نظم الحكم باستعمال الجملة الاسمية البسيطة المكونة من (المبتدأ والخبر) فقط، وقد ظفرنا من هذا النوع بقولتين جسد في كل منها الإمام علي خبرة متراكمة تواضعت عليها عقول البشر وصاغها حِكما خالدة وهما:
القولة الأولى: قال الإمام علي «الرَّحِيلُ وَشِيْكٌ»
القولة الثانية: قال:«الحِلْمُ عَشِيرَةٌ»
في كل من هاتين القولتين نجد البناء النحوي للجملة مكونا من (مبتدأ) + (خبر) وكل منهما لفظة مفردة غير مضافة ولم يتعلق بها شيء آخر وعلى هذا تكون كل من القولتين قد بنيت على أبسط نول للجمل العربية تلك التي وصفناها آنفا أنها محل الحديث في لغة التخاطب اليومي بين الأفراد فكيف تسنى للإمام علي أن يطور استعمال هذا النموذج من الجمل لينظم بها الحِكَمَ ؟
لاشك إنها القرائن وأحوال التخاطب بين منشئ النص والمتلقي هي التي وفرت الأرضية المناسبة لاستعمال النماذج البسيطة للجملة العربية في المستوى البلاغي للكلام، وليس هذا بالأمر المتيسر للجميع بل أجزم أنه لم يتسنَ إلا للأفذاذ من أئمة العربية وقادتها وعلى رأسهم الإمام علي بن أبي طالب.
القولة الأولى: الركن الأول في الجملة هو المبتدأ (الرحيل) وهو:«اسم الارتحال للمسير» وقال ابن منظور:« والرحيل:اسم ارتحال القوم للمسير» ولم تستعمل هذه الكلمة في الموروث الأدبي قبل نزول القرآن – بحسب تتبعي - إلا على معناها المادي الحقيقي أي لتدل على ارتحال القوم أو الركب من مكان إلى آخر أو انطلاق القافلة في سيرها، ولم تستعمل هذه المفردة في القرآن الكريم.
نقل الإمام علي استعمال كلمة (الرحيل) من دلالتها الحقيقية إلى مستوى آخر من الدلالة ذلك هو المجاز، والمجاز في لغة العرب أبلغ من الحقيقة ويعمد إليه المتكلم في النصوص البليغة «والاستعارة أبلغ مراتب الفصاحة»، فأطلق الإمام هذا اللفظ (الرحيل) مستثمرا كل ما يحمله في تضاعيفه من دلالات في ذهن المتلقي ليُكنِّي به عن (الموت) الذي سينقل الفرد من عالم إلى آخر، فهو لاشك كالرحيل الذي ينقل الفرد من مكان إلى مكان ومن تجربة إلى تجربة، بل من حال إلى حال، ولا ريب أن هذه المفردة لها دلالات هامشية كثيرة في ذهن العربي؛ كونه يعاني في حياته من عدم الاستقرار والتنقل طلبا للماء والكلاء، ويرافق هذا التنقل هاجس من الخوف والحسرة، الخوف من الآتي (المجهول) والحسرة على (الماضي) والأسى على فرقة ما يعتاده من ديار وأصدقاء وأحبه، فالعربي يؤرقه الارتحال، ويبعث في نفسه حسرات وأشجان على ما ترك في أيامه الخالية من مواطن قد يكون له فيها ذكريات جميلة، لطالما تمنى العربي أن لا يفارقها، هذا المعنى ينطبق تماما مع ما يريد الإمام علي أن يشير إليه، فالحياة الدنيا ليست بدار الخلود بل هي مرحلة يعيش فيها الإنسان وسرعان ما يتركها لينتقل إلى حياة أخرى لا تنقضي قال تعالى:«**وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا**

يَعْلَمُونَ» والحسرة التي يعاني منها الإنسان في الدار الآخرة شبيهة على نحو ما بحسرة العربي على ما ترك من ديار قال عزَّوجلَّ:«**قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ**}بل أكثر من ذلك فقد سمى الله تعالى يوم القيامة بأنه يوم الحسرة: «**وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**» هذا الخليط من مشاعر الخوف والحسرة والألم واللهفة والشجن مَكَّــن الإمام علي من استعارة لفظ (الرحيل) ليطلقه على الموت في نموذج فريد من القول البليغ.

أما الركن الثاني في هذه الجملة فهو الخبر (وَشِيْكٌ) وهو صيغة (فَعِيْل) من (وَشَكَ) ومعناها (السريع)، «وأمر وَشِيْكٌ أي سريع»، استعملت الكلمة هنا في دلالتها الحقيقية، إذن أخبر الإمام أن الانتقال إلى الحياة الآخرة سريع وهذا الإخبار متفق تماما مع ما جاء به القرآن الكريم بل هو تجسيد له فقد استعمل القرآن الكريم لفظ (بغتة) في ثلاثة عشر موردا ليرسخ في ذهن الإنسان أن الانتقال إلى الآخرة وقيام الساعة والحساب سيكون بغتة، والبغتة هي الفجأة وسبب الفجأة هي السرعة وعدم توقع حدوث الأمر بهذا الوقت القصير؛ إذ أن عيش الإنسان في صحة وعافية وامتلاكه القوة، وعدم مراعاته لقدرة الخالق جعلته يطمئن للدنيا ويحسب أنه معمرٌ طويلا فيها، وربما ظنَّ بعض الجبابرة أنهم خالدون، وإذا تفاجأهم الحياة بقصرها، وتبغتهم الساعة التي ينتقلون فيها إلى الحياة الآخرة.

لقد اعتمد الإمام على تداعيات المعنى في ذهن المتلقي فكانت هاتان الكلمتان اللتان بنى منهما جملته البسيطة التركيب لكنه أسس لقولة بليغة خالدة أضحت كحجر رمي في ماء راكد فأثار فيه حركة ولَّدت أمواجا متتابعة تبقى تدور في عقله يديرها ويفكر فيها لعله ممن يعتبر بالحكم.

من العناصر التي لها أثر في بناء هذه القولة الحِكَميَّة التماثل في الصيغة الصرفية بين اللفظتين لفظة المبتدأ (رَحِيْل) ولفظة الخبر(وَشِيْك) وكلاهما على صيغة (فَعِيْل) ولَّد هذا التماثل - فضلا عن الدلالة الصرفية التي قد تستفاد من هذه الصيغة - توازيا نغميا بين ركني الجملة المبتدأ والخبر هذا التكافؤ أعطى المعنى دفعة من الدلالة الصوتية وكثيفا موسيقيا يتحسسه كل من يتلفظ بهذه القولة البليغة، إن هذا التوازن والتماثل النغمي بين ركني الجملة قرينة إضافية توفر قدرا من الدلالة وتعمل على تكثيف المعنى وشد السامع لذلك النغم الخفي غير المتكلف، لقد وظَّف الإمام كل ذلك في إيصال أكبر قدر من المعنى بأقل قدر من الألفاظ .

لقد بنى الإمام علي حكمته هنا على نمط الجملة الاسمية مستلهما طاقاتها وموظفا دلالتها على الاستقرار والثبوت ليعزز من دلالة قولته (الرَّحِيْلُ وَشِيْكٌ) وإذا كان علماء العربية قد قرروا أن الجملة الاسمية تفيد الاستقرار والثبوت على عكس الجملة الفعلية التي تدل على التجدد والحدوث ومزاولة الفعل فقد كان هذا العنصر عنصر دعم في بناء هذه القولة فالحكمة تنبع من رأي ثابت وخبرة مستحكمة.

إن من عناصر بناء هذه القولة (الظروف التي نطقت فيها) و(ملابسات تلقي المتلقي لها) ولئن كانت الكتابة العربية قد قصرت عن حفظ هذه التفاصيل وأفقدتنا معها كثيرا من مميزات اللغة العربية الجميلة، فإننا على يقين أن ظروف نطق الحكم دائما تكون في مواقف التأمل والروية والنصيحة والاسترشاد والعبرة، فلابد من أن يكون هناك موقف معين دعا الإمام أن يقول هذه الحكمة ومن المؤكد أنه قالها ليعتبر بها المتلقي وإنا على يقين أن الحكم عموما تقال في مواقف هادئة بعيدة عم الانفعالات والأصوات المرتفعة، إنها لحظة سكينة يصدح فيها الإمام بحكمة من حكمه البليغة، ولا ريب أن التنغيم له أثره في بناء هذه القولة وإذا كنا لا نعلم يقينا النغمة التي تلا فيها الإمام هذه القولة للمرة الأولى، فإننا نتلمس اليوم نغمة هادئة كلما رددنا هذه الحكمة، نغمةٌ تلفها حسرةٌ على ما فرطنا في حياتنا من أوقات كان يمكن أن نفيد منها في التزود للدار الآخرة، وإذا ما أردنا أن نتخيل مخططا صوتيا لنطق هذه الحكمة فإني أراه متوازنا؛ إذ سيبدأ الصوت في الارتفاع ليصل قمته عند نهاية كلمة (الرحيلُ) وتحديدا عند صوت الضمة التي تعلو

اللام ثم يعود منخفضا في كلمة (وشيكٌ)حتى ينتهي عند إكمال النطق في صوت تنوين الضم، ويمكن أن يمثل هذا الشكل مخططا بيانيا لنطق هذه القولة الحكمية.
لقد وظَّف الإمام علي إمكانات اللغة المتاحة ليبني من مفردتين بسيطتين حكمة خالدة وقد صاغها على نول بسيط ونموذج يسير من نماذج اللغة العربية ذلك هو نموذج الجملة الاسمية المكونة من مبتدأ وخبر وكل منهما لفظ مفرد، لكن هذين اللفظين جمعا بين تضاعيفهما معان عميقة وخبرات رصينة جسدها الإمام بتلك الجملة البليغة وانتقل بمستويات اللغة من الحقيقة إلى المجاز معتمدا على تداعيات معاني اللفظ الذي اختاره وما اختزنه ذهن المتلقي من بواعث يستثيرها اللفظ كلما طرق سمع السامع، لقد اختار الإمام ألفاظه بعنايةٍ وتفردٍ في مقدرة عظيمة من صياغة الحِكَم على هذا الشكل الذي لم نعهده من قبله.
ولم يعجز الإمام أن يُعبِّـرَ بصورة مطولة عما عبر به بكلمتين، فالمعنى الذي كثفه بقوله (الرحيلُ وشيكٌ) نجده في موضع آخر يفصل فيه القول فيقول في التزهيد في الدنيا: «أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَصَرَّمَتْ وَآذَنَتْ بِانْقِضَاءٍ وَتَنَكَّرَ مَعْرُوفُهَا وَأَدْبَرَتْ حَذَّاءَ فَهِيَ تَحْفِزُ بِالْفَنَاءِ سُكَّانَهَا وَتَحْدُو بِالْمَوْتِ جِيرَانَهَا وَقَدْ أُمِرَّ فِيهَا مَا كَانَ حُلْواً وَكَدِرَ مِنْهَا مَا كَانَ صَفْواً فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا سَمَلَةٌ كَسَمَلَةِ الْإِدَاوَةِ أَوْ جُرْعَةٌ كَجُرْعَةِ الْمُقْلَةِ لَوْ تَمَزَّزَهَا الصَّدْيَانُ لَمْ يَنْقَعْ فَأَزْمِعُوا عِبَادَ اللَّهِ الرَّحِيلَ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ الْمَقْدُورِ عَلَى أَهْلِهَا الزَّوَالُ وَلَا يَغْلِبَنَّكُمْ فِيهَا الْأَمَلُ وَلَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ فِيهَا الْأَمَدُ».
ما أبان عنه الإمام بهذه الفقرة المطولة وبجمل في منتهى البلاغة استطاع ببلاغته أن يعيد صياغته بكلمتين فقط وأحسب أن هذا غير متيسر لسواه.
القولة الثانية: «الحِلْـمُ عَشِيرَةٌ» هذه القولة مكونة أيضا من جملة اسمية بسيطة فكيف تحولت كلمتان فقط إلى قولة حكميَّة بليغة خلدت على مرِّ السنين ؟
إذا تفحصنا أركان هذه الجملة نجد أن ركنها الأول المبتدأ (الحِلمُ) بكسر الحاء وهو الأناة والعقل، وجمعه أحلام وحلوم «ومن الحلم الأناة والتثبت في الأمور، وذلك شعار العقلاء»، لقد استعمل الإمام الكلمة هنا في معناها الحقيقي فأدخلها في بناء قولته في مستواها الدلالي الأولي، لكن تلك الدلالة التي أشارت إليها المعاجم تأتي على مستوى اللفظة المفردة، لكنها داخل القولة وضمن الجملة يضاف إليها أشياء وأشياء.
مما يضاف إلى دلالة اللفظة المفردة تطور معناها الدلالي والمعاني الهامشية التي اكتسبتها المفردة في استعمالات لغوية مماثلة أو مقابلة، ولقد استعملت مادة (حلم) باشتقاقاتها المختلفة (حِلْم، حَلِيم، حُلُـوم، أحلام،...إلخ) في بعض أشعار الجاهلين، ووصف بها بعض سادات القوم، وقد جاءت في أشعارهم مع صفات أخرى كالسيادة والنجابة والمجد والجود وغيرها ، ولا يكون الفرد حليما إلاَّ إذا عركته الدهور وصقلته السنون.
واستعملت مادة (حليم) صفة للذات المقدسة في القرآن الكريم بصورها المختلفة أحد عشرة مرَّة، منها قوله تعالى:«**وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ**» وقيل في تفسيرها «الحليم هو الذي لا يعاجل بالعقوبة، ومع ذلك فإنه لا يمتنع من إيصال الرحمة،...، والفرق «بين الصبور» وبين الحليم أن الصبور هو الذي لا يعاقب المسيء مع القدرة عليه، والحليم هو الذي يكون كذلك مع أنه لا يمنعه من إيصال نعمته إليه...» وأطلقت هذه اللفظة صفة لبعض أنبياء الله تعالى في أربع آيات منها قوله «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ**»، إذن الحِلْمُ من صفات الكمال التي يتحلى بها الإنسان وتستدعي معها جملة من الكمالات الأخرى كالصبر والجود والأناة والهدوء والسكينة والتثبت من الأمور وتمام العقل، كل هذه المعاني تدور بهامش هذه المفردة وإنما صارت تحوم في فلكها نتيجة لتلازم استعمالها معها في قولات عديدة سابقة حتى صارت تطوف في الخيال كلما استعملت هذه المفردة فأضيفت هذه المعاني من طرف خفي إلى دلالة القولة.
أما الركن الثاني في هذه الجملة فهو الخبر (عَشيرةٌ) والعشيرة القبيلة ، هنا ينتقل الإمام علي إلى المجاز فيرتفع بالقول إلى مستوى البلاغة، فالعشيرة (التي هي مجموعة أفراد تربطهم فيما بينهم

صلة الرحم والقرابة والدم) لا تساوي (الحِلم) لأن الحِلْمَ اسم لمعنى في حين العشيرة اسم لذات، فلا مجال للمستوى الدلالة الحقيقي هنا بل انتقل الكلام إلى مستوى المجاز؛ إذ صاغ الإمام قولته بتشبيه بليغ حاذفا أداة التشبيه ووجه الشبه من الكلام وجعل المشبه والمشبه به مبتدأ وخبرا ليضفي على العلاقة بينهما مزيدا من المشاركة في الدلالة وبحسب ما تتوافر عليه ذهنية المتلقي للمعاني الهامشية لكلا الكلمتين.

فما المعاني التي ممكن أن تضاف إلى القولة من هذا الربط بين المفردتين ؟

أشار البحث آنفا إلى المعاني الهامشية للفظ (الحِلم) ونشير هنا إلى مجموعة من المعاني الهامشية التي تصاحب لفظ (العشيرة) فالعشيرة عزُّ الفرد في المجتمعات القبلية حتى ورد من أدعية العرب قولهم:«أسألك الغفيرة، والناقة الغزيرة، والعزَّ في العشيرة» فمكانة المرء في هذه المجتمعات تكمن في مقدار حظوته في العشيرة ويعزُّ الفرد كلما كانت عشيرته عزيزة كريمة وحسبنا أن نتذكر هنا بيت قريط بن أنيف (جاهلي) وهو من أبيات الحماسة:

(البسيط)

لو كنت من مازنٍ لم تستبح إبلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

إذن لقــام بنصري معشــرٌ خُشُنٌ عنـــد الحفيظـــة إن ذو لُوثــةٍ لانا

فالمنعة عند العرب مقترنة بالعشيرة فكلما كانت العشيرة منيعة كان الفرد مصانا في ماله وعرضه ومهابا بين الناس، و«الحِجْزُ العشيرة تحتجز بهم أي تمتنع»، فالعشيرة الحاجز والمانع من الاعتداء على الفرد فهم ستره، وقيل: «الركنُ العشيرةُ» وقيل في تفسير قوله تعالى على لسان لوط:{قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} أي عشيرة عزيزة أو كثيرة لأنه كان غريبا عن قومه، والعشيرة مانعة للرجل عن الشطط لأنها تحكمه بأعرافها وسطوتها فللعشيرة سطوة واحترام.

لقد نسج الإمام علي خيوطا متشابكة بين هذه المعاني التي ترافق لفظة (العشيرة) وتلك المعاني التي رافقت لفظة (الحلم) فولَّد منهما حكمة بليغة نعم تركيبها الإسنادي بسيط لكن دلالاتها متحركة تتحرك مع كلِّ فرد يتلقى هذه القولة بل إن الفرد نفسه إذا تلقاها مرة ومرتين وثلاث يستنبط منها دلالات متعددة ولا تولد عنده مللا بل معناها يتجدد، فالحلم والتأمل والتروي دافع لعدم العجلة والانتظار إصدار الأحكام فهو مدعاة إلى قلة الخطأ، ومن هنا سيكون الحليم عصمة لأهله يعصمهم من الزلل والاعتداء ويمنعهم من الطيش والاعتداء، وهكذا تبقى المعاني تتحرك في ذهن المتلقي وتتوالد كلما تلقى قولة الإمام (الحِلْمُ عَشِيْرَةٌ)، وصياغة الجملة بصيغة الجملة الاسمية بما تعطية من دلالة الاستقرار والثبوت يضفي دلالة مساعدة على القولة الحكمية فكون الحلم مانع وحاجز من الزلل وعاصم من الخطأ والتعدي مما استقرت عليه سنن البشر وهو ثابت في مجتمعاتهم أجمع الحليم عاصم لقومه ونفسه عن التعدي والظلم وهذه العصمة والمنعة مستقرة في نفس الحليم.

إن هذا النول من الجمل بسيطة التركيب يكون أشدَّ امتناعا على البلغاء إذا ما حاولوا أن يصوغوا منه حكما، ولم نسمع عن حكيم من حكماء الجاهلية أو صدر الإسلام نظم حكمة شعرا أو نثرا من كلمتين فقط تربطهما علاقة (مسند ومسند إليه) لكن أمير الفصاحة والبيان تنقاد البلاغةُ بين يديه، ولا يعجزه شيء منها ولا أقول أنه قصد إلى هذا النوع من النظم قصدا وتكلفه تكلفا، بل جاء منه عفو الخاطر، فالفكرة والخبرة وتجربة الحياة راسخة في ذهنه (عليه السلام) والقول تبع للمعنى يتعقد أو يسهل تماشيا معه.

وإذا أردنا إعادة التنبيه على القرائن التي وظفها الإمام علي لتكثيف المعنى في الأقوال الحكمية التي بنيت جملها على أبسط نموذج في لغة العرب فنقول:إنه أفاد من ربط الدلالات الهامشية للمفردة مع الدلالة المعجمية لها ثم أفاد من تطور دلالة المفردة وربط هذه الدلالات المنوعة للمفردات بروابط إسنادية فأنشأ بينها علاقات تركيبية ليخبر عن المبتدأ بهالة من المعاني، ثم وظف التناغم الصوتي وأحدث توازنا صوتيا من خلال استعمال صيغة صرفية متشابه في كل ركن من ركني الجملة، البساطة في تركيب الجملة الأولى كان لها دلالتها فهي تتماشى مع

الهدوء المصاحب للرحيل، وكذا البساطة في بناء الجملة الثانية كان منسجما تماما مع الحلم والتروي المصاحب له، اختياره لنموذج الجملة الاسمية دون الفعلية كان متلائما مع استقرار الأخبار التي أخبر عن المبتدأين بها فهي ثابتة لتلك المعاني التي وصفها.
هذه العناصر وكثير غيرها وظفها الإمام لتكثيف معنى جملة بسيطة النظم لينشئ منها قولة حكمية تبقى خالدة منذ ما يزيد على ثلاثة عشر قرنا.
إن ما رصدناه من أقوال حكمية من هذا النوع قولتين فقط لكن هاتين القولتين كانت كل منهما تحدٍ كبير لمن أراد أن ينظم مثلهما وأستطيع أن أزعم أن الإمام علي أول من نظم أقوالا حكمية على هذا الشكل من الجمل البسيطة التركيب.

النوع الثاني:

نظم الحكم باستعمال الجملة الاسمية البسيطة المكونة من (المبتدأ والخبر) أيضا لكن الخبر يكون اسما مضافا ثم يلحق به اسم آخر مضافا إليه، فيكون مجموع كلمات الجملة ثلاث مفردات وهي أطول قليلا من النوع الأول الذي تقدم الحديث عنه. وقد ظفرنا من هذا النوع باثنتي عشرة قولة حكميَّة:

القولة الأولى: قَالَ: «الْمَالُ مَادَّةُ الشَّهَوَات»
القولة الثانية: وَقَالَ «الشَّفِيعُ جَنَاحُ الطَّالِب»
القولة الثالثة: وَقَالَ «الْعَفَافُ زِينَةُ الْفَقْر»
القولة الرابعة: وقَالَ «الْهَمُّ نِصْفُ الْهَرَم»
القولة الخامسة: وَقَالَ «الْفَقْرُ الْمَوْتُ الْأَكْبَرُ»
القولة السادسة: وَقَالَ «الطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّد»
القولة السابعة: وَقَالَ «الْخِلَافُ يَهْدِمُ الرَّأْي»
القولة الثامنة: وَقَالَ «الْقَلْبُ مُصْحَفُ الْبَصَر»
القولة التاسعة: وَقَالَ «التُّقَى رَئِيسُ الْأَخْلَاق»
القولة العاشرة: وَقَالَ «الْوِلَايَاتُ مَضَامِيرُ الرِّجَال»
القولة الحادية عشرة: وَقَالَ «الْغِيبَةُ جُهْدُ الْعَاجِز»
القولة الثانية عشرة: وَقَالَ «الْعَيْنُ وِكَاءُ السَّه»

بُنِيَت هذه القولات كلها على نهج واحد:
جملة اسمية بسيطة مكونه من: مبتدأ (اسم مفرد) + خبر (اسم مضاف ثم اسم مضاف إليه).
وهذا البناء فيه تطور قليل عن النموذج الأول فالخبر فيه مكون من كلمتين تربط بينهما علاقة الإضافة، ومع أن النحاة قرروا أن المضاف والمضاف إليه كالكلمة الواحدة ولم يجيزوا الفصل بينهما بأجنبي، إلا أن الدلالة لا تعرف هذا الحكم فكل من الكلمتين له دلالته المعجمية المستقلة، ثم هناك علاقة الإضافة التي ستربط بين كلمتي الخبر برباط خاص، ففضلا عن العناصر التي وظفها الإمام في النموذج الأول لتكثيف معنى الجملة توافرت لديه هنا عناصر إضافية أخرى.
ويستمر البحث بدراسة هذه النماذج وتليها نماذج أخرى تتقلب بينها الجملة في صياغات متعددة مستثمرة طاقات اللغة وتوظفها في صياغة أقوال حكمية كانت القمَّة في هذا الفن، ثم ينتقل البحث لدراسة علاقات بنائية أخرى لها تأثيرها ففي تكثيف المعنى وبيانه فيدرس:
دلالة الجملة الاسمية والجملة الفعلية
كسر بناء الجملة القياسي من خلال التقديم والتأخير
التقابل والمخالفة
التراكم وأثره في تركيز الفكرة
ختاما أدعو الله أن ينعم عليَّ بتمام البحث والتوفيق فيه، إنه سميع مجيب.

التكامل الأخلاقي في نهج البلاغة

المدرس الدكتور: يحيى رمزي محسن (كلية الإمام الكاظم(ع) للعلوم الإسلامية الجامعة)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلق الله محمد وآله الطيبين الطاهرين وأصحابه الأخيار المنتجبين.. وبعد «لقد عُلِّقَ بنياطِ هذا الإنسان بَضعةٌ هي أعجبُ مافيه: وذلكَ القلبُ، وأنّ لهُ أدواتٌ منَ الحكمةِ وأضداداً من خلافها. فإنْ سنَحَ لهُ الرَّجاء أذلَّهُ الطَّمعُ، وإنْ هاجَ بهِ الطَّمعُ أهلكهُ الحرصُ، وإنْ ملكَهُ اليأسُ قَتلَهُ الأسفُ، وإنْ عرَضَ لهُ الغَضَبُ آشْتَدَّ بهِ الغيظُ، وإنْ أسْعَدَهُ الرِّضى نَسيَ التَّحفُّظَ، وإنْ غالَهُ الخوفُ شَغَلَهُ الحذرُ، وإن اتَّسَعَ لهُ الأمرُ آستلبَتْهُ آلغِرَّةُ، وإنْ أفادَ مالاً أطْغاهُ آلغِنى، وإنْ أصابتْهُ مُصيبَةٌ فَضحهُ آلجَزَعُ، وإنْ عَضَّتْهُ آلفاقةُ شَغَلَهُ آلبلاءُ، وإنْ جَهَدَهُ آلجوعُ قَعَدَ بِهِ الضَّعفُ، وإنْ أفْرَطَ بهِ الشِّبعُ كَظَّتْهُ البِطْنَةُ. فكُلُّ تَقصيرٍ بهِ مُضِرٌّ، وكُلُّ إفْراطٍ لهُ مُفْسِدٌ».

هذا ما أورده الإمام علي(عليه السلام) عن سايكلوجية الأخلاق عند الإنسان وتضاده بين السمو والانكسار، بين الرفعة والوضاعة، بين الإندفاع والغريزة. فهو يرى بأنّ الإنسان مخلوق وله ملكات باطنية تعمل للخير، مع وجود أضدادها التي تعمل للشّر، فالإنسان الذي له أدوات الحكمة ومعرفتها له أضدادها التي تخالفُها.

ونهج البلاغة كتابٌ نفيس ذو قيمةٍ علميةٍ واسعةٍ، وليس لذي لُبٍّ أن يشكَّ في ذلك أو أن تعتريه أية شبهةٍ حولهُ.. فهو في مصاف الكتب النفيسة والتي تعد من أمّات حضارتنا الإسلامية. فهو كتابٌ أدبي، وديني، واجتماعي، وأخلاقي وتاريخي

بعد القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.حيث يُعد تراثه العلامة المضيئة والدلالة البالغة على روح الإسلام، وقد عجز الزمان من أن يبلاه، بل أصبح الزمانُ والأفكار الحديثة النيرة المستقاة منه تزيدهُ ثمناً ونوراً وبهاءً. فكلماتهُ التي يطلقها الإمام فيه هي مرآةٌ لروح الإسلام الخالد، وبلاغتهُ هو البيان الرائع الذي بلغ فيه أوج عظمتهِ، والتي نثرها الإمام في هذا الكتاب. وانّ المواعظ والحكم المنثورة فيه رغم صدورها قبل ألفَ عامٍ أو أكثر فإنّها تؤدّي دورها الفعّال، وتؤثرُ أثرها الغريب لوقتنا الحاضر. فكلماتهِ الموجودة بين دفّتي النهج هي حيّةٌ خالدةً لم تفقد أي أثرٍ من آثارها، فهي تنفد في القلوب وفي الألباب فتهزّها، تجري في العواطف فتجعلها تذرف الدموع من حيث يدري القارىء أم لايدري.

جاءت فكرة كتابة هذا البحث وليدة إندفاع مني لإحياء هذا التراث الإسلامي العظيم المبثوث هنا وهناك كالدرر المنثورة تزيّن حضارتنا وتراثنا الإسلامي العريق. وقد وقع إختياري لموضوع (الأخلاق) بالذات لما لها من تأثير فعّال لبناء الأمة الإسلامية بناءاً صحيحاً وقويماً..

وقد قسم البحث إلى ثلاثة مباحث:

عني المبحث الأول باستقصاء(الأخلاق) لغةً وما تناولتها معاجم اللغة، إذ ذهبت إلى أنّ معناها هي الطبيعة والسجية والمروءة والدين.، واصطلاحاً وقد وجدت أنّ هناك علاقة بين اللغة والإصطلاح للكلمة وأنّها قد انحدرت عن أصلها اللغوي من خلال تسمية (علم الأخلاق) باسم (الحكمة الخلقية) وهي مأخوذة من هذه الصفات التي ذكرتها المعاجم اللغوية والتي تندرج تحت مصطلح(الحكمة).أمّا الإتجاهات والآراء التي دارت حول الإنسان وفطرته على الخير والشر، فهي ثلاثة اتجاهات، الأول منها ذهب الى القول بأنّ (الأخلاق) هي ملكة نفسانية للإنسان تكون مقابلة للخير والشر معاً. في حين ذهب الإتجاه الثاني الى أنّ الإنسان مفطور على الخير حيث

أنّه اذا رجع الى أصل فطرته فلا يرى إلاّ الخير ولا يميل إلاّ إليه، أما الشّر فهو يتعرض للإنسان نتيجة للعوارض التي تعترضه لا من أصل جبلّته. أمّا الإتجاه الثالث فقد ذهب إلى أنّ الإنسان مفطورٌ على الشّر وهو شرّيرٌ بطبعه، وأنّ الفساد غريزةٌ فيه.
وكان عنوان المبحث الثاني (عليٌ والأخلاق) تناولت فيه عن عاطفة الأمام (عليه السلام) وغريزته التي يمتاز بها، وأوضحت فيه بأنّ عاطفة الأمام (عليه السلام) هي عقله، وأنّ العوارض الخارجية التي تعترضه كان لا يتأثرُ بها بل هي التي كانت تتأثرُ به. فنرى أنّ الإمام علي (عليه السلام) له رأيٌ خاص في معنى (الأخلاق) عند الإنسان حيث سبق جميع علماء الأخلاق في ذلك. فنرى رأيه قد تجلى في خطبه الكثيرة التي يشرح فيها معنى (الأخلاق) وينشرها بين أصحابه.ويمكن من خلال ذلك القول بأنّ (الأخلاق) هو علمٌ باحثٌ في الملكات النفسية الموجودة في الإنسان بقواه الباطنية والتي تجعله يثبت فيه الفضائل ويرفع عنه الرذائل، وبرأي السيد الطباطبائي هو:«الباحث عن الملكات الإنسانية المتعلقة بقواه النباتية والحيوانية والإنسانية، وتميز الفضائل منها من الرذائل ليستكمل الإنسان التحلي والإتصاف بها سعادته العلمية، فيصدر عنه من الأفعال ما يجلب الحمد العام والثناء الجميل من المجتمع الإنساني».
وتناول المبحث الثالث لذكر ثلاثة نماذج من الفضائل الأخلاقية الواردة في (نهج البلاغة) والتي

وصلت إلى أكثر من (٤٥) فضيلة، فتناولت لفضيلة الزهد لما لها من أهمية كبيرة من بين الفضائل، ولكثرة ورودها في خطب وحكم النهج، وكذلك تناولت لذكر حب الدنيا وذمِّها، فتناولت لجميع الخطب والرسائل والحكم التي
ذكرها الأمام (عليه السلام) في النهج. ثمَّ تكلمت عن (الصبر والجزع) وما تناوله الإمام لهما

في نهج البلاغة.
وبعد هذه المقدمة البسيطة للبحث أودّ أن أذكر عن خير ما قيل عن ملاك الأخلاق عند علي (عليه السلام) هو ما قاله الأستاذ عباس محمود العقاد في عبقريته حيث قال:«وكان ملاك الأمر في أخلاق علي (عليه السلام) أنّه كان لا يتكلف إظهار شيء، ولا يتكلف إخفاء شيء، ولا يقبل التكلف حتى من مادحيه، فربما أفرط الرجل في الثناء عليه وهو متّهمٌ عنده فلا يدعه يعلن عن طويته ويقول له: (أنا دونَ ما تقول وفوقَ ما في نَفْسِك).

وفي الختام أرجو أن أكون قد وفقت في كتابة هذا البحث وما توفيقي إلاّ بالله العلي العظيم عليه توكلت وإليه أنيب..
د. يحيى رمزي محسن (رئيس قسم الفكر الإسلامي كلية الإمام الكاظم (ع) للعلوم الإسلامية الجامعة)

المبحث الأول: الأخلاق لغة واصطلاحاً

المعنى اللغوي للأخلاق...

الأخلاق، مأخوذة من مادة خُلْق – خُلُق: (بضم الخاء وسكون اللام أو بضم الخاء واللام)، وهي

بمعنى الطبيعة، كما قال تعالى وأنك لعلى خلق عظيم أورده ابن منظور في لسان العرب . وكذلك قد وردت بمعنى: السجية والمروءة والدين، كما في الحديث الشريف» أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً {.. وخالق الناس: أي عاشرهم على أخلاقهم. وتحدثت بقية معاجم اللغة حول هذه الكلمة وأوردتها على نفس المعنى ، وهي الطبيعة أو السجية أو المروءة والدين.
وذهب الأزهري في تهذيب اللغة عن أبي عبيدة عن أبي زيد – إنه لكريم الطبيعة والخليقة والسليقة: هي بمعنى واحد .
و(الخُلْق – الخُلُق): جمعها أخلاق.

فهذا هو المعنى اللغوي للأخلاق في متناول لغة الإنسان المتبادلة عند العرب...

المعنى الاصطلاحي للأخلاق...

هنالك علاقة في اشتقاق كلمة (الأخلاق) بين اللغة والاصطلاح، فكما أن معنى الأخلاق في اللغة

هي: السجية والطبيعة، فأنها في الاصطلاح تعني سجية الإنسان وجبلته بما تحويها من خير وشر، وكما أن هذه الصفات تندرج تحت مصطلح الحكمة، فكذلك إن تسمية علم الأخلاق باسم (الحكمة الخلقية) قد انحدرت من هذا المعنى.

وبهذا نرى بأن المعنى الاصطلاحي منحدر عن أصله اللغوي...
أما الاتجاهات المنظورة لعلماء الأخلاق فقد رأيناها قد انقسمت إلى ثلاثة اتجاهات، فالاتجاه الأول قد ذهب إلى القول بأن (الخلق) هو ملكة نفسانية باطنية للإنسان تكون قابلة للخير وللشر

معاً، وهو ماذهب إليه أبن مسكويه، ابو علي احمد بن محمد الرازي (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م)، ثم حذا حذوه كل من الغزالي، ابو حامد محمد بن محمد بن محمد (ت٥٠٥هـ/١١١١م) وابن خلدون، عبد الرحمن بن محمدالحضرمي (ت ٨٠٨هـ/). حيث عبر عنها ابن خلدون في مقدمته:

بأن الإنسان مفطور على فعل الخير والشر، حيث أن الخير هو أصل فطرته وهي قوته الناطقة العاقلة، أما فعل الشر فهي قد جاءت إليه من قبل الحيوانية التي هي فيه من حيث أنه إنسان، ولكنه إلى الخير أقرب منه إلى الشر.
أما الاتجاه الثاني فقد مثله الشيخ محمد عبده (ت ١٣٢٣هـ) حيث قال: «لاشك في أن الميل إلى الخير مما أودع طبع الإنسان.. والإنسان يفعل الخير بطبعه وتكون فيه لذاته، ويميل إلى عبادة الله تعالى، لأن شكر المنعم مغروس في الطبع، ويظهر أثره في كل إنسان، ولا يحتاج الإنسان إلى التكلف في فعل الخير، وأما فأنه يعرض للنفس بأسباب ليست من طبيعتها ولا مقتضى فطرتها. ومهما كان الإنسان شريراً، فأنه لا يخفى عليه أن الشر ممقوت في نظر الناس وصاحبه مهين عندهم».
فالشيخ محمد عبده قد ذهب إلى أن الإنسان مفطور على الخير، حيث أنه إذا رجع إلى أصل فطرته فهو لايرى ألا الخير، ولا يميل إلا إليه. أما الشر فهو يتعرض للإنسان نتيجة للعوارض التي تعترضه لا من أصل جبلته التي تجبل عليها...
أما الاتجاه الثالث فهو القائل بأن الإنسان مفطور على الشر وهو ما ذهب إليه أبو العلاء المعري، احمد بن عبد الله (ت ٤٤٩هـ/١٠٥٧م) في نظر صاحب كتاب (الخلق الكامل) حيث

قال عنه «بأن الإنسان مفطور على الشر، فأذن في شعره بأن الإنسان شرير بطبعه، وأن الفساد غريزة فيه».
فهذه الاتجاهات الثلاثة التي ذهب إليها علماء الأخلاق، يرى الباحث أن أقرب هذه الآراء الى الصحة هو ما ذهب إليه كل من ابن مسكويه (ت- ٤٢١هـ) والغزالي (ت-٥٠٥هـ) أبن خلدون(ت-٨٠٨هـ)، حيث أن في الإنسان جبلة خير تقابلها نقيضتها الشر. فكل أصل وفرع للأخلاق الفاضلة لابد وأن لها نقيض يقابله عند الإنسان. بدليل بعض الآيات القرآنية الكريمة التي وردت في القرآن الكريم، حيث تدل على أن الإنسان قابلاً للخير والشر معا, قال تعالى: ألم نجعل له عينين، ولساناً وشفتين، وهديناه النجدين أي هديناه طريقي الخير والشر، وقوله تعالى ونفس وما سواها فألهما فجورها وتقواها، وقوله تعالى إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً .

المبحث الثاني علي والأخلاق...

إن الإمام علي(عليه السلام) بشر مثلنا، له عقل يفكر به، ودين يتمسك به، وعاطفة وغريزة. ولكن العاطفة والغريزة التي تميزنا عنه هو كوننا قد تجاوز حدها المعقول التي رسمت لها.

فهي قد تقودنا الى الطغيان والى الظلم، فهذه هي نزعة جميع أفراد البشر قاطبة، لهم بواعث وزواجر من الداخل قد تدفعهم إلى فعل الشر وتغلبه على فعل الخير...
هذا هو حال البشرية جمعاء، في حين نرى أن عاطفة الإمام على (ع) وعقله ليس هناك بينهما أي تصادم ولا أي صراع، فعاطفته هي عقله. ومعنى هذا أن الإمام (عليه السلام) لايضطر إلى الاستجابة لعواطفه وشهواته إذا دعته إلى فعل الشر ومخالفة للدين. لان ذلك غير موجود أصلا عنده, ومستحيل أن يحصل في حقه أبدا..أما العوارض الخارجية التي تعترضه فهو فوقها تتأثر به ولا يتأثر بها. فالأخلاق عند علي (عليه السلام) لا تتوقف وجودها على الشعور والانفعالات والعواطف, بل هي الأصل , فهي صفات قائمة في الأفعال بذاتها ولا دخل في وجودها اي أوامر أو نواهي، فقيمة كل فعل وحقيقته تكمن في ذاتها وفي باطنها. فالخير هو فعل الخير بذاته، والشر هو فعل الشر بذاته...

فالله سبحانه وتعالى عندما أمرنا على فعل الحسن لأنه حسن، ونهانا عن فعل الشر لأنه شر، فالعمل الصالح المجلب للمنفعة والخير للجميع يوصف بالحسن.. فهذا هو منهج الإسلام في حقيقة الأخلاق «تلك الأخلاق التي أمرها الدين الإسلامي التي لايصل البشر إلى تأسيسها مهما تكاملت نفسه، تلك الأخلاق التي تجعل الإنسان أعلى منزلة من الملائكة».
والإمام علي (عليه السلام) (ت٤٠هـ) له رأي خاص في معنى الأخلاق عند الإنسان حيث سبق جميع علماء الأخلاق في ذلك، فنرى بأن رأي الإمام (عليه السلام) قد تجلى في خطبه الكثيرة التي يشرح فيها الأخلاق، وينشرها بين أصحابه، فهو يرى بأن الإنسان مخلوق وله ملكات باطنية تعمل للخير، مع وجود أضدادها التي تعمل للشر، فالإنسان الذي له أدوات الحكمة ومعرفتها له أضدادها التي تخالفها فقال (ع):
«لقد عُلِّقَ بنياطِ هذا الإنسانِ بَضعةٌ هي أعجبُ مافيه: وذلكَ القلبُ، وأنّ لهُ أدواتٌ منَ الحكمةِ وأضداداً من خلافها. فإنْ سنَحَ لهُ الرَّجاءُ أذلَّهُ الطَّمعُ، وإنْ هاجَ بهِ الطَّمعُ أهلكهُ الحرصُ، وإنْ ملكَهُ اليأسُ قَتلهُ الأسفُ، وإنْ عرَضَ لهُ الغَضَبُ آشْتَدَّ بهِ الغيظُ، وإنْ أسْعَدَهُ الرِّضى نَسيَ التَّحفُّظَ، وإنْ غالَهُ الخوفُ شَغَلَهُ الحذرُ، وإنِ اتَّسعَ لهُ الأمرُ إستلبَتْهُ الغِرَّةُ، وإنْ أفادَ مالاً أطْغاهُ الغنى، وإنْ أصابتْهُ مُصيبَةٌ فَضحهُ آلجَزَعُ، وإنْ عَضَّتْهُ الفاقةُ شَغَلَهُ البلاءُ، وإنْ جَهَدَهُ الجوعُ قَعَدَ بهِ الضَّعفُ، وإنْ أفْرَطَ بهِ الشِّبعُ كَظَّتْهُ البِطْنَةُ. فكُلُّ تَقصيرٍ بهِ مُضِرٌّ، وكَلُّ إفْراطٍ لهُ مُفْسِدٌ».
هذا هو رأي الإمام (عليه السلام) في معنى الأخلاق عند الإنسان وهو قد أختص به دون غيره ولم يسبقه إليها أحد غيره، سوى أن الذين جاءوا من بعده قد أخذوه وصاغوه صياغة أخرى، ورأيه هذا قد صارح ماجاء به القرآن الكريم. ويمكن القول بان (الأخلاق) هو علم باحث في الملكات النفسية الموجودة في الإنسان بقواه الباطنية تجعله يثبت فيه الفضائل ويرفع عنه الرذائل وبرأي العلامة الطباطبائي هو:«الباحث عن الملكات النفسية المتعلقة بقواه النباتية والحيوانية والإنسانية وتميز الفضائل منها من الرذائل ليستكمل الإنسان بالتحلي والاتصاف بها سعادته العلمية فيصدر عنه من الأفعال ما يجلب الحمد العام والثناء الجميل من المجتمع الإنساني»
وخير ما قيل عن ملاك الأخلاق عند علي(عليه السلام) هو ماقاله الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد في (عبقرية الإمام) حيث قال: «وكان ملاك الأمر في أخلاق علي (عليه السلام) إنه كان لايتكلف إظهار شيء ولا يتكلف إخفاء شيء ولا يقبل التكلف حتى من مادحيه، فربما أفرط الرجل في الثناء عليه وهو متهم عنده فلا يدعه حتى يعلن له عن طريقته ويقول له: (أنا دونَ ماتقول وفوقَ ما في نفسك)».
وهكذا نرى من خلال ذلك بأن الإمام علي (عليه السلام) قد «ألقى على الأمة الإسلامية دروساً خالدة مابعدها دروس، دروساً فيها عز الدنيا وسعادة الآخرة، فيها راحة الفرد وراحة المجتمع، فيها العدل الاجتماعي المطلق وكل مايؤدي بالفرد إلى ذروة الكمال».

المبحث الثالث: نماذج من الفضائل الأخلاقية الواردة في نهج البلاغة

إن المباحث المطروحة في (نهج البلاغة) لايمكن لشخص واحد أن يجمع مافيها ويدرسها دراسة تحليلية عميقة وكاملة، فهو يتضمن لبحوث كثيرة كل منها تستحق البحث والتحقيق بصورة مستقلة. وهذا القسم الذي أتناوله في بحثي هذا هو أحد هذه البحوث، لا أقول أكثرها تعمقاً وعدداً، إلاّ أنّه أحد البحوث المهمة والتي قد أكّد عليها الإمام (عليه السلام) في نهجه.. فهو يعكس فيه أخلاقه العظيمة، أخلاقه الإسلامية الرائعة والتي قد قام بها قولاً وعملاً، فهي تعتبر من الموازين الراقية لبناء الإنسان.. كل هذا قد عكسه الأمام (عليه السلام) في خطبه وحكمه الكثيرة، فعلينا أن نأخذ من سيرته هذه الومضة، ومن سير عظمائنا الأوائل ونأخذ منهم خُلُقهم العالي في سيرهم حتى نعيد للإنسانية قيمتها العليا، فنحنُ في حاجةٍ إلى عطائهم فهم زاداً لنا.
وقد جمعنا الفضائل الأخلاقية التي وردت في نهج البلاغة فكانت أكثر من (٤٥) فضيلة، إلا أننا ورغبة منا في الاختصار وعدم الإطالة ارتئينها أن نذكر ثلاثة نماذج من هذه الفضائل هي:

١ - الزهـــــد...

يعتبر الزهد من المواضيع المهمة التي يؤكد عليها الإمام (عليه السلام) في خطب النهج، فهو من أكثر المواضيع بحثاً في نهج البلاغة، وهي بذلك تحتاج إلى بحث مستقل كامل ومنفصل عن بقية المواضيع لأهميتها وكثرة تكرارها والتأكيد عليها في خطب الأمام (عليه السلام) .
والزهد: هو كلمة مرادفة إلى حب الدنيا والرغبة إليها، فهو فطام النفس عن لذائذ الدنيا، والرغبة عن الدنيا عدولاً إلى الآخرة، وهو أحد منازل الدين وأرفع وأعلى مقاماته.
وقد عرف الأمام (عليه السلام) الزهد في موضعين هما:
قوله (عليه السلام): «أيها الناس: الزَّهادةُ قِصَرُ الأمل، والشُّكْرُ عندَ النِّعَمِ، والتَّورُّعُ عند المحارمِ، فإنْ عَزَبَ ذلك عنكم، فلا يَغْلِبِ الحرامُ صبركُمْ، ولا تَنْسَوْا عند النعم شُكْرَكُمْ».
و قوله (عليه السلام): «الزُّهدُ كلُّهُ بينَ كَلمَتين منَ القُرآن: قالَ اللهُ سُبحانَهُ: لكَيلا تَأسَوْا على ما فَاتَكُمْ ولا تَفْرَحُوا بما آتَاكُمْ. ومنْ يأسَ على الماضي، ولمْ يَفْرَحْ بِالآتِي، فَقَدْ أخَذَ الزُّهْدَ بطرَفَيْهِ»
فوصف الإمام (عليه السلام) الزهد بأنه في المقدور عند الإنسان وحددها بثلاثة أوصاف: (قصر الأمل) و(الشكر عند النعم) أي بالطاعة و(التورع عند المحارم). وكذلك وصفها الأمام (عليه السلام) بعدم الحزن على المفقود وعدم الفرح بالموجود، فهو الرضا الميسور...
وقد قال (عليه السلام) في صفة الزهاد في الدنيا... بقوله: «كانوا قوماً من أهل الدنيا وليسُوا من أهلِها فَكانُوا فيها كَمَنْ ليْسَ مِنْها، عَمِلُوا فيها بما يُبْصِرونَ، وبَادَرُوا فيها ما يَحْذَرُونَ، تَقَلَّبُ أبدانُهُمْ بينَ ظَهْرانَيْ أهلِ الآخرةِ، ويَرَوْنَ أهلَ الدنيا يُعَظِّمُونَ مَوتَ أجسادِهِمْ وهُمْ أشَدُّ إعظاماً لموتِ قُلوبِ أحيائِهِمْ».
فالزُّهاد هم في الدنيا يأكلون ويلبسون ويتلذذون، ولكنهم قد أدركوا أن فضلها هو ما كان أبقى، فبذلك قد أنفقوا لها فهم بهذه يفترقون عن أهل الدنيا، فأبدانهم معهم وأرواحهم للآخرة تتطلع.
وعن نوف البكالي قال: رأيت أمير المؤمنين عليه السلام، ذات ليلة وقد خرج من فراشه، فنظر في النجوم فقال لي: يا نوف أراقد أنت أم رامق؟ (أي منتبه العين) فقلت: بل رامق، قال: «يا نوفُ، طُوبَى للزّاهدينَ في الدنيا الرّاغبينَ في الآخرةِ، أُولئِكَ قَومٌ آتَّخَذُوا الأرضَ بِساطاً، وتُرابَها فِرَاشاً، وَماءَهَا طِيباً، والقُرْآنَ شِعَاراً، وَالدُّعاءَ دِثاراً (كناية عن الدعاء جهراً) ثم قَرَضُوا الدُّنْيَا قَرْضاً على مِنْهَاجِ آلمَسيح»..
وقال (عليه السلام): «أزْهَدْ في الدُّنيا يُبَصِّرْكَ اللهُ عَوراتِها، ولا تَغْفُلْ فَلسْتَ بِمَغْفُولٍ عنكَ»..
ففي زهد الإنسان تُكشف له مصير الدنيا وأخبارها، فزهده تكشفه على حقيقتها فهي ثروة للإنسان... كما قال (عليه السلام): {.. والزُّهْدُ ثَرْوَةٌ».
وقال (عليه السلام): «أفضلُ الزُّهْدِ إخْفاءُ الزُّهْدِ».

وقال (عليه السلام) عن ثواب الزهاد قوله:«فوَ اللهِ لوْ حَنَنْتُمْ حَنينَ آلوُلَّهِ العِجَال، ودَعَوْتُمْ بهَديلِ آلحَمَامِ وَجَأرْتُمْ جُؤارَ مُتَبَتِّلِي الرُّهْبَانِ، وخَرَجْتُمْ إلى اللهِ منَ الأموالِ والأولادِ، إلتِماسَ القُرْبَةِ إليهِ في آرْتِفاعِ دَرجة عندَهُ، أو غُفْران سَيِّئَةٍ
أحْصَتْها كُتُبُهُ، وَحَفِظَتْها رُسُلُهُ لكانَ قَليلاً فيما أرْجُو لكُم منْ ثَوَابِهِ، وأخافُ عَلَيْكُمْ من عِقابِهِ».
ويقول(عليه السلام) في كتابه إلى عامله على البصرة (عثمان بن حنيف الأنصاري)، قال له(عليه السلام): «ولو شئتُ لآهتدَيْتُ الطريقَ إلى مُصَفَّى هذا العسلِ وُلبابِ هذا القَمحِ وَنَسائِجِ هذا القَزِّ، ولكن هيهاتَ أنْ يَغْلِبَني هوَايَ ويَقودَني جَشَعي إلى تَخَيُّرِ الأطعِمَةِ، ولعلَّ بالحجاز أو اليمامَةِ من لا طَمَعَ لهُ في القُرْصِ ولا عَهدَ لَهُ بالشِّبْعِ، أو أبيتَ مِبْطاناً وَحولي بطونٌ غَرْثى (اي جائعة)، وأكبادٌ حَرّى، .. ألا وإنَّ إمامَكُمْ قدْ آكْتَفى من دُنْياهُ بِطِمْرَيْهِ، ومن طُعْمِهِ بقُرْصَيْهِ، فو اللهِ ما كَنَزْتُ من دُنياكُمْ تِبْراً، ولا آدَّخَرتُ من غَنائِمِها وَفْراً، ولا أعدَدْتُ لِبالي ثَوْبي طِمْراً...، إليكِ عني يا دنيا فحَبْلُكِ على غارِبِكِ (تشبيهاً لها بالناقة) قدِ آنسَلَلْتُ من مخالبكِ، وأفْلتُّ من حَبائِلِكِ وآجْتَنَبْتُ الذَّهابَ إلى مَداحِضِكِ(أي مساقطك)».

فالأمام كان بدوره مواسياً للآخرين في أحزانهم فنراه قد زهد في حياته في الخلافة أكثر من أي وقت مضى، فهذا هو الزهد الحقيقي ليس فراراً من المسؤولية وأعراضاً عنها، بل هو مواساة لآلام الفقراء الجياع ومشاركة للضعفاء في ضعفهم...
وقد وصف الأمام (عليه السلام) زهد النبي(صلى الله عليه و آله وسلم) وهو قائد الأمة وحامل رسالتها، كي يكون عبرة وموعظة للآخرين، ودرساً لهم كي يسيروا على ما سار عليه نبيهم نبي الرحمة (صلى الله عليه وآله وسلم) إشفاقا منه على الفقراء والضعفاء والمساكين، فقال (عليه السلام) عن وصفه بذلك قوله: «ولقد كان صلى الله عليه واله وسلم يأكلُ على الأرض, ويجلس جِلسَةَ العبدِ, ويخصفُ بيده نعلهُ, ويَرْقَعُ بيده ثَوْبَهُ, ويركبُ الحمارَ العاريَ, ويُرْدفُ خَلفَهُ, ويكون السترُ على بابِ بَيْتِهِ فتكونُ فيه التَّصاويرُ فيقولُ:«يافلانةُ- لأحدى أزواجِهِ- غيبيهِ عنِّي فاني إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفَها», فاعرض عن الدنيا بقلبه, وأمات ذكرَها من نفسهِ, وأحب أن تغيبَ زينتُها عن عينهِ , لكيلا يتَّخذَ منها رياشاً, ولا يعتقِدَها قَراراً, ولا يَرجو فيها مُقاماً, فأخرَجَها من النَّفس, وأشخَصَها عن القلبِ, وغيَّبَها عن البَصَرِ. وكذلك من أبْغَضَ شيئاً أبْغَضَ أن ينظُرَ إليهِ, وان يُذْكَرَ عِنْدَهُ.
ولقد كان في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما يدلك على مساوئ الدنيا وعيوبها. إذ جاع فيها مع خاصته, وزُويتْ عنهُ زَخارفُها معَ عَظيم زُلْفَتِهِ. فلينظر ناظرٌ بعقلهِ, أكرمَ الله محمداً بذلك أم أهانه! فان قال: أهانه, فقد كذب- والله العظيم- بالأفكِ العظيم, وان قال: أكرمه فليعلم أن الله قد أهان غيره حيث بسطَ الدنيا له, وزَواها عن اقربِ الناسِ منه. فتأسَّى متأسٍّ بنبيهِ, واقتصَّ أثرهُ, وولجَ مولجَه, وإلا فلا يأمَنِ الهَلَكة, فان الله جعل محمداً- صلى الله عليه واله- علماً للساعة, ومبشراً بالجنة, ومنذراً بالعقوبة, خرج من الدنيا خميصاً وورَدَ الآخرةَ سليماً. لم يضع حجراً على حجرٍ, حتى مضى لسبيلهِ, وأجاب داعي ربِّهِ».
فالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الحامل لرسالة الله سبحانه وتعالى إلى عباده, ومنقذاً لهم من الضلالة والردى, قد أصاب من الدنيا بقدر الحاجة الضرورية. فقد حقر الدنيا وزهد فيها, فهو تواضعٌ لله وتغليبٌ للعقل على المشاعر, فقد تكلم الأمام علي (عليه السلام) عن حياة الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) وتصرفاته ما هو إلا بان تتأسى به بعد التكالب على الدنيا والغرور بزخرفها..
وتكلم الإمام (عليه السلام) عن نفسه ويصف مدرعته بقوله:«والله رقَّعْتُ مِدْرعتي هذه حتى آستحيَيْتُ من راقِعِها. ولقد قال لي قائل: ألا تَنْبذُها عنكَ ؟ فقلت: آعزُبْ عنِّي، فعندَ الصباح يَحمَدُ القومُ السُّرَى».

ومن خبر ضرار بن حمزة الضبائي عند دخوله على معاوية ومسألته له عن أمير المؤمنين، وقال: فأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وهو قائم في محرابه قابض على لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: «يادُنيا يادُنيا، إليكِ عنِّي أبي تَعرَّضْتِ؟ أمْ إليَّ تشوَّقْتِ؟ لا حانَ حِينُك، هيهات! غُرّي غَيري، لا حاجة لي فيكِ، قد طلَّقْتُكِ ثلاثاً لا رجعة فيها! فعيشُكِ قصيرٌ، وخطرُكِ يسيٌر، وأملُكِ حقيرٌ. آهٍ من قلّةِ الزاد، وطولِ الطريق، وبُعدِ السَّفر، وعظيم المَوردِ».

٢ - حب الدنيا وذمها..

ومن مباحث نهج البلاغة المهمة أيضاً التحذير من الاغترار بالدنيا وعدم الركون إليها، فهو ذو علاقة بالزهد الذي قلنا عنه في فصل سابق، فالزهد هو مفهوم ذم الدنيا وهو المانع لعبادتها. ولأهمية هذا المبحث فقد أكثر الأمام (عليه السلام) في أكثر خطبه في النهج على التحذير من الدنيا ومن عبادتها...

قال (عليه السلام): «عباد الله، إنكم - وما تأمُلون من هذه الدنيا – أثوياءُ مؤجلونَ، ومدينون مُقتضونَ: أجلٌ منقوصٌ، وعملٌ محفوظٌ. فَربَّ دائبٍ مُضيعٌ، وربَّ كادحٍ خاسرٌ. وقد أصبحتمْ في زمنٍ لا يزدادُ الخيرُ فيه إلاّ إدباراً، ولا الشرُّ فيه إلا إقبالاً، ولا الشيطانُ في هلاكِ الناس إلا طمعاً. فهذا أوانٌ قويتْ عُدَّتُهُ، وعَمَّتْ مكيدتُهُ، وأمكنتْ فَريسَتُهُ... أين أخيارُكم وصُلحاؤُكم! وأين أحرارُكُم وسُمحاؤُكم! وأين المتورِّعُونَ في مكاسبهم، والمُتنزِّهونَ في مذاهبهم! أليس قد ظَعَنوا جميعاً عن هذه الدنيا الدَّنِيَّةِ، والعاجلةِ المُنَغِّصَةِ. وهل خُلِقتُمْ إلاّ في حُثالةٍ لا تَلتقي إلاّ بِذَمِّهِمُ الشَّفَتان، آسْتِصغاراً لقَدْرِهِمْ، وذَهاباً عن ذِكرهم ! فإنّا للهِ وإنّا إليهِ راجُعونَ !».

فالأمام علي(عليه السلام) قد كافح هذا الخطر، خطر حب الدنيا والاغترار بها، إذ أنها تجر الويلات على المسلمين، فكان يسير في حياته الخاصة ضد هذه السيرة الغير المرضية، وجعل كفاحه على رأس القائمة الإصلاحية التي يقوم بها الأمام مع الناس..

ومن أقواله(عليه السلام) التي حذر فيها من الدنيا وعلى رفضها. قوله (عليه السلام): «عبادَ اللهِ، أوصيكم بالرفضِ لهذه الدنيا التاركةِ لكم، وإن لم تحبوا تركها، والمُبلية لأجسامِكم، وإن كنتم تحبون تجديدها، فإنَّما مَثَلُكم ومَثَلُها كسفر سلكوا سبيلاً فكأنَّهُم قد قَطعوهُ وَأمُّوا عَلَماً فكأنَّهم قد بلغوه، وكم عسى المُجري إلى الغايةِ أن يجريَ إليها حتى يَبْلُغَها! وما عسى أن يكونَ بقاءُ منْ له يومٌ لا يَعْدُوهُ وطالبٌ حثيثٌ من الموت يَحدوهُ، ومزعجٌ في الدنيا

حتى يفارقَها رَغْماً ! فلا تنافَسُوا في عِزِّ الدُّنْيا وفَخْرِها، ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها ولا تجزَعوا من ضرّائِها وبُؤسِها، فإنَّ عزَّها وفخْرها إلى انقطاعٍ، وإنَّ زينتها ونعيمها إلى زوالٍ، وضرّاءَها وبؤسَها إلى نفادٍ، وكلُّ مدّةٍ إلى انتهاءٍ، وكلُّ حيٍّ فيها إلى فناءٍ... أولستُم ترون أهلَ الدُّنيا يُصبحون ويُمسونَ على أحوالٍ شتّى: فمَيِّتٌ يبكي، وآخَرٌ يُعَزّى، وصريعٌ مبتلى، وعائدٌ يعودُ، وآخرُ بنفسه يجودُ، وطالبٌ للُّدنيا والموت يَطْلُبُهُ، وغافلٌ وليسَ بمغفولٍ عنه، وعلى أثَرِ الماضي ما يمضي آلباقي!.».

فالإسلام المتمثل في نهج البلاغة يرى برفض هذه الدنيا لكثرة آثامها، وأن كل إنسان مادام إلى زوال، وأنَّ الدنيا عمرها قصير، فعلى المرء أن يأخذ من ممره إلى مقره. فعلينا أن نتعظ بما يقوله الأمام علي(عليه السلام) عن الدنيا وأن لا نتغرر بها ونتكالب عليها.

ويذكر الأمام في خطبة أخرى حول ذم الدنيا فيقول: «فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حُثالةِ القَرَظِ (وهو ورق السلم يدبغ به) وقُراضةِ الجَلَمِ (مقراض يجز به الصوف) وآتَّعظوا بمن كان قبلكم، قبل أن يتَّعِظَ بكم من بعدَكُم، وآرفُضوها ذميمةً، فإنّها قد رفضت مَنْ كانَ أشغف بها منكم».

وقال (عليه السلام) في خطبة أخرى: «والدُّنيا دارٌ مُني لها الفناءُ، ولأهلِها منها الجَلاءُ، وهي حُلوَةٌ خضراءُ، وقد عَجِلتْ للطّالب، والتبستْ بقلب النّاظر، فارتحلُوا فيها بأحسن ما بحضرتِكُم من الزّادِ، ولا تسألُوا فيها فوق الكفافِ، ولا تطلبُوا منها أكثر من البلاغ».

وقد تحدث الأمام (عليه السلام) في خطب أخرى كثيرة يحذر فيها من الدنيا وعدم الغرور في زخرفها وزبرجها، لو جمعت كلها لطال بنا الوقت وأخذ منا وقتاً كثيراً، ألا وإنّني سأورد هنا أرقام الخطب ورقم صفحاتها فقط رغبة مني في الاختصار وعدم إطالة الوقت فلتراجع في كتاب النهج...

الخطبة:(١، ص٤٣) قوله (عليه السلام) يصف هبوط آدم(عليه السلام) إلى الأرض:«وأهبطه الى دار البلية.وتناسل الذرية».

الخطبة:(٣، ص٤٩) في آخر الشقشقية «ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها».

الخطبة:(١٦، ص٥٨) قوله (عليه السلام): «ولقلّما أدبرَ شيءٌ فأقبل».

الخطبة:(٢٣، ص٦٤) من قوله (عليه السلام): «فإن رأى أحدكم لأخيه غَفيرَةً – إلى - فلا تكوننَّ له فتنةً».

الخطبة:(٣٢، ص ٧٥) من قوله (عليه السلام): «ولبئس المتجر- إلى- عند الله عوضاً». ومن قوله «ومنهم من أبعده عن طلب الملك – إلى – ولا مغدى».

الخطبة:(٥٢، ص٨٩) من قوله (عليه السلام): «ألا وأن الدنيا قد تصرَّمَتْ-إلى- ولا يطولن عليكم فيها الأمد».

الخطبة:(٦٣، ص٩٤) من قوله (عليه السلام): «ألا إنَّ الدنيا دار لا يُسلم منها -إلى- وزائد حتى نقص».

الخطبة:(٨٠، ص١٠٦) من قوله (عليه السلام) «ما أصفُ من دارٍ أولها عناء-إلى- ومن أبصر إليها أعمته».

الخطبة:(٨١، ص١٠٧) من قوله (عليه السلام): «فإنَّ الدنيا رَنِقٌ مشربُها-إلى- صيّور الفناء».

الخطبة:(١٠٣، ص١٤٨-١٤٩) من قوله (عليه السلام): «أيها الناس انظروا الى الدنيا-إلى- مايصحبُكُم منها).

الخطبة: (١٠٩، ص١٥٨) قوله (عليه السلام): «أقبلوا على جيفه قد أفتضحوا بأكلها، وأصطلحوا على حبها».

الخطبة:(١١١، ص١٦٤-١٦٦) من قوله (عليه السلام): «أما بعد فأني أحذركم الدنيا-الى – وظاعنون عنها».

الخطبة:(١١٣، ص١٦٧- ١٦٨) من قوله (عليه السلام): «وأحذركم الدنيا-إلى-حب العاجل».

الخطبة:(١١٤، ص١٧٠) من قوله (عليه السلام): «ثم أن الدنيا دار فناء وعناء-إلى-وأبعد الميت الحي لانقطاعه عنه»، ومن قوله «وأعلموا أن ما نقص من الدنيا-إلى-ومزيد خاسر».

الخطبة: (١٣٢، ص١٩٠) من قوله (عليه السلام): «أما رأيتم الذين يأملون بعيداً-إلى-بل خلقت لكم مجازاً».

الخطبة:(١٤٥، ص٢٠٢) من قوله (عليه السلام): «أيها الناس أنما أنتم في هذه الدنيا-إلى-فما بقاء فرع بعد ذهاب أصله».

الخطبة: (١٥٧، ص٢٢٢) قوله (عليه السلام): «فما يصنع بالدنيا مَن خُلق للآخرة! وما يصنع بالمال من عمّا قليل يسلبُهُ، وتبقى عليه تبعتُه وحسابهُ».

الخطبة: (١٦٠، ص٢٢٦) من قوله (عليه السلام): «وكذلك من عظمت الدنيا في عينيه-إلى-وزوي عن زخرفها». ومن «وإن شئت ثَنَّيْتُ بموسى كليم الله-إلى- لكفى به شقاقاً لله ومحاذة عن امر الله».

الخطبة: (١٦١، ص٢٣٠) من قوله (عليه السلام): «رهَّبَ فأبلغ-إلى- والمجد الكادح».

الخطبة:(١٧٣، ص٢٤٨) من قوله (عليه السلام): «ألا وأن الدنيا التي أصبحتم-إلى- وألهمنا وأياكم الصبر».

الخطبة: (١٧٨، ص٢٥٧) من قوله (عليه السلام): «أيها الناس أن الدنيا-إلى-وتغلب من غلب عليها».

الخطبة:(١٨٢، ص٢٦٣) من قوله (عليه السلام): «ألا أنه قد أدبر من الدنيا- إلى- بكثير من الآخرة لا يغنى».
الخطبة: (١٩١- ص٢٨٤) من قوله (عليه السلام): «ولاترفعوا من رفعته الدنيا- إلى- فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين».
الخطبة: (١٩٦، ص٣١٠) من قوله (عليه السلام): «أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحذركم الدنيا- إلى – وما نما منها فإلى مهلك».
الخطبة/(٢٠٣، ص٣٢٠) من قوله (عليه السلام): «أيها الناس إنما الدنيا دار مجاز- إلى – من قبل أن تخرج منها أبدانكم».
الخطبة: (٢٢٣، ص٣٤٤) من قوله (عليه السلام) عند تلاوته ياأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم إلى – بهلكة نفسك (ومن «وحقاً أقول: ما الدنيا غرتك-إلى – هم الهاربون منها اليوم».
الخطبة: (٢٢٦، ص٣٤٨) من قوله (عليه السلام): «دار بالبلاء محفوفة-إلى – وتفنيهم بحماميها».
الخطبة: (٢٣٠، ص٣٥٢) من قوله (عليه السلام): (فأحذروا الدنيا- إلى – ولايركد بلاؤها).

من كتاب له (عليه السلام) الى شريح بن الحارث: (٢٤٤، ص٣٦٥) من قوله (عليه السلام): «أما إنك لو كنت أتيتني عند شرائك ماأشتريت-إلى – وسلم من علائق الدنيا».
من وصية له (عليه السلام) للحسن بن علي (عليه السلام): (٢٧٢، ص٣٩١) من قوله (عليه السلام): «من الوالد الفان- إلى – صريع الشهوات». ومن «وإن الدنيا لم تكن لتستقر-إلى – أو ما شاء مما لاتعلم». ومن «وإياك أتغتر بما ترى-إلى – ونسوا ماوراءها». وقوله (عليه السلام): «من امن الزمان خانه، ومن أعظمه أهانه».
من كتاب له (عليه السلام) الى معاوية: (٢٩٠، ، ص٤٢٣) من قوله (عليه السلام): (أما بعد

فان الدنيا مشغلة عن غيرها-إلى – والسلام).

من كتاب له (عليه السلام) الى عبد الله بن عباس: (٣٠٧، ص٤٥٧) من قوله (عليه السلام): (أما بعد فان الرء ليفرح بالشيء-إلى – وهمك بعد الموت).

من كتاب له (عليه السلام) الى سلمان الفارسي: (٣٠٩، ص٤٥٨) من قوله (عليه السلام): (أما

بعد فإنَّما مثلُ الدنيا مَثَلُ الحية-إلى – والسلام).

من كتاب له (عليه السلام) الى الحارث الهمداني: (٣١٠، ص٤٥٩-٤٦٠) من قوله (عليه السلام): «وأعتبر بما مضى من الدنيا-إلى – وكلها حائل مفارق». ومن «وإياك أن ينزل بك-إلى – في طلب الدنيا».
من كتاب له (عليه السلام) الى عبد الله بن عباس: (٣١٣، ص٤٦٢) من قوله (عليه السلام): «أما بعد فأنك لست سابق أجلك-إلى – لم تدفعه بقوتك».
ومن باب الحكم...
ح: ٩، ص ٤٧٠.
ح: ٢٩، ص ٤٧٢.
ح: ٦٤، ص ٤٧٩.
ح: ١١٩، ص ٤٨٩.
ح: ١٣١، ص ٤٩٢.
ح: ١٣٢، ص ٤٩٣
ح: ١٣٣، ص ٤٩٣
ح: ١٩١، ص ٥٠٣

ح: ١٩٢، ص ٥٠٣
ح: ١٩٥، ص ٥٠٤
ح: ٢٢٨، ص ٥٠٨
ح: ٣٠٣، ص ٥٢٩
ح: ٣٤٤، ص ٥٣٥
ح: ٣٥٩، ص ٥٣٧
ح: ٣٦٧، ص ٥٣٩
ح: ٣٨٠، ص ٥٤٣
ح: ٣٨٤، ص ٥٤٤
ح: ٣٨٥، ص ٥٤٤
ح: ٣٩٣، ص ٥٤٥
ح: ٣٩٦، ص ٥٤٦
ح: ٤١٥، ص ٥٤٨
ح: ٤٢٦، ص ٥٥١
ح: ٤٥٦، ص ٥٥٦
ح: ٤٥٧، ص ٥٥٦

ونرى بذلك أن الأمام (عليه السلام) بكثرة خطبه وحكمه والتي أكد عليها في نهج البلاغة عن التحذير من الدنيا ومن عبادتها ومن فنائها وزوالها، وعن زلاتها وعثراتها، إنما يوضح لنا بجلاء تام عن مفهوم ذم الدنيا في الإسلام في الوقت نفسه يحثنا على الزهد لأنه المانع عما نهانا عنه من الدنيا...

٣ - الصبر والجزع

الصبر: هو ثبات النفس وعدم اضطرابها في الشدائد والمصائب، بأن تقاوم معها، بحيث لاتخرجها عن سعة الصدر وما كانت عليه قبل ذلك من السرور، فيحبس لسانه عن الشكوى وأعضائه عن الحركات الغير المتعارفة.

وقد كتب الأمام (عليه السلام) وصية لأبنه الأمام الحسن(عليه السلام) ذاكراً في ضمنها التصبر وتعويد نفسه على ذلك وعدم الاستسلام للباطل وأهله فقال (عليه السلام): «وعود نفسك التصبر على المكروه ونعم الخُلُقُ التصبر في الحقِّ».

فالصبر فضيلة من الفضائل الخلقية يعتصم بها المؤمن فيقلل بأسه وبه يهنأ قلبه بدخول السكينة والاطمئنان، فمن هداه الله بنور الأيمان وفقه وألهمه الصبر والثبات في مصائبه وشدائده، إذ أن من يتخلق بالصبر فأن الله يعطيه الأجر والثواب بغير حساب فقد قال تعالى في كتابه العزيز إنما يتوفى الصابرون بغير حساب.

والصبر دعامة من دعائم الأيمان الأربعة التي ذكرها الأمام (عليه السلام) في خطبته التي سُئِلَ بها عن الإيمان، فقال (عليه السلام): «الإيمان على أربعة دعائم:على الصبر، واليقين، والعدل، والجهاد. والصَّبْر منها على أربع شُعب: على الشَّوق والشَّفق، والزُّهد والتَّرقُّب، فمن آشْتاق إلى الجنَّةِ سَلا عن الشَّهوات ومن أشفقَ من النارِ آجتنَبَ المحَّرمات، ومن زَهِدَ في الدُّنيا آستَهان بالمصيبات، ومن آرتقَب الموتَ سارعَ إلى الخيراتِ».

وقوله (عليه السلام): «وعليكم بالصبر، فإنَّ الصبر من الإيمان كالرَّأس من الجسد ولا خير في جسد لا رأس له، ولا إيمانٍ لا صَبْرَ مَعَهُ».

وقوله (عليه السلام): «ولا إيمان كالحياء والصبر» .

وقد قسم الأمام (عليه السلام) الصبر إلى قسمين، صبْر على المكاره مثل الجائع الذي لا يجد القوت سبيلاً، وصبر لما يحب فقال (عليه السلام): «الصبر صبران: صبر على ما تكره وصبر عما تحب».

فإن «الصبر نفحة من نفحات الله، يعتصم به المؤمن فيتلقى المكاره والمصائب بحزم ثابت ونفس مطمئنة، ولولاه لأنهارت نفسه، وتحطمت قواه، وأصبح عاجزاً عن السير في ركب الحياة».

وقد أوصى الأمام (عليه السلام) بطرح الهموم بعزائم الإرادة فقال (عليه السلام): إطرح عنك وإرادات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين». وأن الله سبحانه وتعالى يمنح الرضا على مرارة بقدرها، فقال (عليه السلام): «ينزل الصَّبْرُ على قدر المصيبة، ومن ضرب يده على فخذه عند مصيبته حبط عملُهُ» .

وقال (عليه السلام): «لا يَعْدَمُ الصَّبُورُ الظَّفَرَ وإنْ طال به الزَّمانُ»، أي أن سالك الطريق القويم يصبر ويثابر فيظفر بمرماه، فهو من الشجاعة التي يمتاز بها المرء.

وقال (عليه السلام): «والصبر شجاعة» فالصبر هو الأصل وأساس لحياة الإسلام، فبه يتحطم الكفر والشرك، فلولا الصبر وشجاعته ما كان للإسلام عينٌ ولا أيَّ أثرٍ فـ«من صبر صبر الأحرار وإلاّ سَلا سُلُوَّ الأغْمارِ».

ولما كان الصبر بهذه المنزلة العظيمة والتي تحدث عنها الأمام (عليه السلام) في خطبه ومواعظه، فقد جعل الله تعالى جزاءه عظيماً وجليلاً وقد ذكر الله الصبر في أكثر من (٧٠) آية يحث فيها على الصبر والتخلي به وأثنى على الصابرين ورفع منزلتهم لأنه أساس جميع الفضائل، «فما من فضيلة إلا وهي محتاجة إليه، فالشجاعة هي الصبر على مكاره الجهاد، والعفاف هو الصبر على الشهوات، والحكم هو الصبر على المثيرات، والكتمان هو الصبر على إذاعة الأسرار، لهذا كله أحب الله الصابرين وأعلن في القرآن أنهم ينالون مزيداً من الفضل والرحمة في الدنيا والآخرة».

فكما تحدث الأمام (عليه السلام) عن الصبر تحدث كذلك عن ضده ألا وهو (الجزع) فهو من المهلكات، ومن رذائل القوة الغضبية فهو ضيق في الصدور وتبرم وتضجر، فـ«من لم ينجه الصبر أهلكه الجزع»

والجزع في المصائب إنكار لقضاء الله تعالى، وإكراه الحكمة، وسخطه على فعله. فقد قال الأمام(عليه السلام) مغزياً الأشعث بن قيس عن ابنٍ لهُ بقوله: «ياأشعث، إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور».

فالصابر يؤجر على صبره ويشكر عليه، والجازع يلام ويؤاخذ على جزعه. والصبر يناضل نوائب الدهر بالتعقل، والجزع يزيدها إصفافاً. فقد قال (عليه السلام) في ذلك: «والصبر يناضلُ الحدثان – أي نوائب الدهر – والجزع من أعوان الزمان». «فالصبر هو بلسم للقلوب المكلومة التي أثكلها الخطب، وجار عليها الزمان، وهو عزاء للنفوس الحزينة التي هامت بتيار من الهواجس والهموم، وهو تسلية للمعذبين الذين يعانون من محن الأيام وخطوبها ففي ظلاله يجدون الاطمئنان وتحت كنفه ينعمون بالراحة والاستقرار».

الدعـاء في نهـج البـلاغـة

المدرس الدكتور: خليل خلف بشير(جامعة البصرة - كلية الآداب - قسم اللغة العربية)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين حبيب إله العالمين أبي القاسم محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وبعد فحينما سمعتُ بمؤتمر نهج البلاغة قلتُ في نفسي ماذا عساني أكتب بعدما كُتبتْ البحوث الكثيرة والأطاريح الغزيرة لكني بعدما اطلعتُ على محاور المؤتمر ونهج البلاغة وبعض ما كُتِب عنها وجدتُ في نهج البلاغة الكثير من الموضوعات التي تحتاج إلى بحث وتنقيب، ومنها موضوع (الدعاء في نهج البلاغة) الذي

شُغفتُ به مدةً ليستْ بالقصيرة جامعاً مادته من نهج البلاغة مُستعيناً ببعض الدراسات التي تناولتْ نزراً يسيراً من هذا الموضوع، وقد طغتْ على دراستي الجنبة البلاغية ؛ لأن الدعاء هو أقرب ما يكون إلى البلاغة منه إلى العلوم الأخرى فقد قسمت موضوعي على فقرات ابتدأته بمدخل عن الدعاء ونهج البلاغة ثم عرّجتُ على عناصر الدعاء في نهج البلاغة، وبلاغة هذه الأدعية، وأغراضها، الصور البلاغية التي تتضمنها على أنني بذلتُ جهدي بالرغم من انشغالي بالتدريس لأضع هذا البحث بالمستوى المطلوب مُقدّماً اعتذاري لسيدي ومولاي أمير المؤمنين إنْ كان ثمة خلل أو زلل أو خطل - أعاذنا الله من ذلك كله- «وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ - هود/٨٨» .

مدخل

الدعاء ونهج البلاغة

يعد الدعاء من أشد روابط القرب إلى المعبود، ومن أقوى الأسباب في نجح المطلوب وأعظمها في نيل المقصود، وهو وسيلة بين العبد وخالقه، واتصال من عالم الملك بعالم الملكوت فهو شعور الإنسان الباطني بصلته وارتباطه بعالم لا مبدأ له ولا نهاية، ولا حد ولا غاية لسعة رحمته وقدرته وإحاطته بجميع ما سواه[١]، وهو إقبال العبد على ربه، والإقبال عليه روح العبادة، والعبادة هي الغاية من خلق الإنسان[٢]؛ لقوله تعالى «**ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**»[٣].

ومن آثار الدعاء أنه يمحو حالات اليأس والقنوط والهجران والوحدة والغربة والاضطراب كما يخفف من وطأة كل ذلك ومن حدتها، ويدعو إلى الهدوء والسكينة والطمأنينة التي يكتسبها الداعي مما يشعره بالسرور والغبطة والفرح والانقطاع إلى الله، ويقوي إيمانه ويوثق صلته بالله تعالى[٤].

وقد عني الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) بالدعاء عناية بالغة، ذلك لما يترتب عليه من آثار تعود لصالح الداعي في الدنيا والآخرة، فهو من أنجع الوسائل وأعمقها في تهذيب النفوس، وهو مفتاح الرحمة ونجاح الحاجة، ولا يدرك ما عند الله تعالى إلاّ بالدعاء والابتهال، وهو من أحب الأعمال إلى الله تعالى، وكذا مخ العبادة وجوهرها وأفضلها، وهو سلاح الأنبياء

---

١ . ينظر : مواهب الرحمن في تفسير القرآن / السيد عبد الأعلى السبزواري ٣/٦٧-٧١.
٢ . ينظر : الدعاء عند أهل البيت / محمد مهدي الآصفي ١٣.
٣ . – الذاريات/٥٦ .
٤ . ينظر : فلسفة المناجاة والتضرع والدعاء / محمد حسين المختاري المازنداني ٤٥.

والمؤمنين، ومفتاح الرحمة والنجاح والجنان والفلاح، وعمود الدين، وشفاء من كل داء، ودافع للبلاء، وراد للقضاء[1].

قال تعالى: «**قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم**»، وقد حفلت كتب الدعاء الكثيرة بتراث غزير من أدعية أهل البيت عليهم السلام، التي تعدّ صفحة مشرقة من صفحات التراث الإنساني، وذخيرة فذّة من ذخائر المسلمين، فهي من حيث الصياغة والبلاغة آية من آيات الأدب الرفيع، ومن حيث المضمون فقد أودع الأئمة عليهم السلام في أدعيتهم خلاصة المعارف الدينية، وهي من أرقى المناهل في الإلهيات والأخلاق، وهي وسيلة لنشر تعاليم القرآن وآداب الإسلام وبيان أدقّ أسرار التوحيد والنبوة والمعاد وغيرها من المضامين التي يترتب عليها آثار واضحة في تعليم الناس روحية الدين والزهد والأخلاق، وقد تحول الدعاء إلى مدرسة كاملة لثقافة أهل البيت تدرس فيه العقائد، والأخلاق والمفاهيم الإسلامية والاجتماعية والإنسانية، والأدب العالي فضلاً عن التزكية والتربية العالية، وقد أسس هذا الأسلوب أهل البيت (عليهم السلام) لاسيما أمير المؤمنين في أدعيته ومناجاته المشهورة، وقد أفاد من هذا الأسلوب حفيده الإمام زين العابدين (عليه السلام) في زبور آل محمد الموسوم (الصحيفة السجادية) فكان نتاجه واسعاً ومتميّزاً وتأثيره ودوره في المنهج الثقافي كبيراً فكان بحق أنجح الأساليب في معالجة التدهور الثقافي والأخلاقي في المجتمع الإسلامي فضلاً عن التغلب على الظروف السياسية الصعبة التي واجهها الإمام بعد استشهاد أبيه الحسين (عليه السلام)[2].

ومن كنوز تراثنا العربي الإسلامي كتاب نهج البلاغة الذي حفل بالكثير من المباحث منها: العبادات، والحكم والإدارة، والخلافة، والمواعظ، والأدعية، والمناجاة، والحرب والحماسة، والملاحم، والمغيبات، وغيرها[3]، وقد حثّ أمير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة على الدعاء مضمناً معاني قرآنية منها: تكفلُ الباري عزّ وجل بالإجابة لمن يدعوه بقوله «وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ وَتَكَفَّلَ لَكَ بِالْإِجَابَةِ وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ وَ لَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ وَ لَمْ يُعَيِّرْكَ بِالْإِنَابَةِ وَ لَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضِيحَةُ بِكَ أَوْلَى وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الْإِنَابَةِ وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ وَ لَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْراً وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ وَبَابَ الِاسْتِعْتَابِ فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاكَ وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ وَأَبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ وَاسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ مِنْ زِيَادَةِ الْأَعْمَارِ وَصِحَّةِ الْأَبْدَانِ وَسَعَةِ الْأَرْزَاقِ ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ وَ اسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ رَحْمَتِهِ»[4]، وكذا قوله «من أعطي أربعاً لم يُحرم أربعاً: منْ أعطي الدعاء لم يُحرم الإجابة، ومنْ أعطي التوبة لم يُحرم القبول، وإنْ أعطي الاستغفار لم يحرم المغفرة، ومنْ أعطي الشكر لم يُحرم الزيادة»[5] وكذا قوله «مَا كَانَ اللَّهُ لِيَفْتَحَ عَلَى عَبْدٍ بَابَ الشُّكْرِ وَيُغْلِقَ عَنْهُ بَابَ الزِّيَادَةِ وَلَا لِيَفْتَحَ عَلَى عَبْدٍ بَابَ الدُّعَاءِ وَ يُغْلِقَ عَنْهُ بَابَ الْإِجَابَةِ وَلَا لِيَفْتَحَ لِعَبْدٍ بَابَ التَّوْبَةِ وَيُغْلِقَ عَنْهُ بَابَ الْمَغْفِرَةِ، ...»[6]، وقد ذكر آداب الدعاء وشروطه من ذلك قوله

---

١ . ينظر : منهج الدعاء عند أهل البيت / صباح علي البياتي ١٤-١٨،فلسفة الابتلاء / الشيخ حافظ حداد ٨٥.
٢ . ينظر : دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة / الشهيد محمد باقر الحكيم ١٣٢/١-١٣٣.
٣ . ينظر : في رحاب نهج البلاغة / مرتضى مطهري ٣٢.
٤ . نهج البلاغة ، الرسالة ٣١،ص٤٦٤-٤٦٥.
٥ . المصدر نفسه ،الحكمة ١٣٥،ص٥٧٧.
٦ . المصدر نفسه ،الحكمة ٤٣٥،ص٦٣١.

في وقت الدعاء ومكانه «فمتى شئتَ استفتحتَ بالدعاء أبواب نعمته، واستمطرتَ شآبيب رحمته»[1] وكذا في رواية عَنْ نَوْفٍ الْبَكَالِيِّ، قَالَ: رَأَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام) ذَاتَ لَيْلَةٍ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ فِرَاشِهِ فَنَظَرَ فِي النُّجُومِ، فَقَالَ لِي: يَا نَوْفُ أَرَاقِدٌ أَنْتَ أَمْ رَامِقٌ، فَقُلْتُ بَلْ رَامِقٌ، قَالَ: يَا نَوْفُ طُوبَى لِلزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا الرَّاغِبِينَ فِي الْآخِرَةِ أُولَئِكَ قَوْمٌ اتَّخَذُوا الْأَرْضَ بِسَاطاً وَتُرَابَهَا فِرَاشاً وَمَاءَهَا طِيباً وَالْقُرْآنَ شِعَاراً وَالدُّعَاءَ دِثَاراً ثُمَّ قَرَضُوا الدُّنْيَا قَرْضاً عَلَى مِنْهَاجِ الْمَسِيحِ يَا نَوْفُ إِنَّ دَاوُدَ (عليه السلام) قَامَ فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَةِ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ إِنَّهَا لَسَاعَةٌ لَا يَدْعُو فِيهَا عَبْدٌ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَشَّاراً أَوْ عَرِيفاً أَوْ شُرْطِيّاً أَوْ صَاحِبَ عَرْطَبَةٍ[2].

ومن شروط الدعاء أيضاً الإخلاص فيه، وعقد القلب عليه كما في وصيته لابنه الحسن (عليه السلام): «وَأَلْجِئْ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى إِلَهِكَ فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْفٍ حَرِيزٍ وَمَانِعٍ عَزِيزٍ وَأَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ فَإِنَّ بِيَدِهِ الْعَطَاءَ وَالْحِرْمَانَ»[3]، وكذا في حكمته التي يقول فيها: «أُوصِيكُمْ بِخَمْسٍ لَوْ ضَرَبْتُمْ إِلَيْهَا آبَاطَ الْإِبِلِ لَكَانَتْ لِذَلِكَ أَهْلًا لَا يَرْجُوَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا رَبَّهُ وَ لَا يَخَافَنَّ إِلَّا ذَنْبَهُ وَلَا يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِذَا سُئِلَ عَمَّا لَا يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ لَا أَعْلَمُ وَلَا يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ إِذَا لَمْ يَعْلَمِ الشَّيْءَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ»[4].

ومن الشروط أيضاً اليأس من غير الله تعالى ؛ لأنّ مفاتيح الغيب عند الله تعالى فهو الذي يعطي من يشاء، ويمنع عمن يشاء بحسب المصلحة الإلهية فربما يسأل العبد ما هو شر له والله يبدله إلى الخير، وربما يسأل الخير فيؤخره ؛ لأن المصلحة تقتضي التأخير، وفي هذا المعنى يقول أمير المؤمنين: «فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ وَاسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ رَحْمَتِهِ فَلَا يُقَنِّطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الْإِجَابَةُ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الْآمِلِ وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُؤْتَاهُ وَأُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ فَالْمَالُ لَا يَبْقَى لَكَ وَلَا تَبْقَى لَهُ»[5].

ومن آداب الدعاء الافتتاح بذكر الله والثناء عليه والصلاة على النبي وآله، وقد أكّد هذا المعنى في قوله «إِذَا كَانَتْ لَكَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ حَاجَةٌ فَابْدَأْ بِمَسْأَلَةِ الصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِهِ (صلى الله عليه وآله) ثُمَّ سَلْ حَاجَتَكَ فَإِنَّ اللَّهَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ حَاجَتَيْنِ فَيَقْضِيَ إِحْدَاهُمَا وَيَمْنَعَ الْأُخْرَى»[6].

ومن ذلك قوله «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ وَجَلَالِ كِبْرِيَائِهِ مَا حَيَّرَ مُقَلَ الْعُقُولِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ وَرَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةَ إِيمَانٍ وَإِيقَانٍ وَإِخْلَاصٍ وَإِذْعَانٍ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ وَأَعْلَامُ الْهُدَى دَارِسَةٌ وَمَنَاهِجُ الدِّينِ طَامِسَةٌ فَصَدَعَ بِالْحَقِّ وَنَصَحَ لِلْخَلْقِ وَهَدَى إِلَى الرُّشْدِ وَأَمَرَ بِالْقَصْدِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ»[7].

---

١ . المصدر نفسه ،الرسالة ٣١، ص٤٦٤-٤٦٥.
٢ . وَهِيَ الطُّنْبُورُ - أَوْ صَاحِبَ كَوْبَةٍ - وَ هِيَ الطَّبْلُ ، وَقَدْ قِيلَ أَيْضاً إِنَّ الْعَرْطَبَةَ الطَّبْلُ وَالكَوْبَةَ الطُّنْبُورُ (المصدر نفسه ، الحكمة ١٠٤،ص٥٦٨-٥٦٩).
٣ . المصدر نفسه ، وصيته إلى ابنه الإمام الحسن (ع) ص٤٥٨.
٤ . المصدر نفسه، الحكمة ٨٢،ص٥٦٤.
٥ . المصدر نفسه ، وصيته إلى ابنه الإمام الحسن (ع) ٤٦٤-٤٦٥.
٦ . المصدر نفسه ، الحكمة ٣٦١،ص٦١٦.
٧ . المصدر نفسه ، الخطبة ١٩٥،ص٣٥٦-٣٥٧

عناصر الدعاء في نهج البلاغة

يعد الدعاء شكلاً فنياً فهو من حيث المظهر الخارجي يقوم عل عنصر المحاورة الانفرادية إذ يتوجه الإمام بكلامه المسموع إلى الله تعالى، ومن حيث المظهر الداخلي يقوم على عنصر وجداني يجسّده الكلام المذكور إذ يتصاعد به الداعي إلى أوج الانفعالات الصادرة عنه[١].

ومن حيث المضمون تنطوي هذه المحاورة على محورين[٢]:

الأول: فردي أو ذاتي يتصل بحاجات الداعي الشخصية كطلب المغفرة، والشفاء من المرض، وغيرهما .

ومثاله عند الإمام (عليه السلام) قوله «اللَّهُمَّ صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ وَلَا تَبْذُلْ جَاهِيَ بِالْإِقْتَارِ فَأَسْتَرْزِقَ طَالِبِي رِزْقِكَ وَأَسْتَعْطِفَ شِرَارَ خَلْقِكَ وَأُبْتَلَى بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِي وَأُفْتَتَنَ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَلِيُّ الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[٣].

الثاني: موضوعي، ويشمل كل ما هو غير ذاتي، وهو نمطان:

أ- عبادي: يتصل بتمجيد الله والثناء عليه بذكر صفاته ومعطياته .

ب- اجتماعي: وينحصر بطلب إلى الله تعالى بتحقيق حاجات الآخرين مثل طلب النصر على العدو، واستسقاء المطر، والدعاء للآخرين ... الخ مثال ذلك قوله في خطبة الاستسقاء «اللَّهُمَّ قَدِ انْصَاحَتْ جِبَالُنَا وَاغْبَرَّتْ أَرْضُنَا وَهَامَتْ دَوَابُّنَا وَتَحَيَّرَتْ فِي مَرَابِضِهَا وَعَجَّتْ عَجِيجَ الثَّكَالَى عَلَى أَوْلَادِهَا وَمَلَّتِ التَّرَدُّدَ فِي مَرَاتِعِهَا وَالْحَنِينَ إِلَى مَوَارِدِهَا»[٤].

ويمكن تلمس عناصر الدعاء من خلال العنصر الرئيس، وهو عنصر المحاورة الانفرادية بالآتي[٥]:

١- العنصر الإيقاعي: لما كان الدعاء شكلاً معدّاً للتلاوة فحريّ به أن يتسم بوجود عنصر إيقاعي متمثل بالتجنيس والسجع ونحوهما ؛ لذا نجد الأدعية مشحونة بالإيقاع بنحو لافت النظر فإذا ما استخدم الإيقاع بصورة صحيحة فإنه سيضفي جمالاً آخر يجمع بين جمال المعنى وجمال الإيقاع، ولما كان الإيقاع من خصائص القرآن الكريم لذا فالخطاب العلوي يستمد معانيه وأساليبه من الخطاب القرآني، وتتوقف قوة استخدام العنصر الإيقاعي على قدرة المتكلم على التلاعب بالحروف والكلمات[٦].

٢- العنصر الصوري: ونظراً للوضوح والمباشرة والتقريرية التي تتضمنها طبيعة الحاجات المدعو بها فإن الدعاء لا يمنحه نفس الأهمية التي نجدها للإيقاع فالداعي يتقدم بحاجاته بلغة واضحة لا غموض ولا تعقيد ولا تعميق إلا في بعض الأدعية التي تتطلب عنصراً صورياً كالمناجاة التي تستلزم دخولاً إلى أغوار النفس في تشابك حالاتها المختلفة .

بلاغة الدعاء في نهج البلاغة

يوضَع كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) بالمرتبة الثالثة من الإعجاز البلاغي بعد القرآن الكريم والحديث النبوي ؛ لأنّ في كلامه مسحة من الكلام الإلهي، وفيه عبقة ونفحة من الكلام النبوي، وبلاغته فن وذوق ينسجمان مع كل عصر وزمن فقد تعدّتْ طريقته الطريقة الكلاسيكية، وقفزتْ على المراحل الزمنية حتى عدّ البلغاء أدبه متماشياً مع كل عصر، وقد امتاز بأسلوبه البلاغي

---

١ . ينظر : تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي / د. محمود البستاني ٢٣٤،والبلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي/ د. محمود البستاني ١٥٠-١٥١.

٢ . ينظر : أدب الشريعة الإسلامية – دراسة جديدة في بلاغة نصوص القرآن الكريم ونصوص الأربعة عشر معصوماً / د. محمود البستاني١٦٣.

٣ . نهج البلاغة ، الخطبة ٢٢٥،ص٤٠٤.

٤ . المصدر نفسه ، الخطبة ١١٥،ص١٩٦.

٥ . ينظر : البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي ١٥١-١٥٢.

٦ . ينظر : علوم نهج البلاغة / د. محسن باقر الموسوي ٣٧٣.

الخاص وبطريقته في صنع العبارة والجملة فأصبح أدبه متفرداً ذا خصائص معينة لا يشابهه أحد من البلغاء، ولما كانتْ البلاغة – كما يقول الدكتور محسن باقر الموسوي – تطير بجناحين هما: العلم، والشجاعة، وقد امتلكهما أمير المؤمنين فبلاغته تكون بالمستوى المطلوب؛ لأنها بمستوى شخصيته العلمية فهي بلاغة مستمدة من علم يستقي معينه من علم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومن كينونة جُبلتْ على الشجاعة والإقدام[1]، أما أسلوب نهج البلاغة فهو أسلوب مبتكر لم يسبق بأسلوب قبله إلا القرآن الكريم إذ إن أرضية الأفكار المطروحة في نهج البلاغة هي من ثمار الإبداع القرآني[2].

إنّ خصائص بلاغة الإمام علي (عليه السلام) موجودة ومطبوعة بأسلوبه وبيانه حتى في أدعيته، ولعل هذا رمز عظمة الإمام (عليه السلام) فقد حافظ على مستواه البلاغي في كل ما قاله وما كتبه في الخطابة أو الكلام أو الدعاء فأدعيته مصبوغة بصبغة بلاغية قلما نجدها في الأدعية الأخرى كما إنها مصبوغة أيضاً بصبغة روحانية قلما نجدها في الأدعية الأخرى فقد سكب الإمام من روحانيته أقصى ما يستطيع من التعابير الأدبية والفنية التي تظهر الخشوع والخضوع والتذلل لله سبحانه وتعالى[3].

إنّ بلاغة الإمام عليّ (عليه السّلام) تبلورت في النص الذي يخرج من رحم اللغة مثل الوليد الجديد، وهو ـ في الوقت نفسه ـ يخرج من عالم الأفكار مثل الفكرة الجديدة الباهرة، وتتجلى جمالية نهج البلاغة في ألفاظه الفصيحة العذبة – ومنها ألفاظ الدعاء -، وفي نظمه المحكم، ودلالته على المعنى فالألفاظ سهلة في جريانها على اللسان، خفيفة في وقعها على النفس، يألفها الذوق ولا يجد صعوبة في إدراكها، وكل كلمة تقع موقعها اللائق والمناسب لها، وعندما يطرق اللفظ السمع يخطر معناه في القلب بوساطة قوالب جميلة محببة إلى النفس كالتشبيه، والاستعارة، والكناية، وغيرها[4] إذ يتناول مسائله الفكرية المتداولة والمشتركة، وكأنها معطيات جديدة، ذلك لأن قدرته البلاغية مبتكرة فالنص يُولد متكاملاً، في تأديته الوظيفية الخاصة به.

أغراض الدعاء في نهج البلاغة

لم يكن الدعاء وسيلة لإظهار التعبد والتذلل والخضوع لله سبحانه وتعالى فحسب بل أنه يحمل معاني عديدة منها بث الشكوى لله تعالى، وإظهار عجز المخلوق وضعفه أمام قدرة الخالق، وقد استخدم أمير المؤمنين (عليه السلام) أسلوب الدعاء لأغراض كثيرة منها[5]:

الاستسقاء: أورد أمير المؤمنين (عليه السلام) خطبا كثيرة طلباً لنزول المطر، وتعد هذه الخطب آية من آيات البلاغة، وموئلاً من موائل العلم والمعرفة فلو أخذنا الخطبة المائة وخمسة عشرة نجده يمهد لها بالوضع المأساوي الذي أصاب الناس في ذلك الزمان فقد كشف النقاب عن وضع الجبال والأراضي والمراتع والدواب من أثر الجفاف الشديد بقوله «اللَّهُمَّ قَدِ انْصَاحَتْ جِبَالُنَا وَاغْبَرَّتْ أَرْضُنَا وَهَامَتْ دَوَابُّنَا وَتَحَيَّرَتْ فِي مَرَابِضِهَا وَ عَجَّتْ عَجِيجَ الثَّكَالَى عَلَى أَوْلَادِهَا وَمَلَّتِ التَّرَدُّدَ فِي مَرَاتِعِهَا وَ الْحَنِينَ إِلَى مَوَارِدِهَا»[6] رافعاً يديه بالدعاء مبتهلاً إلى الله بأن يرحم أنين الشاة، وحنين الجمل من شدة عطشهما وصراخهما في أمكانهما بقوله «اللَّهُمَّ فَارْحَمْ أَنِينَ

---

١ . ينظر : علوم نهج البلاغة ٣٦٥-٣٦٩.
٢ . ينظر : في رحاب نهج البلاغة ٥٥.
٣ . ينظر : المدخل إلى علوم نهج البلاغة / د. محسن باقر الموسوي ١٢٧.
٤ . ينظر : علوم نهج البلاغة ٣٦٩.
٥ . ينظر : المصدر نفسه ٣٨٧-٣٨٩.
٦ . نهج البلاغة ، الخطبة ١١٥،ص ١٩٦-١٩٨،ومثلها الخطبة ١٤٣،ص ٢٢٩-٢٣٠والحكمة ٤٧٢،ص٦٣٧.
٤٧٢،ص٦٣٧.

الْأَنَّةِ وَحَنِينَ الْحَانَّةِ اللَّهُمَّ فَارْحَمْ حَيْرَتَهَا فِي مَذَاهِبِهَا وَ أَنِينَهَا فِي مَوَالِجِهَا»[1] مردفاً ذلك بحال المسلمين الذي شبهه بالحدابير التي واحدها الحدبور، وهو الجمل الذي بان عظام سنامه، وقد حزّ لحمه بصورة تامة أثر شدة الضعف في قوله «اللَّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَيْكَ حِينَ اعْتَكَرَتْ عَلَيْنَا حَدَابِيرُ السِّنِينَ وَأَخْلَفَتْنَا مَخَايِلُ الْجُودِ»[2]مبتهلاً إلى الله في أنه الأمل والرجاء لكل بأس، وحلال لكل مشكلة لاسيما أنّ اليأس قد سيطر على الناس، ومنعت السماء بركاتها، والغيوم مياهها، وقد أشرفت الحيوانات على الهلاك سائلاً الباري عزّ وجل أن لا ياخذه بسيئات الأعمال وبوائق الذنوب في قوله «فَكُنْتَ الرَّجَاءَ لِلْمُبْتَئِسِ وَالْبَلَاغَ لِلْمُلْتَمِسِ نَدْعُوكَ حِينَ قَنَطَ الْأَنَامُ وَمُنِعَ الْغَمَامُ وَ هَلَكَ السَّوَامُ أَلَّا تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا وَلَا تَأْخُذَنَا بِذُنُوبِنَا»[3] طارحاً طلبته الأصلية، وهي نزول الرحمة الإلهية، والبركة السماوية بنزول المطر بقوله «وَانْشُرْ عَلَيْنَا رَحْمَتَكَ بِالسَّحَابِ الْمُنْبَعِقِ وَالرَّبِيعِ الْمُغْدِقِ وَ النَّبَاتِ الْمُونِقِ سَحّاً وَابِلًا تُحْيِي بِهِ مَا قَدْ مَاتَ وَ تَرُدُّ بِهِ مَا قَدْ فَاتَ»[4] ثم أتبعه بوصف المطر النازل بجملة أوصاف بلغت عشرين وصفاً، وهي أوصاف تجعل الإنسان يشعر بخضوع وتواضع أمام عظمة الخالق بقوله «اللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ مُحْيِيَةً مُرْوِيَةً تَامَّةً عَامَّةً طَيِّبَةً مُبَارَكَةً هَنِيئَةً مَرِيعَةً زَاكِياً نَبْتُهَا تَامِراً فَرْعُهَا نَاضِراً وَرَقُهَا تُنْعِشُ بِهَا الضَّعِيفَ مِنْ عِبَادِكَ وَ تُحْيِي بِهَا الْمَيِّتَ مِنْ بِلَادِكَ اللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ تُعْشِبُ بِهَا نِجَادُنَا وَتَجْرِي بِهَا وِهَادُنَا وَيُخْصِبُ بِهَا جَنَابُنَا وَتُقْبِلُ بِهَا ثِمَارُنَا وَتَعِيشُ بِهَا مَوَاشِينَا وَتَنْدَى بِهَا أَقَاصِينَا وَتَسْتَعِينُ بِهَا ضَوَاحِينَا مِنْ بَرَكَاتِكَ الْوَاسِعَةِ»[5] وأضاف في معرض تواصله بطلب الماء ونزول المطر الذي يفيض بالخير والبركة بقوله «وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا سَمَاءً مُخْضِلَةً مِدْرَاراً هَاطِلَةً يُدَافِعُ الْوَدْقُ مِنْهَا الْوَدْقَ وَيَحْفِزُ الْقَطْرُ مِنْهَا الْقَطْرَ»[6] وأردف ذلك بذكر تسعة أوصاف للمطر فضلاً العشرين بقوله «غَيْرَ خُلَّبٍ بَرْقُهَا وَلَا جَهَامٍ عَارِضُهَا وَ لَا قَزَعٍ رَبَابُهَا وَلَا شَفَانٍ ذِهَابُهَا حَتَّى يُخْصِبَ لِإِمْرَاعِهَا الْمُجْدِبُونَ وَيَحْيَا بِبَرَكَتِهَا الْمُسْنِتُونَ فَإِنَّكَ تُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ»[7]، وإنه من دواعي العجب والدهشة أن يستسقي الإمام بذكر ٢٩وصفاً للمطر في حين يذكر غيره صفة أو صفتين لنزول المطر بيد أن الإمام استفرغ أقصى فصاحته وبلاغته وتوسّل إلى الله تعالى مسهباً في أوصاف المطر ليعرّف الناس ألطاف الله وأفضاله ونعمه ورحماته، ويفهمهم أن مسار النعمة مليء بكثير من الموانع بحيث لا يسعهم بلوغ الكمال المنشود ما لم تشملهم رعاية الله ورحمته[8] مما حدا ببعض الباحثين أن يذهب إلى أنّ هذا الدعاء – دعاء الاستسقاء – قد اشتمل على علوم الجغرافية والتضاريس والأنواء الجوية والاقتصاد[9].

عرض الأوضاع وتحليل الأحداث: يعرض الإمام الحالة السياسية التي تعيشها الأمة الإسلامية في عهده بأسلوب دعائي ليقع موقعاً حسناً في النفوس، وليعرف الناس ما يجري ما حولهم من أحداث كما في قوله «أَنْبِئْتُ بُسْراً قَدِ اطَّلَعَ الْيَمَنَ وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَظُنُّ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ سَيُدَالُونَ مِنْكُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ وَ بِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ فِي الْحَقِّ وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي الْبَاطِلِ وَبِأَدَائِهِمُ الْأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَ خِيَانَتِكُمْ وَ بِصَلَاحِهِمْ فِي بِلَادِهِمْ وَ فَسَادِكُمْ فَلَوِ ائْتَمَنْتُ أَحَدَكُمْ عَلَى قَعْبٍ لَخَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعِلَاقَتِهِ اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّونِي وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُونِي

---

١ . ينظر : المصدر نفسه.
٢ . ينظر : المصدر نفسه.
٣ . ينظر : المصدر نفسه.
٤ . ينظر : المصدر نفسه.
٥ . ينظر : المصدر نفسه.
٦ . ينظر : المصدر نفسه.
٧ . ينظر : المصدر نفسه.
٨ . ينظر : نفحات الولاية - شرح نهج البلاغة / ناصر مكارم الشيرازي٥/ ٧٩-٨٨.
٩ . ينظر : علوم نهج البلاغة ٣٨٧.

فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِنِّي اللَّهُمَّ مِثْ قُلُوبَهُمْ كَمَا يُمَاثُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ»[1] فقد وصف تثاقل أصحابه عن الجهاد ومخالفتهم له بالرأي بعد أن استباح بسر بن أرطاة المدينة ثم اليمن وسفك الدماء وروّع الناس فقد استاء الإمام من موقف أصحابه وتخاذل قائديه عبيد الله بن عباس، وسعيد بن نمران هنالك دعا إمامنا الله تعالى أن يبدله بهم خيراً منهم ويبدلهم به شراً منه، ويذيب قلوبهم كما يُذاب الملح في الماء بضياع عقولهم وفطنتهم ودرايتهم وحكمتهم[2].

الشكوى: يستخدم الإمام أسلوب الدعاء لغرض الشكوى ممن ظلمه من رعيته أو من أفراد مخصوصين ولهم باع في الدولة الإسلامية مثل طلحة والزبير كما في قوله «اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي وَ نَكَثَا بَيْعَتِي وَأَلَّبَا النَّاسَ عَلَيَّ فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا وَلَا تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أَبْرَمَا وَ أَرِهِمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا أَمَّلَا وَعَمِلَا»[3].

أغراض فكرية: يستخدم الإمام أسلوب الدعاء لأغراض فكرية مثل التوحيد، وما يتعلق بصفات الله تعالى نحو قوله «اللَّهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ الْوَصْفِ الْجَمِيلِ وَالتَّعْدَادِ الْكَثِيرِ إِنْ تُؤَمَّلْ فَخَيْرُ مَأْمُولٍ وَ إِنْ تُرْجَ فَخَيْرُ مَرْجُوٍّ اللَّهُمَّ وَقَدْ بَسَطْتَ لِي فِيمَا لَا أَمْدَحُ بِهِ غَيْرَكَ وَلَا أُثْنِي بِهِ عَلَى أَحَدٍ سِوَاكَ وَلَا أُوَجِّهُهُ إِلَى مَعَادِنِ الْخَيْبَةِ وَمَوَاضِعِ الرِّيبَةِ وَعَدَلْتَ بِلِسَانِي عَنْ مَدَائِحِ الْآدَمِيِّينَ وَالثَّنَاءِ عَلَى الْمَرْبُوبِينَ الْمَخْلُوقِينَ اللَّهُمَّ وَ لِكُلِّ مُثْنٍ عَلَى مَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ مَثُوبَةٌ مِنْ جَزَاءٍ أَوْ عَارِفَةٌ مِنْ عَطَاءٍ وَقَدْ رَجَوْتُكَ دَلِيلًا عَلَى ذَخَائِرِ الرَّحْمَةِ وَكُنُوزِ الْمَغْفِرَةِ اللَّهُمَّ وَ هَذَا مَقَامُ مَنْ أَفْرَدَكَ بِالتَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ لَكَ وَلَمْ يَرَ مُسْتَحِقّاً لِهَذِهِ الْمَحَامِدِ وَالْمَمَادِحِ غَيْرَكَ وَبِي فَاقَةٌ إِلَيْكَ لَا يَجْبُرُ مَسْكَنَتَهَا إِلَّا فَضْلُكَ وَلَا يَنْعَشُ مِنْ خَلَّتِهَا إِلَّا مَنُّكَ وَ جُودُكَ فَهَبْ لَنَا فِي هَذَا الْمَقَامِ رِضَاكَ وَأَغْنِنَا عَنْ مَدِّ الْأَيْدِي إِلَى سِوَاكَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[4].

التعبير عن مكنونات النفس وما يختلج في الأعماق من نوايا: يكون الدعاء أحياناً معبراً عما تكنه النفس الإنسانية من نوايا وما يختلج في الأعماق من دوافع مثل كون الإمام لم يطمح لمنافسة في سلطان، ولكنه أراد الإصلاح في البلاد والعباد إذ يقول: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ وَلَا التِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ وَلَكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ وَنُظْهِرَ الْإِصْلَاحَ فِي بِلَادِكَ فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ وَتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ وَسَمِعَ وَأَجَابَ لَمْ يَسْبِقْنِي إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) بِالصَّلَاةِ»[5].

رفع معنويات المقاتلين: يلجأ الإمام إلى الدعاء ليقوي عزيمة أصحابه ومعنوياتهم في ملاقاة الأعداء ؛ لأن الدعاء يرد البلاء لاسيما إذا صدر من مؤمن فكيف بالإمام المعصوم المفترض الطاعة فالدعاء بالنسبة لأصحابه يمثل قوة ومنعة ضد الأعداء كما في دعائه عند لقاء العدو في صفين «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ وَالْجَوِّ الْمَكْفُوفِ الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضاً لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَجْرًى لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَمُخْتَلَفاً لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ وَجَعَلْتَ سُكَّانَهُ سِبْطاً مِنْ مَلَائِكَتِكَ لَا يَسْأَمُونَ مِنْ عِبَادَتِكَ وَرَبَّ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَاراً لِلْأَنَامِ وَمَدْرَجاً لِلْهَوَامِّ وَالْأَنْعَامِ وَمَا لَا يُحْصَى مِمَّا يُرَى وَمَا لَا يُرَى وَرَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أَوْتَاداً وَ لِلْخَلْقِ اعْتِمَاداً إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَى عَدُوِّنَا فَجَنِّبْنَا الْبَغْيَ وَسَدِّدْنَا لِلْحَقِّ وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ وَاعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ»[6].

وكذا الحال في استنهاضه أصحابه لجهاد أهل الشام في قوله «اللَّهُمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةِ وَالْمُصْلِحَةَ غَيْرَ الْمُفْسِدَةِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا فَأَبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلَّا النُّكُوصَ عَنْ نُصْرَتِكَ وَالْإِبْطَاءَ عَنْ إِعْزَازِ دِينِكَ فَإِنَّا نَسْتَشْهِدُكَ عَلَيْهِ يَا أَكْبَرَ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً

---

١ . نهج البلاغة ، الخطبة ٢٥،ص٥١-٥٢.
٢ . ينظر : نفحات الولاية ٢/٦٦-٦٧.
٣ . نهج البلاغة ، الخطبة ١٣٧،ص٢٢٤.
٤ . المصدر نفسه ، الخطبة ٩١،ص١٥٣-١٥٤، وهي الخطبة المعروفة بخطبة الأشباح.
٥ . المصدر نفسه ، الخطبة ١٣١،ص٢١٧.
٦ . المصدر نفسه ، الخطبة ٢٨٣،١٧١-٢٨٤.

وَنَسْتَشْهِدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا أَسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَ سَمَاوَاتِكَ ثُمَّ أَنْتَ بَعْدُ الْمُغْنِي عَنْ نَصْرِهِ وَالْآخِذُ لَهُ بِذَنْبِهِ»[1].

رسم صورة الصراع بينه وبين أعدائه: يستخدم الإمام الدعاء أحياناً ليرسم صورة بارعة للصراع الدائر بينه وبين أعدائه كما في قوله في قريش «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي وَصَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِي وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أَمْراً هُوَ لِي ثُمَّ قَالُوا أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ وَفِي الْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ»[2].

حقن الدماء وصلاح ذات البين وطلب الهداية: لقد كان أمير المؤمنين (عليه السلام) غاية في الخلق حتى مع أعدائه فعندما يسمع أصحابه يسبون أهل الشام ينادى بهم «إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ كَانَ أَصْوَبَ فِي الْقَوْلِ وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ»[3] مبتهلاً إلى الله بقوله «اللَّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِمْ وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ وَ يَرْعَوِيَ عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهِجَ بِهِ»[4].

أهداف تربوية: من المعروف أنّ الدعاء يؤدي دوراً مهماً في تربية النفوس البشرية وسوقها نحو مدارج السمو والرفعة والكمال ناهيك عما يشتمل عليه من فضائل أخلاقية ومعارف ربانية تسبغ بها النفس وتمنحها الهدوء والسكينة كما في قوله «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي فَإِنْ عُدْتُ فَعُدْ عَلَيَّ بِالْمَغْفِرَةِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا وَأَيْتُ مِنْ نَفْسِي وَلَمْ تَجِدْ لَهُ وَفَاءً عِنْدِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا تَقَرَّبْتُ بِهِ إِلَيْكَ بِلِسَانِي ثُمَّ خَالَفَهُ قَلْبِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي رَمَزَاتِ الْأَلْحَاظِ وَسَقَطَاتِ الْأَلْفَاظِ وَشَهَوَاتِ الْجَنَانِ وَهَفَوَاتِ اللِّسَانِ»[5] فرصيد الإنسان هو النسيان فيقارف الكثير من الذنوب والمعاصي إلى درجة نسيانها وعدم الاعتذار إلى الله منها وطلب العفو والمغفرة أو الإصرار عليها وعدم الكف عنها فينبغي استحضار الذنوب والمعاصي وطلب العفو والمغفرة كما ينبغي التضرع إلى الله تعالى بغفران الذنوب المنسية التي يعلمها الله فضلاً عن العهود والمواثيق التي عاهد بها نفسه ولم يفِ بها[6] ثم يطلب غفران ما يتقرب به إلى الله باللسان ثم يخالفه القلب ثم يعقبها بكلمات تبدو تبدو مترادفة المعنى، متساوقة في التعبير، متسقة في الوزن هي رمزات الألحاظ وسقطات الألفاظ، وشهوات الجنان وهفوات اللسان، وما هذه إلا الذنوب التي تقترفها جوارح الإنسان المتمثلة بالعين والقلب واللسان فرمزات الألحاظ هي إشارات العيون إلى عيوب الناس ومساوئهم، وسقطات الألفاظ لغوها أي ما ينطق به اللسان مما لا يُرضي الرحمن، وشهوات الجنان هي شهوات القلب أي ما يميل إليه القلب من متاع الحياة الدنيا وزينتها، وهفوات اللسان الكلام المحرّم الذي يقذفه اللسان من الغيبة والنميمة والبهتان والاستهزاء والسب والشتم والتهمة[7].

ولما كان الدعاء سلاح الأنبياء والأوصياء والمؤمنين، ومخ العبادة، ودافعاً للبلاء لذا نجد أمير المؤمنين مواظباً على أدعية في أوقات معينة منها دعاؤه في الصباح الذي يقول فيه «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُصْبِحْ بِي مَيِّتاً وَلَا سَقِيماً وَلَا مَضْرُوباً عَلَى عُرُوقِي بِسُوءٍ وَلَا مَأْخُوذاً بِأَسْوَءِ عَمَلِي وَلَا مَقْطُوعاً دَابِرِي وَ لَا مُرْتَدّاً عَنْ دِينِي وَلَا مُنْكِراً لِرَبِّي وَلَا مُسْتَوْحِشاً مِنْ إِيمَانِي وَلَا مُلْتَبِساً عَقْلِي

---

١ . المصدر نفسه ، الخطبة ٣٨١، ٢١٢.
٢ . المصدر نفسه ، الخطبة ٢٨٥، ١٧٢.
٣ . المصدر نفسه ، من كلامه ٢٠٦، ص٣٧٤، وكذا الخطبة ٢٢٧ص٤٠٦-٤٠٧.
٤ . المصدر نفسه ، من كلامه ٢٠٦، ص٣٧٤، وكذا الخطبة ٢٢٧ص٤٠٦-٤٠٧.
٥ . المصدر نفسه ،من كلمات كان يدعو بها ٧٨، ص١٠٦-١٠٧.
٦ . ومثل ذلك في دعاء الإمام زين العابدين (عليه السلام) في يوم الاثنين ((اللهم إني أستغفرك لكل نذر نذرته ،وكل عهد عاهدته ثمّ لم أفِ به)) ينظر : الصحيفة السجادية ١٣١.
٧ . ينظر : في ظلال نهج البلاغة / الشيخ محمد جواد مغنية ٣٨٦/١، و نفحات الولاية ١٥٩/٢.

وَلَا مُعَذَّباً بِعَذَابِ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِي أَصْبَحْتُ عَبْداً مَمْلُوكاً ظَالِماً لِنَفْسِي لَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ وَلَا حُجَّةَ لِي وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ إِلَّا مَا أَعْطَيْتَنِي وَ لَا أَتَّقِيَ إِلَّا مَا وَقَيْتَنِي اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُفْتَقِرَ فِي غِنَاكَ أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ أَوْ أُضَامَ فِي سُلْطَانِكَ أَوْ أُضْطَهَدَ وَ الْأَمْرُ لَكَ اللَّهُمَّ اجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَزِعُهَا مِنْ كَرَائِمِي وَأَوَّلَ وَدِيعَةٍ تَرْتَجِعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نِعَمِكَ عِنْدِي اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ أَوْ أَنْ نُفْتَتَنَ عَنْ دِينِكَ أَوْ تَتَابَعَ بِنَا أَهْوَاؤُنَا دُونَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ»[1].

وكذا دعاؤه عند النوم، وعند تقلبه في الفراش، وفي جوف الليل، وبعد الركعة الثامنة من صلاة الليل، وفي ركعة الوتر[2]، وغيرها، وهذا يدلّ على أدب الأئمة – ومنهم أمير المؤمنين – مع خالقهم فهم عنوان المؤمنين، ومؤدبو البشرية، وسادات المؤمنين، ارتضعوا من ثدي الرسالة ودرجوا في بيت الوحي والتنزيل، ومنهم نتعلم الآداب والأخلاق والفضيلة، وقد اختطوا منهجاً واضحاً، وطريقاً لاحباً في أدب الدعاء والمناجاة[3]، ولعل خير دليل على ذلك تكراره (عليه السلام) كلمة (اللهم)[4] في أدعيته المباركة والتي تُلمع إلى شدة تقرب العبد إلى ربه، وتفسّر حالة انقطاع العبد إلى خالقه فتستقر النفس وتأنس باللطف والعناية الإلهية ؛ لأنّ خالقها يسمع دعاءها، ويلبي نداءها فهو القائل «**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**»[5] على أنّ هذه الأدعية بمجموعها تمثل مدرسة ومنهاجاً عملياً تطبيقياً يعيشه الإنسان، وتربيه على مخاطبة خالقه وتعرّفه صفاته ونعمه وعطاياه، وتحثه على الورع والتقوى والتوبة والإنابة ومكارم الأخلاق وترويض شهوات النفس، وتعرّفه الأعمال الصالحة والسلوك الشرعي الراقي، وتكشف وسائل الشيطان ومداخله التي يدخل منها إلى الإنسان[6]، لذا يعد الدعاء نوعاً من الممارسات الوجدانية، ويفترق عن غيره من سائر أنواع التعبير الفني بكونه يجسد تجربة داخلية يتكفل بصياغتها المشرع الإسلامي ويقدمها ليتمثلها الداعي وكأنها من نتاج ذاته[7].

صور بلاغية في أدعية نهج البلاغة

عندما نتفحص أدعية الإمام علي (عليه السلام) سنجد أنها مشتملة على صور بلاغية متنوعة تشكلها فنون بيانية مختلفة من مجاز وكناية واستعارة فقد توافر الإمام على جميع الصور الفنية وتداخلتْ هذه الصور المختلفة في نص واحد لتكوين أسرار فنية كامنة وراء حشد بعض الأدعية بعنصر الصورة، وضمور ذلك في سائر الأدعية فضلاً عن أسرار فنية أخرى كامنة وراء حشد غالبية الأدعية بعنصر الإيقاع وصلة ذلك بعنصر التلاوة الذي يميز الدعاء عن غيره من فنون التشريع الإسلامي[8]، ويمكن تلمس بعض الصور البيانية في أدعية نهج البلاغة في ما يأتي[9]:

---

١ . نهج البلاغة ،من دعاء له كان يدعو به كثيراً ٢١٥،ص ٣٨٤-٣٨٥،و أدعية الإمام علي (عليه السلام)- الصحيفة العلوية ١٦٤، و١٦٥،وكذا أدعيته في أيام الأسبوع فلكل يوم دعاء خاص كما هو الحال في الصحيفة السجادية ، ويبدو أن الإمام زين العابدين قد اقتدى بجده أمير المؤمنين (ينظر هذه الأدعية في : أدعية الإمام علي (عليه السلام)- الصحيفة العلوية٣٤٣-٣٧٨)، وهناك أدعية شهرية لكل يوم من كل شهر دعاء خاص على مدار أشهر السنة من اليوم الأول من كل شهر إلى الثلاثين (ينظر : أدعية الإمام علي (عليه السلام)- الصحيفة العلوية ٢١٩-٣٤٣).

٢ . ينظر : أدعية الإمام علي (عليه السلام)- الصحيفة العلوية ،٢١٥،٢١٠،٢٠٩،٢٠٨،٢١٦،وغيرها.

٣ . ينظر : منهج الدعاء عند أهل البيت ٣٨-٣٩.

٤ . من ذلك : الخطب ٢٠٦،١٩٣،١٧٢،١٤٣،١١٥،١٠٦،٩١،٧٢،٢٥،وغيرها.

٥ . – البقرة /١٨٦ .

٦ . ينظر : دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة ٤٢٠/٢.

٧ . ينظر : الإسلام والفن / د.محمود البستاني ١٧٠.

٨ . ينظر : المصدر نفسه ١٧٨.

٩ . ينظر : علوم نهج البلاغة٣٩٧-٤١٦.

في قوله (اللهم إليك أفضتْ القلوب ومُدّت الأعناق) نلمح كناية فمد العنق بمعنى تطويله، وهو كناية عن الميل والتطلع، وفي قوله (اللهم وقد بسطتَ لي في ما لا أمدح به غيرك، ولا أثني به على أحد سواك) كناية عن بلاغة الكلام وعذوبة لسانه (عليه السلام)، وفي قوله (اللهم فإن ردوا الحق فافضضْ جماعتهم وشتتْ كلمتهم) شبه الآراء بالكلمة أي شتتَ آراءهم لأنها التي تتفرق، ولما كانتْ الكلمة سبب ظهور الآراء أطلقتْ عليها مجازاً مرسلاً، وفي قوله (استودع الله دينك ودنياك، وأسأله خير القضاء لك في العاجلة والآجلة) يشبه الخالق بالأمين الذي يأمِّن الإنسان لديه أمواله وممتلكاته كما يشير إلى ذلك بوساطة لفظة (استودع)، وفي قوله (اللهم قد صرح مكنون الشنآن، وجاشتْ مراجل الأضغان) يستعير شدة البغضاء وتأصيلها في النفوس بقوله (جاشتْ مراجل الأضغان).

الخاتمة

يعد الدعاء شكلاً فنياً فهو من حيث المظهر الخارجي يقوم عل عنصر المحاورة الانفرادية إذ يتوجه الإمام بكلامه المسموع إلى الله تعالى، ومن حيث المظهر الداخلي يقوم على عنصر وجداني يجسّده الكلام المذكور إذ يتصاعد به الداعي إلى أوج الانفعالات الصادرة عنه، ومن حيث المضمون تنطوي هذه المحاورة على محورين: الأول، فردي أو ذاتي يتصل بحاجات الداعي الشخصية كطلب المغفرة، والشفاء من المرض، وغيرهما، والثاني، موضوعي، ويشمل كل ما هو غير ذاتي، وهو نمطان:عبادي: يتصل بتمجيد الله والثناء عليه بذكر صفاته ومعطياته، واجتماعي: ينحصر بطلب إلى الله تعالى بتحقيق حاجات الآخرين مثل طلب النصر على العدو، واستسقاء المطر، والدعاء للآخرين ... الخ

أما عناصر الدعاء فهي: عنصر المحاورة الانفرادية، والعنصر الإيقاعي، والعنصر الصوري .

ويوضَع كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) بالمرتبة الثالثة من الإعجاز البلاغي بعد القرآن الكريم والحديث النبوي ؛ لأنّ في كلامه مسحة من الكلام الإلهي، وفيه عبقة ونفحة من الكلام النبوي، وبلاغته فن وذوق ينسجمان مع كل عصر وزمن فقد تعدّتْ طريقته الطريقة الكلاسيكية، وقفزتْ على المراحل الزمنية حتى عدّ البلغاء أدبه متماشياً مع كل عصر، وقد امتاز بأسلوبه البلاغي الخاص وبطريقته في صنع العبارة والجملة فأصبح أدبه متفرداً ذا خصائص معينة لا يشابهه أحد من البلغاء، ولما كانتْ البلاغة تعتمد على عنصرين هما: العلم، والشجاعة، وقد امتلكهما أمير المؤمنين فبلاغته تكون بالمستوى المطلوب؛ لأنها بمستوى شخصيته العلمية فهي بلاغة مستمدة من علم يستقي معينه من علم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومن كينونة جُبلتْ على الشجاعة والإقدام.

أما أسلوب نهج البلاغة فهو أسلوب مبتكر لم يسبق بأسلوب قبله إلا القرآن الكريم إذ إن أرضية الأفكار المطروحة في نهج البلاغة هي من ثمار الإبداع القرآني.

إنّ خصائص بلاغة الإمام علي (عليه السلام) موجودة ومطبوعة بأسلوبه وبيانه حتى في أدعيته، ولعل هذا رمز عظمة أمير المؤمنين فقد حافظ على مستواه البلاغي في كل ما قاله وما كتبه في الخطابة أو الكلام أو الدعاء فأدعيته مصبوغة بصبغة بلاغية قلما نجدها في الأدعية الأخرى كما إنها مصبوغة أيضاً بصبغة روحانية قلما نجدها في الأدعية الأخرى فقد سكب الإمام من روحانيته أقصى ما يستطيع من التعابير الأدبية والفنية التي تظهر الخشوع والخضوع والتذلل لله سبحانه وتعالى .

إنّ بلاغة الإمام عليّ (عليه السّلام) تبلورت في النص الذي يخرج من رحم اللغة مثل الوليد الجديد، وهو ـ في الوقت نفسه ـ يخرج من عالم الأفكار مثل الفكرة الجديدة الباهرة، وتتجلى جمالية ألفاظ الدعاء في نهج البلاغة في ألفاظه الفصيحة العذبة، وفي نظمه المحكم، ودلالته على المعنى فالألفاظ سهلة في جريانها على اللسان، خفيفة في وقعها على النفس، يألفها الذوق

ولا يجد صعوبة في إدراكها، وكل كلمة تقع موقعها اللائق والمناسب لها، وعندما يطرق اللفظ السمع يخطر معناه في القلب بوساطة قوالب جميلة محببة إلى النفس كالتشبيه، والاستعارة، والكناية، وغيرها إذ يتناول مسائله الفكرية المتداولة والمشتركة، وكأنها معطيات جديدة، ذلك لأن قدرته البلاغية مبتكرة فالنص يُولد متكاملاً، في تأديته الوظيفية الخاصة به.

وقد تنوعتْ أغراض الدعاء في نهج البلاغة إلى: الاستسقاء، عرض الأوضاع وتحليل الأحداث، الشكوى، وأغراض فكرية، التعبير عن مكنونات النفس وما يختلج في الأعماق من نوايا، ورفع معنويات المقاتلين، رسم صورة الصراع بينه وبين أعدائه، حقن الدماء وصلاح ذات البين وطلب الهداية فضلاً عن أهداف تربوية مهمة يؤديها الدعاء في تربية النفوس البشرية وسوقها نحو مدارج السمو والرفعة والكمال ناهيك عما يشتمل عليه من فضائل أخلاقية ومعارف ربانية تسبغ بها النفس وتمنحها الهدوء والسكينة.

وبالرغم من الوضوح والمباشرة والتقريرية التي تتضمنها طبيعة الحاجات المدعو بها إذ الداعي يتقدم بحاجاته بلغة واضحة لا غموض ولا تعقيد ولا تعميق فلا تتطلب عنصراً صورياً

إلا إننا وجدنا اشتمال بعض أدعية الإمام على صور كنائية واستعارية ومجازية لتكوين أسرار فنية كامنة وراء هذه الصور.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- أدب الشريعة الإسلامية – دراسة جديدة في بلاغة نصوص القرآن الكريم ونصوص الأربعة عشر معصوماً، د. محمود البستاني، ط١، مؤسسة السبطين (عليهما السلام) العالمية، ١٤٢٤هـ .ق / ١٣٨٢هـ .ش .
- أدعية الإمام علي (عليه السلام)- الصحيفة العلوية المباركة، الشيخ عبد الله بن صالح السماهيجي، ط١، دار المرتضى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- الإسلام والفن، د.محمود البستاني، ط١، مجمع البحوث الإسلامية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي، د.محمود البستاني، ط١، دار الفقه للطباعة والنشر، مطبعة سليمان زادة، ١٤٢٤هـ - ق -١٣٨٢هـ - ش.
- تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، د.محمود البستاني، ط١، مجمع البحوث الإسلامية، مؤسسة الطبع والنشر للاستانة الرضوية المقدسة، مشهد، إيران، ١٤١٣هـ .
- الدعاء عند أهل البيت، الشيخ محمد مهدي الآصفي، ط٤، منشورات جامعة المصطفى العالمية، ١٤٢٩ق/١٣٨٧ش .
- دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة، شهيد المحراب آية الله العظمى السيد محمد باقر الحكيم(قدس سره)، ط٥، مؤسسة تراث الشهيد الحكيم، مطبعة العترة الطاهرة، النجف الأشرف، صيف ٢٠٠٧م.
- علوم نهج البلاغة، د. محسن باقر الموسوي، ط١، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- فلسفة الابتلاء، الشيخ حافظ حداد، ط٢، مركز أمير المؤمنين (ع)، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.
- فلسفة المناجاة والتضرع والدعاء / محمد حسين المختاري المازنداني، ط١، الناشر مهدي بار، مطبعة محمد، قم، جمادي الثاني ١٤٢٣هـ .
- في رحاب نهج البلاغة، الأستاذ مرتض مطهري، ط١، الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- في ظلال نهج البلاغة، الشيخ محمد جواد مغنية، ط١، انتشارات كلمة الحق، ١٤٢٧هـ.ق.

- الصحيفة السجادية الكاملة، الإمام السجاد علي بن الحسين (عليهما السلام)، دار الكتب العلمية، بغداد، ٢٠٠٠م.
- المدخل إلى علوم نهج البلاغة، د. محسن باقر الموسوي، ط١، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م.
- منهج الدعاء عند أهل البيت ونماذج منه، صباح علي البياتي، ط١، المعاونية الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت (ع)، مطبعة ليلى، ١٤٢٧هـ .
- مواهب الرحمن في تفسير القرآن، آية الله العظمى السيد عبد الأعلى السبزواري، ط٢، انتشارات دار التفسير، ١٤٢٨هـ -٢٠٠٧م.
- نفحات الولاية – شرح نهج البلاغة، آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ط١، دار جواد الأئمة، بيروت، لبنان، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- نهج البلاغة، الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ط٤، مطبعة ثامن الأئمة (ع)، مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر والتوزيع، قم ١٣٨٤ هش-١٤٢٦ هـ ق٢٠٠٦م.

المقام وتوجيه الدلالة للظواهر التركيبية في نهج البلاغة - (أسلوب الأمر انموذجا)

المدرس الدكتورة: جنان محمد مهدي (جامعة بغداد - كلية التربية للبنات)

المقدمة

تعد مسألة دراسة الظواهر التركيبية لنص ما وما يحيطه من قرائن وظروف أهم أركان فهم وإدراك المعنى ، وهو الغاية والقصد الذي يبتغي مبدع النص إيصاله إلى ذهن المتلقي أو المخاطب ، فاللغة نظام اجتماعي ينتظم عبر أساليب لغوية تربطها علاقات أسلوبية ومقامية تحدد الغرض من الخطاب .

وهذا يعني أن ثمة عناصر لغوية وغير لغوية لها أثرها الكبير في تحديد المعنى ، إذ إن معنى النص يتضح ويبين حين تُعرف ما يحيط به من ملابسات وظروف تتصل بالمكان أو المتكلم أو المخاطب فتعطيها ملامح دلالية يولدها نوع من السياق يُعرف بـ (مقتضى الحال) أو (المقام)

كما يطلق عليه علماء العرب القدماء من لغويين وبلاغيين ومفسرين ، الذين نبهوا إلى مثل هذا النوع من أنواع الدلالة اللغوية دون التنظير له كما فعل المعاصرون الذين أطلقوا عليه (سياق الحال) أو (contest of stuation) .

وما هذا البحث إلا محاولة هدفها إبراز الجوانب المضيئة للفكر اللغوي العربي القديم وسبقه في ريادة ميدانٍ أصيل لدراسة المعنى تمثل بخطب ومواعظ بليغ البلغاء الإمام علي (عليه السلام) وسبقه في تأصيل أسلوبية النص عبر أساليب متنوعة الصياغة ذات تراكيب إيحائية ورمزية لمعانٍ ثوانٍ لها قدرتها التعبيرية الفائقة في التأثير والتوجيه في نفس متلقيها.

وقد اخترت دراسة (المقام أو السياق الحالي) وأثره في توجيه دلالة تركيب أسلوب الأمر في نهج البلاغة ، وكيف أن دلالة الأسلوب تتغير وتتنوع لتخرج من معناها الأصلي إلى معان فرعية يحددها مقتضى الحال أو المقام الذي قيلت فيه لتتلون تلك المعاني من أمر ووجوب إلى ندب أو دعاء أو توبيخ وتقريع أو وعيد .

وتبعًا لذلك فقد قسمت البحث إلى مقدمة بينت فيها الغرض الأساس من موضوع البحث وتمهيد تناول إضاءات عن اللغة كنشاط اجتماعي منتظم في بنية تركيبية تحمل في طياتها المعاني والدلالات المقصودة في نسق من الألفاظ والأساليب ، فضلا عن أسلوب الإمام (عليه السلام) في خطبه ومواعظه وابرز سمات أسلوبه .

أما مباحث البحث فقد قسمتها إلى ثلاثة مباحث: فجاء عنوان المبحث الأول (المقام والدلالة) وخصص للحديث عن المقام ونظرية السياق والدلالة بدءًا بالحديث عن السياق وأنواعه التي يتفرع منها السياق الحالي أو سياق الموقف كما يطلق عليه المعاصرون وتأصيل البحث والدراسة فيه في الفكر اللغوي والتراث العربي وعلاقته بمباحث الدلالة، فضلا عن الحديث عن المباحث الدلالية في الدراسات اللغوية القديمة والحديثة .

على حين استهل المبحث الثاني وهو بعنوان (الجملة والتركيب) بدراسة النحاة القدماء للجملة الذين بحثوها تحت مصطلح الكلام ولم يحددوا الصورة الشكلية للجملة فكانت دراستهم تحليلية لا تركيبية ، على العكس من المعاصرين الذين أضحت الجملة والتركيب المنطلق الأساس لدراسة اللغة لديهم .

أما المبحث الأخير فكان دراسة تطبيقية لأسلوب الأمر وصيغه ودلالاته عند النحاة والبلاغيين ومعانيه الثواني التي يخرج إليها واختلاف تلك المعاني بحسب مقام النص وغرضه .
وذيلت البحث بخاتمة موجزة لأهم النتائج التي توصل إليها البحث .

التمهـيد

استقطبت اللغة اهتمام المفكرين منذ أمد بعيد، بوصفها ظاهرة اجتماعية دارت عليها حياة مجتمعاتهم الفكرية والاجتماعية ، فحظيت بنصيب كبير من الدراسة والبحث كونها أهم وسائل الاتصال والتفاهم بين البشر ، فالتخاطب هو جوهر اللغة ومفتاح المعنى ولا يتم هذا التواصل إلا عبر بنية تركيبية متكاملة من حيث الألفاظ والجمل والدلالات .
ولابد لهذا التواصل من عوامل ستة ينبغي توفرها في أية عملية اتصال ، وهي: ١- الباث، أو المخاطِب (بكسر الطاء)، ٢- المتلقي، أو المخاطَب (بفتح الطاء)، ٣- السياق، ٤- السنن أو الشفرة، ٥- وسيلة الاتصال، ثم ٦- الرسالة نفسها.(١)
فاللغة إذن نظام يعتمد في أساسه على مجموعة من العناصر اللغوية التي ترتبط مع بعضها وفق علاقات معينة لتعبر عن المعنى .
وقد دأب علماء اللغة إلى النزوع نحو هدف اثبات معنىً محدد للكلمة أو الجملة ، استنادًا إلى مستويين اثنين هما: مستوى التركيب ومستوى المضمون ولكنهما لا يكفيان لتحديد شامل كامل لدلالة الجملة أو الكلمة، وإنما وجب تظافر عدة أنظمة تراعي في اعتبارها عالم المتكلم وعالم المتلقي وطبيعة الخطاب وعناصره .
وتبعا لذلك فإن الألفاظ تترتب في التراكيب وفقًا لوظيفة التواصل ، أي رصد العلاقات بين الأنماط التركيبية المختلفة والوظيفة الافصاحية وتستلزم الرسالة التواصلية بين المرسل والمتلقي تنوع الأساليب بحسب المقام والسياق ، لذا يمكن القول بأن الأسلوب منظومة تواصلية بالغة التأثير في المتلقي وهو في ذات الوقت صنوان السياق .
لقد عرّف الأسلوب بأنه ((طريقة تأليف الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير)) . (٢)
وعدّ تفرد أسلوب المتكلم أو المخاطِب أمرًا تابعًا لقدرته وقابليته على توظيف مفردات وتراكيب تواءم مستوى تفكير وثقافة المخاطَب ومراعاة أحواله ومناسبة النص للظروف المحيطة به من زمان ومكان .
وقد امتاز الأسلوب العربي بسمات كان من أهمها: القوة والتناسق والجمال ، ولو حاولنا استنطاق لغة وأسلوب النص في كتاب نهج البلاغة - مدار البحث – لألفينا أن تلك السمات تظهر جلية وتتآلف لخدمة مضامين ومعاني ودلالات النص ، فالمتتبع للنصوص يجد أنها كانت وليدة الحال التي ألقيت فيها مع امتلاكها قوة التأثير في نفس متلقيها ؛ ذلك لأنها تحمل في طياتها أساليب توجيهية ناسبت أحوال متلقيها وتفردت بقوة الإقناع التي استندت إلى الجدل المنطقي المقنع ، كما أنها نبهت على بلاغات فكرية وحضور عقلي واستعمال منطقي وأسلوبي للغة مع تمكن من أداتها وتراكيبها ودلالاتها ، وهذه الأخيرة التي دعت إليها الأسلوبية الحديثة اليوم .
فالأسلوب يمتاز بعمق في الدلالة مع الإيجاز وقوة التأثير ورصانة الصياغة وتنوع الأساليب وتباينها بحسب تباين مستويات متلقيها وثقافته ، فالخطب والوصايا اشتملت على منهاج ديني ثقافي توجيهي شامل ، خلاصته رياضة النفس على الهداية والطريق القويم ، وهذا ما سأحاول تلمسه وتبيانه – إن شاء الله – في صفحات البحث .

المبحث الأول: المقام والدلالة

يعد المقام نوعًا من أنواع السياق غير اللغوي ولابد في البدء من استكناه مفهوم السياق وأنواعه بشقيه اللغوي وغير اللغوي ((فالموضوعية العلمية في الدرس اللغوي الحديث، تملي بل تفرض على الباحثين ضرورة تأطير بحثهم تأطيراً علمياً دقيقاً، خاصة إذا كان البحث يتوخى تأصيل الدراسة، والتنقيب عن جذورها في التراث المعرفي المتنوع، سعياً منه إلى ربط الحقائق العلمية الحديثة بأصولها الأولى))(٣).

فالسياق في اللغة من ((ساق الإبل يسوقها سوقًا وسواقًا وسياقًا .. والسياق نزع الروح)) (٤)، وهو ((المهر، وسياق الكلام: تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه)) (٥)، أما في الاصطلاح فقد عرفه المحدثون بأنه ((بناء كامل من فقرات مترابطة في علاقته بأي جزء من أجزائه التي تسبق أو تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معينة)) (٦)، كما عرّف بأنه((تتابع الكلام وأسلوبه الذي يجري عليه)) .(٧)

فالسياق إذن نسق الكلام ومجراه وكل سياق يجري في موقف تواصلي بين المتكلم والمخاطب وديناميكية متحركة وهو ليس مجرد حالة لفظ بل متوالية من أحوال اللفظ متغايرة الأحداث (٨).

وقد قسم السياق إلى أنواع تندرج ضمن نوعين رئيسين هما: السياق اللغوي الذي يشمل السياق الصوتي والصرفي والنحوي ، والسياق غير اللغوي الذي يشمل السياق الاجتماعي والسياق التاريخي وسياق الحال أو سياق المقام .

ولم يغفل النحاة والبلاغيون قديما أمر السياق بل فطنوا له وألمحوا إليه ولم يقتصروا على النظر في بنية النص اللغوية وإنما انصب اهتمامهم على مراعاة المخاطب وأحوال الخطاب ، فمفهوم (المقام) ورد في الدراسات اللغوية القديمة ودرسه البلاغيون تحت مصطلح المقام أو مقتضى الحال ، وكانت أول إشارة له بقول بشر بن المعتمر فيما نقله الجاحظ عنه حين قال: ((المعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة .

وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة ، مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال)) (٩)، ولم يكن هذا الأمر بعيداً عن النحاة ، فسيبويه يعد من الرواد الذين أهتموا بعناصر سياق الموقف المتمثلة في المتكلم والمخاطب والعلاقة بينهما ، فلو تأملنا في باب (ما يضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره في غير الأمر والنهي) قول سيبويه: ((لو رأيت ناساً ينظرون الهلال وأنت منهم بعيد فكبروا لقلت: الهلال ورب الكعبة أي أبصروا الهلال)) (١٠)لوجدنا أن المقام وسياق الموقف هو الذي كشف الحال التي عليها المخاطب وبين لنا المعنى .(١١)

ففكرة المقام إذن كانت حاضرة في أذهان النحاة العرب القدامى إلا أنهم اكتفوا في كثير من الأحيان بالوصف دون التنظير(١٢)، على العكس من اللغويين الغربيين الذين نظّروا للسياق كنظرية عرفت بنظرية السياق التي أضحت نظرية دلالية متكاملة على يد العالم الانكليزي " فيرث" (Firth) الذي استند إلى آراء الانثربولوجي " مالينوفسكي " الذي نبه وأكد على

الوظيفة الاجتماعية للغة وتابعه فيرث مشيراً إلى أن معاني التراكيب والكلمات تستلزم تحليل السياقات والمواقف التي ترد فيها(١٣).
وقد عدت هذه النظرية ((من أفضل المناهج لدراسة المعنى بسبب ما تميزت به من عناية بالعناصر اللغوية والاجتماعية)) .(١٤)

إن أهمية السياق تتأتى من أنه يحدد الدلالة المقصودة من اللفظة في جملتها أو تركيبها الذي انسبكت فيه ، ولا تعرف دلالتها بمعرفة السياق اللغوي فقط وإنما تتحدد الدلالة بتضافر سياق المقام أو الحال الذي وردت فيه مع سياقها اللغوي ، إلا أن فكرة المقام تعد ((المركز الذي يدور حوله علم الدلالة))(١٥) في وقتنا الحاضر .

كما أن أهميته في التحليل الدلالي تتأتى من تعيين قيمة الكلمة واكتسابها دلالات ثوانٍ تعكسها التأثيرات السياقية باختلاف مناسبة القول .(١٦)
مما يدعو للقول بأن دلالة الكلمة تتلون بحسب مقامها الذي تندرج فيه ويمكننا تبعا لذلك اطلاق تسمية " الدلالة المقامية" على سياق الموقف الذي وردت فيه .

المبحث الثاني: الجملة والتركيب

دأب النحاة على تحديد مصطلحات تؤلف نمط النشاط اللغوي مثل (الكلمة) و(الكلام) و(الجملة) ،غير أنهم لم يفرقوا بين مصطلحي (الكلام) و(الجملة) من حيث المعنى فاختلط لديهم كلا المصطلحين فالجملة هي الكلام ،ولعل ما ذهب إليه ابن جني من قوله بأن الكلام ((إنما هو في لغة العرب عبارة عن الألفاظ القائمة برؤوسها ، المستغنية عن غيرها، وهي التي يسميها أهل هذه الصناعة الجمل، على اختلاف تركيبها))(١٧) دليل على صحة ذلك، فشرط الكلام عند ابن جني هو أن يفيد معنىً تامًا يحسن السكوت عليه، والى مثل هذا ذهب كل من الزمخشري في المفصل وابن يعيش في شرح المفصل، فعدوا الجملة مرادفة للكلام .(١٨)
أما دراسة الجملة والتركيب في النحو العربي فقد تمثلت بكونها مصطلحات ذات دلالات متقاربة يراد بها ((ضم الألفاظ بعضها إلى بعض أو نظمها في بناء متكامل المعنى، يفيد المخاطب ما يحسن السكوت عليه)) (١٩)، وكانت السمة البارزة لمتقدمي النحاة العرب أن دراستهم للجملة والتركيب لم تكن ذات ملامح محددة أو واضحة رغم التفاتهم وعنايتهم بهما، أي أن الجملة لم تكن نقطة البدء في دراستهم ، ذلك لأنهم لم يحددوا الصورة الشكلية لها تحديدًا دقيقًا (٢٠) ، فالقارئ للكتب النحوية المتقدمة يجد أن ترتيب المباحث كان على أساس المفردات ووظيفتها وهذا يعني أن دراسة النحو ((كانت تحليلية لا تركيبية أي أنها كانت تعنى بمكونات التركيب ، أي بالأجزاء التحليلية فيه أكثر من عنايتها بالتركيب نفسه)) (٢١)؛ ذلك لأن النحاة الأوائل درسوا الأبواب النحوية في ضوء وظائفها بالتركيب ودرسوا أحوال اللفظ وعلاقته بغيره من الألفاظ داخل التركيب (٢٢) ((فمن يقرأ بابي " المسند والمسند إليه " و " الاستقامة من الكلام والإحالة " (٢٣) في كتاب سيبويه يجد حديثه عن التركيب حديث العارف بأسراره ويعرف أنه كان حاذقًا في التمهيد لكتابه بمباحث تعد الأساس في البحث النحوي لينفذ منها إلى ما هو أكثر تفصيلًا ، وذلك بالانتقال من موضوعات التركيب إلى بيان مواقع أجزاء الجملة وعلاقتها بعضها مع بعض))(٢٤).

فصنيع سيبويه هو مما يستدل به على أن عدم التصريح بالمصطلح وحدّه لا يعني عدم المعرفة بالمفهوم وأن دراسة النحاة كانت منصبة على دراسة " التركيب " دون التنظير له .
ويمكن أن يعزى عدم وضوح معالم الجملة إلى مسألة غاية في الأهمية إلا وهي أن النحو بدأ وصفيًا وابتعد عن التحليل والتعليل الذي كان ملمحًا تميزت به كتب النحو المتأخرة التي أولعت بالمنطق والفلسفة ووجهت دراسة النحو إلى المعيارية على أساس نظرية العامل ، إذ لم تكن الغاية التعقيد للقواعد وتعليلها .
غير أن ثمة إشارات بارزة للنحاة المتقدمين نظّرت للجملة وتناولتها بالدراسة كانت أبرزها دراسة أبي علي النحوي في كتابه " المسائل العسكريات " الذي عقد بابًا اسماه: ((باب ما ائتلف من هذه الألفاظ الثلاثة كان كلامًا مستقلا وهو الذي يسميه أهل العربية الجمل)) (٢٥)، تابعه الزمخشري في رسالة " المفرد والمؤلّف " وقد بيّنا مباحث الجملة الرئيسة واقسامها ومعانيها (٢٦) ، وقد نضجت الدراسات الجادة للجملة والتركيب فيما بعد على يد عبد القاهر الجرجاني الذي رسم بنظرية النظم ملامح للبحث المستند إلى أصول ثابتة في تركيب الجملة ودلالاتها فكان النظم ترجمة لمصطلح الجملة والتركيب أو وجهًا آخر لهما ودليلاً على جهد يشار له بالبنان للنحاة القدماء في مجال دراسة التراكيب ومعانيها المختلفة .
فالتراكيب المختلفة عند عبد القاهر الجرجاني دلالة على المعاني المتفاوتة من حيث الوضوح والعمق والتأثير ، وما أغراض الكلام إلا تعبير عن المفهوم الجوهري للغة وهو بهذا أقرب إلى المنهج التركيبي في نظرية المعنى الحديثة ؛ إذ إن التركيب عنده كلٌ متكامل على العكس من النحاة المتقدمين الذين نظروا إلى الأجزاء ثم التركيب .(٢٧)
فعبد القاهر سبق الفكر الغربي في معرفة التركيب وهو بنظرية النظم يكون قد طابق ما يطلق عليه الغربيون اسم "Syntaxe" أو علم التركيب الذي يختص "بدراسة العلاقات داخل نظام الجملة وحركة العناصر" .
غير أن أول دراسة أضاءت السبيل وجمعت الشتات للجملة والتركيب كانت لابن هشام في كتابه " مغني اللبيب عن كتب الأعاريب " الذي جعل الجزء الثاني منه خاصا لدراسة الجملة وميز بينها وبين الكلام وبيّن أقسامها وأسهب في شرحها وتفصيلها وفصل بين الجمل التي لها محل من الإعراب والتي ليس لها محل من الإعراب .
أسلوب الأمر وصيغه ودلالاته
كان المعنى ولايزال الغاية والقصد من وراء أساليب الكلام ، وقد شغلت دراسة معاني الجمل وأساليب التركيب النحاة الذين درسوا تلك المعاني دون تبويب منظم لكنها انبث ضمن الأبواب النحوية ،أما البلاغيون فإنهم باعترافهم بفكرة " المقام " متقدمون على ألف سنة على زمانهم ((لأن الاعتراف بفكرتي " المقام " و " المقال " باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة))(٢٨) وكان للبلاغيين قصب السبق في جعل معاني الكلام قسماً قائما بنفسه إلى جانب البيان والبديع ، إلا أن دراستهم لها استندت إلى أحكام النحاة وقواعدهم وأصول النحو وقد تميز البلاغيون عن النحاة بأنهم شعبوا المعاني التي يخرج إليها المعنى الأصلي ، واستعمل النحاة القدامى مصطلح (معاني الكلام) للتعبير عن ائتلاف الكلام وما يتفرع عنها من معان فرعية وفقا لسياق الكلام وقرائنه ، وقد وسمها الباحثون المحدثون في علوم البلاغة والنحو بـ:(الأساليب) فقالوا أسلوب النداء أو أسلوب الأمر أو أسلوب النهي .. .(٢٩)
لقد خص النحاة أسلوب الأمر في صيغة برزت عن غيرها من صيغ الأمر ألا وهي فعل الأمر ونظروا إليه من جهة أحوال بنائه وارتباط الضمائر والحروف بتلك الأحوال فالأمر: هو طلب

الفعل على وجه التكليف والإلزام وقد اشترط البلاغيون أن يكون طلب الفعل على جهة الاستعلاء (٣٠)،أما النحاة فقد فرّقوا بين استعمال الصيغة في الأمر وفي الدعاء(٣١) .
فابن السراج يذهب إلى أن ((أصل الدعاء أن يكون على لفظ الأمر ، وإنما استعظم أن يقال أمر ، والأمر لمن دونك ، والدعاء لمن فوقك))(٣٢).

ويمكن القول بأن هذا التفريق بين المعاني يستند في أساسه على مراعاة المخاطب والمقام ؛ إذ يتحدد وفقا لسياق الكلام ما إذ كان الأمر في هذا التركيب أمرا واجباً أو دعاءاً ومسألة وهذا يعني أن النحاة أدركوا الفروق الدقيقة بين معاني الأمر.
وللأمر صيغ تؤدي معنى الأمر هي:

١. صيغة (أفْعَلْ)
٢. صيغة (لِيَفْعَلْ)
٣. صيغة المصدر
٤. صيغ أسماء الافعال
٥. الأمر بصيغة الخبر (٣٣)

ويخرج الأمر إلى معانٍ كثيرة غير معنى طلب حصول الفعل ، تعرف معانيها من السياق المقالي وقرائنه والسياق الحالي والمقام وحال المخاطب، وكان ابن فارس قد أشار لها وأجملها في كتابه " الصاحبي في فقه اللغة " (٣٤)، فقد يخرج الأمر إلى معنى الندب أو الوعد والوعيد أو الترغيب والترهيب أو التعجب ..
وبالعودة إلى أسلوب الأمر ودلالاته في نهج البلاغة نجد أن تنوع الأسلوب يتناسب مع حال المخاطَب وسياق المقام الذي ورد فيه ، ويدفع هذا الأسلوب بالمخاطَب إلى التدبر والعظة ، فالمتأمل لنصوص نهج البلاغة يجد أن أسلوب الأمر يحمل في طياته كثيراً من المعاني الثواني التي يخرج لها هذا الأسلوب ، فمما جاء على معنى الوجوب والالزام ما ورد في خطبة له (عليه السلام) في جور الزمان وقسمة الناس على أقسام ، فقال:((فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثالة القَرظِ وقُراضة الجلم ، واتَّعظوا بمن كان قبلكم ، قبل أن يتَّعِظ بكم مَنْ بعدكم ، وارفضوها ذميمة فإنها قد رفضت مَنْ كان أشغف بها منكم))(٣٥).

ويخرج أسلوب الامر إلى معنى التذكير والترهيب وذلك في خطبة له بالحث على التزهيد في الدنيا وبيان نعم الله على الخلق ، وذلك حين قال: ((ألا وإن الدنيا قد تصرمت ، وأذنت بوداع ، وتنكَّر معروفها وأدبرت حَذَّاء،... فأزمعوا عباد الله الرحيل عن هذه الدار المقدور على أهلها الزَّوال ، ولا يغلبنكم فيها الأمل ، ولا يطولنَّ عليكم الأمد))(٣٦).

وقد يتخذ أسلوب الأمر معنى الندب والعظة إلى جانب الترهيب ، ولعل مما ورد في خطبة له (عليه السلام) في الاستعداد للموت خير دليل على ذلك ،إذ قال: ((فاتَّقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم، وابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم ، وترحَّلوا فقد جُدَّ بكم واستعدوا للموت فقد أظلَّلكم وكونوا قوماً صيح بهم فانتبهوا ...))(٣٧).

ووظف (عليه السلام) أسلوب الأمر على جهة المسألة والدعاء ، وذلك في خطبة له علّم الناس فيها الصلاة على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فقال: ((اللهم داحي المدحوات وداعم الممسوكات وجابل القلوب على فطرتها شقيِّها وسعيدها . اجعل شرائف صلواتك ، ونوامي

بركاتك ، على محمد عبدك ورسولك الخاتم لما سبق، والفاتح لما انغلق، والمعلن الحقَّ بالحقِّ ...))(٣٨).

وقد يخرج أسلوب الأمر إلى معنى التوبيخ والذم كما جاء في خطبة له (عليه السلام) في النهي عن عيب الناس ،إذ قال: ((يا عبد الله ، لا تعجل في عيب أحد بذنبه ، فلعله مغفور له ، ولا تأمن على نفسك صغير معصيةٍ ، فلعلك معذبٌ عليه. فليكففْ من علم منكم عيب غيره لِما يعلم من عيب نفسه ، وليكن الشكر شاغلاً له على معافاته مما ابتلي به غيره)).(٣٩)

من كل ما تقدم يمكن القول: إن تنوع الأساليب كان وفقاً للمقام الذي قيلت فيه ،وأن الخطاب فيها تارة يكون لإرشاد النفوس والعقول وتارة لتثبيتها على الطريق القويم بالتدبر والتفكر والإنابة وانتظم في سلسلة لغوية تركيبية تمتلك قوة الإيحاء وقدرة التأثير .

الخاتمة

تتطلب دراسة المعنى دراسة ما يحيط و يستفاد من دلالات ومعاني التركيب والأساليب المؤلفة للنصوص، وعليه فدراسة المعنى تتطلب تحليلاً للسياقات اللغوية وغير اللغوية وهذه الأخيرة تستلزم تظافر عدة أنظمة تأخذ في اعتبارها عالم المتكلم وعالم المتلقي وطبيعة الخطاب وعناصره .

وقد حاول البحث بيان أثر السياق الحالي أو المقام في توجيه الدلالة في أسلوب من أساليب العربية وهو أسلوب الأمر عبر استنطاق دلالاته في نصوص نهج البلاغة ، وقد تبينت جملة نتائج بعد البحث يمكن اجمالها بالآتي:

١- إن قراءة نقدية تحليلية للتراث اللغوي العربي تفضي للقول بأن العرب كانوا سباقين في الكشف عن ملامح نظرية المعنى والتأسيس لمناهج الدراسات الحديثة للتركيب ، إذ راعوا الصلة بين المتكلم والسامع واللغة والاستعمال والمعاني والدلالات ، وهذا هو التأصيل للنظرية الكاشف عن الوجه الآخر لثراء للفكر اللغوي العربي .

٢- إن النص هو الوسيلة المثلى للتواصل وقد أدركها العرب بحسهم وذائقتهم ، فميزوا بين القدرة اللغوية والقدرة الخطابية عبر معرفة الترابط بين التراكيب اللغوية واستعمالاتها بحسب سياقاتها التي تكشف عن مقصود النص ومعناه .

٣- كان تنوع الأساليب في نصوص نهج البلاغة منبهاً على بلاغات فكرية وحضور عقلي منطقي لاستعمال اللغة مع تمكن من أداتها وتراكيبها ودلالاتها وأصالة في التعبير حسب المواقف والأحداث فناسب اللفظ فيها سياق حال المخاطب .

٤- دل استنطاق النص في نهج البلاغة على ما أكدته النظريات الحديثة من مراعاة المتلقي وأحواله مما يدعو إلى القول بأن العرب كانوا أسبق في التأصيل لهذه النظرية قبل غيرهم من الغربيين والمحدثين .

٥- لم يغفل علماء اللغة العرب دراسة المعاني والأساليب والأغراض والمقاصد وأن كانت دراسة الجملة والتركيب لديهم دراسة شكلية إلا أن المعاني كانت حاضرة في تآليفهم وأن لم تبوب ضمن إطار محدد الملامح .

المناحي التربوية والأخلاقية في عهد الإمام عليه السلام إلى مالك الأشتر

المدرس الدكتور: صالح جبار القريشي (جامعة كربلاء - كلية العلوم الإسلامية)

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على اشرف الأنبياء والمرسلين وحبيب رب العالمين المصطفى محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله) وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين وبعد.

فقد جرت العادة أن تفتخر الأمم والشعوب برجالها وعلمائها وعباقرتها، وهذا أمر طبيعي لا يستغربه احد من أصناف الخلائق بلا استثناء، ولكن الأمر الذي يجلب الانتباه أن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) اتفقت الأمم كلها على أن تفتخر به وتلوذ بإنسانيته، فكان حب هذه الأمم والشعوب له ليس لأنه قائداً أو شجاعاً أو كريماً، فما أكثر القادة والشجعان والكرماء، بل لأنه جسد معنى الإنسانية والعدالة والعفة والنبل والشرف والأمانة بأحلى صورها، فكان إنساناً قبل ان يكون قائداً أو شجاعاً أو كريماً، فأضافت هذه الصفات محاسناً على إنسانيته العظيمة ليس إلا.

وهذا ما أكده شاعر النصارى في حب علي (عليه السلام) بقوله:

لجلج الحب في المسيحي حتى ... ظنَّ من فرط حبه علويا

لا تقـــل شيعـــة هواة عليٍّ ... أن في كل منصف شيعيا

فماذا أقول في عدل علي (عليه السلام) وهو إمام العدل، بل كل عدلٍ في الدنيا هو عيال على عدالته، حيث من مستلزمات العدالة وأصول تطبيقها وتنفيذها قوة الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وقد تجسدت كل هذه المؤهلات في نفس أمير البيان علي(عليه السلام)[1].

وهذا (بولس سلامة) شاعر نصراني آخر يتغنى بعدالة علي (عليه السلام) فيقول[2]

يا أمير البيان نهجك بـــــــحرٌ ... تتلاقى الأرواح في أثـــــــنائه

متعة السمع والقلـــــــوب رواء ... وزئيـــر الأقدار في أنـــــــوائه

غضبة للتقى وللزهـــــــد دوَّت ... في سواد العراق في بطحـــــائه

يا أمير الزهاد صيـــــــتك أنقى ... من جبين العذراء قبل اصطلائه

ان وقفة تأملية بين يدي الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) من خلال عهده لمالك الأشتر (رض) إثناء توليته على مصر كافية في أن ترسم لنا صورة فنية رائعة في مجال الأخلاق والقيم والنبل والعفة والعبقرية التي ينعدم نظيرها في الأرض منذ وطئها آدم (عليه السلام) والى يوم الدين.

من خلال هذا العهد تبدو لنا الصورة المشرقة لصفاء علي (عليه السلام) في تاريخ الإنسانية التي سادت عدالتها بشخصه متخلقة بأخلاقه، فسعى لتحقيق آمال أمته ومعالجة آلام ما تعاني منه تلك الأمة، فصار يحثها دوماً على اقتفاء مسيرة العدل والالتزام بقيم السماء فكان عهده لمالك (رض) إحدى هذه الصور الأنموذجية في عالم السمو والاعتدال.

لقد حث الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) مالكاً بهذا العهد لينمّي في المجتمعات معاني الخير ويؤصل عناصرها ويبني أسسها في النفوس كي ترتقي قيم السمو من أجل ان تقضي على وساوس الشر التي تدفع بضعاف النفوس إلى خلق العوائق في عرقلة المسيرة الإنسانية الكريمة التي رسمتها السماء لتكريم الإنسان من الزلل وأرادت له أن يكون على الدوام كريماً: «**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**»[3].

---

١ . حسين الشاكري: من سيرة العظماء: ٦/٤.

٢ . بولس سلامه: ملحمة الغدير: ١٩٩.

٣ . الإسراء / ٧٠.

وبذلك تضمَّنَ عهد سيدنا أمير المؤمنين (عليه السلام) لمالك الأشتر (رض) كل الصور السامية، ودعوته للمخلوق في أن يشكر الخالق، فكان من هدي الإمام في دفع هذه النفوس إلى الارتقاء بإرادة السماء نحو إصلاح المجتمع وتمتعه بالسجايا التكاملية للوصول إلى ربى المجد والصلاح[1].

ولان الإنسان يجب أن يدرك حق نفسه عليه في أن يطهرها من كل دنس ورذيلة قد تؤدي به إلى الهلاك والضمور، كما أكد مولانا الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) بقوله «وحق نفسك عليك أن تستعملها بطاعة الله عز وجل»[2].

لقد أكد هذا العهد على جميع جوانب الحياة، حتى عاد موسوعة تنظيمية كبرى لحياة الناس وجعلها إنموذجاً راقياً للشعوب العالمية التي تطمح أن يكون لها نظاماً عالمياً إنموذجياً يقود بها إلى شواطئ الخير والعز.
لذلك يعد هذا العهد مشروعاً بنيوياً يقود المجتمعات نحو التقدم والازدهار والخلود.
المحور الأول: أهمية عهد الإمام علي (عليه السلام) من الناحية التنظيمية والتربوية والاجتماعية والجوانب الأخرى.
يرمي النظام التربوي إلى «تهيئة الإنسان لممارسة الحياة من حيث نفسه والآخرين من أعضاء مجتمعه»[3] لأنها صياغة وتكوين لفعالية الأفراد ومن ثم تحويلها إلى عمل اجتماعي مقبول وعليه

فإن العهد الذي بين أيدينا يجب أن يكون برنامجاً تنظيمياً في جميع أنحاء المعمورة لأنه تضمن بين جنباته بناء الإنسان اجتماعياً واقتصادياً وعبادياً وسياسياً وفكرياً وعقائدياً، كما انه أرسى أسس ديمقراطية الحياة بمعناها الحقيقي، ورصّن حرية الفرد ليعيش بلا قيود بعيداً عن سياط الحكام والجلادين والظالمين، وهو يُشعر (أي العهد) بأنه ليس هنالك من سلطان على رقاب الناس وان الفيصل في أفضلية مخلوق على آخر هو العمل واحترام القانون والسير على طريق النظام حتى تتحقق العدالة ويستديم النجاح.
أن من أهم الأركان والأسس التي أحياها عهد علي (عليه السلام) إلى مالك (رض) هو تنمية الفكر التربوي السليم لبناء مجتمع أمثل، ولو امتثلت المجتمعات الإنسانية لتطبيق فقراته لسادت الإنسانية في تلك المجتمعات ووصلت إلى أرقى مواقع السمو والنجاح والطمأنينة، ولوجدت الناس كل ما تشتهي من الفضائل والقيم بفضل هذا التطبيق لمحتويات ومضامين العهد.
نعم... انه العهد المعهود الذي عاهد به علي (عليه السلام) ربَّه ورسول ربَّه (صلى الله عليه وآله وسلم) في أن يكون إنساناً باراً وعطوفاً وكريماً مع دينه ومجتمعه وأمته، فكان هذا الذي نراه... انه علي (عليه السلام) انه هبة السماء إلى الأرض.
انه من خلال التركيز على مفاصل العهد ونصوصه ومضامينه يتضح لنا جلياً في أن فقدان الأصالة التربوية بين طبقات المجتمع سيؤدي حتماً إلى فقدان المنهج النزيه في ذلك المجتمع[4]،

إن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) قد حث على الالتزام بالأسس التربوية من خلال المفاصل التي وفرها العهد من الناحية البنيوية الاجتماعية وأثر هذه الإشارات في وجوب إقامة العدل الاجتماعي مع الاجتهاد في رضا العامة من الأمة[5].

وقد عرض لنا الشيخ الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني (من أعلام القرن الرابع الهجري) هذه النصوص التي أشار إليها الإمام علي (عليه السلام) في ظل عهده لمالك الأشتر (رض) بالدعوة إلى بناء مجتمع مثالي من خلال التزامه بنصوص هذا العهد الذي قام الإمام

---

١ . محمد صادق الخرسان: أخلاق الإمام علي (ع): ٥.
٢ . الإمام علي بن الحسين (ع): رسالة الحقوق: ٩.
٣ . محمد بحر العلوم: المشكلة التربوية: ٨.
٤ . محمد بحر العلوم: المشكلة التربوية: ٢٣
٥ . توفيق الفكيكي: الراعي والرعية: ٩٥/٢.

(عليه السلام) بإلزام مالك (رض) بالتقيد أن مسألة العدل الاجتماعي في عهد الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) مسألة غاية في الأهمية من حيث تكافؤ الفرص التشريعية والعقلية في نصوصه، فهو متطابق من حيث المنطق التشريعي السماوي، فنراه يحث على بناء مجتمع سليم يتميز أفراده بعلاقات مترابطة ورصينة، بين المخلوق وأخيه الأخر من جهة، وبين المخلوق وخالقه من جهة أخرى، وان على المخلوق أن يشكر هبة الخالق لتستديم تلك الهبات لما فيه هدىً ورحمة لقوم يؤمنون... أنها دعوة تضامنية من هذا العهد مع مضامين القرآن الكريم في خلق مجتمع سوي[1]: «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**»[2] أن المنحى الاجتماعي الذي رسمته نصوص هذا العهد هي من أبرز المناحي في مضامينه ومحتوياته، حيث أكد على المسالك العقلائية التي تبتني عليها التنظيرات البشرية الناجحة في أن المجتمع السليم اقتصادياً أو اجتماعياً أو فكرياً سيؤدي حتماً إلى إنجاح الحياة المشتركة لبني البشر بصيغة تجتمع على تصديقها كل العقول الصالحة للعمل التعاوني في بناء الطبقات الناجحة للعدل الاجتماعي.
ذلك لأن «الإنسان كائن اجتماعي مفطور على الحياة الاجتماعية، فهو يحمل في أعماق نفسه غريزة حب الاجتماع والعيش ضمن الجماعة»[3].

لذلك دعا الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) من خلال هذه الترسانة المعرفية الكبرى إلى بناء الإنسان وترميم النفس وان هذا البناء يجب أن يبدأ من الإنسان نفسه، فإذا لم يتربى الإنسان فلن يتمكن من تربية الآخرين، وعليه يجب أن نبدأ بأنفسنا وان نكون في كل يوم أفضل من اليوم الذي سبقه لأن من كان يومه كأمسه فهو مغبون كما نص عليه قول الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)[4].

لذلك حثت نصوص العهد بمعناها الاجتماعي مالكاً (رض) ومن باب (إياك أعني واسمعي يا جاره) الناس كافة والمسلمين خاصة أن يهتموا بترصين المنظومة الأخلاقية للمجتمع، وان يصار إلى تطبيق ما أمر به القرآن الكريم بصدد هذا المنحى الذي دعا إليه عهد الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، إنها دعوة تضامنية بين العهد الذي هو الفرع، والأصل الذي هو الكتاب العزيز «**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**»[5].

وعند دراسة هذه النصوص ــ أعني النصوص الاجتماعية ــ في عهد الإمام (عليه السلام) نجدها مادة وفيرة ورصينة في تأسيس وتأصيل الآداب والقيم الإسلامية، بل بعبارة أخرى أن الذي ينتهل منها سيسمو من خلالها لبناء روابط اجتماعية بنّاءة وعلى مختلف الأصعدة سواء كانت عبادية أم سياسية[6].

وقد فصّل الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) بنصوص مختلفة بالإشارة إلى تربية المجتمع تربية إسلامية إنسانية وأولاها اهتماماً دقيقاً، حتى أنه ذهب في بعض نصوص العهد إلى تأكيد حقيقة ثابتة قامت عليها الشرائع السماوية، وأكدها علم الاجتماع وهي أن الإنسان اجتماعي بفطرته مدني بطبعه[7] وان الإنسان يألف أبناء جنسه، ويسكن أليهم ولا يستغني عنهم في حياته

---

١ . محمد الحسيني الشيرازي: احترام الإنسان في الإسلام: ٨٨.
٢ . المجادلة / ٩.
٣ . مؤسسة البلاغ: المعالم الأساسية للمنهج التربوي في الإسلام: ٩٥.
٤ . الخميني: التربية والمجتمع: ٥٨.
٥ . آل عمران / ١٠٤.
٦ . مؤسسة البلاغ: المعالم الأساسية للمنهج التربوي في الإسلام: ٩٦.
٧ . حسين بركة الشامي: البرنامج الأمثل: ٢١٥.

الخاصة والعامة بحال[1]، وعلى المجتمع أن يتدارس نصوص هذا العهد على مختلف الأصعدة، لان علياً (عليه السلام) هو «المؤمن والإيمان والدين والإسلام والسنة والسلام وخير البرية»[2].

إن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) خاطب العقول في هذا العهد وفق المنهج السلوكي المتوازن للإشادة بالتطور الذي ينشده المجتمع إذا أخذ بمرتكزات الالتزام التي أشار إليها القران الكريم وبني عليها الإسلام، حيث دعا القرآن الكريم المجتمعات إلى المشاركة في عملية التغيير واعتبر جهاد النفس هو الجهاد الأكبر وركز على منهج مخاطبة العقول والالتفات إلى مختلف الظواهر القائمة في عالم التكوين سواء فيما يتعلق بالظواهر السماوية أو الأرضية، والتي تختص بالنفس الإنسانية التي يمكن للعقل الإنساني أن يدركها ويفهمها وفق طروحات القرآن الكريم التي تحث الإنسان على معايشة أخيه الإنسان وفق خط بياني متوازن يؤدي به إلى جادة الصواب والكمال والسمو[3]، لذلك صورت لنا نصوص العهد الاجتماعية على ما تكنُّه نفس ابن أبي طالب (عليه السلام) من قيم عليا وفق ما تربَّت عليه بين أحضان دافئة ملئها الكمال والرقي تلك هي أحضان المصطفى (صلى الله عليه وآله) فكانت أقواله (عليه السلام) ترجمة حية لسمو العاهد في عهده، فنصوص العهد الاجتماعية جاءت وفق هذه المفاهيم التي هي عبارة عن دعوة صريحة إلى العفو عند المقدرة والتسامح والترغيب إلى إشاعة الوئام، ولا يتم هذا إلا بنبذ الأحقاد وعدم متابعة الأهواء، فالإمام يؤكد على المجازاة بالأحسن ولو على صعيد تبادل تحية الإسلام ليمكن أفراد المجتمع من احتواء شروط نجاح المجتمع السليم فيما يفعله وبلا ثمن[4].

فهو (عليه السلام) ميزان الحق بلا شبهة، فعن فاطمة الزهراء (عليها السلام) قالت: سمعت ابي (صلى الله عليه وآله وسلم) في مرضه الذي قبض فيه يقول – وقد إمتلأت الحجرة من أصحابه – «ايها الناس يوشك أن أُقبض قبضاً سريعاً، وقد قدمت إليكم القول معذرة إليكم، إلا أني مخلّف فيكم كتاب ربّي عز وجل، وعترتي أهل بيتي، ثم أخذ بيد علي فقال: هذا علي مع القرآن، والقرآن مع علي، لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض، فأسألكم ما خلفتموني فيهما»[5] ولم تعد هذه هذه الأمور التي سطرها الإمام (عليه السلام) في عهده للأشتر (رض) مجرد عبارات عفى عليها الزمن، بل هي نظام يومي لا تنفك مرتكزاته ومضامينه عن مسايرة المجتمعات للديمومة التي يقرها العقل والنظام.

إن هذه النصوص الاجتماعية لم تكن غريبة فقد تطابقت كلماتها مع الواقع، فهو القائل (سلام الله عليه)في جملة من خطبه: (إحذر أن يراك الله عند معصيته، ويفقدك عند طاعته، فتكون من الخاسرين، وإذا قويت فاقوَ على طاعة الله، وإذا ضعفت فاضعف عن معصية الله)[6].

وهذا يلتقي تماماً مع نصوص العهد لمالك الأشتر (رض) فهو القائل (عليه السلام) في أحد نصوصه له:

(أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة اهلك، ومن لك هوىً فيه من رعيتك، فانك إلا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدحض حجته، وكان الله حرباً عليه حتى ينزع أو يتوب، وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فان الله يسمع دعوة المظلومين وهو للظالمين بالمرصاد، وليكن أحب

---

١ . م.ن: ٢١٥.
٢ . طالب السنجري: شمائل علي (ع) في القرآن والسنة: ٢٦.
٣ . محمد باقر الحكيم: القدوة الصالحة ودورها في عملية البناء: ٩. وينظر / محمد باقر الصدر: اقتصادنا: ٦٨٥/٢.
٤ . محمد صادق الخرسان: أخلاق الإمام علي (ع): ٧٠.
٥ . السمهودي: جواهر العقدين في فضل الشرفين: ٢٣٤. وينظر / محمد كوزان الآمدي: علي ميزان الحق: ٣٤٠ ٣٤٠
٦ . محمد صادق الخرسان: أخلاق الإمام علي (ع): ٦٠.

الأمور إليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل وأجمعها للرعية فان سخط العامة يجحف برضا الخاصة وان سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة)[1].

ثم يقول الإمام (عليه السلام) في موضع آخر من العهد في دحض عوامل التسلط على العباد وعدم استعمال العنف معهم لأن هذا يضر في خلق مجتمع حرٍّ كريم،انظر إلى الإمام (عليه السلام) ماذا يقول:
(وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكوننَّ عليهم سَبُعاً ضارياً تغتنم أكلهم فأنهم صنفان أما أخ لك في الدين وأما نظير لك في الخلق)[2].

أنها دعوة صريحة من الإمام (عليه السلام) لمالك (رض) في أن يكون مثالياً في تصرفه مع الرعية لتكون على وفق المنهج التربوي السليم الذي يتلقاه من السلطان، لأن السلطان بيده تسييس الأمور، وكما قيل فان الناس على دين ملوكهم، حيث الرحمة والمحبة للناس عنصران أساسيان من عناصر نجاح المجتمع، حيث كان المجتمع الذي عاصر الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) مشروعاً للرحمة والمحبة والتآلف[3].

ولا يفوتنا أن دعوة السلطان إلى نشر المحبة بين الرعية سينتج عنها مجتمعاً متوازناً متكافئاً لأن الخوف وعدم الاستقرار لا يؤدي إلا إلى الانحراف والتمرُّد على ذلك المجتمع وبالتالي سيكون مجتمعاً ينتابه الذعر والتلكؤ نتيجة لهذا الخلط.
ثم يمضي الإمام (عليه السلام) في دعوته مالكاً (رض) إلى ترصين بناء المجتمع على أسسٍ متينة من خلال توجيهه بالاهتمام بالطبقات المحرومة في المجتمع وإزالة الفوارق بين طبقاته حتى لا يشعر الفقير بالعزلة واستعلاء طبقة الأثرياء عليه،وإشعارهم بأنهم طبقة مهمشة، وإذا شعروا كذلك فإنهم سيضعون أقدامهم على ارض هشة وان لا يصار إلى تمييزهم في العمل والنشاط سواء كان ذلك النشاط فكرياً أو جسدياً، وعندئذ سيذوب جميع أفراد المجتمع في بودقة العمل والمثابرة والإبداع وهذا هو هدف الإمام (عليه السلام) في دعوته التي يقول فيها:
(ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزُمنى، فإنّ في هذه الطبقة قانعاً ومعترّاً، وأحفظ لله ما إستحفظك من حقه فيهم، وإجعل لهم قسماً من بيت مالك، وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كلِّ بلد فأن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى وكلٌّ قد استرعيتَ حقَّهُ)[4] وبهذا ينطلق الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) ببصره إلى هؤلاء الذين هم بأمَسِّ الحاجة إلى مد يد العون كي يلحقوا بأقرانهم، فأهل البؤس هم الفقراء والمعوقون، وأهل العلل، والأمراض المزمنة، والقانع هو الفقير الذي يقنع بما يعطى له وتبدو عليه علامات الرضى بما يمنح، كما أن المعتر هو الفقير الذي يسأل المعونة ولا يقنع بما يُعطى له[5].

وهؤلاء هم الذين أشار أليهم القرآن الكريم بقوله:«**فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ**»[6].

وهذا هو التناغم بين قول علي (عليه السلام) وبين القرآن العظيم (فيا أهل القران لستم على شيء حتى تقيموا القرآن،وكان القرآن هو خلق رسولنا صلى الله عليه وسلم)[7].

ويبدو من العهد الذي أوصى به أمير المؤمنين (عليه السلام) مالكاً (رض) بأنه (عليه السلام) هو الذي وضع نظاماً متكاملاً لتنظيم المجتمع الإنساني، لان الإجراء الذي دعا أليه الإمام (عليه

---

١ . الحراني: تحف العقول: ٨٥.
٢ . الحراني: تحف العقول: ٨٥. وينظر / حسين بركة الشامي: البرنامج الأمثل: ١٦٢
٣ . حسين بركة الشامي: البرنامج الامثل: ١٦٢.
٤ . الحرني: تحف العقول: ٩٤.
٥ . حسين بركة الشامي: البرنامج الأمثل: ٢٩٩.
٦ . الحج / ٣٦.
٧ . احمد طالب الإبراهيمي: حوار الحضرات: ١٢٠.

السلام)سيمنح الطبقات المحرومة منهم حرية التحرُّك بين فئات المجتمع بعد أن يزول العامل المادي وينتقل الفرد من صومعة الانزواء والتهميش، وعندئذ ستكون(أحد الشعارات الرئيسية المطروحة سياسياً في مجتمعنا الإسلامي هو شعار الحرية)[1].

وإذا استطاعت هذه الشرائح أن تذوب بين طبقات المجتمع الأخرى يبدأ الإصلاح يدب في جسم ذلك المجتمع ويحوله إلى آلة ضخمة بعد أن كانت ركاماً من التركات المريضة الموبوئة، ومن هنا تتضح أهمية التنظير الاجتماعي الذي صاغه الإمام (عليه السلام) في هذا العهد. أنها الحرية بمعناها الحقيقي لهذه المجموعة الكبيرة من مجتمعنا أنها (حرية الإنسان في البحث عن الحقيقة بالطريقة التي يعتقد أنها توصله إلى هذه الحقيقة، حرية الإنسان من عبودية التقاليد والخرافات التي تكبل الفكر، وحريته السياسية والروحية التي يتحكم بها أصحاب المصالح الخصوصية والجزئية، وحريته من عبودية الجماعة التي لا تسامح ولا تغفر عدم التمشي معها في المعتقدات والآراء)[2].

وبهذه الثقة التي طرحتها نصوص العهد في نفوس الذين دعا الإمام (عليه السلام) إلى احتوائهم وإنقاذهم من ألحضيض لبناء المجتمعات السامية لأنهم يشكلون النسب الكبرى من المجتمع، قد عرفوا قيمتهم حينما أدركتهم رحمة الإسلام الذي دعا إليها الإمام (عليه السلام) (فإذا عرف المرء قيمة نفسه، وعرف انه فوق هذه الأمور المادية المؤقتة، استطاع أن يخطو خطوة كبرى نحو النمو والسمو)[3].

لقد قعّد الإمام (عليه السلام) قواعد الإنصاف والعدل بين المجتمعات ونظّر قوانين المساواة بين الناس، فأنصف وانتصف، أنظر إلى قوله (عليه السلام) لمالك الأشتر (رض):
«انصف الله وانصف الناس من نفسك ومن خاصتك ومن اهلك ومن لك فيه هوىً من رعيتك، فإنّك إن لا تفعل تظلم ومن ظلم عباد الله كان خصمه دون عباده ومن خاصَمه أدحض حجّته وكان لله حرباً حتى ينزع ويتوب، وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة من إقامة على ظلم، فان الله يسمع دعوة المظلومين وهو للظالمين بالمرصاد، ومن يكن كذلك فهو رهين هلاك في الدنيا والآخرة»[4].

وبهذه العبارات التي ما هي إلا زلزالٌ على واقع الفساد والذي يحث الإمام علي (عليه السلام) واليه على متابعة شؤون رعيته من خلال الإحسان بهم، والإحسان المقصود هنا هو الذي يرتكز عليه صلاح المجتمع والعامل على إيجاد الثقة الاجتماعية بين الراعي والرعية[5].

ويرى علماء الاجتماع أن ذوي القلوب الرقيقة والعواطف الشريفة السامية يحاولون أن يخففوا الويلات والآلام والبؤس عن الطبقات التعيسة الشقية ويعالجوهم بتقديم الإحسان إليهم، ولما كانت الثقة الاجتماعية بين الراعي والرعية هي روح صلاح المجتمع فقد أوصى (عليه السلام) عامله بعمل الإحسان إلى الناس وتخفيف المؤونات عليهم وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم[6].

وبهذا النص من قول سيد البلغاء والمتكلمين (عليه السلام) يتضح لنا جلياً بأنه وارث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وحامل علومه، ويرى الإمام (عليه السلام) بأن وظيفته بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هي هداية الأمة من بعده وبنائها وتثقيفها الثقافة الصحيحة الرشيدة.[7]

---

١ . محمد باقر الحكيم: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ١٩.
٢ . جورج عطية: من حضارتنا: ٥١.
٣ . محمد تقي المدرسي: في رحاب القرآن: ٦٦.
٤ . الحراني: تحف العقول: ٨٥.
٥ . توفيق الفكيكي: الراعي والرعية: ٨٣.
٦ . م.ن: ٨٤ وما بعدها.
٧ . محمد سعيد الحكيم: في رحاب العقيدة: ١٢٨/٢.

وإذا تم هذا فأن المجتمع سيمكّن نفسه من أداء رسالته في أعمار الأرض وإصلاحها، وسيبني الحضارة الإنسانية، وينمّي الحياة بالعلم والعمل والعمران، فالإنسان هو أداة بناء الحضارات وقد خُلق على هذه الأرض ليجسد إرادة الله وصنع عالم الخير والنعيم عليها[1]، لان الله سبحانه هو الذي استخلف الإنسان لعمارة الأرض ليمارس مهمة الانتفاع بخيراتها وثرواتها بتفويض منه[2].

وهنالك إشارات كثيرة في العهد الذي وجهه الإمام (عليه السلام) تدلل على المبنائية الصحيحة للدعوة الصريحة من قبله إلى التصدي لبناء مجتمع أمثل تتظافر فيه الجهود لخلق أفراد صلحاء تتحقق من خلالهم سعادة المجتمعات التي دعا إليها الله سبحانه وتعالى... حيث لا مجال في هذا البحث إلى مناقشة كل الإشارات الحاثة فيه ــ في العهد ــ لصناعة مثل هذه المجتمعات وقد اكتفينا بنصوص متواضعة منه بالقدر الذي يتطلبه حجم هذا البحث... آملين أن نقوم بتوسعته أن شاء الله.

المحور الثاني: شذرات من عدالة الإمام علي (عليه السلام) في عهده لمالك الأشتر(رض):

١- شذرات من نصوص العهد في إقامة العدالة بين المجتمع:

إحتوت كثير من النصوص التي تضمنها العهد على إشارات صريحة في حث مالك (رض) على اقتفاء أساليب العدالة وإقصاء سياسة الجور والحرمان والاتعاظ بالأمم السالفة وما ترتب على الظلمة والمتجبرين منهم من خسران وهلاك، والقرآن الكريم خير شاهد على سرد هذه القصص التي ذكّر بها رسولهُ وأشرف خلقه النبي الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) ليعتبر منها ويتخذها منهجاً لمسيرته الإنسانية العادلة. ان لفتةً بسيطة إلى قول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) بهذا الصدد كافية في احتواء معاني العدالة واستحضارها لدى الحاكم فهو يقول (عليه السلام) في أحد نصوص عهده لمالك الأشتر (رض):

«ثم إعلم يا مالك إني وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها قبلك من عدل وجور وإن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم، وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسُن عِبادهِ، فليكن أحبَّ الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح بالقصد فيما تجمع وما ترعى به رعيتك، فاملُك هواك وشُح بنفسك عما لا يحل لك، فإنّ الشُح بالنفس الإنصاف منها فيما أحببت وكرهت»[3].

فلم يكن الإمام (عليه السلام) بطلاً في سوح الوغى فحسب «بل هو بطل الدعوة والهداية وحامل رايتها، انه علياً ببيانه ولسانه وقدرته وأسلوبه قادراً على أنْ يحبب الناس بالإسلام، وقادر أن يدخلهم فيه عن إيمان وطواعية»[4].

ثم ينظر الإمام (عليه السلام) بمقطع من نصوص هذا العهد إلى إنصاف المظلوم وإستعمال ألعدل في الانتصار له بقوله:

«ثم أنظر في أمر الأحكام بين الناس بنية صالحة فان الحكم في إنصاف المظلوم من الظالم والأخذ للضعيف من القوي وإقامة حدود الله على سنتها ومنهاجها مما يصلح عباد الله وبلاده... فان الاختلاف في الحكم إضاعة للعدل وغرة في الدين وسبب من الفرقة»[5].

---

١ . مؤسسة البلاغ: الإسلام دين البشرية: ١٩٨.
٢ . فاضل الحسب: في الفكر الاقتصادي العربي الإسلامي: ١٧.
٣ . الحراني: تحف العقول: ٨٤ .
٤ . عباس علي الموسوي: علي بين الكتاب والسنة: ٣٢.
٥ . الحراني: تحف العقول: ٩٠ وما بعدها.

ثم يدعو الإمام (عليه السلام) مالكاً في هذا العهد إلى الرجوع إلى القرآن الكريم في نشر العدل والاستعانة بنصوصه والاعتصام بمضامينه، فإنه الدواء في معرفة الداء كما دعاه إلى الاقتفاء بمضامين السنُّة النبوية المشرَّفة وإتّباع ما قرّره أئمة الهدى (عليهم السلام) بهذا النهج إذ يقول:
«ثم تصفح تلك الأحكام فما وافق كتاب الله وسنة نبيه والأثر من إمامك فأمضه واحملهم عليه»[١].

ودعاه أيضاً إلى الالتجاء إلى معرفة العدل إلى ذوي العلم إن اشتبهت عليه الأمور واختلطت لديه معرفتها بعد الاستعانة بالله إذ يقول (عليه السلام) بصدد ذلك:
«وما إشتبه عليك فاجمع الفقهاء بحضرتك فناظرهم فيه ثم إمضي ما يجتمع عليه أقاويل الفقهاء بحضرتك من المسلمين، فان كل أمر إخْتَلف فيه الرعية مردود إلى حكم الإمام وعلى الإمام ألاستعانة بالله والاجتهاد في أقامة الحدود وجبر الرعية على أمره ولا قوة إلا بالله»[٢].

ودعا (عليه السلام) في بعض بنود العهد إلى العدل من خلال محاربة (الاحتكار) وإعتباره أداة لبخس حقوق الفقراء لان الاحتكار سيمنع الفقراء حتماً من استحصال أساليب معيشتهم بيسر وأمان فهو القائل (عليه السلام):
«وإمنع ألاحتكار فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نهى عنه وليكن البيع والشراء بيعاً سمحاً بموازين عدل وأسعار لا تُجْحف بالفريقين من البائع والمبتاع»[٣].

ويصرِّح الإمام (عليه السلام) بهذا النص من العهد بوصيته لمالك (رض) ان يكون عوناً للفقراء بقوله:
«ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذي لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين وذوي البؤس والزمنى..... فان هؤلاء أحوج إلى الإنصاف من غيرهم»[٤].

ورُبّ إيمائة في بعض نصوص العهد لها من الأهمية القصوى في الدعوة إلى ألعدل والتي تحتاج إلى انتباهة وتمحيص، إن الإمام (عليه السلام) قد دعا مالكاً إلى أن يعدل بأدق أمر من أمور العبادات وهي الصلاة التي استشهد (عليه السلام) بما قاله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بصددها، وبما أقرّه (صلى الله عليه وآله وسلم) بإن يراعي الإمام من يؤمهم في صلاته بقوله:
فإذا قمت في صلاتك بالناس فلا تُطوّلنّ ولا تكونَنَّ منفّراً ولا مضيّعاً فإنّ في الناس من به العلة وله الحاجة، وقد سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حين وجّهني إلى اليمن: كيف أصَلّي بهم ؟ فقال: «صلِّ بهم كصلاة أضعفهم وكن بالمؤمنين رحيما»[٥].

أقول: إن وصية الإمام (عليه السلام) لمالك (رض) بهذا الصدد يقتضي الانتباه إليها ملياً، حيث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يريد إقامة العدل والنظر إلى عون المحتاج حتى بأشرف أنواع العبادات وهي الصلاة، حيث طلب من الإمام (عليه السلام) حينما بعثه إلى اليمن ان يصلي بالناس صلاة أضعفهم وان لا يطيل عليهم بصلاته حتى لا تنفر الناس من أشرف أنواع العبادات.. إنها دعوة إلى الاهتمام بتطبيق العدالة والنظر إلى أسسها بأدق الأمور.
لقد «ذهب الإمام إلى تثبيت العدل الاجتماعي في سياسته المالية، فقريش كسواها من العرب، والمهاجرون كالأنصار، والمضريون كاليمانيين، والأوس كالخزرج، والعرب كالموالي وهكذا، وما استمع إلى دُعاة التمييز بين المسلمين في شيء»[٦].

---

١ . م.ن: ٩١.
٢ . م.ن: ٩١.
٣ . الحراني: تحف العقول : ٩٤.
٤ . م.ن: ٩٤.
٥ . م.ن: ٩٦.
٦ . محمد حسين الصغير: الإمام علي (ع) سيرته وقيادته: ٣١٨.

نعم.. لقد أفاض عليه ابن عمه (صلى الله عليه وآله وسلم) مما أوحى الله أليه، ثم ورث الأئمة من أبيهم الإمام علي (عليه السلام) ذلك واحداً بعد الأخر[١] «وكان مما مَنَّ الله به على أمير المؤمنين في دلائله، وإختصّه بفضائله، ومنحه من ألكرامة، والحياء وشرَّفه بسوابق الزُّلفى، إنه كان في حجر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل مبعثه، يغذوه بما يغذو به نفسه»[٢].

وهذا يدل قطعاً على إن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) كان امتداداً لعدل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فمنه إرتشف علومه، ومنه إستمد معاني الإنسانية وأسس العدل وأساليب القضاء، فقد دفع الظلم ورفعه عن كاهل الأفراد والجماعات بعد ان وجد
المجتمع يعجّ بطبقية واسعة ذات إمتيازات إجتماعية معروفة، كما يعجّ بعوامل إنتشار الفقر والفاقة إلى طبقاته»[٣].

ويبدو أن ما دَلّ عليه مصنفو معاني العدالة ومشروعها في عصرنا الحالي لم تعد سوى حروف على ورق قياساً بما رسّخَه أمير المؤمنين (عليه السلام) من عناوين لمعاني العدالة بحقها وحقيقتها، فهو المشرع والمؤصّل والمنظّر الأصيل لأسسها بالمعنى الصحيح بدون لبس ولا تزويق، ولو أن البشرية سارت على وفق منهج الإمام (عليه السلام) في هذا التنظير لما إحتيج إلى مثل ما يسمى بمنظمات العدل وهيئات العمل وما إلى ذلك، إنّ دُسْتوره (عليه السلام) في العدل يصلح أن يكون ورقة عمل عالية المضامين في مصداقية المعاني الإنسانية الحقة للأكثر من أربعة عشر قرناً خلت.
إننا لا نريد من أقوال علي (عليه السلام) في العدالة أن نجعل منها مجرد شعارات نقولها وإنما نريد أن نقترب من شخص علي (عليه السلام) باعتباره إنساناً بنى صرحاً لدقائق معاناة الإنسان واعتباره إنموذجاً متميزاً في البشرية يحمل إسم (علي)، وينبغي علينا أن ندرس عدله وقضاياه تحت أضواء علم النفس والفلسفة الحديثة. ونركّز عليها أكثر لتكون أساساً لعلم دراسة الإنسان[٤]، الإنسان[٤]، لإن هنالك الكثير من المفاهيم المشتركة بين ما ورد في نهج البلاغة، وما يقابله من مضامين في علم النفس الحديث[٥].
وبذلك تكون عدالة علي كالبصيص الذي رأته العيون الشاخصة من خلال رؤية المحرومين أليه بعد ان انتشرت سياسة الغاب في ذلك المجتمع ومزّقته،فكانت أبصار هؤلاء شاخصة إلى الأفق لعلها تدرك طريقاً نحو شيء إسمه (العدل) يرتفع به سوط الجلادين والظلمة.
لقد بدأت العدالة بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وانتهت بعلي (عليه السلام) فقد إختفت آمال العدل وأقفلت أبوابها بعدهما، ولكن أقوال علي (عليه السلام) وأفعاله بصددها ظلت تدوّي في الأسماع وظلّت (بخبخة الشيخين) يسمعها القاصي والداني لمن أراد أن يتصور من بعيد مصداقية أبهى الصور وأجلاها لمعاني الإنسانية والسمو والرفعة والشرف.

٢- تطبيقات من عدالته في القضاء:

تعددت المصادر في نقل مناقب الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وتطابقت الأخبار والروايات ومُلأت الدنيا، بمضامين عدله (عليه السلام) بخصوص نهجه الإنساني المعتدل، حتى ضُربت به الأمثال بهذا الصدد، فلقد كان أميراً للإنسانية بصدق،وبانياً لأسس المجد والعدالة، ومهندساً لرص الصفوف بين شرائح المجتمعات، ويحق للشاعر ان يتمجّد به حينما يقول:

على قدس مجدك تهفو النفوس وتعشق ذكرك أزمـــــــانها

---

١ . مرتضى العسكري: ولاية الإمام علي (ع) في الكتاب والسنة: ٤٦.
٢ . المسعودي: إثبات الوصية: ١٣٤.
٣ . محمد تقي الحكيم: مع الإمام علي (ع) في منهجيته ومنهجه: ٤٣.
٤ . علي شريعتي: الإمام علي في محنه الثلاث: ١٠.
٥ . هاشم حسين المحنك: علم النفس في نهج البلاغة: ١٨٢.

ولـحت على العين فــاستبشرت بك العين إذأنت إنســانها[1]

لذلك بقى صدى علي (عليه السلام) يلوح في أفق الدنيا تدركه الأنظار من بعيد ويومئ إلى شخصه لا إلى أحد غيره، انه العادل في البرية، والحاكم بالرعية، والقاسم بالسوية، وعلينا أن نستذكر شذرات من عدله الذي لولاه لزُهقت الأرواح والنفوس فيما لو حكم بشؤونهم غيره لأنهم لا يرعوون إلى الحق، ولا يعرفون طريقاً للعدل كيف يُسلك، فطريق علي عبّدته السماء، ورسمت له الرسالة النبوية أبهى وأجلى صورة لأتباعه[2] لذلك نرى أن نستذكر بعض هذه الشذرات:

ولرُبّ سائل يقول أن هذه الشذرات ليست لها علاقة بباب العهد الذي عهد به الإمام (عليه السلام) لمالك الأشتر (رض)، فنقول له أنها تصب في التطبيق الأصيل لأقواله (عليه السلام) التي أوصى بها مالكاً (رض) وبين هذه الشذرات ونصوص العهد علاقة لا تنفك أبداً، فهي – أي الشذرات – الأساس الرصين لتطبيق ما قاله (عليه السلام) في العهد من عدل وأتباع للحق.

١- قصة المرأة التي وضعت لستة أشهر:

لقد أفتى الإمام ببرائتها، في حين أفتى غيره باتهامها بالزنا أعوذ بالله، وقد إستدل الإمام (عليه السلام) بتلك البراءة وفقاً لما ورد بكتاب الله العزيز في قوله تعالى «**وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً**»[3].

وفي موضع آخر من القرآن الكريم،بقوله جل وعلا: «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ»[4].

وعليه يكون بناءً على ما ورد في الآيتين الكريمتين، أربع وعشرون شهراً رضاعة وستة أشهر حمل فيكون المجموع ثلاثون شهراً وهو المطلوب إستنتاجه في الحكم ببرائتها، وهذا لا يَسْتدل عليه كائناً من يكن، وإنما لا يعرفه إلا من كان عارفاً بلغة كتاب الله وقرينه الذي لا يفترق عنه. ولولا ما قضى به الإمام (عليه السلام) لأدّى الأمر إلى قتل هذه المرأة البريئة خصوصاً وإنّ المجتمع يعيش حالة من التعسف بحقوق المرأة واستغلالها آنذاك[5].

٢- حكمه في الولد الذي أراد الزواج بأمه:

حكم أمير المؤمنين (عليه السلام) عدلاً في الولد الذي دعى على أمه وهو يقول: يا أحكم الحاكمين إحكم بيني وبين أمي فسمعه الخليفة الثاني فبحث في قضيته، فقال له الولد إنها أُمي تبرئت مني وطردتني ونفت إن أكون ولدها. فأرسل عمر على أمه فقالت يا أمير المؤمنين: أنا امرأة من قريش وإني بخاتم ربيء[6] وأقسمت بالله وكل شيء إنها كذلك فبعث عمر بالولد إلى السجن لحين بيان الأمر. وأثناء طريقه إلى السجن رآى أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال له يا أمير المؤمنين غلام مظلوم، فسأله الإمام (عليه السلام) فقال: إنّ قصتي كذا وكذا وأمر بي عمر إلى السجن، فرده الإمام (عليه السلام) إلى عمر مرة أخرى. وطلب الإمام (عليه السلام) من عمر أن يحكم فيها، فقال له عمر سبحان الله وكيف لا وقد سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: أعلمكم علي، فقال الإمام (عليه السلام): والله لأقضين بها بما علمني به حبيبي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقال لها الإمام (عليه السلام): ألك ولي ؟ فقالت: نعم يا أمير المؤمنين، إخوتي، فقال: لإخوتها فهل حكمي في أختكم جايز، فقالوا: نعم يا أمير المؤمنين، فقال لها: هل لديك شهود ؟ فقالت: نعم يا أمير المؤمنين هؤلاء أربعين شاهداً. فشهدوا لها. فقال

---

١ . محمد حسين الصغير: الإمام علي (ع) سيرته وقيادته: ٣٥٩.
٢ . عباس علي الموسوي: الإمام علي منتهى الكمال البشري: ١٤٩.
٣ . الأحقاف / ١٥.
٤ . البقرة / ٢٣٣.
٥ . محمد تقي التستري: قضاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: ٣٩.
٦ . بيان معنى عبارة.

علي (عليه السلام): أُشهد الله وأُشهد من حضر من المسلمين إني قد زوّجت هذا الغلام من هذه الجارية بأربعمائة درهم والنقد من مالي، يا قنبر عليَّ بالدراهم، فأتاه قنبر بها فصبّها في يد الغلام، وقال ضعها في حِجر زوجتك ولا تأتني إلا وبك أثر العرس[1] فقام الغلام ففعل، وتلبّبها وأمرها بان تقوم معه، فنادت المرأة يا أمير المؤمنين، النار النار، يا ابن عم محمدٍ أتريد أن تزوِّجني ولدي، فهذا ولدي والله !! زوّجني إخوتي هجيناً فولدت منه هذا الغلام فلما شبَّ أمروني أن أتركه وأتبرّأ منه وأطرده فهو والله ولدي وقلبي يتقلى أسفاً على تركه، ثم أرجع الإمام الولد إلى أمه، وقال عمر: واعُمِراه لولا علي لهلك عمر[2].

أقول: لولا تصدّي الإمام علي (عليه السلام) للقضاء لمثل هذه الأمور لإرتكب الناس الفواحش من فوقهم وتحتهم ويمينهم وشمالهم، ولغرق المجتمع بأوحال الجريمة والجاهلية والشذوذ، ولتهرّأت القيم الأخلاقية لمطامع الضعفاء والظالمين، الذين لا يخافون الله ولا يؤمنون به ولا باليوم الآخر،لقد جلّلت عدالته الدنيا، وأضاءت أفكاره الظلمات، وعدالته جزء من مناقبه، لأن مناقبه لا يمكن ان تُحتوى، فهو رحمة من الله تجلّت فوق رؤوس العباد وبه إزدهرت السماوات والأرضين، نوَّر الدياجي بضيائه وعجزت الألسن عن كنه معرفته[3].

٣- حكمه في المرأة التي أتهمت رجلاً تهواه بأنّه زنى بها:

حكم أمير المؤمنين (عليه السلام) عدلاً بما لا يتصوره العقل آنذاك، ولم يستطع غيره من التدبُّر في أمر كهذا، وذلك لأنه ربيب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تربيةً وخلقاً وعدلاً ومنطقاً، فهذه امرأة تحب أحد الأنصار وتهواه ولم تقدر له على حيلة لجلبه، فاصطنعت حيلة لذلك فأخذت بيضة وأخرجت صفارها وصبّت البياض عل ثيابها وبين فخذيها، وجاءت إلى عمر، فقالت: يا أمير المؤمنين ان هذا الرجل قد أخذني في موضع كذا وكذا ففضحني، فهمَّ عمر أن يسارع إلى معاقبة الأنصاري، فجعل الأنصاري يُقسم، وأمير المؤمنين (عليه السلام) جالس وهو يقول لعمر: يا أمير المؤمنين تثبّت في أمري[4]، فقام عمر، وقال لعلي (عليه السلام): يا أبا الحسن ما ترى؟ فقال (عليه السلام) أئتوني بماء حار قد غلا غلياناً شديداً، فأتي به فأمرهم أن يصبوا الماء على موضع البياض في الثياب فاشتوى ذلك البياض، فأخذه أمير المؤمنين (عليه السلام) ووضعه في فيه، فلما عرف طعمه ألقاه من فيه، ثم أقبل على المرأة فاعترفت بجرمها وحيلتها، ودفع الله عن الرجل العقوبة التي رآها عمر[5].

أقول: أن الحكم بالحق من قبل الإمام (عليه السلام) والمنبعث من عدالته التي شهدت لها الدنيا، ولم يختلف في صدقها أهل العقل والشرفاء كفيلة بأن توفر إلى المجتمع الذي تكثر فيه مثل هذه الانحرافات الاستقرار والطمأنينة، لان تكرار الأخطاء من قبل المفسدين سيترك أثراً سلبياً لوصول المجتمع إلى إقتراف الرذائل وبالتالي تهرؤ المجتمع ونكوصه ووصوله إلى حافة الهاوية.

خلاصة البحث:

إن كثرة الدراسات وتكثيف البحوث الأكاديمية والإسلامية حول الحقول الفكرية الأصيلة من المؤكد إن تساهم مساهمة غير عادية في خدمة المنظومة الفكرية الإسلامية، لأن البحث بمثل هذه المواضيع الثرية بأصالتها إنما تعتبر أساساً للفكر الإنساني المعاصر والمستقبلي.

---

١ . بيان معنى عبارة.
٢ . محمد تقي التستري: قضاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: ١٠.
٣ . صالح القريشي: الشيخ المامقاني ومنهجه: ١٥٠.
٤ . بيان معنى عبارة.
٥ . محمد تقي التستري: قضاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع): ١٤.

و «عهد الإمام علي (عليه السلام) إلى مالك الأشتر (رض)» هو أحدُ هذه المنابع الفكرية العالية المضامين في الفكر الإنساني – وإنما أقول الفكر الإنساني وليس الإسلامي – لأنه – أي العهد – يعد ترسانة كبرى في التنظيرات الإنسانية في عالم الحضارة والشموخ والثراء والتقدم وعلى كافة الأصعدة، وأقول، وعلى وجه التأكيد بل القطع بان العالم بأسره لو إتّبع العمل بمفاصل هذا العهد لاستغنى جملة وتفصيلاً عما يُختلق في عصرنا الحاضر من نظم ومنظمات تّدعي بأنها تساهم في نشر العدالة والمساواة، ومهما تكن فإنها عيالٌ على أبسط نصوص وتضمينات هذا العهد الذي عهد به الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) إلى مالك الأشتر (رض).

انه لم يكن لمالك الأشتر (رض) فحسب، بل هو رسالة إنسانية عظيمة المناحي وعلى كافة الأصعدة سواء كانت إجتماعية أم عسكرية أم اقتصادية أم تربوية أم أخلاقية أم فكرية، وإنها تعمل على وقت غير محدود، بل أن العمل بها سارياً والكل بحاجة إليها، ولو طرَحَتْها المجتمعات عرض الحائط لتبوّئت أحطّ مراتب القيم ولتأخر ركب الحضارة للمجتمع الذي ينظر بعين واحدة إليها.

فهي دعوة إذن للإنسان أينما عاش، وأي دين اعتنق، وأي طريق مشى،في أن يقتفي مضامينه، فانه لوحة إنسانية اجتماعية رائعة ودستور تنظيمي فكري عظيم، ينظم العلاقات الاجتماعية والدولية لأي صنف أو نموذج من المجتمعات، بل نرى إن الحاجة إليه في الوقت الحاضر أكثر مما قامت عليه المجتمعات سابقاً، وذلك لحاجة الأمم إلى بعضها خصوصاً في وقت تلاقح الحضارات وحاجة الضعيف إلى القوي، والقوي إلى الضعيف على حد سواء، وبتطبيق مفاصل ونصوص هذا العهد سيجد الإنسان نفسه قوياً قادراً متمكناً وسيذوب في مجتمع راقٍ سليم من العاهات والتشوه والانحراف.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. الدكتور احمد طالب الإبراهيمي الإسلام والغرب ــ صراع في زمن العولمة ــ حوار الحضارات ــ منشورات مجلة العربي: الطبعة الأولى: الكويت ــ الصفاة: ٢٠٠٢م.

٢. بولس سلامة ملحمة عيد الغدير: مطبعة النسر: بيروت – لبنان: ١٩٤٩ م

٣. الدكتور توفيق الفكيكي الراعي والرعية المثل الأعلى للحكم الديمقراطي في الإسلام: مطبعة الغري: النجف الأشرف – العراق: ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م

٤. جورج عطية من حضارتنا: قدم له الدكتور خليل الجر: منشورات دار النشر للجامعيين: بيروت – لبنان: ١٩٥٦م.

٥. الحراني (أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة – من أعلام القرن الرابع الهجري تحف العقول عن آل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): منشورات المكتبة الحيدرية: الطبعة الرابعة: النجف الأشرف – العراق: ١٩٧٩م

٦. حسين بركة الشامي البرنامج الأمثل لإدارة الدولة وقيادة المجتمع في عهد الإمام علي (عليه السلام) لمالك الأشتر: منشورات دار السلام: الطبعة الثانية: بغداد – العراق: ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٧. حسين الشاكري من سيرة العظماء – الإمام علي (عليه السلام) منشورات المؤسسة الإسلامية للتبليغ والإرشاد: الطبعة الأولى: قم – إيران: ١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠١م.

٨. روح الله الخميني التربية والمجتمع: منشورات مؤسسة الإمام الخميني للثقافة والفن والدراسات: الطبعة الأولى: طهران – إيران (بدون سنة)

٩. السمهودي (نور الدين علي بن عبد الله ت٩١١هـ) جواهر العقدين في فضل الشرفين – شرف العلم الجلي والنسب النبوي –: منشورات دار الكتب العلمية: الطبعة الأولى: بيروت – لبنان: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١٠. الدكتور صالح القريشي (الشيخ المامقاني ومنهجه في كتاب تنقيح المقال في علم الرجال: (أطروحة دكتوراه ثانية) في جامعة الكوفة: ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
١١. طالب السنجري شمائل علي (عليه السلام) في القرآن والسنة: منشورات مجمع البحوث الإسلامية: الطبعة الأولى: بيروت – لبنان: ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
١٢. عباس علي الموسوي علي بين الكتاب والسنة: منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات: الطبعة الأولى: بيروت – لبنان: ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
١٣. الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) رسالة الحقوق: الطبعة الأولى: بغداد – العراق: ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
١٤. الدكتور علي شريعتي الإمام علي في محنه الثلاث – محنة التاريخ، محنة التشيع، محنة الإنسان –: منشورات دار الأمير: الطبعة الأولى: بيروت – لبنان: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠١م.
١٥. الدكتور فاضل الحسب في الفكر الاقتصادي العربي الإسلامي: منشورات الدار العربية للطباعة: الطبعة الأولى: بغداد – العراق: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
١٦. محمد باقر الحكيم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: منشورات مؤسسة تراث الشهيد الحكيم: الطبعة الأولى: النجف الأشرف – العراق: ٢٠٠٥م.
١٧. المؤلف نفسه القدوة الصالحة ودورها في عملية البناء: منشورات مؤسسة الإمام الحسين (عليه السلام) للطباعة والنشر: الطبعة الأولى: النجف الأشرف – العراق: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
١٨. محمد باقر الصدر اقتصادنا (جزآن):منشورات مؤسسة بقية الله للعلوم الإسلامية:الطبعة الأولى:النجف الأشرف ـ العراق: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
١٩. الدكتور محمد بحر العلوم المشكلة التربوية واهم ملامح حلولها من وجهة النظر الإسلامية: منشورات دار الزهراء للطباعة والنشر: الطبعة الأولى: بيروت – لبنان: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٢٠. محمد تقي التستري قضاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): منشورات أهل الذكر للطباعة: الطبعة الأولى: مطبعة الشريعة: ١٤٢٦هـ.
٢١. محمد تقي الحكيم مع الإمام علي في منهجيته ونهجه: منشورات المؤسسة الدولية للدراسات والنشر: الطبعة الأولى: بيروت – لبنان: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
٢٢. محمد تقي المدرسي في رحاب القرآن: منشورات دار محبي الحسين (عليه السلام): الطبعة الثانية: كربلاء – العراق: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٢٣. الدكتور محمد حسين الصغير الإمام علي (عليه السلام) سيرته وقيادته – في ضوء المنهج التحليلي – منشورات مؤسسة المعارف للمطبوعات: الطبعة الأولى: بيروت – لبنان: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٤م.
٢٤. محمد الحسيني الشيرازي احترام الإنسان في الإسلام: منشورات مؤسسة المجتبى للتحقيق والنشر: الطبعة الأولى: بيروت – لبنان: ١٤٢٦هـ -٢٠٠٥م.
٢٥. محمد سعيد الحكيم في رحاب العقيدة: منشورات مؤسسة المرشد للطباعة والنشر والتوزيع: الطبعة الثانية: بيروت – لبنان: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٢٦. محمد صادق الخرسان أخلاق الإمام علي (عليه السلام): منشورات دار المرتضى: الطبعة الأولى: بيروت – لبنان: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
٢٧. محمد كوزان الآمدي علي ميزان الحق: منشورات المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام): الطبعة الثانية: ١٤٢٨هـ.
٢٨. مرتضى العسكري ولاية علي (عليه السلام) في الكتاب والسنة: منشورات كلية أصول الدين: الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
٢٩. المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي الهذلي ت ٣٤٦هـ) إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب: منشورات مؤسسة أنصاريان للنشر: الطبعة الثالثة: طهران – إيران: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.

٣٠. مصطفى عباس الموسوي الإمام علي (عليه السلام) منتهى الكمال البشري: منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات: الطبعة الأولى: بيروت – لبنان: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٣١. مؤسسة البلاغ الإسلام دين البشرية: (بدون طبعة ومطبعة وسنة طبع)
٣٢. مؤسسة البلاغ المعالم الأساسية للمنهج التربوي في الإسلام: (بدون طبعة ومطبعة وسنة طبع)
٣٣. هاشم حسين ناصر المحنك علم النفس في نهج البلاغة: منشورات دار أنباء للطباعة والنشر: الطبعة الثالثة: النجف الأشرف – العراق: ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

الوعظ التاريخي في خطب نهج البلاغة

المدرس الدكتور: علاء جبر الموسوي الجامعة المستنصرية - كليةالآداب

«ما أكثر العبر واقل المعتبر»

مدخل:

إنّ الإنسان بطبعه اجتماعي الميل يتفاعل مع محيطه وتغيير به، ويمكن أن يتأثر به سلباً أو إيجاباً، والموعظة الحسنة تشكّل عاملاً خارجياً يأخذ بيد الإنسان ليساعده على تخطي فتن الدنيا و شبهاتها، وتتأكد ضرورتها عند غفلة الإنسان وخمود أو خمول الواعظ الداخلي فيه، حيث يصبح لها الدور الأساس في النجاة.: **(لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)** كما نقل القرآن الكريم عن لسانهم.

وقد أكد القرآن الكريم على أسلوب الموعظة فقال: **(ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)**.

فعليك أن تمارسها كأسلوب من أساليب الدعوة إلى الله تعالى وهي نافعة ومفيدة، إذ تفتح أبواب هداية المؤمنين: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ)**.

إن الموعظة تؤثر أثرها في المؤمن بشكل خاص، لأنه يستحضر الالتزام الشرعي في أموره، وقد تغيب عنه بعض التفاصيل، أويدفعه هو اه بالاتجاه الخاطئ، فيكون دورها دور المنبه للضمير المذكر بالمسؤولية الشرعية والرقابة الإلهية.**(وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)**.

إنّ الإسلام دين يخاطب العقل والوجدان، ولا يهمل شيئاً من الجوانب الإنسانية على حساب جوانب أخرى. ولكل من العقل والوجدان أساليب تناسبه وتنفذ إليه. فالدليل والبرهان والمقارنة أساليب تخاطب العقل بقصد تأهيله إلى إدراك المعارف الموصلة إلى اللّه.

وما القصص القرآني النوراني، أو النبوي المبارك ؛ إلا وسيلة من وسائل التربية لكل الأمة، ليس المقصود منها سرد القصص وتدوين التاريخ بقدر ما تكون «العبرة» والإتعاظ هي الخطوة الأولى التي يجب أن تكون في وجدان المتلقي، حتى تكون نافعة له، **(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ)**[1].

وإنّ للزمان والمكان له أهمية خاصة تستدعي رعايتها، وقد روي عن أمير المؤمنين أنه قال: «ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه».

وكان الإمام علي (عليه السلام) كثيراً ما ينتهز المناسبة لمن يريد وعظهم وإرشادهم، لتكون أبلغ في التأثير، وأفضل للفهم والمعرفة. وكمثال على ذلك فإنه لما رجع الإمام علي (عليه السلام) من صفين وأشرف على القبور قال: «يا أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة، والقبور المظلمة، يا أهل التربة، يا أهل الغربة، ويا أهل الوحشة، أنتم لنا فرط سابق، ونحن لكم تبع لاحق، أما الدور فقد سكنت، وأما الأزواج فقد نكحت، وأما الأموال فقد قسمت، هذا خبر ما عندنا، فما خبر ما عندكم؟».

فالإمام (عليه السلام) وهو عند القبور، أخذ في وعظ أصحابه وبيّن لهم أحوال أصحابها وخلُص إلى أن خير الزاد التقوى، ومثل هذا الكثير حيث كثر الوعظ المستوحى من تاريخ الأمم السابقة ليكون هذا الوعظ مكملا للروحانية التي بثها الإمام في خطبه في نهج البلاغة.

---

١ . يوسف، الآيه، ١١٠.

الإنسان والتاريخ:

التأريخ مرآة الأمم، مقولة شائعة فهي الأدات التي بوساطتها يستطيع الإنسان أن يرى كيف عاش الذي قبله، لما لهذا الأمر من أثر كبير في الحاضر ومنه تنطلق الأمم نحو مستقبلها، الأمر الذي دعا الأمم إلى الإعتناء والاهتمام به، ونقله إلى الأجيال نقلاً صحيحاً، بحيث يكون طريقا صوب حاضرهم ومستقبلهم. فالشعوب التي لا تاريخ لها، لا وجود لها، ونظراً لأهمية التاريخ في حياة الأمم، فقد لجأ أعداء هذه الأمة -فيما ذهبوا إليه- إلى تاريخ هذه الأمة، لتفريق جمعها، وتشتيت أمرها، وتهوين شأنها، فأدخلوا فيه ما أفسد كثيراً من الحقائق، وقلب كثيراً من الوقائع، وأقاموا تاريخاً يوافق أغراضهم، ويخدم مآربهم، ويحقق ما يصبون إليه.

وإذا ما أردنا تحديد هذه الأهمية للتاريخ في حياة الإنسان فيمكن لنا إجماله بمجموعة من النقاط أهمها:

١- يعين التاريخ في فهم الإنسان في إيجاد القدوة الحسنة والسير خلفها فبه يستطيع الإنسان معرفة هذه الشخصيات ويعرف كيف سارت والى ماذا انتهى بها الأمر فتكون بذلك قدوة حسنة له.

٢- يساعد التاريخ الإنسان في معرفة حقائق الأحداث والوقائع ومدى صدقها الأمر الذي يساعد في فهم الاتجاهات الصحيحة التي يجب أن يسير عليها الإنسان في حياته لان في تلك الأمور عبر له.

٣- يعين التاريخ على معرفة حال الأمم والشعوب، من حيث القوة والضعف، والعلم والجهل، والنشاط والركود، ونحو ذلك من صفات الأمم وأحوالها وهو أمر يتصل بحياة الإنسان ويؤثر به بشكل كبير.

٤- في التاريخ استلهام للمستقبل على ضوء السنن الربانية الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل ولا تحابي أحداً من البشر.

٥- يساعد التاريخ وأحداثه في كثير من الأحيان الإنسان على شحذ الهمم، وبعث للروح من جديد، وتنافس في الخير والصلاح والعطاء.

٦- من الأمور التي يفيدها التاريخ للإنسان معرفة أخطاء السابقين، والحذر من المزالق التي وقع فيها الماضون.

٧- من فوائد التاريخ طرد روح العجز وإبعاد الخمول , وملء النفس الإنسانية بالتفاؤل وبث الأمل فيها وفي المجتمع.

ومن كل ذلك تظهر أهمية التاريخ فكم من إنسان قرأ في تاريخ وارعوى عن إثمه وترك غيه؟.

وفي قراءة التاريخ فوائد أخرى غير ما ذكر، يعرفها من اشتغل به، وأحسن قراءته وفق منهج مرضي لا يتسع المقام لبسطها، غير أنه يحسن التنبيه إلى أن الفائدة من التاريخ إنما تكمل إذا كان لدى المرء منهج وفهم عند قراءته فيعرف ماذا يقرأ وماذا يترك وكيف يحكم ويقيم ما يقرأ.

أوقات النصح التاريخي وموانعه في ضوء رؤية الإمام (عليه السلام)

لا يمكن الركون عند الحالة التاريخية وما تحمله من وعظ في إيصال الوعظ التاريخي للإنسان، بل يجب معرفة متى يمكن أن تعطى هذه المعلومة ومتى يحب أن تمتنع إعطاؤها , وهناك عناصر عديدة تساهم في بلوغ الموعظة مداها الأقصى في النجاح لتصبح بالغة كما يعبر أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبه، اذ يشير الامام (عليه السلام) إلى عدد من العوامل التي تهيئ البيئة الأفضل للإفادة وبلوغ الأهداف المتوخاة منها:

١- الوقت والجو النفسي المناسب للسماع:

يحتل الزمان أهمية كبيرة في العامل النفسي للإنسان، وقد روي عن أمير المؤمنين(عليه السلام) أنه قال: «ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه»[١].

---

١ . نهج البلاغة : ١٥٤ .

وكان الإمام علي (عليه السلام) كثيراً ما ينتهز المناسبة لمن يريد وعظهم وإرشادهم، لتكون أبلغ في التأثير، وأفضل للفهم والمعرفة. وكمثال على ذلك فإنه لما رجع الإمام علي عليه السلام من صفين وأشرف على القبور قال: «أما الدور فقد سكنت، وأما الأزواج فقد نكحت، وأما الأموال فقد قسمت، هذا خبر ما عندنا، فما خبر ما عندكم؟»، ثم التفت إلى أصحابه فقال: «أما لو أذن لهم في الكلام لأخبروكم أن خير الزاد التقوى»[1].

فالإمام (عليه السلام) وهو عند القبور، أخذ في وعظ أصحابه وبيّن لهم أحوال أصحابها وخلُص إلى أن خير الزاد التقوى.

٢- اللين في الخطاب والشفقة في النصح:

كان أمير المؤمنين(عليه السلام) يتخذ من نبي الرحمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) قدوة حسنة في كل عمل يقوم به، ولذا كان يركز كثيرا على اللين في التعامل مع الآخرين لأنها صفة عرفن بها الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم)، فعلى المؤمن والواعظ أن يكون ليناً في الخطاب، كما كان الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) لين الكلام، وكان دائم البسمة في وجوه أصحابه **(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)**[2].

موانع النصح:

لعل من أول الأمور التي يجب أن يتحلى بها الإنسان في لكي يلين فليه للعبرة ويتعظ، هو الصفاء الروحي، فمن دون نقاء الروح لا يمكن للإنسان أن يتأثر بالموعظة ويلين لها قلبه فيهتدي بها ويستضيء بنورها، تأمل وصف الله تعالى لقلوب أهل الإيمان عند سماع الوعد والوعيد، فهي تقشعر خوفاً من الوعيد، ثم تلين وترجو عند الوعد. ويزداد خوف المؤمن القارئ للقرآن الكريم حينما يقرأ الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: **(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)**[3]. فهي تؤثر أثرها في أصحاب القلوب الواعية فقط.

وقد تقف بعض العوائق لتمنع الإنسان من التفاعل مع الموعظة، كما قال تعالى: **(وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)**[4].

بل إن أكثر الناس مبتلون بمثل هذه العوائق، كما تشير الرواية عن الإمام علي (عليه السلام): «ما أكثر العبر وأقل الاعتبار»[5].

ـ التاريخ واعظا في خطب الإمام (عليه السلام).

بما أن الشريعة الإسلامية تريد فلاح الإنسان وسعادته فهي تنبه دائما إلى الحقيقة الثابتة، وهي إن الإنسان ليس له إلا مصيرا واحدا هو الموت، ومن هنا فهي دائما تدفعه إلى أن يحافظ على نفسه، والابتعاد عن مغريات الدنيا، وليس أبلغ من التاريخ الناقل لإخبار السابقين في إيصال هذه الحقيقة.

ومن هنا جاء نهج أمير المؤمنين (عليه السلام) في هذا الرصد حيث أولا الوعظ التاريخي أهمية كبيرة في خطابه للناس وموعظته لهم.

---

١ . نهج البلاغة :٢٤٥ ..
٢ . عمران : ١٥٩.
٣ . عمران : ١٥٩عمران : ١٥٩.
٤ . يوسف : ١٠٥.
٥ . نهج البلاغة : ٤٧٥.

ومن بين هذه الخطب فقوله (عليه السلام):

«جَعَلَ لَكُمْ أَسْمَاعاً لِتَعِيَ مَا عَنَاهَا وَأَبْصَاراً لِتَجْلُوَ عَنْ عَشَاهَا وَأَشْلَاءً جَامِعَةً لِأَعْضَائِهَا مُلَائِمَةً لِأَحْنَائِهَا فِي تَرْكِيبِ صُوَرِهَا وَمُدَدِ عُمُرِهَا بِأَبْدَانٍ قَائِمَةٍ بِأَرْفَاقِهَا وَقُلُوبٍ رَائِدَةٍ لِأَرْزَاقِهَا فِي مُجَلَّلَاتِ نِعَمِهِ وَمُوجِبَاتِ مِنَنِهِ وَحَوَاجِزِ عَافِيَتِهِ وَقَدَّرَ لَكُمْ أَعْمَاراً سَتَرَهَا عَنْكُمْ وَخَلَفَ لَكُمْ عِبَراً مِنْ آثَارِ الْمَاضِينَ قَبْلَكُمْ مِنْ مُسْتَمْتَعِ خَلَاقِهِمْ وَمُسْتَفْسَحِ خَنَاقِهِمْ أَرْهَقَتْهُمُ الْمَنَايَا دُونَ الْآمَالِ وَشَدَّبَهُمْ عَنْهَا تَخَرُّمُ الْآجَالِ لَمْ يَمْهَدُوا فِي سَلَامَةِ الْأَبْدَانِ وَلَمْ يَعْتَبِرُوا فِي أُنُفِ الْأَوَانِ فَهَلْ يَنْتَظِرُ أَهْلُ بَضَاضَةِ الشَّبَابِ إِلَّا حَوَانِيَ الْهَرَمِ وَأَهْلُ غَضَارَةِ الصِّحَّةِ إِلَّا نَوَازِلَ السَّقَمِ وَأَهْلُ مُدَّةِ الْبَقَاءِ إِلَّا آوِنَةَ الْفَنَاءِ..... أَوَلَسْتُمْ أَبْنَاءَ الْقَوْمِ وَالْآبَاءَ وَإِخْوَانَهُمْ وَالْأَقْرِبَاءَ تَحْتَدُونَ أَمْثِلَتَهُمْ وَتَرْكَبُونَ قِدَّتَهُمْ وَتَطَئُونَ جَادَّتَهُمْ فَالْقُلُوبُ قَاسِيَةٌ عَنْ حَظِّهَا لَاهِيَةٌ عَنْ رُشْدِهَا سَالِكَةٌ فِي غَيْرِ مِضْمَارِهَا كَأَنَّ الْمَعْنِيَّ سِوَاهَا وَكَأَنَّ الرُّشْدَ فِي إِحْرَازِ دُنْيَاهَا»[1].

ففي هذه الخطبة يقرر الإمام (عليه السلام) صلة التاريخ بالإنسان، وهو تاريخ الإباء والأجداد.
والذين يراه الإمام أن الناس لم تستطع الاستفادة من عبر التاريخ، فالتاريخ لديهم معطل لا يأخذ مكانته في التوعية، فالناس يسيرون على مسار الإباء والأجداد من دون وعي، والدنيا غاية كل سيء لديهم،فهو يقول:
«فَإِنَّهُ وَاللَّهِ الْجِدُّ لَا اللَّعِبُ وَالْحَقُّ لَا الْكَذِبُ وَمَا هُوَ إِلَّا الْمَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيهِ وَأَعْجَلَ حَادِيهِ فَلَا يَغُرَّنَّكَ سَوَادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ وَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ وَحَذِرَ الْإِقْلَالَ وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ طُولَ أَمَلٍ وَاسْتِبْعَادَ أَجَلٍ كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَأَزْعَجَهُ عَنْ وَطَنِهِ وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ مَحْمُولًا عَلَى أَعْوَادِ الْمَنَايَا يَتَعَاطَى بِهِ الرِّجَالُ الرِّجَالَ حَمْلًا عَلَى الْمَنَاكِبِ وَإِمْسَاكاً بِالْأَنَامِلِ أَمَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَأْمُلُونَ بَعِيداً وَيَبْنُونَ مَشِيداً وَيَجْمَعُونَ كَثِيراً كَيْفَ أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُوراً وَمَا جَمَعُوا بُوراً وَصَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَا فِي حَسَنَةٍ يَزِيدُونَ وَلَا مِنْ سَيِّئَةٍ يَسْتَعْتِبُونَ فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوَى قَلْبَهُ بَرَّزَ مَهَلَهُ وَفَازَ عَمَلُهُ فَاهْتَبِلُوا هَبَلَهَا وَاعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازاً لِتَزَوَّدُوا مِنْهَا الْأَعْمَالَ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ»[2].

فالإمام يشير إلى ضرورة الاتعاظ من الذين سبقونا والذين أصبحت بيتهم قبورا لهم وذهب أموالهم للذين ورثوهم.
وهناك عدد غير قليل من الخطب الواردة في نهج البلاغة التي تتجه صوب هذا الأمر ومنها على سبيل المثال قوله (عليه السلام): «ألا وَفِي غَدٍ وسَيَأْتِي غَدٌ بما لا تعرفون، يَأْخُذُ الوَالِي مِن غَيرِهَا عُالها على مَسَاوِئ أعمالها»[3].

ومنه قوله (عليه السلام): «والْأَمَلَ فَلَاحَظُوا الْأَجَلَ ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ وَغِيَرٍ وَعِبَرٍ فَمِنَ الْفَنَاءِ أَنَّ الدَّهْرَ مُوتِرٌ قَوْسَهُ لَا تُخْطِئُ سِهَامُهُ وَلَا تُؤْسَى جِرَاحُهُ يَرْمِي الْحَيَّ بِالْمَوْتِ وَالصَّحِيحَ بِالسَّقَمِ وَالنَّاجِيَ بِالْعَطَبِ آكِلٌ لَا يَشْبَعُ وَشَارِبٌ لَا يَنْقَعُ وَمِنَ الْعَنَاءِ أَنَّ الْمَرْءَ يَجْمَعُ مَا لَا يَأْكُلُ وَيَبْنِي مَا لَا يَسْكُنُ ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا مَالًا حَمَلَ وَلَا بِنَاءً نَقَلَ وَمِنْ غِيَرِهَا أَنَّكَ تَرَى الْمَرْحُومَ مَغْبُوطاً وَالْمَغْبُوطَ مَرْحُوماً لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا نَعِيماً زَلَّ وَبُؤْساً نَزَلَ وَمِنْ عِبَرِهَا أَنَّ الْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ فَلَا أَمَلٌ يُدْرِكُ وَلَا مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ فَسُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَعَزَّ سُرُورَهَا.....وَكَأَنَّ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ فَبَادِرُوا الْعَمَلَ وَخَافُوا بَغْتَةَ الْأَجَلِ فَإِنَّهُ لَا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الْعُمُرِ مَا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الرِّزْقِ مَا فَاتَ الْيَوْمَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِيَ غَداً زِيَادَتُهُ وَمَا فَاتَ أَمْسِ مِنَ الْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ الْيَوْمَ رَجْعَتُهُ الرَّجَاءُ مَعَ الْجَائِي وَالْيَأْسُ مَعَ الْمَاضِي فَ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ»[4].

---

١ . نهج البلاغة : ١١١ .
٢ . نهج البلاغة ١٣٠ .
٣ . نهج البلاغة : ١٣٨ .
٤ . نهج البلاغة : ٢٤٦.

ومنه قوله (عليه السلام):« أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا وَابْتَلَى فِيهَا أَهْلَهَا لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَسْنَا لِلدُّنْيَا خُلِقْنَا وَلَا بِالسَّعْيِ فِيهَا أُمِرْنَا وَإِنَّمَا وُضِعْنَا فِيهَا لِنُبْتَلَى بِهَا وَقَدِ ابْتَلَانِي اللَّهُ بِكَ وَابْتَلَاكَ بِي فَجَعَلَ أَحَدَنَا حُجَّةً عَلَى الْآخَرِ فَعَدَوْتَ عَلَى الدُّنْيَا بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ فَطَلَبْتَنِي بِمَا لَمْ تَجْنِ يَدِي وَلَا لِسَانِي وَعَصَيْتَهُ أَنْتَ وَأَهْلُ الشَّامِ بِي وَأَلَّبَ عَالِمُكُمْ جَاهِلَكُمْ وَقَائِمُكُمْ قَاعِدَكُمْ فَاتَّقِ اللَّهَ فِي نَفْسِكَ وَنَازِعِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ وَاصْرِفْ إِلَى الْآخِرَةِ وَجْهَكَ فَهِيَ طَرِيقُنَا وَطَرِيقُكَ وَاحْذَرْ أَنْ يُصِيبَكَ اللَّهُ مِنْهُ بِعَاجِلِ قَارِعَةٍ تَمَسُّ الْأَصْلَ وَتَقْطَعُ الدَّابِرَ فَإِنِّي أُولِي لَكَ بِاللَّهِ أَلِيَّةً غَيْرَ فَاجِرَةٍ لَئِنْ جَمَعَتْنِي وَإِيَّاكَ جَوَامِعُ الْأَقْدَارِ لَا أَزَالُ بِبَاحَتِكَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَخَيْرُ الْحَاكِمِينَ».

خاتمة:

كان أمير المؤمنين(عليه السلام) في خطبه في نهج البلاغة يخاطب الوجدان الإنساني ويحرك مشاعره ليصل إلى عقل الإنسان، عن طريق تحريك التراث التاريخي مدعوما بأساليب كثيرة تخاطب العقل بقصد تأهيله إلى إدراك المعارف الموصلة إلى اللّه، وجعل التأمل والنظر في تاريخ الماضيين من أسلافنا إثارة للشعور الإنساني، للسمو الروحي واكتساب القدرة على التذوق الرفيع الذي يوصلها إلى حب اللّه.

الهوى في نهج البلاغة

الاستاذ المساعد الدكتور: هاشمية حميد جعفر(جامعة الكوفة - كلية التربية الأساسية)

من وصية للإمام علي (عليه السلام) لأحد أصحابه:

(اتق الله في كل مساء وصباح، وخف على نفسك الدنيا الغرور، ولاتأمنها على حال، واعلم انك ان لم تردع نفسك عن كثير مما تحب مخافة مكروهه تسمتْ بك الأهواء إلى كثير من الضرر، فكن لنفسك مانعاً رادعاً ولنزواتك عند الحفيظة واقماً قامعاً.)[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على اشرف الخلق أجمعين، وعلى أل بيته الطيبين الطاهرين.

السلام عليك يا أمير المؤمنين، ويا سيد الوصيين، ويا خليفة رسول ربَ العالمين يا مَنْ:

تَزاحمُ تيجانُ الملوك ببابـهِ ... ويكثرُ عندَ الاستلام ازدحامُها
إذا ما رأتْهُ من بعيدٍ تَرجلت ... وإنْ هي لم تفعل ترجل هامها

عذراً سيدي مولاي فكيف أتطاول عليك وأنت سيد البلغاء، وتباً لي أن أخوض في نهج بلاغتك وأنت باب العلم، ولكن الله تعالى تقدست أسماؤه قال – وقوله الحق – في محكم كتابه العزيز:(وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) و (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وأقسم بـ(ن والقلم وما يسطرون) والرسول الكريم (صلى الله عليه واله) جعل العلم علي فريضة فقال: (طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلَ مسلمٍ ومسلمة) وأنت جعلت العلم بمنزلة الصلاة التي تطفي إحدى النيران الأربعة التي تحيط بالإنسان عند نزوله القبر فيطفئ العلم النار الأخرى، لذلك تجرأت وطرقت باب علمك لأنهل من معينك وجميل قرائحك، وما نطق به لسانك يا سيد الخطباء وأفصح الفصحاء، وابلغ البلغاء بعد رسولنا محمد (صلى الله عليه واله) وسلم، فاخترت كلمة (الهوى) لتكون عنواناً لبحثي الموسوم: (الهوى في نهج البلاغة) الذي توزع على ثلاثة محاور: المحور الأول: الهوى في المعاجم اللغوية، والمحور الثاني: ضم الدراسة الإحصائية لكلمة الهوى بكل ما خرجت إليه هذه المفردة من اشتقاق ومدلولات.وجاء المحور الثالث ليضم الدراسة التحليلية لتلك المدلولات وختم البحث بالنتائج التي توصلنا إليها. ثم قائمة بأهم المصادر والمراجع التي اعتمدت في انجاز هذه الدراسة.

منها على سبيل المثال لا الحصر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد وشرح نهج البلاغة للشيخ محمد عبده وشرح د. صبحي الصالح وصفوة الشروح لأركان التميمي وقد اعتمدناه في تسلسل الخطب والكتب والحكم.

ومصادر نهج البلاغة وأسانيده للسيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب بأجزائه الاربعه وغيرها.

وأنا أحمدُ الله حمد الشاكرين لان عيني تكحلت بنور يواقيت دررك يا أمير المؤمنين، وعجز لساني عن وصف سعادتي وأنا بالقرب مما تفوهت به. وكيف يتسنى لبضع سطور إن تختصر دنيا وسيعة من الفضائل و عالماً رحباً من الكمالات لأنك يا سيدي عالم مترامي الأطراف من المناقب.

وكما قال الجواهري:

تعدادُ مجدِ المرءِ منقصة إذا ... فاقتْ مزاياهُ عن التعدادِ

وقد سئل المتنبي عن سرَ إعراضه عن مدح علي (عليه السلام) فقال:

وتركتُ مدحي للوصيَ تعمداً ... إذ كانَ نوراً مستطيلاً شامـــــــلا
واذا استقامَ الشيءُ قام بنفسـهِ ... وصفاتُ ضوءِ الشمس تذهب باطلا

---

١ . صفوة الشروح: ٧١٩.

واخيراً ندعو الله عز وجل أن يرزقنا وإياكم شفاعة أمير المؤمنين يوم الورود.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
ونسأل الله التوفيق.
الباحثة: أ.م.د. هاشمية حميد جعفر

المحور الأول: الهوى في اللغة

الهواء ممدود مابين السماء والأرض والجمع (الأهوية) . وكل خال (هواء) وقوله تعالى: (وأفئدتهم هواء) يقال انه لا عقول لهم[1].

والهواء والخواء واحد والهواء كل فرجة بين شيئين كما بين اسفل البيت الى أعلاه واسفل البئر الى اعلاها. ويقال هوى صدره يهوي هواء اذا خلا...[2].

قال الجواهري: لـ خالٍ هواء... ومثله قوله عز وجل (وافئدتهم هواء).
والمهواة والهوة والاهوية والهاوية كالهواء. المهواة موضع في الهواء مشرف مادونه جيل وغيره يقال: هوى يهوي هويانا ورأيتهم يتهاوون في الهواة اذا سقط بعضهم اثر بعض وهوت الطعنه تهوي فتحت فاها بالدم.. وهوى واهوى وانهوى: سقط. وهوت العقاب تهوي هوياً ذا انقضت على صيد او غيره.
والاهتواء: الضرب باليد والتناول وهوت يدي للشيئ واهوت وامتدت وارتفعت قال ابن الاعرابي هوى اليه من بعد واهوى اليه من قرب واهويت له بالسيف وغيره واهويت بالشئ اذا أومات به واهوى اليه بيده ليأخذه. وفي الحديث فأهوى بيده اليه أي مدها نحوة وامالها اليه.
وهوت الريح هوياً بت قال كأن دلوي في هوي ريح وهوى بالفتح يهوي هوياً وهوياً وهوياناً وانهوى سقط من فوق الى اسفل واهواه هو يقال اهويته اذا القيته من فوق وقوله عز وجل (والمؤتفكة اهوى) يعني مدائن قوم لوط أي اسقطها فهوت أي سقطت وهوى السهم هوياً سقط من علو الى اسفل.
وهوى هوياً أي سار سيراً شديداً.. ابن الاعرابي: الهوي السريع الى فوق وقال ابو زيد مثله.
وفي صفته (صلى الله عليه واله) وسلم كأنما يهوي من صبب أي يخط وذلك مشية القوي من الرجال. يقال هوى يهوي هوياً بالفح اذا هبط وهوى يهوي هوياً بالضم اذا صعد ووقيل بالعكس. وهوى يهوي اذا اسرع في اليسر.
تقول الهوي في مصدر هوى يهوي في المهواة هوياً قال فأما الهوي الملي فالحين الطويل من الزمان تقول جلست عنده هوياً والهوي الساعة الممتدة من الليل ومضى هوي من الليل على فعيل أي هزيع منه.. وقيل هو مختص بالليل ابن سيدة: مضى هوي من الليل وهوي وتهواء أي ساعة منه – يقال هوت الناقة وغيرهما تهوي هوياً فهي هاوية اذ عدت عدداً شديداً.
والهوى مقصور هوى النفس واذا اضفته اليك قلت هواي.
قال ابن بري: وجاء هوى النفس ممدوداً في الشعر.
ابن سيدة: الهوى العشق يكون في مداخل الخير والشر. والهوي المهوي.
وهوى النفس ارادتها والجمع الاهواء. وفي التهذيب. قال اللغويون: الهوى محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه قال الله عز وجل: «**ونهى النفس عن الهوى**» معناه نهاها عن شهواتها وماتدعو اليه من معاصي الله عز وجل...

---

١ . مختار الصحاح للشيخ الامام محمد بن ابي بكر بن عبد القادر الرازي: من ٧٠٢ الى ٧٠٣ طبعة حديثة منقحة ١٣٩١هـ-١٩٧٢م، المكتبة الاموية بيروت – دمشق.
٢ . لسان العرب لابن منضور، ابو الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم المصري ت٧١١ هـ ، دار صادر ودار بيروت لبنان ١٣٧٩هـ - ١٩٥٥م (مادة هوى).

واثبت سيبويه الهوى لله عز وجل فقال: فاذا فعل ذلك فقد تقرب الى الله بهواه وهذا الشيء أهوى اليَ في كذا أي احبَ اليَ.. وقوله عزَ وجلَ **(فاجعل افئدة من الناس تهوي اليهم وأرزقهم من الثمرات)** فيمن قرأ به انما عدَاه بالى لأنه فيه معنى تميل والقراءة المعروفة تهوي اليهم أي ترتفع والجمع أهواء..
وقال الفراء معنى الآية يقول:اجعل افئدة من الناس تريدهم كما تقول رأيت فلاناً يهوي نحوك معناه يريدك. قال وقرأ بعض الناس تهوي اليهم بمعنى تهواهم كما قال ردف لكم وردفكم.
وقال الاخفش: تهوي اليهم زعموا انه في التفسير تهواهم.
وقال الفَراء: تهوي اليهم أي تسرع والهوى ايضاً المهوي. واستهوته الشياطين: ذهبت بهواه وعقله. وفي التنزيل العزيز (كالذي استهوته الشياطين) وقيل استهوته: استهامته وحيرته وقيل زينت الشياطين له هواه حيران في حال حيرته. ويقال للمستهام الذي استهامته الجن استهوته الشياطين.
وقال القتيبي: استهوته الشياطين: هوت به وأذهبته جعله من هوى يهوي.
وجعلة الزجاج من هوي يهوي أي زينت له الشياطين هواه. وهوى الرجل: مات.
وهاوية والهاوية اسم من اسماء جهنم وهي معرفة بغير الف ولام وقوله عز وجل (فأمه هاوية) أي مسكنه جهنم ومستقره النار.
وقال الفراء: فأمه هاوية قال بعضهم هذا دعاء عليه كما تقول هوت أُمهَ على قول العرب.
وقوله: (هوت امه) قال الصاغاني راداً على الجوهري الرواية هوت عرسه والمعروف حين يثوب لكن الذي في صحاح الجوهري هو الذي في تهذيب الازهري.
ومعنى هوت امَه أي هلكتْ أمه وتقول هوتْ امَه فهي هاوية صارت هاوية مأواه كما تؤوي المرأة ابنها فجعلها اذ لا مأوى له غيرها أمَاً له.وقيل معنى قوله (فأمَه هاوية) أم رأسه تهوي في النار.
قال ابن بري: لو كانت هاوية اسماً علماً للنار لم ينصرف في الاية. والهاوية كل مهواة لايدرك قعرها. الهاوي والعاوي: فالهاوي الجراد والعاوي الذئب.
وقال ابن الاعرابي انما هو الغاوي بالغين المعجمة والهاي. فالغاوي الجراد والهاوي الذئب.. والهاوي الذئاب لانه الذئاب تهوي الى الخصب.
يقال: سمعت لأذني هوياً أي دوياً وقد هوت اذنه تهوي.
والكسائي هاوأت الرجل وهاويته في باب مايهمز ومالا يهمز ودارأته ودايته والهواهي الباطل واللغو من القول.
قال ابن بري صوابه الهواهي: الاباطيل لانه الهواهي جميع هوهاءة من قوله هوهاءة اللب اخرق وانما خففه ابن احمر ضرورة وقياسه هواهي.
وقد يقال (رجل هواهية) الا انه ليس من هذا الباب والهوهاءة بالمد: الاحمق.
وفي النوادر (فلان هوة) أي أحمق لا يمسك شيئاً في صدره. وهو من الارض جانب منها.والهوة كل وهدة عميقة.
قال ابن سيدة: الهوة ماانهبط من الارض وقيل الوهدة الغامضة من الارض.
وحكى ثعلب اللهم اعذنا من هوة الكفر ودواعي النفاق. قال ضربه مثلاً للكفر. والاهوية على افعولة الهوة بفتح الهاء: الكوة حكاها عن أبي الهذيل قال: والهوة والمهواة بين جبلين.
الاصمعي: هوة وهوى والهوة البئر قال أبو عمرو وقيل الهوة الحفرة البعيدة القعر وهي المهواة.
قال الازهري: أهوى اسم ماء لبني حمان واسمه السبيلة: اتاهم الراعي فمنعوه الورد.
أهوى وسوقة أهوى ودارة أهوى موضع أو مواضع والهاء حرف هجاء وهي مذكورة في موضعها من باب الألف اللينة.

خلاصة معاني كلمة الهوى في المعاجم: -

الهواء: بالمد مابين السماء والارض والجمع (الأهوية) وكل خالٍ (هواء) ومنه قوله تعالى: **(وأفئدتهم هواء)**.

الهواء: الهواء والخواء واحد والهواء كل فرجة بين شيئين كما بين أسفل البيت الى أعلاه.

هوى: يقال هوى صدره يهوي هواء اذا خلا.

المهواة والهوة والاهوية والهاوية كالهواء.

هوى يهوي هوياناً: رأيتهم يتهاوون في المهواة اذا سقط بعضهم إثر بعض.

هوت: هوت الطعنة تهوي فتحت فاها بالدم.

هوى وأهوى وانهوى: سقط.

هوت العقاب تهوي هوياً اذا انقضت على صيد او غيره.

الاهتواء: الضرب باليد والتناول.

هوت يدي للشيء وأهوت: امتدت وارتفعت.

هوى: هوى اليه من بعد واهوى اليه من قرب.و أهويت بالشيء اذا أومأت به.

أهوى: أهوى اليه بيد ليأخذه وفي الحديث فأهوى بيده إليه أي مدها نحوه وأمالها إليه.

هوت الريح هوياً: هبت.

هوى: بالفتح يهوي هوياً وهوياً وهوياناً وانهوى: سقط من فوق الى اسفل .

اهواه هو: يقال أهويته إذا ألقيته من فوق.

هوى هوياً: أي سار سيراً شديداً.

الهوي: السريع الى فوق. يقال: هوى يهوي هوياً بالفتح اذا هبط وهوى يهوي هوياً بالضم اذا صعد وقيل بالعكس.

الهوي: في مصدر هوى يهوي في المهواة هوياً قال فأما الهوي الملي: فالحين الطويل من الزمان تقول جلست عنده هوياً و الهوي الساعة الممتدة من الليل.

الهوى: مقصور هوى النفس. وإذا أضفته إليك قلت هواي.

الهوى: عند ابن سيدة: العشق يكون في مداخل الخير والشر.

هوى النفس: إرادتها والجمع (الأهواء).

الهوى: في التهذيب محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه قال الله عز وجل: **(ونهى النفس عن الهوى)**. معناها نهاها عن شهواتها وما تدعو إليه من معاصي الله عز وجل.

الهوى: اثبت سيبويه الهوى لله عز وجل فقال: فاذا فعل ذلك فقد تقرب الى الله بهواه. وهذا الشيء أهوى اليَ في كذا أي أحب اليَ.. وقوله عز وجل **(فاجعلْ افئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات)**. بمعنى: تميل.والقراءة المعروفة (تهوي اليهم) أي ترتفع والجمع أهواء.

وعند الفَراء: (تريدهم) وقال الفَراء ايضاً: تهوي اليهم أي تسرع.

استهوى: استهوته الشاطين: ذهبت بهواه وعقله. استهوته: استهامته وحيرته وقيل زينت الشياطين له هواه حيران في حال حيرته.

هوى: هوى الرجل: مات.

هاوية: الهاوية اسم من اسماء جهنم وهي معرفة بغير الف ولام وقوله عز وجل: (فأمَه هاويَة) أي مسكنه جهنم ومستقره النار.

هوت امه: أي هلكت امه فهي هاوية صارت هاوية مأواه كما تؤوي المرأة ابنها.

الهاوي: الهاوي والعاوي: فالهاوي الجراد والعاوي الذئب.

هوياً: سمعت لأذني هوياً أي دوياً وقد هوت اذنه تهوي.

الهواهي: الباطل واللغو في القول. قال ابن بري صوابه الهواهي: الاباطيل.

هواية: ويقال (رجل هواهية) الا انه ليس من هذا الباب والهوهاءة بالمد: الاحمق.

الهوة: كل وهدة عميقة. قال ابن سيدة الهوة ماانهبط من الارض وقيل الوهدة الغامضة من الارض.

الهوة بفتح الهاء: الكوة حكاها عن أبي الهذيل قال: والهوة والمهواة بين جبلين.
هوة وهوى والهوة عند الاصمعي: البئر. قال ابو عمرو وقيل الهوة: الحفرة البعيدة القعر وهي المهواة.
أهوى: قال الأزهري أهوى اسم لبني حمان واسمه السبيلة .

المحور الثاني: الدراسة الإحصائية

من يقرأ كتاب نهج البلاغة للامام علي (عليه السلام) تنتابه الدهشة ويسحره البيان ويعلق في ذهنه الكثير يلفت الانتباه ففي كل حرف فيه ومضة وفي كل لفظ فيه وقفة وفي كل جملة وتركيب لغوي مبحث ودراسة.
فحين اختار الأديب الكبير، والصحافي الشهير الأستاذ أمين بك نخلة وهو من أفاضل المسيحين حينما اختار (مائة كلمة من نهج البلاغة)برجاء من الشيخ توفيق البلاغي، واقتبس لها شرحاً من تعليقه الشيخ الأمام محمد عبده على (النهج) وجعلهما في كتاب قال في مقدمته: (سألني ان انتقى مائة كلمة من كلام ابلغ العرب (ابي الحسن) نخرجها في كتاب، وليس بين يدي الان من كتب الادب التي يرجع اليها في مثل هذا الغرض الاطائفة قليلة منها انجيل البلاغة (النهج) فرحت اسرح اصبعي فيه، ووالله لا اعرف كيف اصطفي لك المائة من مئات بل الكلمة من كلمات الا اذا سلخت الياقوتة عن اختها، ولقد فعلت ويدي تتقلب على اليواقيت وعيني تغوص في اللمعان، فما حسبتني اخرج من معدن البلاغة بكلمة لفرط ماتحيرت في التخير، فخذ هذه المائة وتذكر انها لمحات من نور وزهرات من نور ففي (نهج البلاغة) من نعم الله على العربية وأهلها أكثر بكثير من مائة كلمة[1] وهذا ما انتابني حين عزمت البحث في نهج البلاغة فقد أخذتني الحيرة الى أن استقر الأمر بي بعد مطالعة وتمعن للدراسات التي اقيمت حول نهج البلاغة وبعد ان أسعفني الوقت وقرأت هذا المعين الذي لا ينضب استوقفتني كلمة (الهوى) بكل ماخرجت اليه من معانٍ فقد ذكرها (عليه السلام) منذ الخطبة الاولى واستخدمها بأغلب مدلولاتها في بعض خطبة وكتبه التي أرسلها الى عماله وحتى في حكمه.
فوجدنا هذه الكلمة وردت في نهج البلاغة على النحو الاتي:-

ت	رقم الكتاب	عنوانه	كيفية ورود كلمة الهوى او احدى مدلولاتها
•	٣	كتبه لشريح بن الحارث قاضيه	ينتهي الى الهوى المردي، اذا خرج من اسر الهوى
•	٦	الى معاوية	لئن نظرت بعقلك دون هواك
•	٧	الى معاوية	قد دعاه الهوى فأجابه
•	١٥	كان (عليه السلام) يقول (اذا لقى العدو محارباً)	وتشتت اهوائنا
•	١٧	ومن كتاب له (عليه السلام) الى معاوية جواباً منه اليه	ولبأس الخلف خلف يتبع سلفاً هوى في نار جهنم
•	٣١	ومن وصيته «عليه السلام)) لولده الحسن «عليه السلام))	وصرفني عن هواية، اويسبقني اليك بعض غلبات الهوى، مااختلف

١ . المائة كلمة لأمين بك نخلة، ص٥ نقلاً عن مصادر نهج البلاغة واسانيده لسيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب: ج١ / ٢٦١-٢٦٢ / الطبعة الثالثة، دار الاضواء، بيروت – لبنان ، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

			الناس فيه من اهوائهم وارائهم، والهوى شريك العمى
•	٣٧	ومن كتاب له (عليه السلام) الى معاوية	فسبحان الله مااشد لزومك للاهواء المبتدعه
•	٤٥	ومن كتاب له (عليه السلام) الى عامله الى البصرة	ولكن هيهات ان يغلبني هواي، وامم القيتهم في المهاوي
•	٥٣	ومن كتاب له (عليه السلام) لمالك بن الاشتر النخعي	فأملك هواك، ومن لك فيه هوىً من رعيتك، واقعاً ذلك من هواك حيث وقع، يعمل فيه بالهوى، اشد عليه اجتماعاً مع تفرق اهوائهم، لكيلا تكون لك علة عن تسرع نفسك الى هواها
•	٥٦	ومن كلام له (عليه السلام) وصى به شريح ابن هانئ	سمت بك الاهواء الى كثير من الضرر
•	٥٩	من كتاب له (عليه السلام) الى الاسود ابن قطبة	اما بعد، فأن الوالي اذا اختلف هواه
•	٧١	الى المنذر ابن الجارود العبدي	لاتدع لهواك انقياداً
•	٧٨	الى ابي موسى الاشعري	ونطقوا بالهوى

ت	رقم الحكمة	كيفية ورود كلمة الهوى او احدى مدلولاتها
•	١٢٠	يهوي اليه الغر الجاهل
•	١٣٣	متى استهوتك
•	١٣٥	رجل ابتاع نفسه فأعتقها(المعنى ضمني)
•	٢١٣	عند هوى امير
•	٢٩١	ايهما اقرب الى الهوى فخالفه
•	٤٢٧	وقاتل هواك بعقلك

الخلاصة:

يتضح مما تقدم ان كلمة الهوى ومفرداتها وردت في ٣٨ خطبة و ١٥ كتاب و ٦ حكم من غير التكرار في بعض الخطب والكتب فمثلاً في الكتاب الذي وجهه (عليه السلام) لمالك بن الاشتر المرقم ٥٣ وردت كلمة الهوى ٦ مرات وفي الخطبة المرقمة ١٩٢المسماة بالقاصعة ٤ مرات وفي الخطبة ١ اربع مرات ايضا وفي الخطبة ٨٦ اربع مرات و الخطبة ٩١ اربع مرات والخطبة ٨٧ ثلاث مرات وفي الخطبة الغراء ٨٣ مرتين وفي الخطبة ١٩٠ مرتين وهكذا.

المحور الثالث: كلمة الهوى ومفرداتها في نهج البلاغة

كلمة الهوى بكافة مدلولاتها في نهج البلاغة لقد وردت كلمة (الهوى) سواء أكانت بالمد أم بالقصر في نهج البلاغة بمدلولات مختلفة.
وهذا مالمسناه في المبحث الخاص بالدراسة الاحصائية لهذه المفردة.

وان هذا الاستعمال متأتٍ من شدة الوثاق بين القرآن الكريم ونهج البلاغة. فهناك اثر كبير للفظة القرآنية في نهج البلاغة وهناك تميز ملحوظ في كيفية استعمالها.
«الذي ميز كلام الامام علي (عليه السلام) ليس ورود هذه الالفاظ بقدر طريقة استعمالها الاستعمال النابع من فهم اللفظة في النص القرآني أولا، لأن للقرأن استخدامه اللغوي الخاص، الأمر الذي يجعل الاتكاء على المعاجم وحدها في التعرف على معاني الكلمات لن يؤدي الغرض المراد تحقيقة»[1].

وفي مقدمة ذلك ان الامام علي (عليه السلام) افرد خطبة كاملة تحمل عنوان (اتباع الهوى وطول الامل)[2] وهذا يدلل على أهمية هذه المفردة في حياة الناس.

فقوله (عليه السلام): «انما اخاف عليكم اثنتين: اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فانه يصد عن الحق وأما طول الأمل فانه ينسي الآخرة». فالهوى في اللغة «حُبَ الشئ» «واشتهاؤه» من دون فرق في ان يكون متعلقة امراً حسناً ممدوحاً أو قبيحاً مذموماً.
واما «الصَد» عن الشئ فمعناه المنع والاعراض والانصراف عنه وهي معانٍ تتناسب مع هذه الكلمة. الا ان المعنى المقصود هنا هو المنع والانصراف عن الشئ والحقيقية: ان النفس الانسانية على الرغم من كونها.. مفطورة على التوحيد، بل هي مفطورة على جميع العقائد الحقة.
ولكنها منذ ولادتها وخروجها الى هذا العالم تنمو معها الميول النفسية والشهوات الحيوانية، الا من أيده الله وكان له حافظ قدسي ولما كان هذا الاستثناء من النوادر فانه لايدخل في حسابنا لاننا نتناول نوع الانسان عموماً.[3]

وقد جاء قول الامام علي (عليه السلام) مستوحى من قوله تعالى: «**ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله**»[4] ومن قوله تعالى: «**ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله**»[5].

ولشدة تأثير اتباع الهوى على النفس الانسانية سلباً او ايجابياً وهذا ماورد على لسان امير المؤمنين في خطبه وكتبه وحكمه مستأثراً بكلام الله جلت قدرته الذي ذكره رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم والذي جاء في الكافي الشريف بسنده عن الامام الباقر (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي وعظمتي وكبريائي ونوري وعلوي وارتفاع مكاني لايؤثر عبد هواه على هواي الا شتت عليه أمره ولبست عليه دنياه وشغلت قلبه بها ولم أوته منها الا ما قدرت له وعزتي وجلالي وعظمتي ونوري وعلوي وارتفاع مكاني لايؤثر عبد هواي على هواه الا استحفظته ملائكتي وكفلت السموات والارضين رزقه وكنت له من وراء تجارة كل تاجر واتته الدنيا وهي راغمة)[6].

لذا وجدنا من المناسب ان نوزع معاني الهوى الى المعاني الايجابية وماذا يريدبها (عليه السلام) والمعاني السلبية ولماذا جاءبها.
وسنبدأ بالسلبية لانها الاكثر وروداً وأولها:-
كلماته في الخطبة ٤٢ التي تدل من العنوان على المعنى السلبي، فاتباع الهوى يصد عن الحق لان ذلك من مكائد الشيطان الذي يغوي الانسان لارتكاب المعاصي.

---

١ . الاثر القراني في نهج البلاغة، دراسة في الشكل والمضمون: ٤٩، تاليف د. عباس علي حسين الفحام، الطبعة الاولى، منشورات الفيحاء للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت، ١٤٣٠هـ-٢٠١٠م.
٢ . الخطبة (٤٢) من نهج البلاغة.
٣ . الكافي (بأصوله وفروعه): مج ٢ (الايمان والكفر)، باب اتباع الهوى للكليني، وهيئة علماء بيروت: Alikaa.net@info-www.allikaa.net
٤ . سورة ص: الاية ٢٦.
٥ . سورة القصص: الاية ٥٠.
٦ . اصول الكافي : ج٢، باب اتباع الهوى.

واما طول الامل فينسي الاخرة. لانه يلهي الانسان عن التفكير في نهايته المحتومة. وقد تكرر قوله (عليه السلام) هذا مرتين في الخطبة ٢٨ وفي الخطبة ٤٢. فهو يحثنا على التزود للاخرة. خوفاً منه علينا لانه يعلم جسامة الأمر في حالة ان اتبعنا هوانا. وهول الاخرة وعذابها لمن ينقاد الى ذلك الهوى. ولانه يعلم ان النار مأوى المقصرين فقال (عليه السلام) في الخطبة ١٦ «ومقصر في النار هوى» وهنا خرج معناها الى السقوط وبعدما كان يدل على الشهوة. ويؤكد معنى السقوط في خطبته المرقمة ١٥٣ والتي يقول منها: (وهو في مهلةٍ من الله يهوي مع الغافلين) ويهوي: يسقط كما قال الشيخ محمد عبده في شرحه لنهج البلاغة[١].

ومن جميل قوله انه (عليه السلام) جعل العمى شريك للهوى فمن يتبع هواه فهو أعمى وذلك في الكتاب ٣١ الذي يقول منه:
(والهوى شريك العمى)[٢] فهما شريكان في ضلالة النفس وغوايتها وحثها على ارتكاب المعاصي

وهذا يذكرنا بقول الشاعر ابي العتاهية:

يا عتبُ ما أنا من صنيعكِ بي أعمى ولكنَ الهوى أعماني

وعدَ (عليه السلام) سبب وقوع الفتن لا بل الجذوة التي تثيرها وتشغلها هي الأهواء التي تتبع وذلك في قوله (عليه السلام): (انما بدء وقوع الفتن أهواءٌ تتبع)[٣].

فحذر (عليه السلام) عباد الله من الانقياد إلى أهوائكم. لانها تؤدي بهم إلى التهلكة. فقال (عليه السلام): (عباد الله لا تركنوا إلى جهالتكم، ولا تنقادوا الى أهوائكم)[٤] والأهواء هنا بمعنى الاراء الاراء الباطلة والاحكام المبتدعة وقد شبه (عليه السلام) النازل بهذا المنزل كأنه نازل بشفا جرف هار متهدم ينقل الردى على ظهره) من موضع الى موضع: أي ان من يركن الى جهالته، ينقاد لهواه هو بانتقاله من ضلالة الى ضلالة ينقل وزرها من موضع الى موضع من ظهره.[٥]

كما حذرنا (عليه السلام) من الاراء المختلفة وما تميل اليه القلوب وذلك في خطبته ٢٩ التي يذم فيها المتخاذلين فيصفهم بالمختلفة أهواؤهم وردت في الخطبة ٧٢واهواء اللذات: أي ماتهواه النفوس وتستلذه.[٦]

وانك حينما تقرأ او تسمع خطبته العجيبة المسماة بالغرَاء والتي يبدأها بقوله: (الحمدلله الذي علا بحوله، ودنا بطوله..) ثم يحمده على عواطف كرمه، وسوابغ نعمه ثم يوصي العباد بتقوى الله ثم يصف الدنيا وغرورها ثم يذكرنا بالمنية وما يحدث بعدها فيقول (عليه السلام): (قد ضلت الحيل وانقطع الامل، وهوت الافئدة كاظمة) قاصداً بذلك خلو الافئدة من المسرة فهي كاظمة أي ساكنة[٧].

وقال الرضي رحمة الله: انه (عليه السلام) لما خطب بهذه الخطبة اقشعرت لها الجلود، وبكت العيون، ورجفت القلوب ومن الناس من يسمي هذه الخطبة (الغراء) وهذا دليل على أن هذه الخطبة كانت معروفة بين الناس وفيها من اللطائف والدقائق ماعده ابن ابي الحديد من معجزاته التي فات بها البلغاء وأخرس الفصحاء[٨].

---

١ . شرح نهج البلاغة للشيخ محمد عبده وينظر صفوة الشروح لأركان التميمي: ص٣٥٦.
٢ . صفوة الشروح: ٦٥٢.
٣ . المصدر السابق، الخطبة ٥٠، ص١٢٤.
٤ . المصدر السابق، الخطبة ١٠٥.
٥ . مصادر نهج البلاغة:ص٢١١.
٦ . صفوة الشروح: هامش ص١٥٥(شرح محمد عبده).
٧ . مصادر نهج البلاغه: ج٢، ص٩٤.
٨ . شرح نهج البلاغة: مج٢، ص٨٦.

وقد ورد فيها (صفة خلق الانسان) فيقول في وصفة (خبط سادراً، ماتحاً في غرب هواه) ويعني بذلك أنه متحيراً، والماتح: الذي ينزل في البئر ليملأ دلوه، والغرب: الدلو العظيمة.[١]

ومن كتبه التي كتب بها الى معاوية الكتاب رقم ٧ يقول (عليه السلام) فيه: (أما بعد فقد اتتني منك موعظة موصلة، ورسالة محبرة نمقتها بضلالك، وامضيتها بسوء رأيك، وكتاب امرئٍ ليس له بصرٌ يهديه ولا قائدٌ يرشده، قد دعاه الهوى فأجابه..).[٢]

ماورد هنا من كتب نقله قبل الرضي أعثم الكوفي في (الفتوح) ج٢ ص٤٣١ والمبرد في (الكامل)[٣] ونصر بن مزاحم في كتاب صفين[٤] بصور تختلف اختلافاً قليلاً وهذا الكتاب كتبه الامام علي (عليه السلام) جواباً عن كتاب معاوية في اثناء حرب صفين بل في أواخرها .
ومعنى قوله (عليه السلام) أن معاوية كان منقاداً الى هواه لذا كان ضالاً في رأيه بعيداً عن الصواب. وقد استوحى (عليه السلام) وصفه لمعاوية من قوله عز وجل (افرأيت من اتخذ الهه هواه..)[٥].

وبعد ان سبح الله في كتابه ٣٧ الذي أرسله الى معاوية أيضاً قال له: ما اشد لزومك للأهواء المبتدعة والحيرة المتبعة. فالاهواء هي الآراء التي يبتدعها معاوية والحيرة جعلها صبحي الصالح[٦] بمعنى الهوى أيضاً.

وجاء التعجب من شدة لزومه للأهواء التي يبتدعها ليُغري بها أصحابه ويقرر في أذهانهم ان علياً (عليه السلام) لايصلح للإمامة فتارة يقول انه قتل عثمان وتارة يزعم أنه قتل الصحابة وفرق كلمة الجماعة، وتارة يعترف بكونه صالحاً للإمامة، والإقرار على الشام الى غير ذلك مما يبتدعه من الأباطيل . ويتبع الحيرة فيها مع تضييعه لحقائق الامور التي ينبغي ان يعتقدها من كونه (عليه السلام) الأحق بهذا الامر[٧].

اما في كتابه ٤٥ الى عامله على البصرة عثمان ابن حنيف الانصاري وقد بلغه انه دعي الى وليمة قوم من اهلها فمضى اليها. فقد ذكر في آخره (إليك عني يادُنَيا فحبلك على غاربك، قد انسللت من مخالبك وأفلت من حبائلك.. أين الامم الذين فتنتهم بزخارفك. هاهم رهائن القبور ومضامين اللحود، والله لو كنتِ شخصاً مرئياً وقالباً حسياً لأقمتُ عليك حدود الله في عباد غررتهم بالأماني وأمم ألقيتهم في المهاوي..)[٨] فالدنيا هي التي غررت بهم وألقتهم في المهاوي ويقصدبها هنا حفر النار.
بعد ان سلطنا الضوء على بعض المعاني السلبية لكلمة الهوى التي وردت في نهج البلاغة وجدنا من الطريف ان نذكر هذه المحاورة اللطيفة التي دارت بين شخصين احدهما اتخذه الهه هواه والثاني جعل الهوى عبداً له. فقد مرَ ملكاً على عارفٍ فما قام له العارف. فقال له: لم ماقمت لي وانت رعيتي وعبدي ؟ فقال له العارف: بل أنت عبد عبدي قال الملك: كيف ؟ قال: لانك عبد هواك وانا جعلت الهوى عبدي.
ومن معاني الهوى الايجابية التي وردت في نهج البلاغة ماذكره (عليه السلام) في خطبته ١٣٨ التي يومي فيها الى ذكر الملاحم فيقول منها:

---

١ . مصادر نهج البلاغة: ج٢، ص١٠٣.
٢ . شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: مج٣، ص٣٠٢.
٣ . الكامل للمبرد:ج١ ، ص١٩٣.
٤ . كتاب صفين لنصر بن مزاحم: ص٦٤.
٥ . سورة الجاثية: الاية ٢٣ ، المعجم المفهرس لالفاظ القران الكريم وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث.
٦ . شرح نهج البلاغة لصبحي الصالح الكتاب رقم ٣٧.
٧ . مصادر نهج البلاغة:ج٣، ص٣٣٣.
٨ . صفوة الشروح:ص٦٧٨.

(يعطف الهوى على الهدى ، اذا عطفوا الهدى على الهوى، ويعطف الرأي على القران، اذا عطفوا القران على الرأي).
ومعنى يعطف الهوى: يقهره ويثنيه، ويجعل الهدى قاهراً له، وظاهراً عليه وأشار (عليه السلام) بقوله (يعطف الرأي على القرآن...) الى الامام الحجة المهدي المنتظر عجل الله فرجه قائم ال محمد ينادي بالقران ويطالب الناس باتباعه ورد كل رأي اليه. واشار الى فرق المخالفين للامام المهدي (عج) الذين لايعلمون بالهدى بل الهوى ولايحكمون بالقران بل بالراي[١].

فهم يقرون حكم الراي والقياس والعمل يغلبة الظن عاملاً عمل القران ، وهذه موازنة عادلة بين اتباع امامنا الحجة عجل الله فرجه وبين المخالفين له.
وفي الخطبة ٨٧ والتي بدأها بقوله (عليه السلام): (عباد الله إنَ من احب عباد الله اليه عبداً أعانه الله على نفسه.. وتخلى من الهموم إلا همَاً واحداً انفرد به فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى وصار من مفاتيح أبواب الهدى..)[٢].

مأجمل ماوصف به الإمام علي (عليه السلام) الشخص الذي يحبه الله فقد أخرجه من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى وصار من مفاتيح أبواب الهدى كما وصفه بقوله فكان أول عدله نفي الهوى عن نفسه. فجعل (عليه السلام) التخلي عن الهوى أول خطوة على طريق العدل والحق.
وفي المعنى ذاته ماورد في الخطبة ٧٦ والتي قالها (عليه السلام) في الزهد، فهو يطلب الرحمة لمن سمع حكماً فوعى ودُعِي الى رشادٍ فدنا.. كابر هواه[٣] وكذب مناه. ومعنى كابر هواه غالبه وانتصر عليه. وهو مأخوذ من معنى الاية:(**وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى**)[٤].

ومن حكمه عليه أفضل الصلاة والسلام: الحكمة المرقمة ٤٢٧ يقول فيها: الحلم غطاء ساتر، والعقل حسام قاطع، فاستر خلل خلقك بحلمك، وقاتل هواك بعقلك[٥].

ماأروع حكمتك ياابا الحسن. فهاتان الصفتان (الحلم والعقل) ما ان توفرتا في شخص الا وكان حكيماً فاضلاً.
وهو ذات المعنى الذي ذهب اليه الامام الحسن (عليه السلام) حين قال من خطبة له: (العافية وضدها البلاء، والقوام وضده المكابرة والحكمة وضدها الهوى). فجعل العقل يعادل الحكمة والهوى عدو الحكمة والعقل فقاتله لانه عدو مبين.
اما قوله (عليه السلام) (أهوى اخيك معنا ؟)[٦] فمعناه ميله ومحبته قاله لبعض اصحابه وحينما قال: وددت أن أخي فلاناً كان شاهدنا ليرى مانصرك الله به على اعدائك قاصداً بذلك نصر الله للامام علي (عليه السلام) في معركة الجمل.
اذن فالهوى هو باب المعصية والنفس ماتزال تطمع في ذلك فالامام علي (عليه السلام) في خطابه للنفس الانسانية يحذرها ويوجهها لكي تصنع لنفسها طريقاً تتجنب فيه المنزلقات النفسية فيقول (عليه السلام):
(فرحم الله رجلاً نزع عن شهوته، وقمع هوى نفسه، فان هذه النفس أبعد شيئٍ منزعاً، وانها لاتزال تنزع الى معصية في هوى)[٧].

---

١ . صفوة الشروح:ص٣٣٠.
٢ . المصدر السابق:ص١٩١.
٣ . المصدر السابق:ص١٥٩.
٤ . النازعات: الاية ٤٠، المعجم المفهرس لالفاظ القران الكريم.
٥ . الكافي:ج١ ، ص٢٠وصفوة الشروح:ص٨٥٦-٨٥٧.ومصادر نهج البلاغة:ج٤، ص٣٠٠.
٦ . صفوة الشروح: الخطبة ١٢ صفحة ٦١.
٧ . صفوة الشروح: الخطبة ١٧٦ صفحة ٤١٤.

لقد حدد الامام في خطابه، المنهاج الذي ينبغي على الفرد اتباعه لكي تتخلص النفس من الانحرافات التي تتسبب في ظهور امراض نفسية تؤثر على التماسك الاجتماعي، فضلاً عن الانهيارات التي تحدث في صميم المجتمع نتيجة لتلك الانحرافات، التي اراد الامام علي (عليه السلام) من خلال خطابه بهذا الشأن، ان يضع القواعد الاساسية لبناء الشخصية المثاليه التي تخلو من الانحرافات النفسية[1]. وتكون سوية تقمع هواها وتردعه وتنهاه كي تفوز بالجنة لان الجنة هي المأوى.

واخيراً نجد من المناسب ان نختم هذه الشذرات في نهج البلاغه بقوله (عليه السلام) من كتاب له الى عامله على البصرة عثمان بن حنيف الانصاري[2].(ولكن هيهات ان يغلبني هواي..)

فهو يجزم بعدم قدرة هواه على غلبته. ونحن على يقين من ذلك فهو الامام المعصوم وصي رب العالمين وابن عم سيد المرسلين فكان كرم الله وجهه اماماً عالي السلطان واسع الامكان فلو اراد التمتع بأي اللذائذ شاء لم يمنعه مانع ولم يردعه رادع.

خلاصة البحث ونتائجه

ان (نهج البلاغة) وهو المختار من كلام الامام علي (عليه السلام) له من الشهرة والذيوع مايغنيه عن التعريف، ولقد كثرت الدراسات حوله وشرح بشروح كثيرة مما يعكس لنا أهمية هذا النهج في التراث العربي الاسلامي بل والانساني. لان ماذكر فيه من خطب وكتب وحكم تمثل مظاهر من الابعاد المختلفة لانسان قد طوى مسيرة الكمال. ومن جميل ماكتب عن نهج البلاغة تلك السطور التي كتبها الاديب جورج جرداق حيث قال:

(نهج البلاغة اخذ من الكفر والخيال والعاطفة ايات تتصل بالذوق الفني الرفيع مابقي الانسان وما بقي له خيال وعاطفة وفكر، مترابط بأياته، متساوق، متفجر بالحسن المشبوب والادراك البعيد، متدفق بلوعة الواقع وحرارة الحقيقية والذوق الى معرفة ماوراء هذا الواقع متألف يجمع بين جمال الموضوع وجمال الاخراج حتى ليندمج التعبير بالمدلول، او الشكل بالمعنى، اندماج الحرارة بالنار والضوء بالشمس والهواء... بيان هو بلاغة البلاغة، وتنزيل من التنزيل، بيان اتصل بأسباب البيان العربي ماكان منه ومايكون، حتى قال احدهم في صاحبه ان كلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق).[3]

فهذا النهج حوى ماحوى من الدرر الكامنة واليواقيت النفسيه فاخترنا منها كلمة (الهوى) تلك المفردة التي حملت مدلولات مختلفة منها: الميل والحب، والشهوة، والسقوط، والرأي وغير ذلك واغلبها مستوحاة من القران الكريم وهذا ليس بغريب لان الامام علي (عليه السلام) كاتب وحي الرسول وترجمان التنزيل.

كما موضح في المحور الثاني (الدراسة الاحصائية).

* احتلت هذه المفردة ومدلولاتها مساحة واسعه من (النهج) فقد وردت في ٣٨ خطبة و١٥ كتاباً من كتبه الموجهة الى عماله وقواده وبعض اصحابه و٦ حكم من حكمه (عليه السلام) وهذه الاعداد من دون تكرار فقد وردت متكررة ست مرات واربع مرات في بعضها.

كما موضح في المحور الثاني (الدراسة الاحصائية).

* وزعنا معاني (الهوى) الى نوعين ايجابية وسلبية وذكرنا السلبية في البداية لكثرة ورودها في النهج.

---

١ . الخطاب في نهج البلاغة، بنيته وانماطه ومستوياته، دراسة تحليلة للدكتور حسين العمري، الطبعة الاولى، دار الكتب العلمية، بيروت:٢٤٢ -٢٤٣.

٢ . صفوة الشروح: الكتاب ٤٥، ص٦٧٥.

٣ . نقلاً عن صفوة الشروح:ص٦و٧.

* وفي اعتقادنا ان الحكمة التي كان يقصدها الامام (عليه السلام) من ذكر (الهوى) جاء لتوعية الناس من هوى النفس الانسانية لان النفس أمارة بالسوء خوفاً منه (عليه السلام) من ارتكابهم المعاصي التي تؤدي بهم الى الهاوية والسقوط في النار.
* جمعنا اغلب المعاني الواردة في المعاجم اللغوية لكلمة الهوى ليكون القارئ على بينة منها.
* الطابع العام للخطب والكتب والحكم وصايا منها وصايا تخص القادة العسكريين، والولاة والعمال، والناس اجمعين. وهذا ناتج من كون الامام (عليه السلام) خليفة المسلمين ووصي رب العالمين وديان الدين وامام المتقين لذلك كان يوصي ويحذر وينبه الناس لقمع هوى انفسهم عملاً بقوله تعالى: (**واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى**)[1].
* ومن المصادفات العجيبة ان كلمة الهوى ومفرداتها الأخرى ذكرت في القران الكريم (٣٨) مرة وذكرت في نهج البلاغة للإمام علي (عليه السلام) في (٣٨) خطبة ايضاً.
جعلنا الله وإياكم ممن يقمع هوى نفسه والسلام عليكم
*القران الكريم.

---

١ . النازعات اية: ٤٠.

دلالة الأبنية النادرة في نهج البلاغة

المدرس المساعد: ميثم مهدي صالح الحمامي (كلية التربية الأساسية - جامعة الكوفة)

المدرس المساعد: عباس علي الفحام (كلية الآداب - جامعة الكوفة)

المقدمة

شهدت السنوات السابقة إقبالا ملحوظا من الجامعات العراقية على دراسة نهج البلاغة في بحوث الماجستير والدكتوراه، وما زال هذا الأثر الخالد معطاء للباحثين، وما زال قعره بعيد الغور صعب المنال لما امتاز به من دقة في التعبير،وبراعة في الصياغة،وإمكانات كبيرة في تفجير الطاقات التعبيرية للمفردات والتراكيب، الأمر الذي جعل من نهج البلاغة يسمو سموا كبيرا على كل النتاجات الأدبية الأخر.

وهذا البحث محاولة لدراسة جانب امتاز به التعبير الفني في كلام أمير المؤمنين المجموع في نهج البلاغة وهو بعنوان (دلالة الأبنية النادرة في نهج البلاغة)، محاولة في إظهار بعض من الإمكانيات اللغوية للإمام أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب (عليه السلام)، أمير البلاغة والبيان، وربيب مدرسة القرآن الكريم، المعجزة التي جعلت من اللغة محلا للتحدي وإعجاز الخصوم.

وقد اشتملت خطة البحث على تمهيد درس فيه المقصود بالبنية النادرة، ثم انطوى البحث على دلالات هذه الأبنية وانحصرت بأربعة أغراض هي:

١- النوعية.

٢- الهيأة

٣- التكثير والمبالغة

٤- التوازن.

هذا وقد اعتمد البحث على محاولة أسلوب التحليل والوقوف المتأني على النص المعروف بثرائه في نهج البلاغة، ومن هنا كانت شروحات هذا الكتاب ومصادر النقد واللغة والبلاغة مما استند إليه البحث في رحلته العلمية، التي نرجو أن نوفق فيها في إضافة شيء جديد إلى الدراسات التي عرضت إلى هذا الأثر الخالد، ومن الله تعالى التوفيق.

الباحثان

التمهيد

الأبنية النادرة وسماتها

ليس ثمة تعريف محدد للصيغ النادرة، وإنما هي استنتاج واستقراء لأساليب استعمالها بألفاظ نادرة، وهي تشير إلى القدرة على إدارة اللغة وإجالة مفرداتها، وانتخاب استعمالها بشكل يحقق مطابقة تامة بين الأداء والمضمون في سياقاتها التعبيرية، وليس بالضرورة أن تكون الصيغ نادرة بل قد تكون بعض الألفاظ في أوزان تلك الصيغ مما يقل في الكلام العربي، وقلتها لا تعني عيبا باللفظ النادر وإنما هو القصور عن إمكان اكتشاف الدر في بحر اللغة الذي لا يدرك قعره، ومن هنا يتميز المبدع من غيره في بعث مثل هذه الصيغ وتسخيرها مادة لمعانيه.

ولكن ما معايير الندرة، بحيث نطلق على هذا البناء وصف النادر وذاك غير نادر؟

يمكن تحديد الإجابة بالمعايير الآتية:

أولا: قلة الاستعمال

ويمكن الرجوع إلى مصادر اللغة لتحديد مديات استعمال الأبنية، وإن بدا على بعض المعجمات قصورا واضحا في طبيعة تحديد هذه القلة، كونها تهتم بلملمة المفردات العربية وحصرها

وتبيان معانيها المختلفة، بينما الذي يحدد قلة الاستعمال من غيره هي المعجمات السياقية التي يندر وجودها في المكتبة العربية كمعجم (أساس البلاغة) للزمخشري.
وكما ذكرنا، إن قلة استعمال المفردات أكسبها ندرة لا بسبب خلل ذاتي في هذه الصيغ، بل يعزى السبب إلى عدم سعة المتكلم بالإحاطة الكاملة بأسرار المفردة العربية ومعرفة مكامنها.

ثانيا: الغرابة

في الحقيقة قد تأتي الغرابة من قلة الاستعمال، كون الأذن لم تألف سماعها من قبل، وربما تأتي من طبيعة تأليف الأصوات داخل هذا البناء أو ذاك، أو ربما تأتي من طريقة استعمالها في التركيب الجملي مثل نقل اللفظة من مكانها المعتاد في الاستعمال إلى تركيب جديد يسبغ عليها حلة جديدة ويعطيها زخما جديدا من الحياة.
ويبقى ضابط ذلك كله هو استقراء الكلام العربي في المراجعة المتأنية للمصادر التي جمعت خطب العرب ومصادر اللغة المختلفة، والوقوف المتفحص لدواوين الشعر العربي، وإن كان الكلام العربي في نثره غيره في شعره، ولكننا نعتقد أن الإبداع في الخطابة العربية تمثل في القدرة على إذابة روح الشعر في النثر، أو ما يسميه النقد المعاصر بالشعرية.
ومن هنا تميزت الخطابة النبوية والحديث الشريف عن غيره، إلى الدرجة التي استطاع بها النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) من ابتكار صيغ وتراكيب في الكلام العربي غير معهودة من قبل كما يذكرها الجاحظ.
وهنا – أيضا – نسجل تميزا غاية في الإبداع لابن عم النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) علي بن أبي طالب(عليه السلام) وربيبه في القدرة على صياغة المعاني الصعبة (الحقيقية) التي يصعب في العادة التعبير عنها تعبيرا فنيا، ولا سيما التعبير بالأبنية النادرة على غيره.

دلالة الأبنية النادرة

ورد في نهج البلاغة استعمالات عديدة لبعض الصيغ يمكن للباحثين وسمها بالأبنية النادرة في استعمالاتها عند الإمام، أو أنها صيغ يمكننا القول أنها كانت غاية الإتقان في التعبير عن المعاني، وقد هدف البحث للكشف عن بعض دلالاتها وتمثلت بما يأتي:

أولا: النوعية

وردت في نهج البلاغة مجموعة من المصادر نادرة الاستعمال لفظا ومعنى، حملت دلالة النوع والتميز في سياق التعبير، نحو قوله (عليه السلام) يصف الدنيا ويحذر منها: «وَ أُحَذِّرُكُمُ اَلدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ وَ لَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا».
فقد استعمل الإمام (قُلْعَةٍ ونُجْعَةٍ) وهما على صيغة فعلة، و(فُعلة) بضم الفاء وسكون العين، تأتي مصدرا للفعل الثلاثي إذا دلّ على لون وكان صحيحا فتقول حمرة، وخضرة، وزرقة، في حمر وخضر وزرق. وقد ذكر اللغويون معاني أخر لهذه الصيغة منها أنها تدل على العيب وهو قليل، والفضلة من الشيء، وموضع الفعل من الجسد.
ويرى الرضي أن فعلة بسكون العين جاءت كثيرا بمعنى المفعول والفاعل، وكلاهما للمبالغة، والمعنى أن الإمام صور الدنيا بالمنزل الذي لا يستقر بأهله ولا يثبت، فما إن يحل به النازلون حتى يقلع بهم فهو «ليس بمستوطن كأنه يقلع ساكنه».
إنه – إذن- ليس كأي منزل مما عرفه الناس من حيث الاستقرار والأمن والثبات، بل نوع خاص مميز من المنازل ينطبق أيما انطباق على صفات الدنيا الموسومة بسمات هذا المنزل الذي ذكره الإمام، يقول ابن أبي الحديد: «قوله (عليه السلام) فإنها منزل قلعة بضم القاف وسكون اللام أي ليست بمستوطنة و يقال هذا مجلس قلعة إذا كان صاحبه يحتاج إلى أن يقوم مرة بعد مرة ويقال هم على قلعة أي على رحلة ومن هذا الباب قولهم فلان قلعة إذا كان ينقلع عن سرجه ولا يثبت في البطش والصراع والقلعة أيضا المال العارية وفي الحديث بئس المال القلعة».

وأصل القلعة «النخلة التي تُجْتَثُّ من أصلها قَلْعاً أو قَطعاً عن أبي حنيفة وقُلِعَ الوالي قَلْعاً وقُلْعةً فانْقَلَعَ عُزِلَ والمَقْلوعُ الأميرُ المَعْزُولُ والدنيا دار قُلْعَةٍ أي انْقِلاعٍ ومنزلنا منزل قُلْعَةٍ بالضم أي لا نملكه ومجلس قُلْعَةٍ إذا كان صاحبه يحتاج إلى أن يقوم مرة بعد مرة وهذا منزل قُلْعةٍ أي ليس بِمُسْتَوْطَنٍ ويقال هم على قُلْعةٍ أي على رحْلةٍ».
وكذا الأمر في لفظة (النجعة) حين قيد بها (الدار) أي لا يطلب المراد منها، فالنجعة طلب الكلأ من موضعه.
وهذا ملمح جديد وجميل لان الإنسان يغادرها عنوة.
وفيما تقدم نقول: لما كان مبدأ عدم بقاء الدنيا وزوالها من المعاني الإسلامية الجديدة على العرب، فإننا لم نجدهم قد وصفوا الدنيا بأنها قلعة، وإنما وصفوا الأماكن بذلك، وقد نقل الإمام هذه الصفة إلى الدنيا مرتجلا لها بما سمت له قريحته الصافية وتعمق فكره بالمعاني الإسلامية الجديدة على العرب، وندر أن توصف الدنيا ذما بالقلعة، مبالغة في صفة زوالها وعدم بقاء الإنسان فيها.
ويبدو أن ثمة دواع لاستعمال الإمام لهذه الصيغة منها:
اختزال المعاني والصور للحياة الدنيا بهذه الصيغة المعروفة عند العرب ولكنه نقلها لوصف الدنيا، وهذه الصورة نجدها في توضيح المعنى لهذه الكلمة. لأن للألفاظ خزين هائل من التجارب البشرية فهي «كالقماقم أغلقت سداداتها على شحنة من تجارب لا حصر لها اختزنها فيها الإنسان على كر العصور».
أنها أكثر الصيغ انطباقا على حقيقة الدنيا التي هي مرحلة في رحلة الإنسان ورحلة في مرحلة.
اصطباغ الكلام بالصبغة الفنية العلية التي أطردت في كلامه (عليه السلام) واعني التوازن الإيقاعي أو لنقل الشعرية كمصطلح حديث، تهيئة للصيغة المماثلة (نجعة).
التأثر البين لكلامه (عليه السلام) بالقرآن الكريم، وهذا «يدل على قوة حضور النص القرآني في ذهن الإمام على (عليه السلام)، إذ لا يجد صعوبة في التعبير الفني عن أي معنى يشاء، لأن ما عنده من خزين الصيغ القرآنية يمكنه من تشكيل المعاني الصعبة الجديدة كمعاني التوحيد والعالم الآخر في صور تقريبية لأذهان الناس، وتلك ميزة انفرد بها الإمام (عليه السلام)، لأنه يحيى حياة القرآن في أدق معاني هذه الكلمة».
وفي مثال آخر لهذه الصيغة ما جاء في شرح نهج البلاغة عن قوله (عليه السلام) ينصح ولده الحسن: «وَ اِعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لاَ لِلدُّنْيَا وَ لِلْفَنَاءِ لاَ لِلْبَقَاءِ وَ لِلْمَوْتِ لاَ لِلْحَيَاةِ وَ أَنَّكَ فِي مَنْزِلِ قُلْعَةٍ وَ دَارِ بُلْغَةٍ وَ طَرِيقٍ إِلَى اَلْآخِرَةِ».
والـ(بلغة) هو القدر اليسير من العيش الذي لا يبقى منه زيادة، وكما جاء في المعجم «ما يُتَبَلَّغُ به من العيش.. ولا فَضْلَ فيه». ودار بلغة: أي الدنيا دار يبلغ منها إلى الآخرة.
وكلام الإمام هذا تكرر في غير موضع باللفظة ذاتها نحو قوله (عليه السلام) في صفة الدنيا: «قلعتها أحظى من طمأنينتها، وبلغتها أزكى من ثروتها».
ومما جاء على هذه الصيغة أيضا لفظة(أُكْلَةٌ) فيما قاله (عليه السلام) لأهل البصرة بعد واقعة الجمل: «أَرْضُكُمْ قَرِيبَةٌ مِنَ اَلْمَاءِ بَعِيدَةٌ مِنَ اَلسَّمَاءِ خَفَّتْ عُقُولُكُمْ وَسَفِهَتْ حُلُومُكُمْ فَأَنْتُمْ غَرَضٌ لِنَابِلٍ وَأُكْلَةٌ لآِكِلٍ وَ فَرِيسَةٌ لِصَائِلٍ».
ولا تبين المصادر اللغوية الفرق الواضح لهذا المصدر بين الأكلة بالفتح والأكلة بالضم فقد جاء في اللسان: «والأُكْلة اسم للُّقْمة وقال اللحياني الأُكْلة والأُكْلة كاللُّقْمة واللُّقْمة يُعْنَى بها جميعاً المأكولُ...وتقول أَكَلْت أُكْلة واحدة أي لُقْمة وهي القُرْصة أيضاً وأَكَلْت أكلة إذا أكَل حتى يَشْبَع وهذا الشيء أُكلة لك أي طُعْمة لك».
ويقول ابن أبي الحديد «والأكلة بضم الهمزة المأكول»، بينما ليس كل مأكول يقال عنه أكلة بالضم.

واستعمال الإمام لهذه الصيغة من مادة أكل غاية في الدقة، إذ أن الإنسان ليس بطعام مقصود يقتاته حي، لذا لم يقل أكلة بفتح الهمزة،وإنما قال أكلة بالضم لأنه هنا قد جعل من نفسه أكلة يأخذ منها الآكل ويتركها، وهنا يفهم الاستصغار لشأن المأكول واستحقاره.
ومما جاء على هذه الصيغة كلمة،(عرجة) في قوله (عليه السلام) من كلام له كان كثيرا ما ينادي به أصحابه: «تَجَهَّزُوا رَحِمَكُمُ اَللَّهُ فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ وَأَقِلُّوا اَلْعُرْجَةَ عَلَى اَلدُّنْيَا».
والعرج في أصل اللغة الصعود، ومنه المعراج إلى السماء، وسمي الأعرج بذلك لأنه يصعد بإحدى رجليه عن الأخرى.
والعرجة التباطؤ في المشي استعاره الإمام لهذا النوع من المشي وأمر بالإقلال منه تزهيدا بالمكث فيها والالتفات إليها، إذ لما كان العرج يبطئ المشي أو انه خلل في المشي يؤدي إلى التباطؤ، فقد استعار الإمام هذه الصورة إلى الإنسان، الذي قد يتباطأ أو يصر على التباطؤ طلبا للمكوث الأطول فيها، ودعاه إلى تركها لما في ذلك من إظهار لحقيقة الدنيا، وليس كالإمام احد أحق بهذا الوصف والنصح من المسلمين كونه قد تلبس بالمثل الإسلامية قولا ومضمونا وهو ابن المدرسة القرآنية المحمدية.
ومن الصيغ التي تحمل دلالة النوعية قوله ناصحا: «..وَ خُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَ لَا تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا فَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ:«**إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ**»، وَقَالَ تَعَالَى: «**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ**»، فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ، وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ، اسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ «**وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**»، وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَ لَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ، وَ «**هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيد**»».
والقرض كناية عن قهر النفس على طاعة الله في العمل والإنفاق في سبيله، ووصف القرض بالحسن لأجل الترغيب في العمل للآخرة وتعظيم استحقاقها.
والقرض الحسن هو«الإنفاق في سبيله، شبه ذلك بالقرض على سبيل المجاز لأنه إذا أعطى ماله لوجهه فكأنه أقرضه إياه».
وفائدة إجراء الكلام على طريقة الاستفهام لأن الترغيب في الدعاء إلى الفعل يكون أقرب من ظاهر الأمر في الإقبال عليه.
ومحل الشاهد هو (قل) فهو مصدر من القلة والقليل فهو أورده الإمام ليس من أجل مقابلته إيقاعيا بـ(ذل) فحسب، بل من أراد به نوعا من القلة لأن «القل من الشيء: أقله».
وجاء في الحديث النبوي الشريف عن الربا: «إنه وإن كثر فهو إلى قل» أي هو ممحوق البركة ولو كثر.
والغريب أن ابن فارس في معجمه ذهب إلى أن المقصود بالقلة ليست نزارة الشيء بل «ما أقله الإنسان من جرة أو حب».
ومما جاء على هذه الصيغة في مصادر اللغة قولهم: «هو قل بن قل، إذا كان لا يعرف هو ولا أبواه».
واستعمل هذا المصدر (قل) في موضع آخر من نهج البلاغة في قوله (عليه السلام) وقد سئل عن قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) «غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود» فقال (عليه السلام): إنما قال صلى الله عليه وآله ذلك والدين قل، فأما الآن وقد اتسع نطاقه وضرب بجرانه فامرؤ وما اختار».
فالمقصود بالقلة في الدين قلة في ضعف كون الإسلام طري العود بعد ن ويؤيده قوله الأخير في زيادة قوة الدين واتساع نطاقه.
ومن صيغ المصادر النادرة الاستعمال الدالة على النوعية قوله (عليه السلام) في وصف الفتنة بأنها: «تبدأ في مدارج خفية، وتؤول إلى فظاعة جلية. شبابها كشباب الغلام».
فشباب بكسر أوله مصدر توخى منه نوعا من الشباب الموحي بالبدء والحماسة والقوة.
ثانيا: الهيأة

وهي دلالة ثانية للصيغ النادرة الاستعمال في نهج البلاغة، وقد جاءت في مواضع قليلة وعلى وزن واحد هو (فعلة) بكسر الفاء، وصيغة المصدر (فِعلة) يؤتى بها للهيأة، كقتلة إذا كانت قتلة سوء أو ما شابه وضربة وغيرها، فتكون موصوفة أو دالة على صفة مذكورة أو معلومة بقرينة الحال.
فيصاغ من الثلاثي المجرد (فِعلة) مصدرا للهيأة فتقول: (وِقفة، جِلسة، ركبة).
ولا يوجد نظير هذا الوزن للدلالة على الهيأة في جميع اللغات السامية كما يذكر الدارسون.
وجاءت فعلة صيغة للجمع في ألفاظ سمعت من العرب، ولعدم اطرادها في الجمع جعلت اسم جمع،نحو شيخ وشيخة، جار وجيرة، ثور وثيرة، وقاع وقيعة.
ومما ورد منها:
لفظة(نِبتة، خِضمة)
كقوله (عليه السلام): «إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ اَلْقَوْمِ نَافِجاً حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ وَ قَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اَللَّهِ خِضْمَةَ اَلْإِبِلِ نِبْتَةَ اَلرَّبِيعِ».
والشاهد في استعماله (خضمة و نبتة)، وقد أراد بها الإمام الشكل والهيأة، لأن السياق صور أحوال هؤلاء المنهومين على السلطة بأنهم يأكلون بنهم بكل الفم بدلالة الفعل (خضم) التي تعني الأكل بكل الأضراس التي تتناقض مع الفعل (قضم) التي تعني الأكل بأطراف الأسنان، وهو فعل حاد عنه الإمام، لأنه لا يلبي المعنى الذي ينشده في تصوير التكالب على أكل مال المسلمين الذي سماه «بمال الله تعبيرا عن شدة حرمته، وصور طريقة أكله بطريقة أكل البهائم الجائعة لنبتة الربيع بعد شدة القحط.
لذلك أسند إلى الخضم الأكل الرطب، وإلى القضم الأكل اليابس، لذلك اسند الإمام إلى الخضم لفظة النبتة. كما أن لفظة (نبتة) أوردها الإمام قاصدا بها الهيأة، وهي ما يتناسب وصورة الإسلام الغض الطري العود، قال أبو ذر رضي الله عنه: «..إن بني أمية يخضمون و نقضم و الموعد الله».
وهو مأخوذ من قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «يخضمون و نقضم والموعد الله».
وهكذا نجد أن الإمام قد استغل الألفاظ والصيغ أيما استغلال مفجرا لطاقاتها التعبيرية ليصور دنيء فعل القوم وبشاعته «وما أحسن وألطف تشبيهه (عليه السلام) صنيع بني أمية في مال الله بخضم الإبل أو هضمه نبت الربيع، حيث يستفاد من الخضم أنهم كانوا يأكلون مال الله بملء أفواههم فيفرغون في بطونهم بلا مهلة، إذ نبت الربيع لرقته ولينة لا فصل بين وضعه في الفم وبلعه».
لقد استغل الإمام الطاقة التعبيرية لصيغة فعلة لتعضيد الصورة السابقة لأن خضمة دلت على نوع الخضم وهيأته سيما بعد أن أضيفت إلى ما بعدها، وكذلك نبتة يستشف منها نوع النبات الربيعي الذي يتصف برقته وطراوته لذا فالحيوان يأكل بكل فيه وكأنه يبتلعه لا يمضغه سيما وأن نبات الربيع جاء بعد أن محلت الأرض من الشتاء اظهارا للهفة.
لفظة(قِعْدَة)
ووقعت هذه اللفظة في نهج البلاغة مرة واحدة على هذه الصيغة، وذلك في كتاب للإمام (عليه السلام) إلى أبي موسى الأشعري عامله على الكوفة وقد بلغه عنه تثبيطه الناس عن الخروج إليه لما ندبهم لحرب أصحاب الجمل: «...وَ اَيْمُ اَللَّهِ لَتُؤْتَيَنَّ مِنْ حَيْثُ أَنْتَ وَ لاَ تُتْرَكُ، حَتَّى يُخْلَطَ زُبْدُكَ بِخَاثِرِكَ وَ ذَائِبُكَ بِجَامِدِكَ، وَحَتَّى تُعْجَلُ عَنْ قِعْدَتِكَ..».
وقد استعمل الإمام (عليه السلام) (قعدة) على وزن فعلة بكسر الفاء، ليدل بها على هيأة ما لقعود أبي موسى، ويرى ابن أبي الحديد أن قول الإمام (وليعجلنك الأمر عن هيئة قعودك) وصفا لشدة الأمر وصعوبته.
ويبدو للباحث أن استعمال الهيأة هنا جاء للدلالة على التهكم من أداء عامله على الكوفة في مثل هذه الأجواء التي عاشتها الأمة الإسلامية.
ثالثا: التكثير والمبالغة

وأعني بها الصيغ القليلة الاستعمال في مصادر الوزن (تفعال) بفتح التاء وأخرى بكسرها، ومن الأول جاءت في خمسة مصادر (تهمام، تركاض، تجوال، ترحال، تلعابة)، ويؤتى بهذه الصيغة المصدرية لتكثير المصدر.
وفيما يأتي شرحها مفصلا.
قال الإمام (عليه السلام) من خطبة حث فيها على الجهاد وذم المتقاعسين «... قَاتَلَكُمُ اَللَّهُ لَقَدْ مَلأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً وَ شَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً وَ جَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ اَلتَّهْمَامِ أَنْفَاساً..»، وفي اللسان: «الهَمُّ من الحُزْن والهَمُّ مَصْدَرُ هَمَّ الشَّحمَ يَهُمُّه إذا أذابَه والهَمُّ مصدر هَمَمْت بالشيء هَمّاً والهمُّ الشيخ البالي»، ولما كان التهمام بهذه الخطبة بمعنى الهم كما ذكر، فلماذا جاء الإمام بهذه الصيغة ولم يقل نغب الهم ؟، والجواب واضح فيما ذكره أهل اللغة من أن المصدر يؤتى به على هذه الصيغة لغرض التكثير لفعل المصدر لإظهار مقدار الألم الذي ألحقوه بالإمام علي، ولا ننسى القول أن استعمال هذه الصيغة من المصدر آنف الذكر نادر والمتتبع للمعجم العربي يجد ذلك.
وعلى هذه الصيغة جاء المصدر(تركاض وتجوال) في نهج البلاغة في كتابه إلى أخيه عقيل:«فدع عنك قريشا و خلهم و تركاضهم في الضلال و تجوالهم في الشقاق»، وقد عدل الإمام إلى هذه الصيغة ليدلل على تكالب القوم وتسابقهم على قتاله، مستغلا الطاقة التعبيرية لهذه الصيغة، التي وضح من خلالها كيف تكالب القوم عليه متسارعين ومضطربين في ذلك، ومذ أن نادى به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وليا وإماما، كل ذلك يستلهم من صيغة تفعال في البنيتين.
ومما جاء على صيغة تفعال (الترحال) في قوله (عليه السلام): «ألا إنه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلا، وأقبل منها ما كان مدبرا، وأزمع الترحال عباد الله الأخيار، وباعوا قليلا من الدنيا لا يبقى، بكثير من الآخرة لا يفنى !»، مشيرا إلى اقتراب الساعة، ومحضا أهلها على الاستعداد للرحيل إلى دار الآخرة، ذاماً من تمسك بها وباع قليلها الذي لا يبقى بكثير من الآخرة لا يفنى، وقد ورد الحديث عن(أزمع الترحال) «أي ثبت عزمهم عليه، يقال: أزمعت الأمر، ولا يقال: أزمعت على الأمر، هكذا يقول الكسائي، وأجازه الخليل والفراء».
من دون أن نجد حديثا عن المصدر الترحال ودلالته وطاقته التعبيرية التي تفوق طاقة المصدر الرحيل، لأن الإمام (عليه السلام) أراد أن يعبر عن رحيل الدنيا بأقصى طاقة تعبيرية ممكنة انسجاما مع ما يناسب المقال.
وفي صيغة أخرى قوله (عليه السلام) من خطبة له في ذكر عمرو بن العاص: «عجبا لابن النابغة، يزعم لأهل الشام أن فيّ دعابة،وأني امرؤ تلعابة، أعافس وأمارس، لقد قال باطلا ونطق آثما».
والنابغة المشهورة من النساء فيما لا يليق، والشاهد فيه (تلعابة) وتعني الكثير اللعب،والمصدر منه (تَلعاب) ينطق أوله بالفتح. وهي «صيغة تدل على التكثير».
ومن العجيب حقا أن يتجرأ هؤلاء على الإمام بهذه التهم الرخيصة التي تنم عن حقارة الطبع وقدرة الافتراء التي نبه إليها الإمام بقوله بدءا (يزعم) التي تدل على القول المدعى بلا تحقيق.
وقد رد المأثور العربي ذلك، فأصبح يقال: «هو في السلم تلعابة، وفي الحرب ترعابة».
واستعملت صيغة (تفعال) بكسر أوله مرة واحدة في نهج البلاغة، وذلك في لفظة(تبيان)، وقيل: «كلُّ ما ورَدَ عن العرب من المصادر على تَفعال فهو بفتح التّاءِ إلاّ لفظتين: تِبْيَان وتِلْقَاء.
وقال أبو جعفر النّحّاسُ في شرح المُعلّقَات: ليس في كلام العرب اسمٌ على تِفعالٍ إلاّ أربعة أسماءٍ وخامسٌ مختلَف فيه يقال تِبْيَان ولقِلادةِ المرأةِ: تِقْصَارُ وتِعْشَارٌ وتِبْرَاك مَوضعان والخامس تِمساح».
وهي لا شك لفظة قرآنية استعملها الإمام من شدة ذوبانه في التعبير القرآني على الجملة.

قال أميرالمؤمنين (عليه السلام) في وصفه لكتاب الله عز وجلّ: «ثم أنزل عليه الكتاب نورا لا تطفأ مصابيحه، وسراجا لا يخبو توقده، وبحرا لا يدرك قعره، ومنهاجا لا يضل نهجه، وشعاعا لا يظلم ضوؤه، وفرقانا لا يخمد برهانه، وتبيانا لا تهدم أركانه وشفاء لا تخشى أسقامه...».
فقد استعمل للدلالة على معنى البيان، متأثرا بقوله تعالى: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ».
ترى لماذا وردت لفظة التبيان بهذه الصيغة في الآية المباركة، وفي نص الإمام (عليه السلام)، ولماذا لم يستعمل المصدر بيان بدلا عنه ؟ نرى أن بعض اللغويين وبعض المفسرين لم يقولوا بالفرق بين الصيغتين فقد «روى الواحدي بإسناده عن الزجاج أنه قال تبياناً في معنى اسم البيان ومثل التبيان التلقاء وروى ثعلب عن الكوفيين والمبرد عن البصريين أنهم قالوا لم يأت من المصادر على تفعل إلا حرفان تبياناً وتلقاء وإذا تركت هذين اللفظين استوى لك القياس فقلت في كل مصدر تفعال بفتح التاء مثل تسيار وتذكار وتكرار وقلت في كل اسم تفعال بكسر التاء مثل تقصار وتمثال»، يعني أن تبيان اسم للمصدر بيان، لا يختلف عنه في الدلالة، يقول الطوسي والتبيان والبيان واحد.كما أقر بذلك الطبرسي متبعا ما ذكره الأزهري إذ قال: العرب تقول بينت الشيء تبيينا و تبيانا.
إذا كان الأمر سيان كما تقدم، فإن استعمال صيغة بدل الأخرى ترجيح بلا مرجح، مع «إن التعبير القرآني تعبير فني مقصود.
كل لفظة بل كل حرف فيه وُضع وضعا فنيا مقصودا، ولم تُراع في هذا الوضع الآية وحدها ولا السورة وحدها بل رُوعي في هذا الوضع التعبير القرآني كله»، إلا أن سيبويه يرى أن التبيان «ليس ببناء مبالغة، وإلا انفتح تاؤه، بل هو اسم أقيم مقام مصدر بين، كما أقيم غاره وهي اسم مقام إغارة في قولهم: أغرت غارة، ونبات موضع إنبات، وعطاء موضع إعطاء، في قولهم: أنبت نباتا، وأعطى عطاء قالوا: ولم يجئ تفعال - بكسر التاء - إلا ستة عشر اسما: اثنان بمعنى المصدر، وهما التبيان والتلقاء».
وإذا لم يرد في التبيان معنى المبالغة مثلما أريد بصيغ تَفعال فلماذا لم يستعمل المصدر بيان وهو أكثر اختصارا ؟ وتأسيسا على قاعدة أن الزيادة في المبنى تؤدي إلى زيادة في المعنى، فلا بد من أن تكون زيادة في هذه الصيغة لغرض التعظيم والمبالغة، لذلك نجد أن الزمخشري قد لمح لها حين فسر هذه الكلمة في الآية آنفة الذكر إذ قال: «(تِبْيَانًا) بياناً بليغاً ونظير»، أو لغرض الاستمرارية في البيان، ولتوضيح ذلك نقول: ما لغرض التعظيم والمبالغة فلأن (تِفعال) و(تَفعال) واحد أي إنهما مصدران، وذلك لكون ندرة الصيغة بكسر التاء واطرادها بفتح التاء، يضاف إلى ذلك ما ذكره الزبيدي من أنه «لا قائل في تبيان انه اسم مصدر» فالقول بأنه مصدر دل على المبالغة، وأما لغرض الاستمرارية في البيان فلأن اسم المصدر إذا قلنا أنه اسم مصدر أو اسم عين، لأن الأسماء تدل على الاستمرارية كما هو معلوم.
واسم الاسم أكثر استمرارا من الاسم، وان كنا نرى أن الجمع أولى لعدم تعارضه ولانسجامه مع سياق الآية المباركة، ولهذا نجد أن الإمام قد كان واعيا لهذا المعنى.
وكذا لفظ (الفرقان) فقد جاءت وصفا للكتاب العزيز للمبالغة في شدة تفريقه بين الحق والباطل. وهي أيضا من ألفاظ القرآن الكريم نحو قوله تعالى:«تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً». ومن صيغ المبالغة قوله (عليه السلام) في وصف الفتن: «مرعاد مبراق، كاشفة عن ساق».
فهذه مصادر تدل على المبالغة في الشدة والكثرة في الرعد والفتن، وقوله الأخير كناية عن الهول والشدة. وهي من قوله تعالى: «**يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ**».

رابعا: التوازن

هو سمة ايقاعية في نهج البلاغة يتوخاه التعبير الفني فيه، ولاسيما حين يأتي نتاجا ثانويا عن المعنى، نتيجة للشاعرية التي عرف بها الإمام (عليه السلام) في كلامه.

ودلالة التوازن تحقق سمات التأثير في المتلقي ورسوخ الفكرة في الذهن، وله أساليب كثيرة في نهج البلاغة مثل التقابل وتوازن الفقرات السجعية وغير السجعية، ولكن هذه المرة جرى من خلال الأبنية النادرة بأسلوب المصادر الميمية، فما المصادر الميمية؟ وما أساليب استعمالها؟
لو رجعنا إلى ما قاله الصرفيون في الفرق بين المصدر والمصدرالميمي، فإننا لا نكاد نجد أنهم قد فرقوا في المعنى بينهما، «وإنما تجدهم يفسرون الأخير بمعنى الأول، والمعروف أن العرب لم تكن لتزيد في بنية الكلمة شيئا إن لم يكن هناك معنى زائد على الأصل».
ولما كان المصدر عند الصرفيين اسما يدل على الحدث مجردا،أما المصدر الميمي فهو مصدر متلبس بذات في الغالب، وهو في كثير من التعبيرات يحمل معنى لا يحمله المصدر غير الميمي، فإن هذا يعني أن هناك فرقا بينهما في المعنى.
إن المصدر الميمي أكثر ما يكون شبها باسم المصدر، «إذ مدلول المصدر الحدث، ومدلول اسم المصدر لفظ المصدر من حيث معناه، حتى أُطلق على اسم المصدر لفظ (اسم العين) فالعطاء ليس كمثل إعطاء، إذ يحمل في معناه ذاتا معطاة».
وإن كان هناك من فرق بين اسم العين واسم المصدر.
وفي نهج البلاغة ثمة أسلوب مطرد في التعبير بالمصادر الميمية، إذ غالبا ما يأتي لالتماس التوازن بين الفقرات في الكلام، مما يسبغ عليه مزيدا من المؤثرات الفنية ولاسيما الإيقاعية التي تستلذها النفس وتميل إليها، وتقبل عليها الأسماع أكثر، الأمر الذي يحقق غايتين: الإبلاغ والتأثير وهما غاية الخطيب، فالخطابة تعني فن الإقناع وهو لا يكون بدونهما.
والأمثلة على ذلك كثيرة، نحو قوله (عليه السلام) لابنه محمد بن الحنفية: «يا بني إني أخاف عليك الفقر، فاستعذ بالله منه، فإن الفقر منقصة للدين، مدهشة للعقل».
فما بين (منقصة ومدهشة) توازن موسيقي محبوب بين الفقرات لافت للانتباه.
وقوله: «عباد الله، إنه ليس لما وعد الله من الخير مترك، ولا فيما نهى عنه من الشر مرغب».
ومترك ومرغب مصدران ميميان أسبغا على الكلام ثراء إيقاعيا يستسيغه السامعون، لاسيما حين يأتي في الأسلوب الخطابي المباشر الذي تشير إليه جملة النداء (عباد الله).
ومثله قوله (عليه السلام) ناصحا: «واعلموا أن يسير الرياء شرك، ومجالسة أهل الهوى منساة للإيمان. ومحضرة للشيطان. جانبوا الكذب فإنه مجانب للإيمان. الصادق على شرف منجاة وكرامة. والكاذب على شفا مهواة ومهانة».
ففضلا عن ثبات المعنى في المصادر المبتدئة بحرف الميم، نلحظ سيادة الشاعرية باستعمال هذا الأسلوب الفني العفوي الذي يدل على احتراف منقطع النظير لاستعمالات اللغة ومعرفة الإفادة من مكامن طاقتها. فقد وازن بين (منسأة و محضرة) وبين (منجاة ومهواة).
وهو أيضا يجيء ضمن الخطاب الشفاهي وأعني به الخطب لما له من تأثير بين على السامعين ومن هنا يفهم توخيه لأن الغاية من ذلك كله ليست الإيقاع النغمي بل الإقناع.
ومن خطبة له (عليه السلام) جاء قوله (عليه السلام) لما غلب أصحاب معاوية أصحابه (عليه السلام) على شريعة الفرات بصفين ومنعوهم من الماء: «قد استطعموكم القتال، فقروا على مذلة، وتأخير محلة» .
فهذا اللون من التعبير الفني أدعى إلى إلهاب الحمية في النفس وبث الحماسة فيها. ولاحظ كيف يستفز الإمام فيهم ما ذكرنا بقوله بأسلوب الأمر المجازي (فقروا).
وقد يعمد الإمام في تعبيراته بهذا الأسلوب إلى الميل إلى بناء الفعل على وزن (مفعل ومفعلة) وجمعهما لتحقيق مزيد من الثراء الموسيقي اللافت للانتباه، وهو ثراء ناتج عن المعنى بشكل لصيق كما نؤكد دائما، مثل قوله في ذكر الرسول (صلى الله عليه وآله): «مستقره خير مستقر. ومنبته أشرف منبت. في معادن الكرامة، ومماهد السلامة» .
فقد جاء بالجمع (معادن ومماهد) التماسا للتوازن على الرغم من أن هذا الجمع(مماهد) ليس مفرده ممهد.
ومن خطبة له (عليه السلام) قال: «واتقوا مدارج الشيطان ومهابط العدوان».

وقال في موضع آخر: «وأحمد الله وأستعينه على مداحر الشيطان ومزاجره».
وقوله: «ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبدهم بأنواع المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره إخراجا للتكبر من قلوبهم، وإسكانا للتذلل في نفوسهم».
فالألفاظ (مدارج، مهابط، مداحر، مزاجر، مجاهد) كلها صيغ لمصادر ميمية على وزن(مفعل ومفعلة) جمعت بأوزان واحدة، وحققت موازنات نغمية ميزت كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) كثيرا عن غيره في أسلوب الخطابة بشكل خاص.
وهو أسلوب يأتي بشكل منساب، لا قهر فيه للمعاني على الألفاظ، يتخذ منه الإمام وسيلة للإقناع حتى في احتجاجاته فمن «كلام له (عليه السلام) كلم به بعض العرب، وقد أرسله قوم من أهل البصرة لما قرب (عليه السلام) منها، ليعلم لهم منه حقيقة حاله مع أصحاب الجمل، لتزول الشبهة من نفوسهم، فبين له (عليه السلام) من أمره معهم ما علم به أنه على الحق، ثم قال له: بايع، فقال: إني رسول قوم ولا أحدث حدثا حتى أرجع إليهم.
فقال (عليه السلام): أرأيت لو أن الذين وراءك بعثوك رائدا تبتغي لهم مساقط الغيث فرجعت إليهم وأخبرتهم عن الكلأ والماء، فخالفوا إلى المعاطش والمجادب ما كنت صانعا ؟ قال: كنت تاركهم ومخالفهم إلى الكلأ والماء. فقال (عليه السلام) فامدد إذا يدك. فقال الرجل: فو الله ما استطعت أن أمتنع عند قيام الحجة علي، فبايعته (عليه السلام). والرجل يعرف بكليب الجرمي».
فهذه قدرة فطرية على التصرف باللغة بتحويل الفعل إلى مصدر ميمي، ثم جمعه في عمليات ذهنية آنية سريعة لصناعة جمل فنية (مساقط الغيث، المعاطش والمجادب) وغيرها الكثير من الأدوات والتقنيات اللغوية الفنية.

الخلاصة والنتائج

بان مما سبق من البحث أن للإمام علي(عليه السلام) أسلوبه المميز في استعمال الأبنية النادرة من المصادر، لتوخي أربع دلالات في تعبيراته بها هي: النوعية والهيأة والتكثير والتوازن.
ويمكن حصر النتائج التي توصل إليها البحث بما يأتي:
أولا: أن تحديد ألفاظ المصادر النادرة خضع إلى معايير القلة والندرة في الاستعمال العربي بحسب ما أكدته المصادر اللغوية والاستعمال العربي.
ثانيا: إن تحديد دلالة الأبنية النادرة تم على اساس أربعة أهداف هي النوعية والهيأة والتكثير والمبالغة.
ثالثا: اتسم أسلوب الإمام في التماس التوازن الإيقاعي في تعبيراته باستعمال المصادر الميمية وجمعها على وزن مفعل ومفعلة، وهو أسلوب شمل الفن الخطابي بشكل خاص كونه يعتمد على السماع والتأثير.

روايات نهج البلاغة في ضوء علم الدلالة

المدرس الدكتور: كاطع جارالله سطام الدراجي (الجامعة المستنصرية / كلية الآداب)

توطئة

نهج البلاغة فيض من خطب أمير المؤمنين (عليه السلام) ورسائله ووصاياه وحكمه مما قُدّر للرضي (ت ٤٠٦ هـ) أن يجمعه، وقد صرح الرضيّ بأن ما جمعه بعض من كلام الإمام (عليه السلام)، فقال: «ولا أدعي - مع ذلك – أنّي أحيط بأقطار جميع كلامه (عليه السلام) حتى لا يشذّ عنّي شاذّ ولا يندّ نادّ بل لا أبعد أن يكون القاصر عنّي فوق الواقع إلي والحاصل في ربقتي دون الخارج من يدي، وما عليّ إلا بذل الجهد وبلاغ الوسع..»[١].

ثُمَّ سمّى الرضيّ ما جمعه بنهج البلاغة وبين وجه التسمية بأن نهج البلاغة «يفتح للناظر فيه أبوابها ويقرب عليه طِلابها»[٢].

وقد قسم الرضيّ كتابه على ثلاثة أبواب بعد أن رأى «كلامه (عليه السلام) يدور على أقطاب ثلاثة: أولها الخطب والأوامر. وثانيها الكتب والرسائل. وثالثها الحكم والمواعظ»[٣].

وكان الرضيّ قد قدّم للنهج يقول: «رواياتُ كلامِهِ (عليه السلام) تختلفُ اختلافا شديدا...»[٤].

ولذا كان هو أول المعنيين في إيراد الروايات المتعددة وتوجيهها والاختيار بينها. من ذلك أنه لما أورد قول الإمام (عليه السلام) في الخوارج:(أصابَكُم حاصِبٌ، ولا بَقِيَ مِنْكُمْ آبر)[٥] قال: «قوله (عليه السلام) (ولا بَقِيَ مِنْكُمْ آبر) يروى على ثلاثة أوجه أحدها: أن يكون كما ذكرنا (آبر) بالراء من قولهم رجل آبر للذي يأبر النخل، أي: يصلحه، ويروى آثر بالثاء- بثلاث نقط - يراد به الذي يأثر الحديث أي يرويه ويحكيه وهو أصح الوجوه عندي كأنه (عليه السلام) قال: لا يبقى منكم مخبر! ويروى آبز بالزاي المعجمة وهو الواثب»[٦].

ويعدّ تعدد الروايات في اللفظة الواحدة او العبارة الواحدة سمة مميزة في نهج البلاغة تشهد بان النهج للإمام عليّ (عليه السلام)، اذ لو كان النهج من وضع الرضيّ لما وجدنا فيه الآن هذا الكم الهائل من الروايات المتعددة المتباينة التي يحتاج جمعها والمقابلة بينها كتابا كبيرا كالذي عنوانه (تمام نهج البلاغة) وهذا دليل على أن ما جاء في نهج البلاغة هو جزء مما قاله الإمام (عليه السلام) لا كلّه.

وأكد شُرّاح نهج البلاغة هذا الاختلاف بين نسخ النهج الكثيرة التي كتبها القدماء بدءا من نسخة الرضيّ ومرورا بالنسخ الأخرى المحفوظة اليوم في مدن الهند وإيران ودمشق والقاهرة وغيرها[٧].

فاجتهد الشارحون في تحقيق صحّة هذه النسخ، وضبط عباراتها وألفاظها، والإشارة إلى خطأ النساخ والمحشّين فيها، ووجهوا الروايات المختلفة، وقابلوا بين النسخ المتعددة وتلمسوا سبب هذا الاختلاف وعزوا بعضه إلى تحريف النساخ وقبلوا بعض الروايات الأخرى من التي ذكروا لها وجها مقبولا في العربية.

---

١ . نهج البلاغة (مقدمة الرضيّ): ١٤.
٢ . نفسه ١٤.
٣ . نفسه ١٢.
٤ . نفسه ١٣.
٥ . نهج البلاغة، الخطبة ٥٨: ص ٩٧ -٩٨.
٦ . نفسه: ٩٨.
٧ . ينظر: تمام نهج البلاغة ٣٩/١ ومصادر نهج البلاغة ١٨٦/١ -١٩٦.

وقد برع الشّرّاح المتأخّرون لاسيما التستريّ في هذا الجانب فأكثر من سرد الروايات المتعددة مشيرا إلى نسخها واجتهد في التوفيق بينها وانتقاء الأصوب منها ورجح ما ورد منها في نسختي ابن أبي الحديد المعتزلي (ت ٦٥٦هـ) وابن ميثم البحراني (ت ٦٧٩هـ) على غيرها من النسخ لأن نسخة البحراني هي نسخة المصنف ونسخة ابن أبي الحديد قريبة منها في الزمن.
وقد استند الشّرّاح إلى طائفة من الأسس القوية في ترجيحهم رواية على أخرى، منها الاعتماد على نسخة المصنف (الشريف الرضي) والأخذ بقياس العربية والاعتماد على المعجم العربي والاستدلال بسياق الكلام ومراعاة مناسبة الخطبة وغير ذلك من وسائل توثيق النص التي توافرت لهم.
ويعد هذا البحث محاولة جديدة للتوفيق بين روايات نهج البلاغة والمفاضلة بينها اعتماد على أساس قوي جديد هو الاحتكام إلى علم الدلالة العربي بمستوياته الأربعة (الصوتي والصرفي والنحوي والمعجمي) بغية تبيان الرواية الصحيحة التي يكتمل بها المعنى العام للنص ولا يكتمل بغيرها. فوقف البحث عند طائفة من الألفاظ النهجية التي رويت بطرق مختلفة مرجحا إحدى رواياتها اعتمادا على نتائج علم الدلالة من حيث جرس الأصوات ومعاني الأبنية ودلالة التراكيب والمعنى المعجمي.
وفي النية إتمام البحث في هذا الموضوع ليأتي في كتاب يجمع أشتاته حاويا جميع ألفاظ نهج البلاغة التي رويت بطرق مختلفة ثُمَّ يفاضل بين تلك الروايات مراعيا اختلاف المعنى بين رواية وأخرى ثُمَّ انتقاء الرواية ذات المعنى الملائم للسياق الذي وردت اللفظة فيه.
والله ولي التوفيق.

روايات النهج والدلالة الصوتيّة

ثمّة ضرب من الدلالة يقوم على التلاؤم بين الأصوات وتناغمها بطريقة تؤدي إلى إيقاع يجعل المفردة توحي بجرسها وأصواتها المكونة لها على معناها هو الدلالة الصوتية، وقد عرف إبراهيم أنيس هذا الضرب من الدلالة فقال: «الدلالة الصوتية وهي التي تستمد من طبيعة بعض الأصوات... فكلمة تنضخ كما يحدثنا كثير من اللغويين القدماء تعبر عن فوران السائل في قوة وعنف وهي إذا قورنت بنظيرتها تنضح التي تدل على تسرب السائل في تؤدة وبطء يتبين لنا أن صوت الخاء في الأولى له دخل في دلالتها فقد أكسبها في رأي أولئك اللغويين تلك القوة وذلك العنف، وعلى هذا فالسامع يتصور بعد سماعه كلمة تنضخ عينا يفور منها النفط فورانا قويا عنيفا والفضل في مثل هذا الفهم يرجع إلى إيثار صوت على آخر أو مجموعة من الأصوات على أخرى في الكلام المنطوق»[١] ثُمَّ تمسك معظم الباحثين بهذا التعريف مع شيء من التغيير في أمثلته أو ألفاظه[٢].

وهو تعريف قاصر عن وصف مظاهر الدلالة الصوتية كلها إذ تلمس المحدثون[٣] جملة من أنماط أنماط الكلام عدّوها أسسا للدلالة الصوتية تعتمد على الصوائت والصوامت والمقاطع والألفاظ والجمل.
وقد يكون من العسير جمع هذه الأنماط الدلالية في حد جامع ولذا يكون تعريف الدلالة الصوتية بالتفصيل لا بالإجمال كأن يقال: إن الدلالة الصوتية هي الدلالة المستوحاة من تتابع الحركات

---

١ . دلالة الألفاظ: إبراهيم أنيس: ٤٦.
٢ . ينظر:معجم مصطلحات اللغة والأدب ١٦٩ ومصطلحات الدلالة العربية ٨٤.
٣ . خص فريق من الباحثين العرب الموضوع بدراسة مستقلة منهم: صالح سليم عبد القادر في الدلالة الصوتية في العربية وكريم حسام الدين في كتابه:الدلالة الصوتية -دراسة لغوية لدلالة الصوت ودوره في التواصل والدكتور: خالد قاسم بني دومي في كتابه دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم وكريم مزعل اللامي في رسالته: الدلالة الصوتية في القرآن الكريم وتحسين عبد الرضا الوزان في أطروحته الصوت والمعنى وآخرون.

والحروف في نسق معين أو التعاقب بينها تعاقبا فرديا أو مزدوجا أو تكثيفها بالتكرار والتضعيف والمدّ.
وتستمد أيضا من نظم الجمل والتراكيب بطريقة تومئ إلى المعنى الدقيق لا بنظمها الظاهر المكتوب بل بإلقائها المسموع من حيث ضغط مجرى الهواء في موضع معين أوالصعود والنزول فيه أو قطعه واستئنافه.
وتمكن الإفادة من نتائج هذا الضرب من الدلالة في توجيه ألفاظ النهج التي رويت بأكثر من وجه لاختلاف في الشكل الحركي أو البناء الصوتي ثُمَّ المفاضلة بين تلك الروايات بناء على الدلالة المستحصلة من تشكيلها الصوتي وما فيه من تعاقب للصوائت أو الصوامت وهو ما عرف حديثا بالاستبدال الفونيمي[1] كما في المثالين الآتيين.

خبَر، خبر، خبُر.

قال الإمام (عليه السلام) في توحيد الله تعالى: (قَدْ عَلِمَ السَّرائِرَ وخَبَرَ الضَّمائِرَ، لهُ الإحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ)[2].

وفي (خبر الضمائر) روايتان (خبَر) و(خبُر) بضم عين الفعل وفتحها، إذ قال قطب الدين الراونديّ (ت ٥٧٣هـ): «خبَر الضمائر بفتح الباء أي امتحن، وروي خبر بالكسر أي علِم»[3].

ووافقه ابن أبي الحديد فقال: «خبَر الضمائر بفتح الباء امتحنها وابتلاها ومن رواه بكسر الباء اراد علِم»[4] وعلى هذا حبيب الله الخوئي (ت ١٢٣٤هـ) الذي زاد رواية ثالثة هي(خبُر) كـ(كرُم)، فكأنّ الخبرة صارت له سجية وطبعا[5].

واكتفى طائفة من الشراح[6] بذكر رواية الفتح وحدها وهي التي فسرت بالامتحان والابتلاء. على حين اكتفى السيد محمد الشيرازي برواية الكسر وحدها وفسر (خبر) باطّلع وعلم[7].

وهو تفسير مردود لان السياق سبق إلى ذكر (علم السرائر) ولو أراد العلم لكرر الفعل نفسه مع الضمائر. وقد ذكر أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) أنّ ثمّة فرقا بين الخبرة والعلم ذلك أنّ «الخبر هو العلم بكُنه المعلومات على حقائقها ففيه معنى زائد على العلم»[8].

ولذا أسند العلم إلى السرائر لأن السرائر جمع سريرة وهي ما يكتمه الإنسان ويكنّه في نفسه[9] فيحتاج إلى كشفه والعلم به، أما الخبرة التي فيها معنى زائد على العلم فأسندت إلى الضمائر وهي جمع ضمير، وضمير الإنسان قلبه وباطنه[10].

ويبدو أن الضمير كناية عن موضع الاعتقاد والميل الفكري لدى الإنسان فيحتاج إلى أن يختبر ويفتتن ويمتحن لا أن يعلم به فحسب.
أي أنّ مقصد الإمام (عليه السلام) أن الله كاشف السرائر مطّلع عليها، عالم بها، وانه يمتحن الناس ويخبُرهم ويمحصهم ليميّز الخبيث من الطيب لا من عدم معرفته بذلك ولكن لإثبات الحجة على الخلق.

---

١ . ينظر: المباحث الدلالية في شروح نهج البلاغة: ١١٠.
٢ . نهج البلاغة الخطبة ٨٦، ص١٣٨.
٣ . منهاج البراعة (الراوندي) ٣٥٧/١.
٤ . شرح نهج البلاغة (حديد) ٣٥٠/٦.
٥ . ينظر: منهاج البراعة (الخوئي) ١٢٥/٦.
٦ . ينظر: حدائق الحقائق ٤١٣/١ وبهج الصباغة ٤١٧/١.
٧ . ينظر: توضيح نهج البلاغة ٥/٢.
٨ . الفروق اللغوية ٨٦ و ينظر: مختصر العين ٣٦٤/١ ومقاييس اللغة ٣٣٩ ـ ٣٤٠ والقاموس المحيط ٣٥٧.
٩ . ينظر: مقاييس اللغة ٣٧٨ والصحاح ٤٨٨ والقاموس المحيط ٣٧٨.
١٠ . ينظر: مقاييس اللغة ٦٠٢ والصحاح ٦٢٦ والقاموس المحيط ٤٠٠.

ومن هنا يكون الملائم للسياق (خبَر) بالفتح وهو الامتحان والابتلاء لان غاية الابتلاء هو الوضوح والبيان والجلاء، أي جلاء الخبيث من الطيب، ووضوح الحق من الباطل.
وأمّا خبر بمعنى علِم فان العلم بالشيء يستدعي النفاذ إلى جوهره واستكناه باطنه وظاهره، فلاءمت الكسرة هذه المعاني لثقلها مقارنة بالفتحة[1]، وأما (خبُر) بالضم فهو أن تكون الخِبرة سجيّة لصاحبها ملازمة له لا تنفكّ عنه وحينئذ يسمى صاحب الخبرة بالخبير في ذلك الشيء وهنا لاءمت الضمة هذه الدلالة لأنّها الأثقل[2].

والباري – عز وجل – خبير بكل شيء ولذا لا معنى لضم عين الفعل في هذا المقام لان (خبر) واقع على الضمائر هنا فقط لا على جميع الموجودات.

أرجف، أوجف

قال الإمام (عليه السلام) يصف من يجاوز الصراط: (أظْمأ الرَّجَاءُ هواجرَ يومهِ وظَلَفَ الزُّهْدُ شهواتِهِ وأوْجَفَ الذِّكْرُ بِلِسانِهِ)[3].

وضبط معظم الشّرّاح الفعل أوجف بالواو من الوجيف وهو ضرب من السير السريع للإبل والخيل[4] والمعنى أسرع الذكر بلسانه، وكأنّ الذكر لشدة تحريكه اللسان موجف به كما توجف الناقة براكبها أي تسرع[5].

وأشار فريق[6] منهم إلى أنّ الفعل رُوي في النسخة المصرية (أرجف) أي: تحرّك واضطرب اضطرابا شديدا[7]. ومعنى أرجف الذكر بلسانه، أنّ الذكر يحرّك لسانه كأنّ به رجفة من كثرة ذكر الله[8].

وجرس الواو بما فيه من لين واندفاع للهواء وضم الشفتين[9] يلائم الدلالة على السير السريع، إذ ينزاح الهواء من على جانبي الموجف المسرع كما ينزاح الهواء بالواو بين الشفتين.
أما الرجف فدلالته على التحريك تنبثق من جرس الراء التكراري المرفرف المضطرب على سقف الفم.
ثُمّ صحح الشيخ محمد تقيّ الدين التستريّ (ت ١٤١٥هـ)[10] رواية الفعل أوجف بالواو وضعّف الرواية الأخرى معتمدا على مناسبة معنى (أوجف) للسياق الذي يصف المؤمن وهو يجتاز الصراط المستقيم ولسانه لهج بذكر الله وليس المعنى أن المؤمن يحرك لسانه مضطربا خائفا لان الخائف يظهر أثر الاضطراب في أعضاء جسده كلها وليس في اللسان وحده.
أما وجود ارجف في النسخة المصرية فأمر لم يثن التستريّ عن تصحيح أوجف لأنه كذلك في نسختي ابن أبي الحديد والبحراني وهما من هما في التحقيق والتوثيق.

---

١ . ينظر: المحتسب ١٨/٢.
٢ . نفسه.
٣ . نهج البلاغة: الخطبة ٨٣ ص ١٣٠.
٤ . ينظر: الصحاح ١١٢٥ والمفردات ٨٥٧.
٥ . ينظر: شرح نهج البلاغة (حديد) ١٤٢/٩،٣٨٤/٦ وشرح نهج البلاغة (البحراني) ٣٠٥/٢ وشرح نهج البلاغة (محمد عبده) ١٦٩/١ وفي ظلال نهج البلاغة ٤٤٤/١ وشرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار ٢٤٤/١ وتوضيح نهج البلاغة ٣٦٩/٢٤،٢/٢ .
٦ . ينظر: منهاج البراعة (الراوندي) ٨٦/٣٦٨،٢/١ وحدائق الحقائق ٦٥٦/١ ومنهاج البراعة (الخوئي) ٣٥٩/٧ وبهج الصباغة ٥٣٧/٢.
٧ . ينظر: الصحاح ٣٩٥ والمفردات ٣٤٤.
٨ . ينظر: منهاج البراعة (الخوئي) ٣٥٩/٧ وبهج الصباغة ٥٣٧/٢.
٩ . ينظر: الأصوات اللغوية ٤٦.
١٠ . ينظر: بهج الصباغة ٤٣٠/٢.

روايات النهج والدلالة الصرفية

حدّد العلماء نوعًا من الدلالة الصرفيّة يُستمدّ من هيأة الألفاظ أو طريقة صوغها وتعاقب الحروف في تشكيلها، أو زيادتها فيها بمقدار معيّن. فما تشابه منها في ذلك يكون مجتمعا في صيغة واحدة تتماز من غيرها من الصيغ بدلالة معينة.
وقد نبّه القدماء على أن كلَّ زيادة في المبنى موجبة لزيادة في المعنى.
وهذا النوع من الدلالة يقترن بأبنية العربية قديمها وجديدها. ويُعَدّ كتاب سيبويه منهلا ثرّا لكل الباحثين عن معاني أبنية العربية، فلم يترك بناء إلا وساق معه معانيه المفهومة من أمثلته، وفي عدة مواضع جهر سيبويه بما أخذه عن الخليل من مداليل الأبنية[1].

ويبدو أنّ أبا البقاء الكفويّ (ت ١٠٩٤هـ) هو أوّل من صرّح بتعريف الدلالة الصرفية التي سمّاها: (معنى الصيغة).
إذ بيّن إن للفظة نوعين من الدلالة: الأول، دلالة لغويّة تفهم من اللفظة نفسها. والآخر، دلالة الصيغة وهي المستمدة من طبيعة ائتلاف الحروف الأصول والزوائد والحركات والسكنات على نسق معين متشابه فقال: «كلُّ لفظ له معنى لغويّ وهو ما يفهم من مادّة تركيبه ومعنى صيغي وهو ما يفهم من هيأته أي حركاته وسكناته وترتيب حروفه لأن الصيغة اسم من الصوغ الذي يدلّ على التصرّف في الهيأة لا في المادة»[2].

وقال أيضا في التفريق بين دلالة الألفاظ ودلالة الأبنية: «ما دلّ عليه أصل التركيب فهو دلالة اللّغة، وما دلّت عليه هيأته فهو دلالة الصيغة»[3].

أمّا المحدثون فقد توالت جهودهم في تلمُّس معاني أبنية العربيّة من الأسماء والأفعال، ويبرز منهم الباحثان العراقيان الدكتور هاشم طه شلاش (رحمه الله) في كتابه أوزان الفعل ومعانيها، والدكتور فاضل السامرائي في كتابه معاني الأبنية في العربية.
وتمكن الإفادة من معاني الصيغ في العربية في المفاضلة بين القراءات القرآنية واختلاف الروايات في ألفاظ المتون الشعرية والنثرية كالمعلقات وغيرها فضلا عن الفاضلة بين الراويات المختلفة في روايات نهج البلاغة كما في المثالين الآتيين:

مُطَلَّبة، مُطَّلَبة، مُطلِبة، مُطلَّبة، مطلوبة.

قال الإمام (عليه السلام) من كتاب له إلى معاوية: «فاتَّقِ اللهَ في ما لديك، وانظرْ في حقّه عليك، وارجِعْ إلى معرفةِ ما لا تُعذرُ بجهالتهِ، فإنّ للطاعة أعلامًا واضحة، وسُبُلا نيِّرة، ومحجّةً نَهْجَة، وغاية مُطَّلَبة، يردها الأكياس ويخالفها الأنكاس»[4].

وفي (مُطَّلَبة) عدة روايات تباين الشراح في الاختيار بينها. فالراوندي ضبط اللفظة بضم الميم وتشديد الطاء واللام وفتحهما معا فقال: «المُطَّلَبة أي متطلّبة، يقال: تطلّبت كذا أي طلبته جدا»[5].

جدا»[5].
فأصل اللفظة قبل الإدغام هو متطلّبة ثُمَّ أبدلت التاء طاء وأدغمت الطاء بالطاء فصار مطلبة وهي اسم مفعول من باب التفعّل الذي يدل على التدرج في حصول الفعل[6] لا الطلب الشديد كما ذكر الراوندي، ذلك أنّ «التطلّب: الطلب مرة بعد أخرى»[7].

---

١ . ينظر: الكتاب ٤/١٤-٣٧ وأبنية الصرف ١٣-١٤.
٢ . الكليات ٥/١٤٢.
٣ . نفسه ٥/٣٢٦.
٤ . نهج البلاغة، الرسالة: ٣٠، ص: ٤٩٥.
٥ . ينظر: منهاج البراعة ٣/٨٤.
٦ . ينظر: ينظر: ديوان الأدب ٢/٤٦٥ -٤٦٦ والممتع في التصريف ١/١٨٣ ودروس التصريف ٧٥ وأوزان الفعل الفعل ٩٤ -١٠١ والمغني في تصريف الأفعال ١٤٠ -١٤٤.
٧ . الصحاح ٦٤٤.

على حين ضبط البحراني اللفظة (مُطَّلبة) «بتشديد الطاء وفتح اللام بمعنى مطلوبة جدا منهم، وهي وصولهم إلى حضرة قدس الله طاهرين مجردين»[1] أي إن اللفظة لديه اسم مفعول من باب الافتعال وهي من (اطّلبت الشيء) على وزن افتعل وأصله (اطتلب) فأبدلت التاء طاء كما هو القياس في باب الافتعال إذا كانت الفاء طاء أو ظاء او صادا او ضادا[2].

ووصف العلامة المجلسي (ت ١١١١هـ) هذه الرواية بالأشهر لأنّ «النسخ المصححة متّفقة على تشديد الطاء، فالكلمة على هذا من (اطّلب) كافتعل»[3].

ورأى ابن أبي الحديد أنّ اللفظة يستدعي معناها أن تكون اسم فاعل لا اسم مفعول فقال: «غاية مُطّلِبة أي مساعفة لطالبها بما يطلبه، تقول: طلب فلان مني كذا فأطلبته أي أسعفت به»[4].

وواضح من هذا أن ابن أبي الحديد قرأ اللفظة (مُطلبة) بضم الميم وسكون الطاء وكسر اللام على أنها اسم فاعل لأنها تسعف طالبها فهي اسم فاعل لا اسم مفعول. وهي من باب الإفعال لا التفعل كما في قول الراوندي ولا الافتعال كما في قول البحراني.
ولذا ردّ ابن أبي الحديد على الرواندي اختياره الرواية (مُطّلبة) فقال يصف قوله المذكور آنفا: «هذا ليس بشيء ويخرج الكلام عن أن يكون له معنى»[5].

ثُمَّ وُصف اختيار ابن أبي الحديد بأنه ليس بسديد لأن أمير المؤمنين (عليه السلام) وصف الغاية المطلبة فقال: (يردها الأكياس ويخالفها الأنكاس) وهذا يرجح أن تكون المطلبة اسم مفعول لا اسم فاعل لأنها يقع عليها ورود الأكياس ومخالفة الأنكاس[6].

ورفض الشيخ التستري أن تكون الغاية مساعفة لصاحبها في قول ابن أبي الحديد، إذ «المعنى لا يساعده، لأن الجنة غاية الطاعة وليست بمساعفة لطالبها، كيف وقد حُفّت بالمكاره.
وإنما المناسب إذا كانت المطلبة فاعلا من الإفعال أن تكون من قولهم: ماء مُطلِب وكلأ مُطلِب: تباعدا فطلبهما الناس»[7].

أي أنّ التستري أنكر أن تكون المطلبة فاعلا من (طلب فلان مني فأطلبته)، بل هي فاعل من الكلأ المُطلب وهو البعيد الذي لا يوصل إليه إلا بمشقة[8].

فيكون (المطلب) هنا فاعلا بمعنى المفعول كما في قوله تعالى:(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)[9] فقد أوّلوا (عيشة راضية) بمرضيّة[10].

ونقل بعض شارحي النهج أن اللفظة ضبطت «بتشديد اللام المفتوحة كما في نسخة الرضي»[11].

إذ يقال «طلّبه تطليبا: طلبه في مهله»[1] ووصف التستري الأخذ بهذه الرواية بأنه لا يخلو من تكلف ولم يطمئن إلى أن ضبطها بتشديد اللام وحدها كان بخطّ الرضي[2].

---

١ . شرح نهج البلاغة (البحراني) ٥٠٣/١.
٢ . ينظر: الممتع في التصريف.
٣ . شرح نهج البلاغة المقتطف ٩٣/٣.
٤ . شرح نهج البلاغة (حديد) ٦/١٦.
٥ . نفسه.
٦ . ينظر: منهاج البراعة (الخوئي) ٣٧٦/١٩ وبهج الصباغة ٢٩١/٤.
٧ . بهج الصباغة ٢٩١/٤.
٨ . ينظر: مقاييس اللغة ٦٢٢ والصحاح ٦٤٤.
٩ . الحاقة: ١٩ ــ ٢١.
١٠ . ينظر: الكتاب ٣٨١/٣ ـ ٣٨٢ وليس في كلام العرب ٦٩ـ ٧٠ وشرح الكافية ٢٢١/٢ وفقه اللغة للثعالبي ٤٩٢ ومعاني الأبنية ٥٨.
١١ . ينظر: منهاج البراعة (الخوئي) ٣٧٨/١٩.

ووجه ضعف هذه الرواية أنّ الإمهال في هذا الطلب لا يلائم حال الأكياس الواردين إلى الجنة بطاعة الله.
وثمّة رواية أخرى هي الخامسة بعد الذي ذكر آنفا وردت في النسخة المصرية هي (غاية مطلوبة) رأى الشارح التستري أنها غلط فقال ينكرها: «تبديل المصرية مطلبة بمطلوبة غلط لاتفاق ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية على كونه مطلبة وكذا الراوندي»[٣].

يريد أنّ رسم اللفظة لم تظهر فيه واو اسم المفعول (مطلوبة) في كل الروايات الأربع المذكورة آنفا بل أطبق الجميع على أنها رسمت بأربعة أحرف هي الميم والطاء واللام والباء بعدها تاء التأنيث.
وإنما الاختلاف في الشكل والضبط بالحركات لا في الأحرف الأصول.
ولما وجد الشارح التستري تعدد الروايات في هذه اللفظة واضطرابهم في توجيهها، احتمل – فضلا عما سبق - أن تكون اللفظة على هيأة اسم المكان بناء على ما وجده في جمهرة اللغة فقال: «يجوز أن تكون مطلبة بفتح الميم مفرد مطالب قال في الجمهرة: المطالب مواضع الطلب. ويجوز أن تكون واحدة المطالب (مَطْلَبة) والمعنى يساعده بأن يكون المراد أن للطاعة غاية وهي الجنة موضع الطلب»[٤].

وجوّز – أيضا- أن تكون اللفظة اسم فاعل من (اطّلب) على افتعل فقال: «يجوز أن تكون (مُطَّلِبة) بتشديد الطاء من باب الافتعال كالمُطَّلب الذي هو اسم أخي هاشم»[٥].

والراجح مما ذكر سابقا هو الرواية (مُطَّلَبة) بتشديد الطاء على أنها اسم مفعول من باب الافتعال ذلك أن اسم المفعول فيه دلالة على أن الجنة غاية لا بد أن يتحمل الناس الابتلاء والفتنة في طلبها.
ثُمَّ إن مجيئها من باب الافتعال يوحي بأنها صارت مطلبا لهم أو اتخذوها مطلبا أو صيروها كذلك لأن باب الافتعال من أشهر معانيه هو الجعل والصيروة والاتخاذ[٦].

نحو ائتمّ فلان بفلان أي اتخذه إماما أو جعله إماما وصار هو إماما لمن خلفه[٧].

فكه، فاكه.

قال الإمام (عليه السلام) في وصف حال العرب لما بعث الله تعالى عليهم محمدا (صلى الله عليه وآله): (...فأصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرِقِيْن وفِيْ خُضْرَةِ عَيْشِهَا فَكِهِيْن)[٨].

ثُمَّ قال ابن أبي الحديد: «فاكهين: ناعمين، وروي فكهين أي أشرين وقد قرئ بهما في قوله تعالى: «**وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ**[٩]»[١٠].

وقد تعدّدت المعاني التي ذكرها الشّرّاح الآخرون لفكهين، ومنها: مزحين، فرحين، راضين، مسرورين[١١]. ونُقل عن الأصمعي قوله: فاكهين: مازحين والمفاكهة الممازحة[١٢].

---

١ . القاموس المحيط ١١٥.
٢ . ينظر: بهج الصباغة ٢٩١/٤.
٣ . ينظر: نفسه.
٤ . نفسه. وينظر: جمهرة اللغة
٥ . نفسه.
٦ . ينظر: ديوان الأدب ٤٢٠/٢ والمبدع في التصريف ١١٥وأوزان الفعل ومعانيها ٨٩.
٧ . ينظر: مقاييس اللغة ٤٧ والقاموس المحيط ٩٩٥.
٨ . نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢ ص ٣٧٥.
٩ . الدخان: ٢٧.
١٠ . شرح نهج البلاغة (حديد) ١٧٨/١٣.
١١ . ينظر: شرح نهج البلاغة (البحراني) ٢٩/٤ ومنهاج البراعة (الخوئي)٣٩٠/١١ وفي ظلال نهج البلاغة ١٤١/٣ وبهج الصباغة ٣٤٠/٢ وتوضيح نهج البلاغة٢١٦/٣.
١٢ . ينظر: الصحاح والقاموس المحيط.

وكل ما سبق ذكره لم يدلنا على المعنى الدقيق للأصل (فكه) كي يفرق على وفقه بين (الفكه) و(الفاكه). ونظائر (فكه) في باب الاشتقاق الأكبر (الإبدال) تفسر معنى فكه تفسيرا اقرب إلى الدقة مما قاله الشراح والمعجميون، ذلك ان القرآن استعمل الفكّ مع الرقبة.
ويعني العتق من القيد، ومعنى (فكه) لا يبتعد عن (فكّ) كثيرا، وهو سرور بعد غم، ودلت الهاء بجرسها الخفيّ على سرور الروح الذي هو شعور داخلي وربما يبالغ به ليبلغ البطر، وما نقل عن الأصمعي من أن الفكه بمعنى المزاح أقرب الأقوال إلى مدلول اللفظة الدقيق.
وأكد البحراني هذا المدلول حين قال: «الفكه طيب النفس المسرورة»[1]. ثمّ ردّد خالفوا البحراني البحراني كلامه فقرنوا الفكه بطيب النفس وسرورها إلى درجة البطر والأشر والمزاح والنعومة والسرور والرضا وغير ذلك مما يفهم من السرور بعد الغم[2].

وواضح أنّ (فاكهين) دالّ على سعة المسرّة وطيب النفس في وقت محدّد لا دائم بدلالة البناء (اسم الفاعل) فكأنّ الفكه الواسع والمسرة العظيمة لم تكتمل لهم. وفي قوله تعالى: **(وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ)** قرينة تدل على عدم استدامة الفكَه في اللفظ (فاكهين) وهي لفظة (نَعمة) بفتح النون إذ هي على بناء (فَعلة) الذي يدل على المرة الواحدة، ولذا ساغ نزع هذه النعمة منهم في الآية بعدها: **(كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ)**[3].

ولو كانت (نِعمة) بكسر النون لكانت هيأة لهم ووصفا لحالهم فلا يسوغ سلبها منهم.
وأما (الفكهين) فينبئ بتماسك الفكه والتصاقه بهم على وجه المبالغة والاستمرار بدلالة البناء (فعِل) فهو مبالغة وكثرة في القيام بالفعل[4].

و(الفكهين) لا يتصور قيامهم بعمل غير (الفكه) والا لما صحّت المبالغة، اما (الفاكه) فيتوقع منه القيام بعمل اخر غير الفكه وهنا اختلفت دلالة (الفاكه) بأنه فاعل الفكه وغيره، ولذا لم يكن الفكَه ملازما له لانه لم يجبل نفسه عليه أما الفكِه فهو الذي شغله الفكَه عن أي عمل آخر.
ولمّا وصف القرآن الكريم ونهج البلاغة قوما فكهوا بنعمة ثُمَّ زالت عنهم كان وصفهم بالفاكهين أبين من الفكهين لأن الفاكه يسلب منه هذا الفعل وأما الفكِه فلا يبرح الفكَه وإلا لم يصدق عليه هذا اللفظ.
ومثل فاكهين وفكهين قوله تعالى: **(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)**[5] إذ قُرئ (ملِك)[6].

وفرق المفسرون بين اللفظين بأن الحجة لمن قرأ (مالك) هي أن الملك داخل تحت المالك بدليل قوله تعالى: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[7].

وأما حجة من قرأ (ملِك) فهي أن الملك أخص من المالك فقد يكون المالك غير ملك ولا يكون الملك إلا مالكا، أي أن الملك أبلغ وأقوى من المالك في الدلالة على معنى الملك[8].

ويمكن عضد قراءة (مالك يوم الدين) على قراءة (ملك) بأن يقال: إن (يوم الدين) هو من أيام الله التي لا يزعم أحد أنه مالكها فاستعمل القرآن مالك مع يوم الدين إشارة إلى أن هذا اليوم مُلك لله وحده لا يشاركه فيه أحد ولو قال (ملك) لفهم منه وجود مالك وهو أقل حيازة ليوم الدين من

---

١ . شرح نهج البلاغة (البحراني) ٢٩١/٤، ٤٦٢/١.
٢ . ينظر: منهاج البراعة (الخوئي) ٣٩٠/١١ وفي ظلال نهج البلاغة ١٤١/٣ وبهج الصباغة ٣٤٠/٢ وتوضيح نهج البلاغة٢١٦/٣.
٣ . الدخان: ٢٨.
٤ . ينظر: معاني الأبنية ١١٧.
٥ . الفاتحة: ٤.
٦ . ينظر: الحجة في القراءات السبع ٢٠ والحجة في علل القراءات السبع ١١٥/١ر.
٧ . آل عمران: ٢٦.
٨ . ينظر: معاني القرآن وإعرابه ٥٢/١ ـ٥٣ وتفسير الفخر الرازي ٢١٢/١ ـ٢١٦.

المِلك؛ لأن ما تحت الملك هو المالك وليس ما تحت المالك سوى المملوك (العبد) وهو حال جميع الخلائق يوم الدين.

روايات النهج والدلالة النحوية

عني علماء العربيّة بنوع من الدلالة مستنبط من قواعد النحو العربيّ وما تشير إليه العلاقة بين المفردات في التركيب الواحد. ذلك أنّ النحو لديهم هو «علم باحث عن أحوال المركبات الموضوعة وضعا نوعيا لنوع من المعاني التركيبية النسبية من حيث دلالتها عليها، وغرضه تحصيل ملكة يقتدر بها على إيراد تركيب وضع وضعا نوعيا لما أراده المتكلم من المعنى وعلى فهم معنى أي مركب كان بحسب الوضع المذكور.وغايته الاحتراز عن الخطأ في تطبيق التراكيب العربيّة على المعاني الأصلية»[١].

واللفظ المفرد لا يفهم معناه بعيدا عن سياقه، «فلا ترى كلاما ما قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك الميزة وذلك الفضل إلى معاني النحو»[٢].

ثُمَّ أضحى موضوع الدلالة النحويّة لدى المحدثين علما قائما بذاته فأطلقوا عليه عدة تسميات لكن الشائع هو الدلالة النحويّة وهي الدلالة المفهومة «من استخدام الألفاظ أو الصور الكلامية في الجملة المكتوبة أو المنطوقة على المستوى التحليلي أو التركيبي»[٣].

والدلالة النحويّة في اللغة العربيّة على قسمين: الأول: دلالة نحوية عامة وهي المعاني العامة المستقاة من الجمل والأساليب. والآخر: دلالة نحوية خاصة وهي المفهومة من معاني الأبواب النحويّة كالفاعل والمفعول به والمبتدأ والخبر وغير ذلك[٤].

وفي نهج البلاغة عدة روايات تباينت في الإعراب، ومن ثمّ تمكن الإفادة من معاني النحو في المفاضلة بينها كما في المثالين.

تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ، تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ

قال (عليه السلام) يصف المتّقين: (صَبَرُوا أَيَّامًا قَصِيْرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيْلَةً. تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ)[٥].

وفي: (تجارة مربحة) روايتان تفاوت الشّرّاح في الاختيار بينها.
فالراونديّ اختار النصب. وجوّز فيه أربعة أوجه: «أما البدل من الراحة، وأما النصب على المدح، وأما على الحال، وأما على تقدير اتّجروا، ونصب المصدر مع حذف فعله كثير في الكلام»[٦].

ووجّه ابن أبي الحديد نصب (تجارة مربحة) على أنها مصدر محذوف الفعل.
لكنّه اختار رفع (تجارة مربحة) على الابتداء.
والتقدير: تجارتهم تجارة مربحة، فحذف المبتدأ[٧].

ووافقه الخوئي[٨].

---

١ . مفتاح السعادة١/١٣٢ وينظر: مفتاح العلوم ٣٣.
٢ . دلائل الإعجاز ٨١-٨٢.
٣ . علم الدلالة (فريد عوض) ٤٣ وينظر: أقسام الكلام العربيّ ٢٠٩.
٤ . ينظر: اللغة العربيّة معناها ومبناها ١٧٨.
٥ . نهج البلاغة: الخطبة ١٩٣، ص:٣٨١.
٦ . منهاج البراعة (الراوندي) ٢/ ٢٧٧ وينظر: همع الهوامع ١/١٨٨.
٧ . ينظر: شرح نهج البلاغة (حديد)١٠/١٤٢ وشرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار٢/٣٥١.
٨ . ينظر: منهاج البراعة (الخوئي) ١٢/١١٣.

واستظهر الكيدريّ رواية النصب وجوّز فيها ما احتمله الراونديّ إلا تجويزه إعراب (تجارة) بدلا من (راحة) فهذا الوجه «ليس بالقوي لأن التجارة المربحة ليست بنفس الراحة وإنما صبرهم المستعقب لتلك الراحة هي التجارة»[1].

وزاد على ما ذكر الراونديّ أن تكون تجارة منصوبة بفعل مضمر يفسّره ما بعده أي: يسّر لهم ربهم تجارة[2].

وجاء البحراني برواية الرفع وحدها، فلم يذكر رواية النصب، ورأى أنّها تدلّ على الثبات والاستقرار على العمل الصالح إذ «استعار لفظ التجارة لأعمالهم الصالحة وامتثال أوامر الله.
ووجه المشابهة كونهم متعوضين بمتاع الدنيا وبحركاتهم في العبادة متاع الآخرة.
ورشح بلفظ الربح لأفضلية متاع الآخرة وزيادته في النفاسة على ما تركوه»[3].

والراجح رفع (تجارة) ففضلا عن وجودها في نسختي أبن أبي الحديد والبحراني يفهم من الجملة الاسمية (تجارةٌ مربحةٌ) دلالتها على اللزوم والثبات والاستقرار على العمل الصالح.
فيكون عمل الإنسان في الدنيا في حكم التجارة إذ يعمل هنا ويأخذ هناك.
أما النصب ففي جميع وجوهه التي أوردها الرواندي يدل على زوال العمل الصالح، وعدم استقرارهم عليه بلحاظ الفعل المقدّر مع نصب تجارة سواء كان مقدّما أم مؤخّرا.
لا جبرائيلُ ولا ميكائيلُ ولا مهاجرون ولا أنصارٌ
لا جبرائيلَ ولا ميكائيلَ ولا مهاجرين ولا أنصارَ
قال الامام (عليه السلام) في فضل الإسلام على الأمة: (وَإنَّكم إنْ لجأتُمْ إلى غيره حاربَكُمْ أهْلُ الكُفْرِ، ثُمَّ لا جبرائيلُ ولا ميكائيلُ ولا مهاجرون ولا أنصارٌ ينصُرُونَكم إلا المقارعة بالسيفِ)[4].

ثُمَّ رأى أكثر الشّرّاح أن الرواية المشهورة هي نصب (جبرائيل، وميكائيل، والمهاجرين، والانصار)[5].

ووجه النصب أنّ هذه الأسماء، وإن كانت مفردة عوملت معاملة الجنس بعد (لا) النافية للجنس «وهو جائز على التشبيه بالنكرة كقولهم: معضلة ولا أبا حسن لها.
قال الراجز[6]: لا هيثمَ الليلة للمطي»[7].

وضعّف البحراني نصب هذه الأسماء، وعلى الرغم من ذلك علل نصبها بعد (لا) النافية للجنس بأنّ الملكين المذكورين لوحظ «فيهما التنكير ولذلك أتى عقيبهما بعد لا بالنكرتين»[8].

وعضد الخوئي رواية النصب في هذه الأسماء بعد (لا) النافية للجنس بما استقر عند النحويين[9]

من إنّ العلم المشهور في باب لا النافية للجنس قد يؤول بنكرة فينتصب وينزع منه لام التعريف «ولتأويله بالنكرة وجهان: إما أن يقدر مضاف هو: (مثل)، فلا يتعرف بالإضافة لتوغله في الإبهام، وأما أن يجعل العلم لاشتهاره بتلك الخلة كأنه اسم جنس موضوع لإفادة ذلك المعنى؛

---

١ . حدائق الحقائق١٣٣/٢.
٢ . ينظر: نفسه ١٣٣/٢.
٣ . شرح نهج البلاغة (البحراني) ٣٨٨/٣ وينظر: توضيح نهج البلاغة٢٤٦/٣.
٤ . نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢ ص:٣٧٦.
٥ . ينظر: معارج نهج البلاغة٣٦٤ ومنهاج البراعة (الراوندي) ٢٦٦/٢ وحدائق الحقائق٣٥٨/٢ وشرح نهج البلاغة (حديد)١٨٢/٣ وشرح نهج البلاغة (البحراني) ٢٨٠/٤ ومنهاج البراعة (الخوئي)٤/١٢ وبهج الصباغة٣٠٨/٤.
٦ . من شواهد الكتاب ٢٩٦/٢ من دون عزو.
٧ . شرح نهج البلاغة (حديد)١٨٢/٣.
٨ . شرح نهج البلاغة (البحراني) ٢٨٠/٤.
٩ . ينظر:الكتاب٢٩٦/٢-٢٩٧ وشرح عمدة الحافظ٢٥٧-٢٨٥ والتسهيل٦٧ وشرح الكافية للرضي١٨٦/١وشرح للرضي١٨٦/١وشرح ابن عقيل٣٩٩/١.

لأنّ قضية ولا أبا حسن لها: لا فيصل لها...فصار اسمه كالجنس المفيد لمعنى الفصل والقطع كلفظ الفيصل»[1].

ومن هنا رأى الخوئي أنّ تأويل النصب في: (لا جبريل ولا ميكائيل) معناه أنّه لا ناصرَ لكم ولا معاونَ[2].

فخرجه على العموم والسعة لا التخصيص والتعريف.
واستدل التستريّ بسياق المعاطيف في عضد رواية النصب؛ لان «قوله (عليه السلام): ولا مهاجرين ولا أنصار بلا لام دون أن يقول: ولا المهاجرين ولا الأنصار دليل على إرادة العموم بجبرائيل وميكائيل، كقولهم: ولا أبا حسن، دون أن يقول: ولا أبا الحسن»[3]. ومعنى العموم ظاهر مع نصب هذه الأسماء لأنها بمنزلة الأجناس لا الأفراد.
وفي هذه الأسماء الأربعة رواية أخرى هي الرفع رجحها البحراني بعد أن ضعّف نصبها.
ووجه الرفع عنده هو الابتداء، فتكون (لا) فيها ملغاة عن العمل، والمعنى أن «عدم نصرة الملائكة والمهاجرين والأنصار لهم، أما لأن النصرة كانت مخصوصة بوجود الرسول والاجتماع على طاعته، وقد زالت بفقده، أو لأنها مشروطة بالاجتماع على الدين والألفة فيه، والذب عنه، وإذا التجئوا إلى غيره وحاربهم الكفار لم يكن لهم ناصر من الملائكة لعدم اجتماعهم على الدين ولا من المهاجرين والأنصار لفقدهم»[4].

ونبه الخوئي على إن إلغاء (لا) عن العمل في رواية رفع هذه المعاطيف الأربعة «هو احد الوجوه الخمسة التي ذكرها علماء الأدب في نحو: لا حول ولا قوة إلا بالله، وعلى أي تقدير فالخبر محذوف، وجملة: ينصرونكم وصف أو حال»[5].

وتقدير الخبر بالمعرفة أو بالنكرة هو الذي يحدد إعراب جملة (ينصرونكم) بين الحال أو الوصف. فلو قدر الخبر بلفظ (المعروفون) تعرب الجملة حالا، ولو قدر بلفظ (موجودون) تعرب الجملة نعتا.
والمعنى يستدعي أنْ يكون التقدير: فلا جبرائيل، ولا ميكائيل، ولا المهاجرين، ولا الأنصار موجودون ينصرونكم؛ لان تقدير الخبر بلفظ (المعروفون) يلزم منه جواز الإخبار عن أنصار ومهاجرين غير معروفين ينصرونهم، فنفي النصرة عن هؤلاء المعروفين لا يلغي وجود النصرة من غير المعروفين منهم.
أما تقدير الخبر بلفظ النكرة (موجودون) فلا يعارضه الإخبار عن الملائكة والمهاجرين والأنصار بغير موجودين؛ لأنهم غير موجودين فعلا في الكوفة آنئذٍ، ومع فساد تقدير الخبر معرفة يرجح كون الجملة (ينصرونكم) حالا.
ويبقى رفع الأسماء الأربعة دليلا على تخصيص مدلولها بالملكين المعروفين والفريقين المعروفين.

روايات النهج والدلالة المعجمية:

المراد بالدلالة المعجميّة هو ذلك النوع من الدلالة الذي يهتمّ بالكلمات المتداولة لدى مجتمع إنسانيّ معَيّن؛ لأنّ «كلّ كلمة من كلمات اللغة لها دلالة معجميّة، أو اجتماعيّة تستقل عمّا يمكن

---

١ . منهاج البراعة (الخوئي)٤/١٢ وينظر: شرح الكافية للرضي١/١٨٥-١٨٦.
٢ . ينظر: منهاج البراعة (الخوئي) ٤/١٢.
٣ . بهج الصباغة٣٠٨/١٢ وينظر: التسهيل ٦٧ وشرح ابن عقيل ٣٩٤/١.
٤ . شرح نهج البلاغة (البحراني) ٢٧٩/٤-٢٨٠.
٥ . منهاج البراعة (الخوئي) ٤/١٢ وينظر: شرح عمدة الحافظ٢٥٧ وشرح ابن عقيل٣٩٥/١.

أن توحيه أصوات هذه الكلمة أو صيغتها من دلالات زائدة على تلك الدلالة الاساسية، التي يطلق عليها الدلالة الاجتماعيّة»[1].

إذ تكتسب الألفاظ في أيّ لغة دلالاتها لدى أبنائها عبر التلقي والمشافهة والتواصل فيما بينهم. ولذا سّمي هذا النوع – أيضا - بالدلالة الاجتماعيّة وهي النطق بالأصوات إلا وسائل يرجو المتكلم أن يصل عن طريقها إلى ما يهدف من فهم أو إفهام»[2].

إنّ مهمّة المعجم في أيّ لغة هي الكشف عن معنى الكلمة، إذ تعدّ دراسة المعنى المعجميّ أول خطوة في الحديث عن الكلمة ودلالتها، لانّ الدلالات الصوتيّة والصرفيّة والنحويّة هي دلالات وظيفيّة[3].

وقد سمّاها الدكتور تمّام حسّان بالمعنى الوظيفيّ. وكلّ من الصوت والصرف والنحو لا يدرس الكلمة، وما يدرسها هو المعجم[4].

والمعجم يبحث.[5] ولذا يكون الاعتماد على المعجم العربي دليلا قويّا في المفاضلة بين الروايات

الروايات المختلفة للكلمة نفسها في السياق الواحد كما في المتون الشعرية والنثرية ومنها ما جاء في متن النهج من كلمات كثيرة اختلفت رواياتها بين نسخة وأخرى.

ثم تباين الشراح في الاختيار بينها كما في المثالين:

أجال، أجّل، أحال، أحلّ.

قال الإمام (عليه السلام) يصف خلق الكون: «أنشأ الخلقَ إنشاء وابتدأه ابتداءً، بلا رويّة أجالها، ولا تجربةٍ استفادها، ولا حركةٍ أحدثها، ولا همامة نفس أضطرب فيها»[6].

وفي (أحال الأشياء لأوقاتها) أربع روايات هي: أحال وأحلّ وأجال وأجّل، تفاوت شارحو النهج في توثيقها والمفاضلة بينها. فالبيهقي - أقدم من شرح النهج - ذكر روايتين بالجيم المنقوطة هما (أجال) و(أجّل).

ومعنى أجال الأشياء لأوقاتها: غيّرها[7].

وهو أفعل من الجولان بمعنى التغيير من مكان إلى آخر ومن زمان إلى آخر. يقال: أجاله وأجال به إذا أدراه وحركه فغيّره[8].

كأنه سبحانه «حرك الأشياء وردها في العدم حتى حضر وقتها»[9].

واختار الرواندي هذه الرواية ولم يلتفت إلى الأخريات ورأى أنّ معنى «أجال الأشياء: أعادها وردّها، أي وقتها وخلقها في أوقاتها»[10].

وواضح أن ذكر التوقيت في توجيه (أجال) غير مستحصل بل التوقيت ملائم لتوجيه الرواية (أحال الأشياء) بالحاء المهملة كما سيأتي بيانه لأنها من الحول أي السنة.

فتكون الرواية (أجال) بالجيم ساقطة لأن المفهوم من ذكر الجولان ما هو إلا بعض مما يستحصل من الإحالة، وما ذكر من تفسير الإجالة بالتردد والإدارة يدخل في تفسير الإحالة أيضا

---

١ . دلالة الالفاظ ٤٨.
٢ . نفسه ٥١.
٣ . ينظر: الكلمة ١٣٨.
٤ . ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها ١٢٢.
٥ . ينظر: التحليل اللغوي ١٥٧ والتطورات المعجميّة ١٨٠-١٨٥والظاهرة الدلالية عند علماء العربية ٢١٨.
٦ . نهج البلاغة، الخطبة ١، ص: ١٨.
٧ . ينظر: معارج نهج البلاغة ٥٥.
٨ . ينظر: مقاييس اللغة والصحاح.
٩ . شرح نهج البلاغة المقتطف ٣١/١.
١٠ . منهاج البراعة ٥٢/١.

فضلا عن إنّ الفعل أجال ذكر في كلام الإمام في السياق نفسه ولكن بمعنى آخر وهو في (أنشأ الخلق إنشاء وابتدأه ابتداء بلا رويّة أجالها) ومعنى الإجالة هنا أنه تعالى خلق الخلق ولم يردّد فكرة الخلق في نفسه ولم يديرها في فكره. فليس من اللائق أن يعاد ذكر الفعل نفسه مع ربط الأشياء بأوقاتها.
وأما الرواية الثانية (أجّل الأشياء) فهي من التأجيل أي التأخير ومعنى الكلام بها هو «أنّ الصلاح في الفعل قد يقف على وقت مخصوص فتقديمه وتأخيره يخرجه عن الصلاح، فيجب أن يكون عالما بالأوقات المستقبلية حتى يجري التدبير على قضية الحكمة»[1] ورأى البحراني أنّ أنّ «معنى تأجيلها هو جعل أوقاتها أجلا لها لا يتقدم عليها ولا يتأخر عنها كما إذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون»[2].

وعلى الرغم من ذلك يفهم من التأجيل أنه يعنى تأخير أيجاد
الأشياء إلى أجل مسمى دون بيان لمقصد. وفيه تفسير اللام بأنها نائبة عن إلى وهذا التناوب في الحروف ينبغي عدم الركون إليه إن وجد سبيل غيره.
وذكر ابن أبي الحديد روايتين بالحاء المهملة هما (أحال وأحلّ).
ولم يلتفت إلى الروايتين اللتين ذكرهما قبله البيهقي والرواندي بالجيم.
ثُمَّ وجّه (أحال وأحلّ) قائلا: «أما قوله (عليه السلام): (أحال الأشياء لأوقاتها) فمن رواها (أحلّ أشياء لأوقاتها) فمعناه جعل محل كل شيء ووقته كمحل الدين.
ومن رواها (أحال) فهو من قولك حال في متن فرسه أي وثب وأحاله غيره أي أوثبه على متن الفرس عداه بالهمزة، وكأنه لما أقر الأشياء في أحيانها وأوقاتها صار كمن أحال غيره على فرسه»[3].

وكون الرواية (أحلّ) فهي - وإن كانت من الحلول بالمكان، يقال: أحلّه المكان وبالمكان إذا جعله يحل به[4] - لا يستقيم معنى السياق بها لأن الحلول فعل مكاني وما بعده ذكر للزمان (لأوقاتها)
فلا يستقيم الجمع بين المكان والزمان هنا فضلا عن أن اللام لا يصح تأويلها بمعنى الباء كي يتحقق معنى الحلول.
ورأى البحراني أن المراد بالإحالة هنا أنه تعالى لما ربط كل ذي وقت بوقته بحسب ما كتب في اللوح المحفوظ بحيث لا يتأخر متقدم ولا يتقدم متأخر فكأنه تعالى نقل كل منهما إلى وقته وحوّله من العدم واللامكان الصرف إلى مدته المضروبة لوجوده.
واللام في (لأوقاتها) لام التعليل أي لأجل أوقاتها لأن كل وقت يستحق بحسب قدرة الله وعلمه أن يكون فيه ما لا يكون في غيره[5].

ووصفت الرواية (أحال) لدى شارحي النهج المتأخرين بأنها الأكثر شيوعا لكنهم لم يرتضوا توجيهها على أنها من أحال في متن فرسه كما ذكر ابن أبي الحديد - الذي يفهم من كلامه أن اللام في (لأوقاتها) لام التعليل أي: لأجل أوقاتها-.
بل ما ذكره لا يخفى بعده لأن الرواية بالحاء المهملة يجوز أن تكون من الإحالة بمعنى التحويل أي: نقل كلا منها إلى وقتها فاللام بمعنى إلى وليس للتعليل[6].

ويبدو أن الرواية (أحال) هي الراجحة. ففضلا عن ورودها في معظم النسخ يستقيم المعنى بها دون غيرها وهي من الحول أي السنة. يقال: حال عليه الحول أي مرّ.

---

١ . معارج نهج البلاغة ٥٥ وينظر: حدائق الحقائق ١٢٧/١.
٢ . شرح نهج البلاغة (البحراني) ١٣٥/١.
٣ . شرح نهج البلاغة (حديد) ٨٠/١.
٤ . ينظر: مقاييس اللغة والصحاح.
٥ . شرح نهج البلاغة (البحراني) ١٣٢/١.
٦ . ينظر: منهاج البراعة (الخوئي) ٣٥٢/١ وبهج الصباغة ١٦٢/١ وفي ظلال نهج البلاغة ٨٩/١ وشرح نهج البلاغة المقتطف ٣١/١.

وقد ذكرت المعجمات عدّة معان لـ(أحال) المزيد بالهمزة منها: أحال الرجل: أتى بالمحال. وأحال في متن فرسه أي: وثب. وأحال الرجل إذا حالت إبله فلم تحمل تلك السنة. وأحال عليه بالسوط يضربه: أقبل. وأحال عليه الحول أي: مضى وانقضى[1].

ولذا يكون المراد بإحالة الأشياء لأوقاتها هو تحولها من حال إلى آخر فالإحالة هي:التحويل والنقل والتغيير والانقلاب من حال إلى آخر.

ويفهم من قوله (عليه السلام): (لأوقاتها) أن «العالم لم يخلق دفعة واحدة بل على التدرج أو التطور وأن كل شيء يستند في وجوده واستمراره إلى إرادته تعالى مباشرة.»[2].

مصارعة، مضارعة، مسارعة

قال الأمام (عليه السلام) يصف موضع بيت الحرام بأوعر بقاع الأرض: (ولو كان الأساس المحمول عليها، والأحجارُ المرفوعُ بها بين زمردة خضراء وياقوتة حمراء ونور وضياء لخفّف ذلك مصارعة الشكّ في الصدور ولوضعَ مجاهدةَ إبليس عن القلوب)[3].

وفي مصارعة الشك ثلاث روايات: الأولى اختارها الراوندي وهي «مضارعة الشك: أي مشابهته»[4].

ومعنى الكلام في ضوء هذه الراوية أنه (عليه السلام) «يقول: لو وضع الله بيته في أطيب بقعة وجعله من الزمرد والياقوت ثُمَّ أمر بطوافه لخفف الله ذلك على الخلق ولزالت الشبهة ولم يكن كلفة»[5].

أي أنّ المشابهة - التي فسر بها الرواندي المضارعة - بمعنى الشبهة التي سوف تخفّ على الناس عندما يرون الكعبة محمولة على أساس من الزمرد الأخضر المنير ومرفوعة بأحجار من الياقوت الأحمر المضيء.

وضعف ابن أبي الحديد رواية الراوندي (مضارعة) لعدم ظهور المعنى بها.

ومن ثُمَّ أنكر توجيه الراوندي لها لأنه يرى أن لا معنى للمشابهة هنا ورأى أن الأحسن في توجيه هذه الرواية الضعيفة أن يقال: إنّ المضارعة «معناها مقارنة الشك ودنوه من النفس وأصله من مضارعة القدر إذا حان إدراكها ومن مضارعة الشمس إذا دنت للمغيب»[6].

وأنكر التستري اشتقاق المعتزلي المضارعة من مضارعة القدر والشمس؛ لأنّ دنو الشمس للمغيب وحينونة القدر للإدراك لا يسميان مضارعة بل هو تضريع كما في الصحاح «تضريع الشمس دنوها للمغيب ويقال: أيضا ضرعت القدر أي حان أن تدرك»[7] ومن ثُمَّ استظهر التستري أن يكون «الصواب أن يقال بسقوط تلك الرواية لعدم معنى لها»[8].

أما الرواية الثانية فهي (مصارعة الشك) بالصاد المهملة ووصفت بأنها الرواية الصحيحة لوجودها في ابن أبي الحديد وابن ميثم والكافي[9].

وفسرت المصارعة هنا بالمغالبة[10].

---

١ . ينظر: الصحاح

٢ . في ظلال نهج البلاغة ٩٠/١.

٣ . نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢، ص: ٣٧٠.

٤ . منهاج البراعة ٢٥٣/٢.

٥ . نفسه.

٦ . شرح نهج البلاغة (حديد) ١١١/١٣.

٧ . الصحاح

٨ . بهج الصباغة ١٣٢/١٣.

٩ . نفسه ١٣١/١٣.

١٠ . ينظر: شرح نهج البلاغة (حديد) ١١١/١٣ وشرح نهج البلاغة (البحراني) ٢٨٢/٤ ومنهاج البراعة (الخوئي) ٢٣٢/١١.

وإنما «استعار لفظ المصارعة للمغالبة بين الشك في صدق الأنبياء والشك في كذبهم فإنّ كلا منهما يترجح على الآخر»[1].

وثمّة رواية ثالثة وردت في النسخة المصرية هي (مسارعة الشك) ومعنى الكلام بها هو إنّ سرعة الشك إلى القلوب تخف عندما تبنى الكعبة من تلك الأحجار النفيسة[2].

والرواية الراجحة هي الثانية وهي (مصارعة الشك) بالصاد المهملة لأنه (عليه السلام) ذكر بعدها (مجاهدة إبليس عن القلوب) فهذه العبارة هي تفسير للعبارة التي قبلها وهي كالقيد للألفاظ المطلقة في (مغالبة الشكّ في الصدور). فالمجاهدة تخصيص للمصارعة لأن الصراع أعم من الجهاد.
وذكر (إبليس) تقييد للشك وهل الشك الذي يعتري صدور الناس إلا من وسوسة إبليس وقبيله.
والقلوب أخصّ من الصدور.
ولذا يكون ذكر المصارعة ملائما لوجود المجاهدة بعدها وإزاءها.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.
أبنية الصرف في كتاب سيبويه: د.خديجة الحديثي، منشورات مكتبة النهضة، بغداد ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.
الأصوات اللغويّة: د. ابراهيم انيس، الطبعة الرابعة، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٢م.
اقسام الكلام من حيث الشكل والوظيفة: د. فاضل مصطفى الساقي، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
أوزان الفعل ومعانيها: د. هاشم طه شلاش – مطبعة الاداب – النجف الاشرف ١٩٧١ م
بهج الصياغة في شرح نهج البلاغة: الشيخ محمد تقي بن كاظم التستري (ت ١٤١٥هـ)، منشورات مكتبة الصدر، طهران، (د. ت).
التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة: د. محمود عكاشة، مصر، ٢٠٠٥م.
تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد: جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك، تحقيق محمد كامل بركات، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
التطورات المعجمية والمعجمات اللغوية العامة العربية الحديثة: د. صافية زفنكي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٧م.
التفسير الكبير او مفاتيح الغيب: فخر الدين محمد بن عمر التميمي البكري الرازي (ت٦٠٤هـ) – الطبعة الاولى – دار الكتب العلمية – منشورات محمد علي بيضون – بيروت ١٤٢١هـ /٢٠٠٠ م.
تمام نهج البلاغة: تحقيق وتنميم وتنسيق السيد صادق الموسوي، مؤسسة الاعلمي، لبنان ١٤٢٦هـ.
توضيح نهج البلاغة: السيد محمد بن المهدي الشيرازي، قم، ١٤١٠هـ
جمهرة اللغة: ابو بكر محمد بن الحسن بن دريد (ت٣٢١هـ)، دار صادر، بيروت (د.ت).
الحجة في القراءات السبع: لابي عبد الله الحسين بن احمد بن خالويه (ت٣٧٠هـ)، تحقيق احمد مزيد المزيدي، قدم له د. فتحي حجازي، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية، لبنان (د.ت).
الحجة في علل القراءات السبع، أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ)، تحقيق الشيخين عادل أحمد وعلي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧.

١. شرح نهج البلاغة (البحراني) ٢٨٢/٤.
٢. ينظر: شرح نهج البلاغة (محمد عبده) ١٧٩/٢ ومنهاج البراعة (الخوئي) ٣٤٤/١١.

حدائق الحقائق في فسر دقائق أفصح الخلائق: قطب الدين أبو الحسين محمد بن الحسين البيهقي النيسابوري الكيدري (ت القرن السادس الهجري)، تحـ: عزيز الله العطاردي، طهران ١٣٧٥ هـ
دروس في التصريف: محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الثالثة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٥٨ م.
دلائل الاعجاز: عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) – تصحيح وتعليق: محمد رشيد رضا – دار المعرفة – بيروت ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
دلالة الالفاظ: د. ابراهيم انيس – الطبعة الثالثة – مكتبة الانجلو المصرية – مطابع مجلة العرب – مصر ١٩٧٢ م.
ديوان الأدب: أبو ابراهيم اسحاق بن ابراهيم الفارابي ت ٣٥٠هـ، تحقيق د. أحمد مختار عمر د. ابراهيم أنيس،مصر، ١٩٧٦م.
شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك: بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني (ت٧٦٩هـ): تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية، دار الفكر، دمشق ١٩٨٥م.
شرح عمدة الحافظ وعدّة اللافظ: ابن مالك جمال الدين (ت٦٧٢هـ)، تحقيق عدنان عبد الرحمن الدوري مطبعة العاني، بغداد ١٣٩٥هـ - ١٩٧٧م، وزارة الاوقاف، احياء التراث الاسلامي.
شرح الكافية في النحو لابن الحاجب: رضي الدين الاستراباذي، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت).
شرح نهج البلاغة: عز الدين عبد الحميد بن محمد بن ابي الحديد المعتزلي (ت ٦٥٦هـ) تحـ: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار أحياء اتراث العربي، ط٢، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.
شرح نهج البلاغة: كمال الدين ميثم بن علي البحراني (ت ٦٧٩هـ)، منشورات دار الثقبين، بيروت ١٩٩٩هـ
شرح نهج البلاغة: الشيخ محمد عبده ت١٣٢٣هـ، تح محمد عاشور ومحمد البنا،القاهرة، ١٩٦٨م.
شرح نهج البلاغة: محمد عبده، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر، دت.
شرح نهج البلاغة: السيد أبو علي عباس الموسوي، لبنان، ١٤١٨
شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار للعلامة المجلسي: علي أنصاريان، طهران،١٤٥٨هـ،
الصحاح، معجم الصحاح قاموس عربي عربي مرتب ترتيبا ألفبائيا وفق أوائل الحروف: اسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٨هـ)، اعتنى به خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت،٢٠٠٨م.
الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع الهجري: د. صلاح الدين زرال
علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية: فريد عوض حيدر، مصر، ١٩٩٩م.
الفروق اللغوية: ابو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ)، ضبط وتحقيق: حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية – بيروت، د ت.
فقه اللغة وأسرار العربية: ابو منصور الثعالبي (ت٤٢٩هـ)، وضع وتعليق: د. ديزيرة سقال – الطبعة وفي ظلال نهج البلاغة
في ظلال نهج البلاغة، محاولة لفهم جديد: الشيخ محمد جواد مغنية (ت١٤٠٠هـ) عناية سامي الغريري لبنان ٢٠٠٥م.
القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي (ت٨١٧هـ)، إعداد وتقديم محمد عبد الحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٣م.
الكتاب: ابو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (سيبويه) (ت١٨٠هـ) – تحـ: عبد السلام هارون – الطبعة الثالثة – الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨م.

الكلمة دراسة لغوية ومعجمية: د. حلمي خليل، الهيأة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠.
الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية): ابو البقاء الحسين الكفوي (ت١٠٩٤هـ) – اعداد: د.عدنان درويش ومحمد المصري، ط ٤، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٨م.
اللغة العربية معناها ومبناها: د. تمام حسان – الطبعة الثالثة – عالم الكتب – القاهرة١٤١٨هـ/١٩٩٨م
ليس في كلام العرب: ابن خالويه، لابي عبد الله الحسين بن احمد (ت٣٧٠هـ)، تح أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت ن ١٩٧٩م.
المباحث الدلالية في شروح نهج البلاغة / دراسة موازنة، جنان ناظم حميد، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، كلية التربية للبنات، ٢٠٠٩.
المبدع في التصريف: أبو حيان الأندلسي، تح د. عبد الحميد السيد طلب، دار العروبة، بيروت، دت.
المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها: ابن جني، تحقيق علي النجدي ناصف ود. عبد الحليم النجار ود.عبد الفتاح شلبي، مطابع التجارية، القاهرة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.
مختصر العين: أبو بكر الزبيدي (ت ٣٧٩هـ)،
مصادر نهج البلاغة واسانيده: عبد الزهراء الحسيني الخطيب، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
مصطلحات الدلالة العربية / دراسة في ضوء علم اللغة الحديث: جاسم محمد عبد العبود،رسالة دكتوراه، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، ٢٠٠٣م.
معارج نهج البلاغة: ظهير الدين أبو الحسن علي بن أبي القاسم زيد بن محمد البيهقي، فريد خراسان،(ت ٥٦٦هـ، تح: محمد تقي دانش، مكتبة آية الله المرعشي ١٤٠٩هـ
معاني الابنية في العربية: د. فاضل السامرائي، الطبعة الاولى، جامعة الكويت،١٩٨١ م
معاني القران واعرابه: ابو اسحاق ابراهيم بن السري الزجاج (ت٣١١هـ) – شرح وتحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي – الطبعة الاولى – عالم الكتب – بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨ م.
معجم مصطلحات اللغة والادب: مجدي وهبة وكامل المهندس، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٢م.
المغني في تصريف الافعال: محمد عبد الخالق عضيمة، ط٣، دار الحديث، القاهرة،٢٠٠٥.
مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبرى زادة: احمد بن مصطفى، دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن (د.ت).
مفتاح العلوم: لابي يعقوب يوسف بن ابي بكر محمد بن علي السكاكي (ت٦٢٦هـ)، الطبعة الاولى، مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده، القاهرة ١٩٣٧م.
المفردات في غريب القران: لابي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني (ت٥٠٢هـ)، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت (د.ت).
المقاييس في اللغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، تحـ: شهاب الدين ابو عمرو، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت ١٤١٨هـ /١٩٩٨ م.
الممتع في التصريف: ابن عصفور، تحقيق د. فخر الدين قباوة، الطبعة الثالثة، منشورات دار الافاق الجديدة، بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي(ت ٥٧٣هـ) تح عبد اللطيف الكوهكمري عنيت بطبعة مكتبة المرعشي،١٤٠٦هـ
منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: السيد حبيب الله بن السيد محمد الموسوي الخوئي (ت١٣٢٤هـ) تصحيح إبراهيم الميانجي ط٤، منشورات المكتبة الإسلامية طهران
نهج البلاغة: تحقيق صبحي الصالح، ١٤٢٩هـ، مطبعة وفا، أيران، قم.
همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: السيوطي – تحـ: احمد شمس الدين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية – منشورات: محمد علي بيضون – بيروت ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م.

فن التقسيم في نهج البلاغة

المدرس الدكتور: عباس علي الفحام

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وأتم الصلاة والتسليم على المبعوث رحمة للعالمين محمد الرسول الأمين، وعلى آله الطاهرين وصحبه المنتجبين، وبعد، فما زال البحث العلمي بكرا في كلام الإمام علي(عليه السلام)، على الرغم من كثرة ما كتب فيه وكشف عن خباياه، فجاء هذا البحث من هذا الباب ليستوي عنوانه «فن التقسيم في نهج البلاغة»، متخذا منه سبيلا لإصابة هدفين هما:
الأول: محاولة الكشف عن أسلوب الإمام(عليه السلام) في نهج البلاغة في فن التقسيم، وأساليبه ووسائله.
الثاني: درء الشبهات – من طرف خفي – عن صحة انتساب ما في نهج البلاغة إلى الإمام علي(عليه السلام).
واشتمل البحث على تمهيد، حاولت فيه أن أعرف بالتقسيم واستعمالاته في التعبير القرآني والكلام النبوي، وعلى مجموعة من طرائق الإمام(عليه السلام) في التقسيم، اندرجت تحت عنوان (وسائل التقسيم)، وضمت ثلاث وسائل هي على الترتيب بحسب كثرة استعمالها:
الأول: التقسيم بالعدد
الثاني: التقسيم بالموضوع
الثالث: التقسيم بالزمن
وضم الأول مجموعة من المباحث، درست الأعداد الأكثر ورودا في التقسيمات، فكانت (الاثنان، والأربعة، والثلاثة، والخمسة، والستة).
أما التقسيم بالموضوع فقد اشتمل على موضوعات التحذير والوعظ والوصف وموضوع الإمام(عليه السلام) وأصحابه.
وكان التقسيم الأخير بالزمن مشتملا على الظروف الماضية والحاضرة والمستقبلة، واستعمالات الإمام فيها.
والبحث كله محاولة جديدة للكشف عن أسلوب جديد في البيان العربي، يرتكز على أساس التنظيم الفكري ممزوجا بقالب فني بلاغي رائع، لذلك كانت روعة البحث فيه وصعوبته في آن معا تكمن في جدته، ولكن الذي سهل الطريق هو الإفادة من المصادر المختلفة من البلاغة والتاريخ والتفسير، التي لها صلة مباشرة وغير مباشرة بموضوع البحث، الذي أرجو من الله تعالى أن أوفق فيه ليكون إسهامة جديدة في البحوث التي أتطلع فيها لخدمة هذا الأثر الخالد.

التمهيد

فن التقسيم

يعرف التقسيم بأنه«استيفاء المتكلم أقسام الشيء، بحيث لا يغادر شيئا، وهو آلة الحصر ومظنة الإحاطة بالشيء»[1] ، ومكانته من الفن القولي لا تخفى «فله موقع في الفصاحة لا يمكن جحده و لا يسع إنكاره»[2].

وسماه الزمخشري التفصيل، قال وهو في معرض تفسيره لقوله تعالى: «وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ»[3]: «ومعنى هذا البدل (فيغفر) التفصيل لجملة (الحساب)، لأن التفصيل أوضح من المفصل»[1].

---

١ .البرهان ، الزركشي : ٤٧١/٣.
٢ .الطراز ، العلوي : ١٤٤/٣.
٣ .البقرة : ٢٨٤.

والتقسيم أسلوب بلاغي صعب المنال، يتطلب خبرة وإجالة عميقة للفكرة، وهو ليس متاحا لكل أحد، إلا لأولئك الذين امتلكوا ناصية اللغة، وألموا بخباياها فعرفوا كيف يقودون أزمتها، لأن المتكلم يضع نفسه في زاوية الحصر والتضييق، ومن هنا تبدو روعة فنه، في القدرة على لملمة الأفكار وحصرها والإحاطة بها من جميع جهاتها.

وجاء التقسيم في القرآن الكريم كثيرا، كلما توخى التفصيل بعد الإجمال، قال تعالى«**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ**»[٢]، فقد قسمت الآية الكريمة العباد إلى ثلاثة أقسام: الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات، والعباد المكلفون هم كذلك إما عاص ظالم لنفسه أو مطيع مبادر إلى الخير أو مقتصد بينهما[٣].

ومنه قوله تعالى: «**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً**»[٤]، وليس في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق والطمع في الأمطار، «ولا ثالث لهذين القسمين»[٥].

ومن التقسيم بالعدد قوله تعالى:«**وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً، فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ، وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ، وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ**»[٦].

وهذه الآية مماثلة في المعنى للتي قبلها، وأصحاب المشأمة هم الظالمون لأنفسهم، وأصحاب الميمنة هم المقتصدون، والسابقون هم السابقون بالخيرات[٧].

واستعمل التعبير القرآني التقسيم الزمني في قوله تعالى: «**فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ**»[٨]، فاستوفت أقسام الأوقات، من طرفي كل يوم ووسطه باستعمال فنون البلاغة المختلفة كالمقابلة والمطابقة[٩].

والتقسيم من أكثر ألوان التعبير القرآني إعجازا في الأداء والتفصيل والحصر، ووقع في الكثير من آياته الكريمة[١٠].

ويبدو أن ميل النفوس إلى التقسيم لأنسها بالانتظام والتبويب الذين هما أساس هذا الفن البياني، واستعماله يشير إلى تنامي الفكر كونه يستدعي نوعا من الروية في حصر الفكرة بفقر منتظمة تستوفي جهاتها كلها، ولذلك كان وسيلة أثيرة في التعبير القرآن، لما يمثل القرآن الكريم من تغيير فكري حقيقي في الذهنية العربية.

وبالمستوى ذاته جاء هذا الفن في الحديث النبوي، وبتقسيمات مختلفة لم يسمع العرب أسد منها سوى التعبير القرآني، ولا سيما الحصر العددي الذي شاع استعماله على لسان الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) مثل قوله: «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[١١].

---

١ .الكشاف، الزمخشري : ٤٦/١، وينظر: النظم القرآني في كشاف الزمخشري، درويش الجندي: ٤٩.
٢ .فاطر: ٣٢.
٣ .ظ.مجمع البيان، الطبرسي : ٢٤٦/٨ ، البرهان، الزركشي: ٢٦٠/٣.
٤ .الرعد : ١٢.
٥ . ظ. الإتقان في علوم القرآن، السيوطي: ٢٤٠/٢.
٦ .الواقعة : ٧-٨-٩-١٠.
٧ .ظ. مجمع البيان، الطبرسي:٢٤٦/٨، ٣٥٨/٩، تفسير الآلوسي، الآلوسي: ١٣١/٢٧.
٨ .الروم : ١٧-١٨.
٩ . ظ.مجمع البيان، الطبرسي: ٥٢/٨ ،البرهان،الزركشي: ٣/ ٤٧٢ ،تفسير الآلوسي، الآلوسي: ٢٨/٢١.
١٠ . تنظر سورة براءة، وتنظر أيضا: هود : ٤٤، ق : ٤٠
١١ . صحيح البخاري، البخاري : ١ / ١٤ ، صحيح مسلم، مسلم بن الوليد: ٥٦/١

وقوله(صلى الله عليه وآله وسلم): «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار».[1]

وقوله(صلى الله عليه وآله وسلم): «قال آية المنافق ثلاث، إذ حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[2]، وقوله: «القضاة ثلاثة. اثنان في النار، وواحد في الجنة: رجل علم الحق فقضى به فهو في الجنة. ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار. ورجل جار في الحكم فهو في النار»[3].

وغيرها كثير مما حفظته كتب الحديث النبوي الشريف[4].

وقد تأثر الإمام الأسلوب القرآني في كلامه كله[5]، ولاسيما في أسلوب التقسيم، فأكثر منه كلما استوجبه السياق، مثلما تأثر الحديث النبوي في تقسيماته واستيفاءاته العددية، إذ هو ربيب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وحامل علمه.

ومن الغرابة بمكان أن يطعن في صحة نسبة الكلام في نهج البلاغة إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) بحجة اشتماله على التقسيم العددي، وكما يقول أحد المشككين معلقا على أسلوب الإمام في قوله: «الإيمان على أربع دعائم: على الصبر واليقين والعدل والجهاد. والصبر منها على أربع شعب: على الشوق والشفق والزهد والترقب»: «أربع دعائم، و الشك إلى أربع شعب، وغير ذلك. فإنّ استعمال الطريقة العددية في الشروح، و تقسيم الفضائل أو الرذائل على أسلوبها، لا نراه في الآداب الجاهلية، بل لا نكاد نعرفه في الأدب الإسلامي إلّا بعد ظهور كتاب «كليلة و دمنة المعرّب»[6].

وهذا مخالف لما أثبته الأسلوب القرآني وأكد استعماله وأكثر منه الحديث النبوي في تقسيماته الأخلاقية المختلفة كما مر، أما الإمام علي(عليه السلام) فغير مستكثر عليه أسلوب الحصر والتقسيم العددي، لما عرف من ملكات لغوية هائلة وتنظيم فكري عجيب، يستطيع به التوليد على الأثر القرآني والنبوي في مجالي الفن والموضوع، الشائع فيهما هذا الاستعمال[7].

على أية حال، هذه الشبهات وغيرها التي تثار حول نهج البلاغة، لا يسعها الثبات أمام النقد والرد[8].

التقسيم – إذن – استيفاء وحصر وإحاطة، وهو بعد، أسلوب استعمله التعبير القرآني والحديث النبوي كثيرا، وتأثرهما الإمام علي(عليه السلام) في كلامه في نهج البلاغة، فأحسن استعماله، وأجاد في صحة تقسيماته، كما سيحاول البحث إثبات ذلك.

وسائل التقسيم

استعمل الإمام أسلوب التقسيم بكثرة في كلامه، وقد توسل له بوسائل عدة يمكن حصرها على أساس كثرتها على الترتيب الآتي:

الأول: التقسيم بالعدد

---

١ . صحيح البخاري، البخاري : ١ /٩ - ١٠

٢ . المصدر نفسه : ١/ ١٤.

٣ . سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني: ٢/٧٧٦.

٤ . ينظر: صحيح البخاري، البخاري : ٢/٢٢٠ ، ١/١٩، ١/٣٣.

٥ . ظ.الأثر القرآني في نهج البلاغة،عباس علي الفحام: ٢٣-٣٣.

٦ . دراسة حول نهج البلاغة ، الجلالي : ٧٠.

٧ . ظ. الأثر القرآني في نهج البلاغة، عباس علي الفحام : ٢٢٠-٢٣٥، التصوير الفني في خطب الإمام علي: علي: ١٠٨-١٢٠.

٨ . ينظر : نهج البلاغة لمن، محمد حسن آل ياسين : ٣١-٣٢ ، دراسة حول نهج البلاغة ، الجلالي : ٧٠.

كانت الأعداد وسيلة ظاهرة في أسلوب التقسيم في كلام الإمام، وقد توزعت الأعداد (إثنان، وأربعة، وثلاثة، وخمسة، وستة) بحسب كثرتها في كلامه بالأسلوب الآتي:

١- اثنان

تصدرت التثنية قائمة الأعداد التي استعملت في أساليب الحصر والتقسيم، إذ وقع مجموع ما ثنى الإمام في نهج البلاغة أكثر من خمس وعشرين مرة في مواضع مختلفة من خطبه ورسائله وحكمه.

فمن حكمه المشهورة قوله:«منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب دنيا»[١].

و(النهم) بالفتح هو إفراط الشهوة في الطعام، تقول منه: نهمت إلى الطعام بكسر الهاء إنهم فأنا نهم، والمنهوم المولع بالشيء.

وقد حصر الإمام النهم بنوعين متناقضين هما الجاد في تحصيل العلم والمجتهد في طلب الدنيا وكلاهما لا يشبعان البتة.

قال ابن أبي الحديد عن طلب العلم: «فأما طالب العلم العاشق له، فإنه لا يشبع منه أبدا، وكلما استكثر منه زاد عشقه له، وتهالكه عليه. مات أبو عثمان الجاحظ والكتاب على صدره.

وكان شيخنا أبو علي رحمه الله في النزع وهو يملي على ابنه أبى هاشم مسائل في علم الكلام، وكان القاضي أحمد بن أبي داود[٢] يأخذ الكتاب في خفه وهو راكب، فإذا جلس في دار الخليفة اشتغل بالنظر فيه إلى أن يجلس الخليفة، ويدخل إليه.

وقيل: ما فارق ابن أبي داود الكتاب قط إلا في الخلاء. وأعرف إنا في زماننا من مكث نحو خمس سنين لا ينام إلا وقت السحر صيفا وشتاء مكبا على كتاب صنفه، وكانت وسادته التي ينام عليها الكتاب»[٣].

وتروى هذه الكلمة للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم)[٤]، فإن جاءت على لسان علي(عليه السلام) فـ«لاعجب أن يشتبه الكلامان، فمستقاهما من قليب ومفرغهما من ذنوب»[٥].

ومثل هذه التثنية لفظة (يومان)، نحو قول الإمام: «والدهر يومان يوم لك ويوم عليك، فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فاصبر».[٦]

وهذا معنى مطروق، ويبدو أن هذا الضرب من التثنية شائع في المأثور العربي القديم فقد ورد كثيرا، نحو قولهم: «الدهر يومان: يوم بلاء، ويوم رخاء. والدهر ضربان: حبرة وعبرة، والدهر وقتان: وقت سرور، ووقت ثبور»[٧].

وتكرر هذا المعنى في موضع آخر، فمن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس: «أما بعد فإنك لست بسابق أجلك ولا مرزوق ما ليس لك واعلم بأن الدهر يومان: يوم لك ويوم عليك».[٨]

وثنى لفظة(الرزق) وقسمها في قوله موصيا ولده الحسن: «اعلم، يا بني، أن الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك فإن أنت لم تأته أتاك، فلا تحمل هم سنتك على هم يومك، كفاك كل يوم ما فيه».[٩]

---

١ . نهج البلاغة، الإمام علي(عليه السلام): ٤٠٩/٢.
٢ . لا نعلم بالضبط من هو أبو علي الذي يعنيه ابن أبي الحديد، ولم أعثر على ترجمة لابن أبي داوود..
٣ . شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد: ٢٠/ ١٧٤.
٤ . ظ.النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: ١٣٨/٥، سنن الدرامي، الدارمي: ٩٦/١.
٥ . نهج البلاغة ، الإمام علي (عليه السلام): ٣٥٩/٢.
٦ . المصدر نفسه : ٣٩٦/٢.
٧ . شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٣٦٤/١٩.
٨ . نهج البلاغة، الإمام علي(ع) : ٢٩٧/٢.
٩ . نهج البلاغة، الإمام علي(ع): ٣٩٤/٢.

وفي موضع آخر: «الرزق رزقان: طالب ومطلوب، فمن طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرجه عنها، ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي رزقه منها»[1].

وجاءت لفظة(عمل) مثناة بأسلوب الحصر والتقسيم في قوله عليه السلام: «شتان ما بين عملين: عمل تذهب لذته وتبقى تبعته، وعمل تذهب مؤونته ويبقى أجره».[2]

واستعمل الإمام التقسيم كثيرا في لفظة(رجل) بأسلوب التثنية، إذ وقعت في ستة مواضع من نهج البلاغة، نحو قوله: «ألا وإني أقاتل رجلين: رجلا ادعى ما ليس له، وآخر منع الذي عليه»[3] ،

فقد قسم غريمه الذي استحق قتاله إلى رجل ادعى حقا ليس له، نحو أن يخرج على الإمام من يدعي الخلافة لنفسه، ورجل منع ما عليه، نحو أن يخرج على الإمام رجل لا يدعي الخلافة، ولكنه يمتنع عن الطاعة فقط.
والخارج على الإمام مدع الخلافة لنفسه ومانع ما عليه في الوقت ذاته، لأنه قد امتنع من الطاعة، فقد دخل في أحد القسمين في الآخر، ومن هنا قدمه الإمام.
وقيل إن الإمام في قسمه الأول يشير إلى أصحاب الجمل وفي الثاني إلى معاوية وأصحابه.[4]

وقال الإمام محذرا من المدعين: «إن أبغض الخلائق إلى الله رجلان: رجل وكله الله إلى نفسه فهو جائر عن قصد السبيل مشغوف بكلام بدعة، ودعاء ضلالة، فهو فتنة لمن افتتن به، ضال عن هدي من كان قبله، مضل لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته، حمال خطايا غيره، رهن بخطيئته. ورجل قمش جهلا، موضع في جهال الفتنة، عاد في أغباش الفتنة، عم بما عقد الهدنة، قد سماه أشباه الناس عالما وليس بعالم، بكر فاستكثر من جمع ما قل منه خير مما كثر...»[5].

نفر الإمام ابتداء من الاتصاف بصفات المدعين الذين سيفصل الكلام فيهم، وأجمل أبغض الخلق إلى الله في رجلين، ربما يبدوان في الظاهر رجلا واحدا، إلا أن بينهما فرقا دقيقا هما:
الأول: العالم الذي صرف علمه إلى البدع وضلالة الناس.فهو حمال خطايا غيره.
الثاني:الجاهل المتشبه بالعالم. سماه الجهلة(أشباه الناس) عالما.وقمش بمعنى جمع، وموضع أي المسرع. والعادي الذي يعدو متخبطا في أغباش[6] أي ظلمات الفتنة على سبيل الاستعارة.والصفات كلها تؤكد التهور والتخبط لهذا الصنف الذي يصفه الإمام (عليه السلام).
وقد أعطى الإمام صفات تفصيلية لكل واحد منهما، أغنى شرحها ابن ميثم البحراني عن غيره وليس هنا محل ذكرها[7].

وابن أبي الحديد – وهو شارح عميق النظر في كلام الإمام- فرق بينهما على أساس أن الأول هو الضال في أصول العقائد، كالمشبه والمجبر ونحوهما.
والثاني هو المتفقه في فروع الشرعيات، وليس بأهل لذلك، كفقهاءالسوء.[8]

ولا أظن أن الإمام يعني ذلك الحصر الذي ذهب إليه ابن أبي الحديد، لقصور الناس زمن الإمام من فهم هذه التقسيمات.
ومثل هذه التثنية قوله عليه السلام: «هلك في رجلان محب غال ومبغض قال»[9]، وقوله: «يهلك في رجلان: محب مفرط وباهت مفتر»[1].

---

١ . المصدر نفسه : ٢/ ٤٠٣.
٢ . المصدر نفسه : ٢/٣٣٣.
٣ . المصدر نفسه : ١/٤١٠.
٤ . ظ.شرح نهج البلاغة، ابن ميثم : ٣/ ٣٤٢.
٥ . نهج البلاغة، الإمام علي(ع): ١/٥٥.
٦ . لسان العرب، ابن منظور: قمش، غبش.
٧ . ظ. شرح نهج البلاغة ، ابن ميثم البحراني : ١/ ٣١٢.
٨ . ظ. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد : ١ / ٢٨٤ – ٢٨٧.
٩ . نهج البلاغة، الإمام علي(ع): ٢/ ٤١٢.

وكلا القولين منقول عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في خطابه لعلي عليه السلام: «إن فيك لخصلتين كانتا في عيسى بن مريم.
فقال بعض أصحابه حتى النبيين شبههم به. قال [علي]: وما الخصلتان ؟ قال: أحبت النصارى عيسى حتى هلكوا فيه، وأبغضته اليهود حتى هلكوا فيه، وأبغضك رجل حتى هلك فيك، وأحبك رجل حتى يهلك فيك»[٢].

وقال الإمام موصيا ولده الحسن عليهما السلام: «يا بني، لا تخلفن وراءك شيئا من الدنيا، فإنك تخلفه لأحد رجلين: إما رجل عمل فيه بطاعة الله فسعد بما شقيت به، وإما رجل عمل فيه بمعصية الله فكنت عونا له على معصيته. وليس أحد هذين حقيقا أن تؤثره على نفسك.»[٣].

والإمام في معرض الإيصاء بالزهد، وقسمته هذه المرة مستندة إلى هذا الأساس، وتذييله بالنفي بعد التقسيم برهان على صحته.
واستعمل تثنية (رجلين) في عهده لمالك الأشتر، ينهاه فيه عن الاحتجاب من الرعية، فقال(عليه السلام): «..وإنما أنت أحد رجلين: إما امرؤ سخت نفسك بالبذل في الحق، ففيم احتجابك من واجب حق تعطيه، أو فعل كريم تسديه، أو مبتلى بالمنع، فما أسرع كف الناس عن مسألتك إذا أيسوا من بذلك، مع أن أكثر حاجات الناس إليك مما لا مؤونة فيه عليك، من شكاة مظلمة، أو طلب إنصاف في معاملة».[٤]

فحصر فعل الاحتجاب بنوعين من الرجال هما: الكريم والبخيل، ثم فصل الكلام في تفسيرهما منكرا «لم تحتجب، فإن أكثر الناس يحتجبون كيلا يطلب منهم الرفد ! وأنت فإن كنت جوادا سمحا لم يكن لك إلى الحجاب داع، وإن كنت ممسكا فسيعلم الناس ذلك منك، فلا يسألك أحد شيئا. ثم قال: على أن أكثر ما يسأل منك ما لا مؤونة عليه في ماله، كرد ظلامة أو إنصاف من خصم»[٥].

ومن قوله الخالد لمالك الأشتر في الرعية: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا، تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق»[٦].

فهذا تقسيم عام يشمل الإنسانية كلها، ويتجاوز حدود الطوائف والأديان، تجعل الناس كلهم مهما كانت ألوانهم وأديانهم تحت مسمى الرعية، والحاكم مسؤول عن حماية أمنهم وحياتهم.إنها شراكة عادلة أن يتناصف الناس بقسمين الأخوة في الدين والشبه في الإنسانية.وهما أدعى لاحترامهما كما يرى أمير المؤمنين(عليه السلام).

٢-الأربعة

وقع العدد (أربعة) في مواضع كثيرة من نهج البلاغة بأسلوب التقسيم، كان فيها الإمام لافتا للسامعين في القدرة على الإجمال والتفصيل بالأسلوب العددي، نحو قوله عليه السلام من خطبة حصر فيها الناس على التصنيف الآتي:
«والناس على أربعة أصناف: منهم من لا يمنعه الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه وكلالة حده، ونضيض وفره. ومنهم المصلت بسيفه، والمعلن بشره، والمجلب بخيله ورجله، قد أشرط نفسه وأوبق دينه، لحطام ينتهزه، أو مقنب يقوده، أو منبر يفرعه. ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمنا، ومما لك عند الله عوضا ! ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامن من شخصه، وقارب من خطوه، وشمر من ثوبه، وزخرف من نفسه للأمانة،

---

١ . المصدر نفسه : ٢/٤١٣.
٢ . شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ٢/ ٢٣٣، الاستيعاب،ابن عبد البر: ٣/ ١١٠١ ، الوافي بالوفيات،الصفدي: ٢١/ ١٧٩، السيرة الحلبية، الحلبي: ٢/ ٤٧٤.
٣ . شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ٩ / ١٢٢.
٤ . نهج البلاغة، الإمام علي(ع): ٢/ ٢٥٩.
٥ . شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد : ١٧/ ٩١.
٦ . شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ٩ / ١٢٢.

واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية. ومنهم من أبعده عن طلب الملك ضئولة نفسه، وانقطاع سببه، فقصرته الحال على حاله، فتحلى باسم القناعة، وتزين بلباس أهل الزهادة، وليس من ذلك في مراح ولا مغدي. وبقي رجال غض أبصارهم ذكر المرجع، وأراق دموعهم خوف المحشر....».[1]

قسم الإمام الناس استنادا إلى طلب الزعامة والتسلط على رقاب الناس أربعة أقسام هي: القسم الأول: طموح إلى الإمارة، ولكن تعجزه قلة المال وضعة النفس عن إدراكها.
القسم الثاني: مستقتل على طلب الزعامة أو على حد تعبير الإمام (يشمر) ولا يعبأ من أجل الاستحواذ عليها أن يفسد في الأرض ويهلك الحرث والنسل، ولذلك ذم الإمام هذا النوع مباشرة بقوله: «و لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمنا، ومما لك عند الله عوضا».[2]

القسم الثالث: المراؤون الذين يتخذون الدين مطية نزواتهم وتطلعاتهم، وهذا النوع من أخطر أصناف الناس لقدرته على الخداع والتضليل، لذلك أشار الإمام إلى صفاته ورسم صوره بكنايات كثيرة مثل: «قد طامن من شخصه، وقارب من خطوه، وشمر من ثوبه، وزخرف من نفسه للأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية» وهي صور فاضحة لمدعي الدين في كل عصر وأوان، لأنها صور حية تعيش حتى في عصرنا الحاضر، ولطالما أكدها الإمام وحذر منها في مواقف كثيرة فقد أثر عنه قوله لعمار بن ياسر وقد سمعه يراجع المغيرة بن شعبة كلاما: «دعه يا عمار فإنه لم يأخذ من الدين إلا ما قاربته الدنيا، وعلى عمد لبس على نفسه ليجعل الشبهات عاذرا لسقطاته».[3]

القسم الرابع: الكسالى وغير العاملين، الذين ليس لهم موقف واضح في الحياة فلا يطلب الملك ولا يطلب الدنيا بالمراءاة، إذ لا مال له أصلا، «بل تنقطع أسبابه كلها فيخلد إلى القناعة، ويتحلى بحلية الزهادة في اللذات الدنيوية، لا طلبا للدنيا بل عجزا عن الحركة فيها، وليس بزاهد على الحقيقة».[4]

ويبدو أن الإمام حين حصر أقسام الناس بالأصناف الأربعة، أخرج القسم الخامس من هذا التعداد، ليفرده بحقل آخر بعيدا عن هذه الأصناف السيئة بقوله: «وبقي رجال غض أبصارهم ذكر المرجع» وهم الأبرار الأتقياء، الذين أراق دموعهم خوف الآخرة، فهو لم يذكرهم من جملة تعداد الناس بلفظ (ومنهم) بل أشار بقوله:(بقي) إلى تفردهم وتميزهم وخروجهم عن الأقسام الأربعة. فكأن هؤلاء لشدة تعلقهم بالآخرة «لا يعرفون عندالعامة وإنما يتعرف أحوالهم أمثالهم، فكأنهم في نظر الناس ليسوا بناس».[5]

ولعل هذه التقسيمات البيانية وغيرها مما عرف به كلام أمير المؤمنين، وميزه عن غيره من الكلام العربي هي التي دعت الشريف الرضي إلى نقل تأكيد الجاحظ نسبة هذه الخطبة إلى الإمام علي، بقوله: «وهذه الخطبة ربما نسبها من لا علم له إلى معاوية، وهي من كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي لا يشك فيه. وأين الذهب من الرغام ! وأين العذب من الأجاج ! وقد دل على ذلك الدليل الخريت، ونقده الناقد البصير، عمرو بن بحر الجاحظ، فإنه ذكر هذه الخطبة في كتاب " البيان والتبيين " وذكر من نسبها إلى معاوية. ثم تكلم من بعدها بكلام في معناها، جملته أنه قال: وهذا الكلام بكلام علي عليه السلام أشبه، وبمذهبه في تصنيف الناس وفي

---

١ . نهج البلاغة، الإمام علي(ع) : ٨٧/١.
٢ . شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد : ١٧٤/٢ – ١٧٦.
٣ . نهج البلاغة، الإمام علي(ع) : ٣٩٨/٢.
٤ . شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد : ١٧٧/٢ – ١٧٨.
٥ . نهج البلاغة،شرح محمد عبده : ١/ ٧٨ – ٧٩.

الاخبار عما هم عليه من القهر والإذلال، ومن التقية والخوف أليق. قال: ومتى وجدنا معاوية في حال من الأحوال يسلك في كلامه مسلك الزهاد، ومذاهب العباد !»[1].

وفي تقسيم آخر بالعدد أربعة، قال الإمام من خطبة حذر فيها من أحاديث البدع والكذب: «وقد كذب على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على عهده حتى قام خطيبا فقال: من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار. وإنما أتاك بالحديث أربعة رجال ليس لهم خامس: رجل منافق مظهر للإيمان متصنع بالإسلام، لا يتأثم ولا يتحرج، يكذب على رسول الله، «صلى الله عليه وآله وسلم»، متعمدا، فلو علم الناس انه منافق كاذب لم يقبلوا منه، ولم يصدقوا قوله، ولكنهم قالوا: صاحب رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم) وآله)، وسمع منه، ولقف عنه، فيأخذون بقوله. وقد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبرك، ووصفهم بما وصفهم به لك، ثم بقوا بعده، فتقربوا إلى أئمة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والبهتان، فولوهم الأعمال، وجعلوهم حكاما على رقاب الناس، فأكلوا بهم الدنيا، وإنما الناس مع الملوك والدنيا إلا من عصم الله. فهذا أحد الأربعة.

ورجل سمع من رسول الله شيئا لم يحفظه على وجهه، فوهم فيه، ولم يتعمد كذبا، فهو في يديه ويرويه ويعمل به، ويقول: أنا سمعته من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فلو علم المسلمون أنه وهم فيه لم يقبلوه منه، ولو علم هو أنه كذلك لرفضه.

ورجل ثالث سمع من رسول الله، (صلى الله عليه وآله وسلم)، شيئا يأمر به، ثم إنه نهى عنه، وهو لا يعلم، أو سمعه ينهى عن شئ ثم أمر به، وهو لا يعلم، فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ، فلو علم أنه منسوخ لرفضه، ولو علم المسلمون- إذ سمعوه منه- انه منسوخ لرفضوه.

وآخر رابع لم يكذب على الله، ولا على رسوله، مبغض للكذب خوفا من الله وتعظيما لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولم يهم، بل حفظ ما سمع على وجهه، فجاء به على سمعه لم يزد فيه ولم ينقص منه، فهو حفظ الناسخ فعمل به، وحفظ المنسوخ فجنب عنه، وعرف الخاص والعام والمحكم والمتشابه، فوضع كل شئ موضعه.

وقد كان يكون من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الكلام له وجهان، فكلام خاص وكلام عام، فيسمعه من لا يعرف ما عنى الله سبحانه به، ولا ما عنى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فيحمله السامع، ويوجهه على غير معرفة بمعناه وما قصد به وما خرج من اجله.

وليس كل أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من كان يسأله ويستفهمه، حتى إن كانوا ليحبون أن يجئ الأعرابي والطارئ، فيسأله عليه السلام، حتى يسمعوا، وكان لا يمر بي من ذلك شئ إلا سألته عنه وحفظته.»[2]

حصر الإمام مصادر الحديث عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بأربعة أقسام، صنفها على النحو الآتي:

الأول: المنافق، الذي يقلب الحديث النبوي لأهوائه ومصالحه.وقد كان للمنافقين أثر سيء في تشويه السنة النبوية، منذ عصر الإمام وإشارته في كلامه هذا إلى فداحة ما تعرضت له السنة النبوية إلى يوم الناس هذا وما نعاني منه«فإنه خالط الحديث كذب كثير صدر عن قوم غير صحيحي العقيدة، قصدوا به الإضلال وتخبيط القلوب والعقائد، وقصد به بعضهم التنويه بذكر قوم كان لهم في التنويه بذكرهم غرض دنيوي»[3]. وقد فصل الإمام الكلام في هذا القسم تفصيلا مبينا لخطورته[4].

الثاني: الحسن النية، ولكنه غير متثبت من نقله، لأنه يحفظ شيئا ويتوهم آخر.

---

١ . شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ٩ / ١٢.
٢ . نهج البلاغة ، الإمام علي(ع) : ٢/ ٣٠٦ .
٣ . شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد : ١٧٤/٢ ــ ١٧٦.
٤ . ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد : ١٧٤/٢ ــ ١٧٦.

الثالث: حسن النية أيضا، ولكنه غير متابع لكلام النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، فعمل بالمنسوخ وفاته الناسخ.
الرابع: وهم الملازمون للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، الذين يحفظون كلامه، لا يزيدون فيه ولا ينقصون، ويعلمون ناسخه ومنسوخه، وخاصه وعامه.
والإمام أكد نفسه ضمن هذه الفئة الرابعة، معللا ذلك بصفات الملازمة وكثرة الاستفهام من النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بقصد المعرفة العلمية التي تدل عن تقليب المسألة في الذهن والانشغال بهم الجواب والحل، لا بالعرض الطاريء، ثم الحفظ للإجابة الصادرة عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم).
قال ابن أبي الحديد: «واعلم أن أمير المؤمنين عليه السلام كان مخصوصا من دون الصحابة رضوان الله عليهم بخلوات كان يخلو بها مع رسول الله صلى الله عليه وآله، لا يطلع أحد من الناس على ما يدور بينهما، وكان كثير السؤال للنبي صلى الله عليه وآله عن معاني القرآن وعن معاني كلامه صلى الله عليه وآله، وإذا لم يسأل ابتدأه النبي صلى الله عليه وآله بالتعليم والتثقيف، ولم يكن أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله كذلك، بل كانوا أقساما، فمنهم من يهابه أن يسأله، وهم الذين يحبون أن يجئ الأعرابي، أو الطارئ فيسأله، وهم يسمعون، ومنهم من كان بليدا بعيد الفهم قليل الهمة في النظر والبحث، ومنهم من كان مشغولا عن طلب العلم وفهم المعاني، أما بعبادة أو دنيا، ومنهم المقلد يرى أن فرضه السكوت وترك السؤال، ومنهم المبغض الشانئ، الذي ليس للدين عنده من الموقع ما يضيع وقته وزمانه بالسؤال عن دقائقه وغوامضه، وانضاف إلى الأمر الخاص بعلي عليه السلام ذكاؤه وفطنته وطهارة طينته وإشراق نفسه وضوئها. وإذا كان المحل قابلا متهيئا، كان الفاعل المؤثر موجودا، والموانع مرتفعة، حصل الأثر على أتم ما يمكن، فلذلك كان علي عليه السلام - كما قال الحسن – البصري: رباني هذه الأمة وذا فضلها، ولذا تسميه الفلاسفة إمام الأئمة وحكيم العرب»[1].

هي – إذن- عملية مدارسة وفهم وحفظ. وبهذا النحو يرى الإمام النقل الصحيح للسنة النبوية الشريفة، وقطع الطريق على المدلسين والمتصيدين في عكر المياه.
وفي تقسيمات رباعية أخر تنم عن انصهار ذاته في القرآن الكريم قال عليه السلام: «من أعطي أربعا لم يحرم أربعا: من أعطي الدعاء لم يحرم الإجابة، ومن أعطي التوبة لم يحرم القبول، ومن أعطي الاستغفار لم يحرم المغفرة، ومن أعطي الشكر لم يحرم الزيادة»[2].

وتقسيمات الإمام مبنية على تمثيل عميق للقرآن الكريم، وفي قدرة مميزة على استحضار النص القرآني الذي ملأ تعبيرات الإمام في نهج البلاغة[3]، وقد تنبه إلى ذلك الشريف الرضي في تعليقه على كلام الإمام- الذي يرى بعض الشارحين لنهج البلاغة أنه من أصل المتن - فقال: «وتصديق ذلك كتاب الله تعالى قال الله عز وجل في الدعاء: «**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**»[4] ، وقال في الاستغفار: «**وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً**»[5]، وقال في الشكر:«**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**»[6]، وقال في التوبة:«**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً**».[7]

---

١ . شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ١١ / ٤٨.
٢ . نهج البلاغة، الإمام علي(ع): ٢/ ٣٣٧.
٣ . ينظر: الأثر القرآني في نهج البلاغة، عباس علي الفحام: ٨٣- ١٠٥- ٣٤٩.
٤ . غافر : ٦٠.
٥ . النساء : ١١٠.
٦ . إبراهيم : ٧.
٧ . النساء : ١٧.

ومثل هذه التقسيمات التفسيرية ما «روي أنه ذكر عند عمر بن الخطاب في أيامه حلي الكعبة وكثرته، فقال قوم لو أخذته فجهزت به جيوش المسلمين كان أعظم للأجر، وما تصنع الكعبة بالحلي ؟ فهم عمر بذلك، وسأل أمير المؤمنين عليه السلام.
فقال عليه السلام: «إن القرآن أنزل على النبي صلى الله عليه وآله والأموال أربعة: أموال المسلمين فقسمها بين الورثة في الفرائض، والفئ فقسمه على مستحقيه، والخمس فوضعه الله حيث وضعه، والصدقات فجعلها الله حيث جعلها. وكان حلي الكعبة فيها يومئذ، فتركه الله على حاله ولم يتركه نسيانا، ولم يخف عليه مكانا، فأقره حيث أقره الله ورسوله». فقال له عمر: لولاك لافتضحنا، وترك الحلي بحاله»[1].

فقد قسم الإمام الأموال من جهة التصرف بها إلى أربعة أقسام هي:
الأول: الأموال الموروثة. الثاني: الفيء. الثالث: الخمس. الرابع: الصدقات.
وجعل حلي الكعبة خارجا من قسمة الأموال وخاصا بالكعبة ذاتها.[2]

ومن فرائد التقسيم الرباعي ما كتب الإمام علي(عليه السلام) لشريح بن الحارث[3] حين بلغه أن اشترى دارا بثمانين دينارا، فاستدعاه، وقال له: «بلغني أنك ابتعت دارا بثمانين دينارا وكتبت كتابا وأشهدت فيه شهودا، فقال شريح: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين. قال فنظر إليه نظر مغضب ثم قال له: يا شريح أما إنه سيأتيك من لا ينظر في كتابك، ولا يسألك عن بينتك حتى يخرجك منها شاخصا، ويسلمك إلى قبرك خالصا. فانظر يا شريح لا تكون ابتعت هذه الدار من غير مالك، أو نقدت الثمن من غير حلالك فإذا أنت قد خسرت دار الدنيا ودار الآخرة. أما إنك لو أتيتني عند شرائك ما اشتريت لكتبت لك كتابا على هذه النسخة فلم ترغب في شراء هذه الدار بدرهم فما فوق».
والنسخة: «هذا ما اشترى عبد ذليل من عبد قد أزعج للرحيل، اشترى منه دارا من دار الغرور من جانب الفانين، وخطة الهالكين، ويجمع هذه الدار حدود أربعة: الحد الأول ينتهي إلى دواعي الآفات، والحد الثاني ينتهي إلى دواعي المصيبات، والحد الثالث ينتهي إلى الهوى المردي، والحد الرابع ينتهي إلى الشيطان المغوي، وفيه يشرع باب هذه الدار»[4].

جاء تقسيم الدار رباعيا استنادا إلى جهات المساحة الأربعة المعروفة في كتب الشروط والأملاك، والمعمول بها حتى وقت قريب من عصرنا هذا، وصيغتها«هذا ما اشترى فلان من فلان، اشترى منه دارا من شارع كذا وخطه كذا، ويجمع هذه الدار حدود أربعة، فحد منها ينتهى إلى دار فلان، وحد آخر ينتهى إلى ملك فلان، وحد آخر ينتهى إلى ما كان يعرف بفلان، وهو الان معروف بفلان، وحد آخر ينتهى إلى كذا.
ومنه شروع باب هذه الدار، وطريقها: (اشترى هذا المشترى المذكور من البائع المذكور جميع الدار المذكورة بثمن مبلغه كذا وكذا دينارا، أو درهما، فما أدرك المشترى المذكور من درك فمرجوع به على من يوجب الشرع الرجوع به عليه).
ثم تكتب الشهود في آخر الكتاب. شهد فلان ابن فلان بذلك، وشهد فلان ابن فلان به أيضا»[5].

ولكن الإمام حول الكتاب من عقد شراء دار إلى كتاب وعظي زهدي، إنكارا لغلاء ثمنها وتخويفا من أن يكون ابتاعها بمال حرام، ناقلا صيغة الشرط الفقهي إلى معنى آخر جديد لم

---

١ . نهج البلاغة، الإمام علي(ع) : ٣٧١/٢.
٢ . ظ. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٩/ ١٥٨ ــ ١٥٩.
٣ . ظ.ترجمته في: البداية والنهاية، ابن كثير: ٢٩/٩.
٤ . نهج البلاغة البلاغة، الإمام علي(ع) : ٢/ ١٣٥.
٥ . شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد : ١٤/ ٣٠ ــ ٣١.

يسبق لأحد أن صاغه على هذا النحو الذي نظمه أمير المؤمنين«ولا غرو فما زال سباقا إلى العجائب والغرائب»[1].

ومن طريف التقسيم هذا أن جعل الإمام الحد الرابع لهذه الدار ينتهي إلى (الشيطان المغوي)، «ليقول: «وفيه يشرع باب هذه الدار»، لأنه إذا كان الحد إليه ينتهى كان أسهل لدخوله إليها، ودخوله أتباعه وأوليائه من أهل الشيطنة والضلال»[2].

ومن حكم الإمام ذات التقسيم الرباعي قوله، وقد سئل عن الإيمان: «الإيمان على أربع دعائم: على الصبر واليقين والعدل والجهاد. والصبر منها على أربع شعب: على الشوق والشفق والزهد والترقب. فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات، ومن زهد في الدنيا استهان بالمصيبات، ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات. واليقين منها على أربع شعب: على تبصرة الفطنة، وتأول الحكمة، وموعظة العبرة، وسنة الأولين. فمن تبصر في الفطنة تبينت له الحكمة، ومن تبينت له الحكمة عرف العبرة، ومن عرف العبرة فكأنما كان في الأولين. والعدل منها على أربع شعب: على غائص الفهم، وغور العلم، وزهرة الحكم، ورساخة الحلم. فمن فهم علم غور العلم، ومن علم غور العلم صدر عن شرائع الحكم، ومن حلم لم يفرط في أمره وعاش في الناس حميدا. والجهاد منها على أربع شعب: على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشنآن الفاسقين، فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف المنافقين، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه، ومن شنئ الفاسقين وغضب لله غضب الله له وأرضاه يوم القيامة»[3].

والإمام استوفى كل قسم من الأقسام الرباعية بشكل مفصل، ولست اشك في أنه أسلوب تأثره الإمام (عليه السلام) من الحديث النبوي الشريف، كما مر في أول الفصل[4].

٢- ثلاثة

استعمل الإمام العدد (ثلاثة) في ستة مواضع مختلفة بأسلوب الحصر والتقسيم، خمسة منها صرح بلفظ العدد، وواحدة قسم قسمة ثلاثية ولم يصرح.

أما التي لفظ العدد صراحة فهي: نحو قوله: «ألا وإن الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب. فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله، قال الله تعالى: «**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ**»[5] وأما الظلم الذي يغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات. وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضا».[6] فقد استقصى عواقب الظلم بثلاثة أصناف، وهو إنما وقف على النوع الأول لخطورته مستندا فيه على الآية الكريمة المذكورة.

ويبدو أن روعة التقسيمات عند الإمام هي في قدرتها على حصر الموضوعات الكبيرة، التي يصعب في العادة لملمتها وحصرها على نحو ضيق كأنه مشاهد للعيان، ومن هنا يتضح سر أنس النفس بفن التقسيم، كونه يتيح لها عد مالا يتصور عده، أو الإشراف على ما لا يمكن لملمته، نحو قول الإمام وقد حصر الناس بثلاثة أنواع:«الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع، أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح..».[7]

---

١ . المصدر نفسه .
٢ . شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد : ١٤/ ٣٠ ــ ٣١.
٣ . نهج البلاغة، الإمام علي(ع) : ٣١٣/٢ ، وينظر مثله: في المصدر نفسه والصفحة.
٤ . ظ. الصفحة: ٧ من البحث.
٥ . النساء : ٤٨.
٦ . نهج البلاغة، الإمام علي(ع): ١/ ٤٢١.
٧ . المصدر نفسه : ٢/ ٣٣٩.

فهذا التقسيم الثلاثي صائب تماما إذ لا رابع له «وذلك لأن البشر باعتبار الأمور الإلهية، إما عالم على الحقيقة يعرف الله تعالى، و إما شارع في ذلك فهو بعد في السفر إلى الله، يطلبه بالتعلم و الاستفادة من العالم، و إما لا ذا و لا ذاك، و هو العامي الساقط الذي لا يعبأ الله»[1].

ولم يمض الإمام في تقسيماته لمجرد عدها بهذه الأصناف بل قيد كل صنف منها بقيد إتماما للمعنى وإثراء للفكرة، فنسب الأول وهو العالم إلى الرب تعالى على غير قياس، أي العالم علم ربوبيّته و هو العارف باللّه تعالى، و زيدت الألف و النون للمبالغة في النسبة قال اللّه تعالى: «**كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ**»[2].

وقيل في سبب تسميتهم (الربانيين) «لأنّهم يربّون المتعلّمين بصغار العلوم قبل كبارها. و قيل لأنّهم يربّون العلم، أي يقومون بإصلاحه.»[3].

أما الصنف الثاني فهو المتعلّم وقيده بكونه على سبيل النجاة «و لمّا كان العلم سببا للنجاة في الآخرة، و كان المتعلّم في طريق تحصيله، كان على سبيل النجاة، ليصل إليها بالعلم الّذي هو غايته المطلوبة»[4].

وأما الصنف الثالث فهو عامة الناس ووصفهم الإمام بست صفات هي «أحدها:استعار لهم لفظ الهمج باعتبار حقارتهم. الثاني: وصفهم بالعامّيّة و الحداثة لكونهما مظنّتى الجهل. الثالث: كونهم أتباع كلّ ناعق ملاحظة لشبههم بالغنم في الغفلة و الغباوة. الرابع: كنّى بكونهم يميلون مع كلّ ريح عن ضعفهم عن التماسك في مذهب واحد و الثبات عليه. الخامس: كونهم لم يستضيئوا بنور العلم و هو كونهم على ظلمة الجهل. السادس: و لم يلجئوا إلى ركن وثيق. و استعار الركن الوثيق للاعتقادات الحقّة البرهانيّة الّتي يعتمد عليها في دفع مكاره الآخرة»[5].

ويبدو أن الإمام إنما فصل في النوع الثالث، لكثرته واضطرابه لعدم ثبات المبدأ في نفسه.
ومما يصب في هذا الأسلوب قوله عليه السلام: «أصدقاؤك ثلاثة، وأعداؤك ثلاثة، فأصدقاؤك: صديقك، وصديق صديقك، وعدو عدوك. وأعداؤك: عدوك، وعدو صديقك، وصديق عدوك»[6] ،

، فهذا حصر من محص الحياة، وعرك النفوس، فعرف خباياها، فاستشفها حكما بينة.
وفي تقسيم آخر قال الإمام: «لا يكون الصديق صديقا حتى يحفظ أخاه في ثلاث: في نكبته، وغيبته، ووفاته»[7].

وعلى هذا الأسلوب قوله عليه السلام: «للظالم من الرجال ثلاث علامات: يظلم من فوقه بالمعصية، ومن دونه بالغلبة، ويظاهر القوم الظلمة»[8].

ومثل قوله عليه السلام: «للمؤمن ثلاث ساعات: فساعة يناجي فيها ربه، وساعة يرم معاشه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمل. وليس للعاقل أن يكون شاخصا إلا في ثلاث: مرمة لمعاش، أو خطوة في معاد، أو لذة في غير محرم»[9].

وقد يعمد الإمام إلى تعرية مناوئيه بأسلوب التقسيم العددي، لما يتسبب من حصر للحالة، وكشف للأمر، مثل قوله في أمر طلحة الذي خرج عليه في حرب الجمل في البصرة، وكان شعاره

---

١ . شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد: ١٨/ ٣٤٨.
٢ . آل عمران : ٧٩.
٣ . شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد: ١٨/ ٣٤٨.
٤ . المصدر نفسه : ٩ / ١٢٢.
٥ . شرح نهج البلاغة،ابن ميثم: ٥/ ٣٢٤.
٦ . نهج البلاغة، الإمام علي(ع): ٢/ ٣٧٧.
٧ . المصدر نفسه : ٢/ ٣٣٨.
٨ . المصدر نفسه : ٢/ ٣٨٦.
٩ . المصدر نفسه : ٢/ ٣٩٥.

الطلب بدم الخليفة عثمان بن عفان[1] «والله ما صنع في أمر عثمان واحدة من ثلاث: لئن كان ابن ابن عفان ظالما- كما كان يزعم - لقد كان ينبغي له أن يوازر قاتليه، أو ينابذ ناصريه. ولئن كان مظلوما، لقد كان ينبغي له أن يكون من المنهنهين عنه، والمعذرين فيه. ولئن كان في شك من الخصلتين، لقد كان ينبغي له أن يعتزله، ويركد جانبا، ويدع الناس معه، فما فعل واحدة من الثلاث، وجاء بأمر لم يعرف بابه، ولم تسلم معاذيره».[2]

ويبدو من أحداث الفتن إبان المدة التي حكم فيها الإمام (٣٥هـ-٤٠هـ)، أن ثمة شخصيات متقلبة المزاج، استقرار مبادئها مرتبط بتحقيق مصالحها، ومنها شخصية طلحة التي أشار إليها الإمام في كلامه، إذ كان من المحرضين الأشداء على عثمان، ولكن مع حكم الإمام انقلبت الصورة، لذلك كان كلام الإمام «صورة احتجاج عليه و قطع لعذره في الخروج والطلب بدمه بقياس شرطيّ منفصل».[3]

وحصر الإمام الشأن المتناقض لطلحة بثلاثة أمور هي: «إمّا أن يعلم أنّه كان ظالما، أو يعلم أنّه كان مظلوما، أو يشكّ في الأمرين و يتوقف فيهما. فإن كان الأوّل، فقد كان الواجب عليه أن يساعد قاتليه و يوازرهم و ينابذ ناصريه لوجوب إنكار المنكر عليه. وهو قد عكس الحال لأنّه نابذ قاتليه، وثار في طلب دمه مع ناصريه ممّن توهّم فيه ذلك. وإن كان الثاني، فقد كان يجب عليه أن يكون ممّن يكفّ الناس عنه و يعتذر عنه فيما فعل لوجوب إنكار المنكر أيضا مع أنّه ممّن وازر عليه الناس و أظهر أحداثه و عظّمها كما هو المنقول المشهور عنه، و إن كان الثالث فقد كان الواجب عليه أن يعتزله و يسكن عن الخوض في أمره و لم يفعل ذلك بل ثار في طلب دمه. فكان في هذه الأحوال الثلاثة محجوجاً في خروجه و نكثه للبيعة».[4]

لذلك كله كانت خلاصته أن جاء بأمر لا يعرف بابه، أي لا تعرف مداخله.
وأورد ابن أبي الحديد إشكالا طريفا فقال: «فإن قلت كيف قال أمير المؤمنين: فما فعل واحدة من الثلاث، وقد فعل واحدة منها، لأنه وازر قاتليه حيث كان محصورا. قلت: مراده أنه إن كان عثمان ظالما، وجب أن يؤازر قاتليه بعد قتله، يحامي عنهم و يمنعهم ممن يروم دماءهم، ومعلوم أنه لم يفعل ذلك، وإنما وازرهم و عثمان حي. و ذلك غير داخل في التقسيم».[5]

وهذا التقسيم التفصيلي محرج للغاية وقاطع للعذر.
وأما الاستعمال غير الصريح للعدد(ثلاثة) فهو في قوله من خطبة في نصح أصحابه: «شغل من الجنة والنار أمامه، ساع سريع نجا، وطالب بطئ رجا، ومقصر في النار هوى..».[6]

فقد قسم الناس على أساس هممهم إلى ثلاثة أقسام هي: الأول: الناجي: وكنى عنه(بالساعي السريع) أي المبادر غير المتواني إلى تنفيذ شرائع الله وأحكامه.
والثاني: الراجي: وكنى عنه(الطالب البطئ)، فهو«له قلب تعمره الخشية وله صلة إلى الطاعة لكن ربما قعد به عن السابقين ميل إلى الراحة فيكتفى من العمل بفرضه وربما انتظر به غير وقته وينال من الرخص حظه وربما كانت له هفوات ولشهوته نزوات على أنه رجاع إلى ربه كثير الندم على ذنبه فذلك الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئا فهو يرجو أن يغفر له».[7]

الثالث: الهاوي، وهو المقصر، الذي يعرف الحق ويحيد عنه عنادا وتكبرا.

٣- الخمسة

---

١ . ظ.تاريخ الطبري، الطبري: ٣/ ٤٥٠-٤٥١-٤٥٨-٤٦٦.
٢ . نهج البلاغة، الإمام علي(ع): ١/ ٤١٢.
٣ . شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٠/ ٣.
٤ . شرح نهج البلاغة، ابن ميثم: ٣/ ٣٤٦.
٥ . شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد : ١٠/ ٩.
٦ . نهج البلاغة، الإمام علي(ع): ١/ ٥٤.
٧ . نهج البلاغة، الإمام علي(ع)، شرح محمد عبده: ١/ ٤٩-٥٠.

استعمل العدد (خمسة) في موضعين من نهج البلاغة بأسلوب التقسيم، مرة بشكل صريح، وأخرى بشكل غير صريح، فمن الأول قوله عليه السلام موصيا: «أوصيكم بخمس لو ضربتم إليها آباط الإبل لكانت لذلك أهلا. لا يرجون أحد منكم إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه ولا يستحين أحد إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم. ولا يستحين أحد إذا لم يعلم الشئ أن يتعلمه. وعليكم بالصبر فإن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، ولا خير في جسد لا رأس معه، ولا في إيمان لا صبر معه»[1].

جاءت تقسيمات الإمام استنادا إلى حصر الواقع المثالي للإنسان بصورة عامة وللمسلم بصورة خاصة، لذلك شدد على التمسك بشرط التزامها في أول كلامه كونها تستحق التضحية و المشقة وشد الرحال لاستحصالها، مكنيا عن ذلك بقوله(ضربتم إليها آباط الإبل) لأن الراكب يضرب بكعبيه إبطي الجمل .
والحصر الأخلاقي في كلام الإمام سبل عملية لصناعة الإنسان المتكامل يأخذ بعضه بيد بعض لإكمال السلسلة الخلقية الكمالية[2].

ومن الأسلوب الثاني الذي لم يصرح بالعدد خمسة، قوله عليه السلام من خطبة في أصحابه: «يا أهل الكوفة، منيت منكم بثلاث واثنتين: صم ذوو أسماع، وبكم ذوو كلام، وعمى ذوو أبصار، لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء».[3]

فقد عد الإمام خمس خصال ابتلي بها من أهل الكوفة، جمعها بقوله ثلاث واثنتين، ولم يقل خمسا، وبرر ابن أبي الحديد ذلك، «لأن الثلاث إيجابية والاثنتين سلبية، فأحب أن يفرق بين الإثبات والنفي»[4].

وربما فرق الإمام، لأن الثلاث التي عدها من جنس مغاير للاثنتين الأخريين، فناسب بين (الصم والبكم والعمي) أن تكون في عد، وبين قوله الأخير بعد آخر.
وفي كلام الإمام توبيخ وتعجب ظاهران، بسبب جمعه للصفات الثلاث مع أضدادها، فكانوا كفاقد آلات الصم والبكم والعمي «بل كان فاقدها أحسن حالا منه لأنّ وجودها إذا لم يفد منفعة أكسب مضرّة قد أمنها عادمها، وأمّا الثنتان فكونهم لا أحرار صدق عند اللقاء، أي أنّهم عند اللقاء لا تصدق حريّتهم و لا تبقى نجدتهم من مخالطة الجبن والتخاذل و الفرار إذا الحرّ هو الخالص من شوب الرذائل و المطاعن، ثمّ كونهم غير أخوان ثقة عند البلاء: أي ليسوا ممّن يوثق باخوّتهم في الابتلاء بالنوازل»[5].

٣- ستة

استعمل العدد(ستة) مرة واحدة في نهج البلاغة، حصر فيها الإمام معاني الاستغفار، عندما سمع قائلا قال بحضرته: استغفر الله، فقال عليه السلام: «ثكلتك أمك، أتدري ما الاستغفار ؟ الاستغفار درجة العليين. وهو اسم واقع على ستة معان: أولها الندم على ما مضى. والثاني العزم على ترك العود إليه أبدا. والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم، حتى تلقى الله أملس، ليس عليك تبعة. والرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها. والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت، فتذيبه بالأحزان، حتى تلصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحم جديد. والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة، كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفر الله»[6].

---

١ . نهج البلاغة، الإمام علي(ع): ٣٢٤/٢.
٢ . المصدر نفسه : ٢١٦/١.
٣ . شرح نهج البلاغة، ابن ميثم : ٢٨٣/٥.
٤ . شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٧١/٧.
٥ . شرح‌نهج البلاغة،ابن ميثم: ٤٠٧/٢.
٦ . نهج البلاغة، الإمام علي(ع) : ٤٠٠/٢.

فرق الإمام بين المفهوم اللغوي للاستغفار، الذي هو طلب المغفرة، وبين الاستغفار الذي له درجة العليين في شرائطه الستة التي فصل الكلام فيها و«أطلق لفظ المشروط على الشرط واستعمله فيه»[1].

و لفظة (أملس) استعارة، عنى بها نقاء الصحيفة من الآثام. و(عليين) صيغة جمع كضليل، تعطي معنى التكثير، أي كثير العلو، وهي من قوله تعالى: «**كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ**»[2].

والكلام على تقدير حذف مضاف أي (درجة الاستغفار درجة العليين).

الثاني: التقسيم بالموضوع

للإمام علي أسلوبه في التفصيل في الموضوعات، فهو يجمل ثم يفصل تارة بالموضوع، وتارة ثانية يقسم الموضوع متدرجا بحسب طبيعته، وغايته في كلا الأسلوبين استيفاء المعنى والإحاطة به، الأمر الذي يتيح له ذلك أسلوب التقسيم. وسنقف على الأسلوبين في الموضوعات الآتية:

١- التحذير والوعظ

في نهج البلاغة خطب كثيرة في التحذير من المنافقين، كشف فيها الإمام عن طبائعهم النفسية المريضة، وجلى عن نواياهم الخبيثة، ومنها قوله: «زرعوا الفجور، وسقوه الغرور، وحصدوا الثبور، لا يقاس بآل محمد صلى الله عليه من هذه الأمة أحد ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا»[3].

قسم أفعالهم القبيحة وعنادهم على الاستمرار فيها وما ينتج عنها قسمة أحوال النبات: زرع وسقي وحصاد، تشبيها لهم بالنبات بأسلوب الاستعارة «لان تماديهم، وما سكنت إليه نفوسهم من الإمهال، هو الذي أوجب استمرارهم على القبائح التي واقعوها، فكان ذلك كما يسقى الزرع، ويربي بالماء، ويستحفظ»[4].

وكان حصادهم الهلاك وسوء المنقلب.

يذكر أن ابن أبي الحديد جعل كلام الإمام هذا في معاوية، وليس إشارة إلى المنافقين، كما ذكر الشريف الرضي وقال تأدبا«ولعل الرضي- رحمه الله تعالى -عرف ذلك وكنى عنه»[5].

ومثل ذلك قوله عليه السلام محذرا من خطرات الشياطين: «لعمري لقد فوق لكم سهم الوعيد، وأغرق إليكم بالنزع الشديد، ورماكم من مكان قريب»[6]

فقد استقصى الإمام أبعاد صورة الشيطان من جهة قربه من ابن آدم، وتمكنه من الإصابة، بهذه الأجزاء المتتالية: وضع السهم في القوس، وسماه سهم الوعيد إشارة إلى قوله تعالى: «**قالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**»[7]، ثم شد نزع الوتر واستوفى مد القوس ليكون السهم أشد وقعا وأكثر فتكا، وفوق ذلك كله، كان التسديد قريبا، فلا مناص من الإصابة. والصورة كلها كناية عن الاستعداد الكامل للإغواء[8].

---

١ . شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني : ٤٤٤/٥.
٢ . شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد : ٢٠/ ٥٦.
٣ . نهج البلاغة ، الإمام علي(ع) : ٢٨/١.
٤ . شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد : ١٣٩/١ – ١٤٠.
٥ . المصدر نفسه .
٦ . نهج البلاغة ، الإمام علي(ع) : ٩١/٢.
٧ . الحجر : ٣٩.
٨ . ظ.التصوير الفني في خطب الإمام علي، عباس علي الفحام(رسالة ماجستير): ١٠٦.

ومن التحذير من الدنيا قوله عليه السلام: «ثم إن الدنيا دار فناء وعناء وغير وعبر..»[1]. فقد استوفى صفات دار الدنيا من جميع جوانبها في أسلوب بلاغي مزج فيه بين البيان التشبيهي والبديع الموسيقي في التجنيس الناقص بين (فناء وعناء)وجناس التصحيف بين(غير و عبر).
وكتب الإمام عليه السلام إلى قثم بن العباس وهو عامله على مكة يعظه: «أما بعد، فأقم للناس الحج، وذكرهم بأيام الله، وأجلس لهم العصرين، فأفت المستفتي، وعلم الجاهل وذاكر العالم، ولا يكن لك إلى الناس سفير إلا لسانك، ولا حاجب إلا وجهك».[2]

قسم الإمام لعامله ثمرة جلوس العصرين- وهما الغداة والعشي - ثلاثة أقسام هي:
الأول: إفتاء عامة الناس في بعض الأحكام
الثاني: تعليم الطالبين للفقه.
الثالث: مذاكرة العلماء ومناقشتهم.
ويلحظ أن الجامع لهذه التقسيمات الثلاثة هو الغرض الديني المتمثل بالحج والحجيج، وما يهمهم من شؤون علمية وفقهية، لذلك لم يذكر سواها من أمور إدارة الحكم والسياسة.

٢- الوصف

وسنأخذ مثالين من موضوعات الوصف هما:

٣- الإسلام

فصل الإمام من خطبة له الكلام في صفة الإسلام، فقال: «الحمد لله الذي سهل الذي شرع الإسلام فسهل شرائعه لمن ورده... كريم المضمار، رفيع الغاية، جامع الحلبة متنافس السبقة، شريف الفرسان. التصديق منهاجه، والصالحات مناره، والموت غايته، والدنيا مضماره، والقيامة حلبته، والجنة سبقته»[3].

صور الإمام الإسلام بخيل السباق، ثم فصل في معناه، فجعل الدنيا المضمار، والقيامة ذات حلبته، والجنة جائزة فوزه وسبقته، وهو إنما جعل الدنيا مضمار الإسلام«لان المسلم يقطع دنياه لا لدنياه بل لآخرته، فالدنيا له كالمضمار للفرس إلى الغاية المعينة»[4].

١- الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)

وصف الإمام النبي بوصف إجمالي أتبعه بتقسيم تفصيلي في قوله: «طبيب دوار بطبه، قد أحكم مراهمه، وأحمى مواسمه، يضع ذلك حيث الحاجة إليه من قلوب عمي، وآذان صم، وألسنة بكم، متتبع بدوائه مواضع الغفلة»[5].

وقسم الإمام من يعالجهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهم أولو القلوب العمي والآذان الصم والألسنة البكم أي الخرس«فحصر بذلك مداخل الضلال لأن مخالفة الحق تكون بثلاثة أمور: إما بجهل القلب أو بعدم سماع المواعظ والحجج أو بالإمساك عن شهادة التوحيد وتلاوة الذكر»[6]، وهذه أصول الضلال، والمعاصي فروعها، كما يقول ابن أبي الحديد.

الإمام وأصحابه

---

١ . نهج البلاغة ، الإمام علي(ع) : ٢٦٥/١.
٢ . المصدر نفسه : ٢٨٩/٢.
٣ . نهج البلاغة ، الإمام علي(ع) : ٢٣٧/١.
٤ . شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد: ٧ /١٧١ – ١٧٢.
٥ . نهج البلاغة ، الإمام علي(ع) : ٢٤٣/١.
٦ . شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٨٤/٧ ، وينظر : التصوير الفني في خطب الإمام علي، عباس الفحام(رسالة ماجستير): ١٠٥.

قال الإمام من كتاب له إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة: «أما بعد فإني خرجت عن حيي هذا إما ظالما وإما مظلوما وإما باغيا وإما مبغيا عليه، وأنا أذكر الله من بلغه كتابي هذا لما نفر إلي فإن كنت محسنا أعانني، وإن كنت مسيئا استعتبني»[1].

فقد قسم حال خروجه عليه السلام أمرين: إما أن يكون ظالما أو مظلوما، وإنما بدأ بالظالم هضما لنفسه، ولئلا يقول عدوه: بدأ بدعوى كونه مظلوما، فأعطى عدوه من نفسه ما أراد.
والإمام في ذلك كله يستميل إليه النفوس. ومعنى كلامه: فلينفر إلي المسلمون فإن وجدوني مظلوما أعانوني، وإن وجدوني ظالما نهوني عن ظلمي لأعتب وأنيب إلى الحق«وهذا كلام حسن، ومراده يحصل على الوجهين، لأنه إنما أراد أن يستفزهم، وهذان الوجهان يقتضيان نفيرهم إليه على كل حال»[2].

وفي مثال آخر، قال الإمام: «وإن معي لبصيرتي، ما لبست على نفسي، ولا لبس علي...»[3].

قسم الإمام التلبيس من جهتين: أما بإضلال النفس، وأما بايقاع الضلال عليها من جهة أخرى، معميا عليها باستعمال الفعل المبني للمجهول(لبس). وهذا «تقسيم، لان كل ضال عن الهداية، فإما أن يضل من تلقاء نفسه، أو بإضلال غيره له»[4]. والمعنى الذي يروم الإمام تأكيده هو: أن بصيرته التي كانت زمن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ثابتة ولم تتغير، وإنما أكدها هذا التأكيد بتقديم شبه الجملة(معي) لبيان الأهمية، لما أصاب المسلمين من فتن قتال أهل القبلة في الجمل وصفين وغيرها.

الثالث: التقسيم بالزمن

المقصود بالزمن ما يتعلق به من ظروف ماضية، وحاضرة، ومستقبلة، أي الأمس واليوم والغد.
فقد جاءت تقسيماتها في نهج البلاغة على هذا الأساس في مواضع منها:
قال الإمام (عليه السلام)من خطبة حذر فيها من التهالك على الدنيا: «أما بعد فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع، ألا وإن اليوم المضمار، وغدا السباق، والسبقة الجنة، والغاية النار»[5].

أعطت التقسيمات المحكمة متانة في السبك، وأسبغت مزيدا من الثراء على الجمل، فضلا عن فخامة اللفظ وعمق المعنى، الأمر الذي تنبه إليه الشريف الرضي فقال: «إنه لو كان كلام يأخذ بالأعناق إلى الزهد في الدنيا، ويضطر إلى عمل الآخرة لكان هذا الكلام.. وكفى به قاطعا لعلائق الآمال، وقادحا زناد الاتعاظ والازدجار»[6].

استعمل الإمام (اليوم والغد) مسندا (المضمار) وهي ساحة السباق إلى اليوم، ومسندا السباق وبدء العمل إلى الغد، فكأنه جعل الدنيا المضمار والآخرة السباق، وهي صورة تكررت في كلام الإمام أكثر من موضع[7].

وخالف الإمام بين اللفظين لاختلاف المعنيين في قوله الأخير لأن «الاستباق إنما يكون إلى أمر محبوب وغرض مطلوب، وهذه صفة الجنة، وليس هذا المعنى موجودا في النار، نعوذ بالله منها»[8] فأسند (السبقة)وهي الجائزة إلى (الجنة)، ولم يقل(والسبقة النار)بل قال(والغاية النار)

---

١ . نهج البلاغة ، الإمام علي(ع) : ٢٧١/٢.
٢ . شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٠٦/١٧.
٣ . نهج البلاغة ، الإمام علي(ع) : ٣١٥/١
٤ . شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ١ / ٢٣٩ – ٢٤٠.
٥ . نهج البلاغة ، الإمام علي(ع) : ٨٠/١
٦ . المصدر نفسه .
٧ . تنظر الصفحة : ٢٩ من البحث.
٨ . شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ٩ / ١٢٢

«لأن الغاية قد ينتهي إليها من لا يسره الانتهاء إليها، ومن يسره ذلك فصلح أن يعبر بها عن الامرين معا، فهي في هذا الموضع كالمصير والمال، قال الله تعالى: «**قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ**»[1]»[2].

وقال الإمام محذرا: «إن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل»[3]، كنى عن الدنيا باليوم، وعن الآخرة بالغد، وقابل بينهما باعتبار الدنيا عالم العمل وتأجيل الحساب، والآخرة عالم الحساب دون العمل. وهما قسمان لا ثالث لهما. ولعل مما حسن التقسيم هو أسلوب المقابلة بين الجملتين..

وقال عليه السلام:«فإن التقوى في اليوم الحرز والجنة، وفي غد الطريق إلى الجنة»[4]. قسم التقوى بوسيلة الأيام قسمين، مكنيا عن الدنيا باليوم باعتبار الحاضر، وعن الآخرة بالغد بضميمة المستقبل، مستغلا طاقات اللغة البديعية أمثل استغلال في أسلوب المقابلة والتوازن بين الفقرتين، والجناس الناقص بين (الجنة)، بضم الجيم، وتعني ما يتقى به، وبين (الجنة) جائزة المؤمنين.

ولضمان صحة التقسيم يتقدم الحاضر دائما على المستقبل، ولكن الفرادة لا تفارق كلام الإمام، على الرغم من تقديم الظرف الزماني في أسلوب بياني رائع في قوله: «وإن السعداء بالدنيا غدا، هم الهاربون منها اليوم، إذا رجفت الراجفة». فجاء التقسيم صحيحا بتقديم الغد على اليوم، في صورة لافتة، لأن المعنى طلب هذه القسمة بقوة، حين جاور الظروف المتناقضة (الدنيا، والغد)، فجعل السعداء في الحياة الدنيا في الآخرة (غدا) هم الذين يهربون من شراك لذائذها في حاضرهم(اليوم).

ومثل ذلك في نهج البلاغة كثير[5].

وجمع الإمام (عليه السلام) الأزمان الثلاثة (الأمس، واليوم، والغد) في مكان واحد في قوله عليه السلام قبل موته:«أنا بالأمس صاحبكم، وأنا اليوم عبرة لكم، وغدا مفارقكم»[6]، فقسم الأيام الماضية والحاضرة والمستقبلة قسمة حسنة وهو إنما قال (عبرة لكم) لأنهم يرونه بين أيديهم ملقى صريعا بعد أن اعتادوه يصرع الأبطال ويقتل الأقران.

الخاتمة

مما سبق، يمكن استنتاج الخلاصات الآتية:

أولا: أن التقسيم فن بياني عربي اختص به الكلام العربي البديع متمثلا في أرفع مستوياته الإعجازية في التعبير القرآني، والأسلوبية في التعبير النبوي وكلام الإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة.

ثانيا: أن فن التقسيم يمثل تنظيما مزدوجا للفن والموضوع، ممزوجين بالفكر والبيان معا.

ثالثا: أن التقسيم في نهج البلاغة اشتمل على ثلاث وسائل هي: التقسيم بالعدد والتقسيم بالموضوع والتقسيم بالزمن.

رابعا: أن التقسيم بالعدد في نهج البلاغة أثر لتنظيم فكري جديد سلك فيه الإمام سبيل الحديث النبوي في الإكثار منه وتنظيم الأفكار وحصرها بمقتضاه.

---

١ . إبراهيم : ٣٠.
٢ . شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد : ٢ / ٩٢ – ٩٣.
٣ . المصدر نفسه : ٩ / ١٢٢.
٤ . نهج البلاغة ، الإمام علي(ع) : ٨٤/٢.
٥ . ظ. نهج البلاغة ، الإمام علي(ع) : ٢٦٧/١، ٤٢٨/١، ٩/٢
٦ . المصدر نفسه : ٢٥٩/٢.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشيخ أبو عبد الله، محمد بن محمد بن النعمان (٣٣٦-٤٣١ هـ).تحقيق: مؤسسة أهل البيت(عليهم السلام) لتحقيق التراث، دار المفيد، الطبعة الثانية، بيروت – لبنان ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.
- الاستيعاب، - الاستيعاب، ابن عبد البر، تحقيق:علي محمد البجاوي، الطبعة الأولى، ١٤١٢، مطبعة دار الجيل - بيروت.
- البرهان في علوم القرآن. الزركشي، محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ).تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٥٧م.
- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الخامسة، دار المعارف، مصر- ١٩٨٧م.
- التصوير الفني في خطب الإمام علي (عليه السلام). عباس علي الفحام.(رسالة ماجستير)، كلية التربية للبنات، جامعة الكوفة ١٩٩٩م.
- التفسير الكبير (أو مفاتيح الغيب)، فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦هـ)، المطبعة البهية – مصر، بدون تاريخ.
- دراسة حول نهج البلاغة، محمد حسين الجلالي الطبعة الأولى، مؤسسة الأعلمي، بيروت – ١٤٢١هـ.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ). إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، بدون تاريخ.
- سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني(ت٢٧٣هـ)، تحقيق وترقيم وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- سنن الدارمي. أبو محمد، عبد الله بن عبد الرحمن (ت ٢٥٥هـ).طبع بعناية: محمد أحمد دهمان، دمشق، بدون تاريخ.
- السيرة الحلبية، الحلبي(ت١٠٤٤هـ)، دار المعرفة – بيروت، ١٤٠٠هـ.
- شرح نهج البلاغة، ميثم بن علي بن ميثم البحراني(ت ٦٧٩هـ).(المصباح شرح الكبير) مطبعة خدمات، الطبعة الثانية، طهران ١٤٠٤ هـ.
- شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد المدائني (ت ٦٥٦ هـ).تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، ١٩٥٩ م.
- شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني، الشيخ محمد باقر المحمودي، الطبعة الأولى- ١٩٩٠ م، مؤسسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي – طهران، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية – قم.
- صحيح البخاري، البخاري(ت ٢٥٦هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- ١٩٨١م.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم دقائق الإعجاز. يحي بن حمزة العلوي(ت ٧٤٩هـ).تصحيح: سيد بن علي المرصفي، مطبعة المقتطف، مصر، ١٩١٤م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل. جار الله محمود بن عمر الزمخشري(ت ٥٣٨هـ). مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٦٦ م.
- لسان العرب، ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم المصري(ت ٧١١هـ)..دار صادر ودار بيروت، لبنان ١٣٧٩هـ - ١٩٥٥م.
- مجمع البيان في تفسير القرآن. الطبرسي. الفضل بن الحسين (ت ٥٤٨هـ). حقق وعلق عليه: لجنة من العلماء والمثقفين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- النظم القراني في كشاف الزمخشري.درويش الجندي(الدكتور).مطبعة مصر، ١٩٦٩م.

- نهج البلاغة، علي بن أبي طالب عليه السلام (ت٣٦هـ)، بجمع الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ). تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل ابراهيم، بيروت – لبنان، دار الجيل، الطبعة الثانية ١٤١٦ هـ.
- نهج البلاغة، محمد عبده، مطبعة بابل – بغداد ١٩٨٤م.
- نهج البلاغة لمن، الشيخ محمد حسن آل ياسين، مطبعة أوفسيت الميناء، بغداد -١٩٧٧م.
- النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير(ت٦٠٦هـ)، تحقيق:طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، الطبعة الرابعة- ١٣٦٤هـ.مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع – قم.
- الوافي بالوفيات، الصفدي (ت٧٦٤هـ)، أحمد الأرناؤوط و تركي مصطفى، دار إحياء التراث - ٢٠٠٠م.

وظيفة الاستعارة الدلالية في نهج البلاغة

الدكتور: علي مهدي زيتون (الجمهورية اللبنانية)

أ- مهاد نظري:

يرى بعضهم أنّ مسافة غير قابلة للإلغاء تظلّ قائمة بين ما يفكّر به الإنسان وما يقوله، في إشارة إلى عجز التعبير عن أبعاد التفكير، بشكل كامل.

والحقيقة أنّه لا توجد مثل تلك المسافة؛ لأنه لا توجد فكرة بمعزل عن التعبير. الفكرة والتعبير عنها أدباً، أو رسماً، أو موسيقى يولدان في اللحظة عينها.

ولا وجود لأحد الطرفين مستقلاً عن الآخر.

يعني ذلك أنّ الأدبيّة التي عُبّر عنها، في البلاغة العربية، بالمزيّة لا تكون بكمال التعبير عن الدلالة، كما رأى علماء الجمال الغربيّون؛ لأنه، كما يرى الجرجاني ابن القرن الخامس، لا توجد سلسلة من التعابير تتناول الفكرة الواحدة، فتبلغ إحداها الكمال فيتمثّل بها تمام الجمال.

الجمال الفني عامّةً، والجمال الأدبيّ، على وجه الخصوص، متّصل برؤية الأديب إلى العالم.

وغنى الأدبيّة من غنى الرؤية.

وهذه الرؤية، التي ترتكز إلى الثقافة، بشكل أساسي، هي التي تمكّن الأديب من أن يرى ما يراه في هذا الجانب أو ذاك من جوانب العالم. وما يراه إنّما يراه باللغة.

ولذلك فإنّنا لا نستطيع القول كانت رؤيته عميقة بمعزل عن تعبيره، أو القول كان تعبيره رائعاً بمعزل عن الرؤية.

الثقافة بدالّها ومدلولها تكون عميقة أو لا تكون.

والذي يجب ألاّ يغرب عن بالنا هو أن الأديب الكبير هو بالضرورة مثقّف كبير.

نستخلص من ذلك أنّ الحديث عن الجماليّة الأدبية هو مواجهة ضمنيّة مع اللغة التي يستند الأدب إلى أنظمتها في أثناء العملية الكتابيّة التي هي عبارة عن تلاقي تلك الأنظمة مع الثقافة في ذات الكاتب.

وممّا يجدر ذكره، هنا، هو أنّ النظامين اللغويّين: الصرفي والنحوي هما نظامان آليّان تحكمهما ثقافة الأديب، فينصاعان لها بطواعية متناهية.

فالآلية لا تحمل معها إلى الخطاب الأدبي سوى آليّة اشتغالها.

اسم الفاعل خادم الفاعلية واسم المفعول خادم المفعوليّة.

أما النظام المعجميّ فلا يدخل ذلك الخطاب خالي الوفاض، أو وفاق تلك الآليّة. فالعلامة اللغويّة، حين تدخل خطاباً ما، تدخل إليه بأحمالها الدلاليّة التي تشكل ثمرة جميع النصوص التي انتمت إليها من قبلُ.

وهي مع هذا الغنى المترتّب لها عبر الاستخدام التاريخي لها تظلّ عنواناً عاماً بعيداً عن أيّ خصوصيّة. وكلمة نهر تعبّر عن العاصي، والنيل، ودجلة، والفرات، والسين، والغانج، ويزاندرود، ولكنها قاصرة عن تقديم خصوصيّة أيّ نهر من هذه الأنهار.

تلك الخصوصيّة التي يلتقي فيها التاريخي والاجتماعي والنفسي والمقدّس. والحديث عن خصوصيات داخل علامة لغوية واحدة مدعاة للحديث عن خصوصيّة ثقافية يرى الكاتب من خلالها هذا النهر أو ذاك. فكلّ نهر من الأنهار متعدّد بتعدّد الخصوصيات الثقافية المتعلّقة بالناظرين إليه.

ففرات محمد علي شمس الدين هو فراته وحفيدتي الزرقاءْ قالت، وهي تسبح، يا أبي كن لي سريراً في العبابْ، أقول: نامي يا صغيرة سوف تحملك المياه إلى هناكْ فإنّ زينب مهّدت من قبلما ولدتك أمّكِ منزلاً للخائفين وموئلاً أعلى من الطوفان[1].

---

١ . الغيوم ص ١٧٣.

ولنقرأ: والماءُ أجمل ما يكونُ إذا تدفّق في العراقْ فإنّه من أصله يأتي ومن دمع الحسين جرى الفراتُ وفاض دجلةٌ واستوى الثقلان يا أهلي هناك تماسكوا وتمسّكوا بالماء واعتصموا بسارية ستؤويكم إذا سقط العذابْ[1].

إن فرات محمد علي شمس الدين لا يشبه فرات أيّ شاعر آخر.
وكذلك دجلته التي افترقت عن دجلة محمد مهدي الجواهري افتراق رؤيتيهما.

حيّيت سفحك عن بعدٍ فحييّني يا دجلة الخير يا أمّ البساتين

إن كلمة (نهر) غير قادرة على تقديم نهر شمس الدين ولا نهر الجواهري. قدِّم النهران بالمجاز والرمزوما يستخلص، من كلّ ذلك، أنّ العلامة اللغويّة تتّسم بقصورٍ منهجيّ، لأنه لا يمكننا أن نوجد كلمةً لكلّ نوع من أنواع الفرح، أو الحزن، أو الغضب، وأخرى لكلّ مستوى من مستويات ذلك الفرح، أو الحزن، أو الغضب. تصبح اللغة بذلك عبئاً ثقيلاً لا قِبل لأي إنسان أن يحمله.
ولقد تنبّه الرماني إلى ذلك، منذ القرن الرابع للهجرة حين قال: «إن دلالة الأسماء والصفات (الكلمات) محدودة، أما دلالة التأليف فلا حدود لها».
يأتي التأليف إذا، وعبر المجاز على وجه الخصوص، ليعوّض ذلك القصور، وليمكّن الأديب من تقديم خصوصيّة رؤيته.
فاللغة التي اضطرت، بحكم طبيعة الإنسان، أن يكون معجمها متّسماً بالقصور المنهجي، أوجدت البدائل التعويضيّة عبر المجاز وأقرانه السيميولوجيّة. ويجرّنا هذا إلى طرح سؤال مبدئيّ. كيف يتمكّن المجاز، وبالاستعارة خصوصاً، أن يعوّض قصور النظام المعجميّ؟
إذا كان التشبيه قراءة للعالم المرجعيّ في مستوى يستحضر ما هو فنيّ إلى جانب ما هو مرجعي، فالاستعارة قراءة في مستوى آخر ينتفي فيه حضور المرجعي لصالح الفنيّ وحده.
وحضور المرجعي بهويته الواقعية، في التشبيه، ليس حضوراً مجانياً يمكن تغييبه أو الاستغناء عنه، لأنّ هذه الهويّة هويّة مشكليّة.
النظر إليها من المرسِل والمرسَل إليه نظر خلافيّ، والحسم برأي واحد فيها أمرٌ شديد الصعوبة. واستحضارها استحضار وظيفيّ.
قال علي (عليه السلام): «إنّ المال والبنون حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة»[2].

ولقد وضعنا كلامه هذا أمام الآية الكريمة: «**المال والبنون زينة الحياة الدنيا**». وهذا ما يلفتنا إلى تمكّن هذين الأمرين من حياة الناس.
ومجيء حرث الدنيا في مقابلة حرث الآخرة يضيء ما يعنيه كلّ من المال والبنين للبشر، وإن كان معنى خاطئاً، ويبرز قوة حضوره في نفوسهم. هذا المعنى الذي يجب أن يستحضر بما هو عليه لكيّ يُرجّ بالمعنى الإسلاميّ الصائب.
ولو كان المال والبنون بنظر الناس متماثلين مع ما هما عليه في نظر عليّ لما احتجنا إلى التشبيه، التشبيه أداة برهانية حجاجية بامتياز. يُلجأ إليه لجلاء ما هو مشكليّ.
فهو رؤية ناقدة لرؤية أخرى، وتغليب لإحداهما على الأخرى.
التشبيه قائم داخل صراع رؤى غير متصالحة. إنّه تعبير عن صراع ثقافي مادّته العالم المرجعي.
موضوع القراءة وأدبيّته منتمية إلى ثقافة الأديب القادرة على طرح الأسئلة المحرجة في مواجهة الثقافة الراسخة في الأذهان.
أما مع الاستعارة فهويّة العالم المرجعيّ غائبة.
وهذا الغياب قادر على الانتقال بالمتلقي من عالمه المنطقي السببي إلى عالم ذاتيّ بامتياز، تصير معه الهويّة الفنيّة التي أسبغت على المستعار له، العالم المرجعي، حقيقةً فنيّة. وذلك؛ لأنّ رؤية الأديب في الاستعارة رؤية مهيمنة تهدف إلى إلحاق رؤية المتلقي بسببيّتها الخاصة.

---

١ . الغيوم ص ١٧٤.
٢ . ص ٦٤.

وإذا عجز التشبيه عن نقل المتلقي من عالمه السببي إلى عالمه الفني، استطاعت الاستعارة اجتراح ذلك، من خلال إدخال ذلك المتلقّي في شراكة مفروضة.
هذا والشراكة بين الأديب والمتلقي متدرّجة.
تبدأ بالانعدام على مستوى علاقات المواضعة بين الكلمات.
إذا يظلّ المتلقّي خارج النصّ يصغي إلى معلومات تقدّم إليه فيقبلها أو يرفضها من دون أيّ تأثير له في إنتاجها أو تحديد مراميها وأبعادها.
وتأتي بعد هذه الدرجة درجة التشبيه الذي يبقي العالم المرجعيّ حاضراً، فيبقى انتماء القارئ إليه، وإن تُرك له أن يتصوّر، ومن خارج النصّ، العالم المرجعيّ ذا أبعاد يكون شريكاً فاعلاً في تحديدها من خلال رؤيته الشخصيّة، فهو مشدود، بطرفٍ أوّل، إلى عالم مرجعيّ ذي دلالة تقريريّة، ومشدودٌ، بطرف ثانٍ، إلى عالم فني ذي دلالة احتمالية.
يعني إن شراكته، في التشبيه، محدودة، وسيطرة الأديب عليه محدودة أيضاً، أمّا الدرجة الثالثة فهي درجة الاستعارة، التي ينتفي معها حضور الهويّة الواقعية للعالم المرجعي السببي ذات الدلالة المقرّرة سلفاً وتسود محلّها الهويّة الفنيّة ذات الدلالة الاحتماليّة والعلاقات الذاتيّة غير السببيّة.
هكذا يجد القارئ نفسه وقد انتقل إلى عالم مختلف له فيه ما للمؤلّف، وإن كانت رؤيته فيه رؤية من الدرجة الثانية تشتغل من داخل آليات اشتغال رؤية الكاتب.
وإذا كانت لدّة المؤلّف كامنة في الإمساك بالمتلقي والسيطرة عليه داخل خصوصيّة تشكيله العالم، فإنّ لدّة المتلقي كامنة في الحريّة التي أُعطيت له داخل ذلك التشكيل، فبات بمقدوره أن يرى فيه تشكيله الخاصّ به.
ومهما يكن من أمر، فإنّ لدّة الفريقين تكون أرقى كلّما اقتربتا من الدرجة الثالثة، وتبعاً لذلك الاقتراب تتحرّك الأدبية.

ب- العالم المرجعي المستعار له:

ويبقى لنا أن نسأل بعد هذا المهاد النظري الطويل نسبيّاً: ما الجوانب التي قرأها علي (عليه السلام) بوساطة الاستعارة وكيف قرأها؟
إنّ أهمّ ما يلفت في العالم المرجعيّ الذي قرأه علي (عليه السلام) هو أنّه مستقطب حول مفردتين أساسيّتين تمثّلان بؤرة الهمّ الذي وجد الإمام (عليه السلام) نفسه في مواجهته.
والمفردتان هما: الفتنة والدنيا اللتان تشكلان الثنائية (المفتاح) في نصّه الخطابي لتردّدهما الكبير في النهج عموماً، وفي استعارته على وجه الخصوص.
فالفتنة التي شهدت ولادتها باكراً في الحياة الإسلامية وكانت على شكل جنين باتت المعضلة التي رافقت عليّاً (عليه السلام) منذ اليوم الأوّل لتوليه الخلافة وحتى استشهاده (عليه السلام).
أمّا الدنيا فكانت الفاعل الأساسيّ الذي أمدّ الفتنة بكل ما تحتاج إليه من وقود، كيف لا، وقد قُيّض لها رجال أجادوا استثمار الضعف البشري حيالها، واستخدموها مطيّة لمآربهم السلطويّة.
وإن يواجه الإمام (عليه السلام) مشكلتين مترابطتين بهذا القدر، وفي ظلّ قسمة ثقافية أخلاقية ضيزى أبناء الآخرة قلة.
يعني أن يكون مشروعه مهزوماً في مرحلة لم يستطع الناس فيها أن يدركوا أنّ مشروع العدالة الإنسانيّة الذي تبناه علي (عليه السلام) هو خيرهم.
وكان من الطبيعي أن يبرز التقاطب قوياً بين نماذج أهل الآخرة: الأنبياء، والصالحون، والمؤمنون، والأتقياء ونماذج أهل الدنيا: بنو أميّة، والناكثون، والمتخاذلون، والضالون، والخوارج، وعلى رأسهم الشيطان.
بين العقيدة التي تشكل مأمناً من الفتنة: العبادة، والشهادة، واليقين، والتقوى، والإيمان، والعمل الصالح، وبين ما يناقضها: الفتنة، والضغينة، والثائرة، والضلالة.
بين القيم الأخلاقية التي تنشد الآخرة: العدل والحق والصدق والصبر والوفاء، وبين ما ينافيها: الجور، واستباحة المال، والباطل.

ج- المستعار منه والعالم الفني:
ويبقى أن الحديث عن العالم المرجعي المستعار له، لم يكن الغاية، كان وسيلة لتعرّف العالم الفني الجمالي الذي أنتجته الاستعارة في خطبة النهج.
وذلك من خلال المستعار منه.
ولعلّ ثقافة المتلقي العادي كانت الفاعل القويّ في تحديد المستعار منه الذي كان مثل تلك الثقافة حصيلة التجربة العمليّة في مقاربة الواقع والحياة.
كانت الصحراء والبداوة حاضرين قويّين: المطيّة، والعدّة، والبعير، والحادي، والمعالم، والسبل، والوحش، والحمة، والأخفاق والأظلاف، والسنابك.
وكذلك كانت الحياة الاقتصاديّة الحضرية: الرهينة، والأموال، والتجارة، والسلعة، والحياة العملية البدوية: الخيمة، والسواري، والدعائم، والجلباب، والثوب، والحبل.
إنّها الثقافة القائمة على البديهيّات وعلى الوقائع العنيدة التي لا تفسح يقينيّتُها في المجال أمام أيّ نوع من أنواع الجدل وهذا مكمن أهميتها الخطابيّة الحجاجيّة. فلو لم يكن علي (عليه السلام) ذا وجهة نظر لم يتفهّمها المتلقون لما كان بحاجة إلى مثل تلك الخطب. يعني ذلك أنّ عاملين أساسيين فاعلين في تكوين فنيّة الاستعارة العلويّة: وجهة نظر علي (عليه السلام)، وإستراتيجيّته الإقناعية.

د- قراءة ثنائية (الفتنة / الدنيا):
د.١- الفتنة:
كان دفع الفتنة همّاً محورياً عند علي (عليه السلام)، خصوصاً في زمن خلافته، فكيف تبدّت له؟ وكيف قرأها؟
تحدّث (عليه السلام) عمّن أطاعوا الشيطان وسلكوا مسالكه قائلاً: «في فتن داستهم بأخفافها، ووطئتهم بأظلافها، وقامت علي سنابكها»[١].

وهو حين أسند الفعلين: (داست) و(وطئت) إلى الفتن، وعدّى الأوّل منهما إلى الأخفاف بوساطة حرف الجر، والثاني إلى الأظلاف، غيّب الهويّة الموضوعيّة المجرّدة لتلك الفتن، وأكسبها هويتين فنيتين هما: هويّة الجمل التي تبدّت من خلال الأخفاف، وهويّة النور التي ظهرت من خلال الأظلاف.
وهاتان الهويّتان البهيميّتان تقدّمان الفتنة قوّة هائلة متمكنة من السحق، غير مدركة مَن تسحق، ولا ما ينجم عن هذا السحق.
وهذا أمر شديد البشاعة بالنسبة إلى عربيٍّ تلك المرحلة الحضارية. وحين يتصوّر الخائضون غمار الفتنة أنهم بعض وقودها لا بد من أن يأخذ الوجل قلوبهم فيرعووا. يعني ذلك أنّ الاستعارة العلويّة لم تقم بالوظيفة التعويضية وحدها، وظيفة الكشف عن خصوصيّة رؤية الإمام (عليه السلام) إلى الفتنة، ولكنّها قامت بوظيفة ثانية، هي الوظيفة الإقناعيّة.
هذا ولم ترتكز العملية الإقناعية، عبر هذه الاستعارة، على المنطق السببي، ولكن على إخراج المتلقي من واقعة الموضوعي والدخول به إلى عالم فني تتبدّى الفتنة فيه جملاً وثوراً.
ويصبح المتلقي معه جزءاً من آليات اشتغال هذا العالم المخيف الذي يدخل الخوف من الفتنة قلبه فيبتعد عنها.

د.٢- الدنيا:
ولقد تعامل (عليه السلام) مع الدنيا بمثل ما تعامل به مع الفتنة. وإذا ما قُدِّمت الفتنة بشاعة تدفع للتخلّص منها، فإنّ جهداً أشدّ قد بُذل لتخليص الناس من شرور الدنيا.
وهو (عليه السلام) عندما يتحدّث عن الدنيا، فإنّه غالباً ما يبدأ حديثه بحرف الاستفتاح (ألا)؛ لما فيه من طاقة تنبيهيّة لافتة تهيّئ المتلقي لنقلة من عالم إلى عالم.

---
١ . ص ٤٧.

ولقد أرسل الإمام (عليه السلام)، بعد واحد من استفتاحاته جملة تقريرية «ولّت حذّاء» هي عبارة عن كناية تسحب الدنيا من حوالي المتلقي، وتنسيه أنه يعيش فيها، لتقدّمها مستقلة عنه، قد تراجعت بفعل طبيعتها التي لا يوثق بها.
ولا يكتمل خروج المتلقي من عالمه الواقعي، مع هذه الاستقلالية اللافتة، إلاّ مع الهويّة الجديدة التي صارت إليها الدنيا بفعل الاستعارة، إذ «لم يبق منها إلاّ صُبابة كصُبابة الإناء اصطبّها صابّها»[1].

باتت الدنيا، في أصلها، مع هذه الهويّة ماءً في إناء.
والإناء مهما كان كبيراً يظلّ في نظر المتلقي محدود السعة، فكيف إذا لم يكن قد بقي فيه إلا صبابة، بقيّة عافها صاحبها؛ لأنها لا تبلّ ظمأ. إنّ هويّة كهذه لا تمكن المتلقي من امتلاك هذه الدنيا وفاق خصوصيّة رؤيته إليها فحسب، ولكنها تدخل في قناعاته هزال قيمة الدنيا الغائبة خصوصاً أن انحسارها مترافق مع إقبال ما يضادّها، نعني به الآخرة.
«ألا وإنّ الآخرة قد أقبلت» إقبالاً يجعلها تشكل مع الدنيا ثنائية تتعالى فيه الآخرة بشكل حاسم، وذلك وسط دعوة للانتماء إليها، إذ يوجد «لكلّ منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا»[2].

وأهميّة الانتماء في الاستعارة العلويّة عائدة إلى أنه انتماء اختياري غير مفروض.
وإذا كان الانتماء إلى هذه العشيرة أو تلك انتماء قدرياً لا قبل للإنسان بتغييره، فإننا مع علي (عليه السلام) أمام انتماء إسلامي يحدّد المرء موقعه فيه.
لقد أدخلت الاستعارة المتلقي عالماً رؤيوياً تسود الأسريّة فيه قيمٌ جديدة يذهب معها خيال كلّ متلقّ بالقدر وبالاتجاه الذي تتيحه له رؤيته الخاصة.
إنه شريك بقوّة الاستعارة في إنتاج ذلك العالم، وفي الانتماء إليه.
وتطلّ (ألا) الاستفتاحية في موضع ثانٍ من النهج[3].

ليرسل الإمام (عليه السلام) إثرها سلسلة من الكنايات التي تهيّء المتلقي إلى الانقطاع الكليّ عن عالمه السببي من مثل: «إنّ الدنيا قد تصرّمت، وأذنت بانقضاء، وتنكر معروفها، وأدبرت حذّاء».
تأتي بعدها هويّة السملة التي أُسبغت على الدنيا، في توازٍ مع هويّة الصبابة، لتصل بالمتلقي إلى ذلك الانقطاع الكليّ، إذ «لم يبق فيها إلا سملة كسملة الأداوة، أو جرعة كجرعة المَقلة، لو تمزّزها الصديان لم ينقع».
وإذا كانت السملة، بقية الماء في إناء وهي هويّة فنية للدنيا تبرز مدى ضآلتها، فإن علياً (عليه السلام) قد عضدها بأداتين تسهمان في إظهار شحّ تلك الضآلة. الأولى هي الأداوة، بما هي إناء ماء التطهّر، تمثل السملة فيه، ما علق في قعره من رطوبة، علامةً على ما لا يمكن الإفادة منه.
والثانية فيه هي المَقلة، تلك الحصاة التي تقاس بها الجرعة المحدّدة للفرد حين تقلّ المياه.
وإذا كانت الجرعة في ظروف شح الماء هي الدنيا، فإنّ قوله (عليه السلام): «لو تمزّزها الصديان لم ينقع» علامة شديدة الإيحاء بخروج الدنيا من دائرة المفيد. والعربيّ الذي تشكّلت ذاكرته التاريخية على قاعدة الماء تبدو الدنيا أمام ناظريه هوانا فوق هوان، كريهة الوجه يذهب كلّ متلقّ في تصوّر بشاعتها مذهباً تمكّنه منه خصوصيّة رؤيته إلى العالم. وإذا كانت الاستعارة العلويّة الخاصّة بالدنيا استعارة وظيفيّة تهوّن أمر الدنيا، فإن هذا التهوين تهوين وظيفيّ أيضاً، يحاول تسفيه الفتنة من خلال تسفيه الأساس الذي قامت عليه.
ويؤكّد هذا كلّه أنّ الخطبة العلويّة خطبة حجاجيّة نموذجيّة.

هـ- الشيطان /الإيمان:

---

١ . ص ٨٤.
٢ . ص ٨٤.
٣ . ص ٨٩.

كانت الفتنة الفاعل القويّ في محاولة إفشال مشروع علي (عليه السلام) في إدارة الشؤون الإسلامية، وكانت الدنيا السلاح الأمضى في يد أعدائه.
وصراع كهذا هو ضالّة الشيطان، بل هو فعله الذي يواجه به الإيمان والآجلة، حين يرغب بالعاجلة، مرتكزاً إلى الضعف البشري. وإذا كان القرآن الكريم قد قدّم نموذج عمله من خلال تجربة آدم في الجنة، لم يبق أمام علي (عليه السلام) إلاّ أن يقدّم رؤيته الخاصة إلى الحضور الشيطاني في المجتمع الإسلامي.
هذا المجتمع الذي أُضعفت مجتمعيّته من خلال محاولات إجهاض الجوهر الثقافي الذي يقوم عليه.
تحدّث (عليه السلام) عن أهل الفتنة قائلاً: «اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً، واتخذهم له أشراكاً، فباض وفرّخ في صدورهم، ودبّ ودرج في جحورهم، فنظر بأعينهم، ونطق بألسنتهم»[1].
فإذا بالجملة الأولى تنتج كناية تحدّد طبيعة العلاقة القائمة بين أهل الفتنة والشيطان. تلك العلاقة التي كان الشيطان فيها ملاك أمرهم يحدّد آليّة تفكيرهم وسلوكهم في كلّ كبيرة وصغيرة.
وتهيّئ مثلُ هذه العلاقة المتلقي للدخول في عالم رؤيويّ تخلع فيه الاستعارة عن الشيطان، من جهة أولى، هويته الحقيقية مسبغة عليه هويّة الصياد وما تقتضيه مهنة الصيد من مراوغة واحتيال، وتجرّد أهل الفتنة، من جهة ثانية، من هويتهم الآدميّة، منحدرة بهم نحو التشييء عبر هويّة الأشراك.
وحين تلين عريكة أهل الفتنة للشيطان (الصيّاد)، تدخل الاستعارة طوراً جديداً، فيحدث تحوّل في هويّتي كلّ من الشيطان وأهل الفتنة.
يصير الشيطان أنثى الطير المشؤومة المتئمة، ويصير صدر أهل الفتنة خربة تأوي إليها البوم والغربان.
وهذه صورة من أبشع صور حضور الشيطان.
هذا الحضور الذي يمثّل المكوّن المحوري بين مكوّنات بنية الفتنة.
وحين يصبر الشيطان جزءاً من تلك البنية تتبدى خطورتها أمام ناظري المتلقي فتكون الحجة عليه إذا لم يرعو.
وما كانت أحابيل الشيطان لتنجح لو كان هؤلاء الناس مؤمنين حقيقيين.
«خُذِل الإيمان، فانهارت دعائمه، وتنكّرت معالمه، ودرست سبله، وعفت شُرُكه (طرقه)[2].
وجملة (خُذل الإيمان) كناية موحية بهوية الخاذلين التي تأخذ في ذهن كلّ متلقّ الصورة الأبشع.
وكناية كهذه تمهّد لاستعارةٍ تخلع عن الإيمان هويته الموضوعية لتسبغ عليه هويّة البنيان ذي المعالم والسبل المتنوعة التي تؤدّي إليه.
وهويّة كهذه لا تضيء باتجاه واحد.
ولكنها تضيء باتجاهين: يتجه الأوّل نحو مؤسّسي ذلك البنيان، والثاني نحو مخرّبيه. كلّ ذلك بعين علي (عليه السلام) الذي يواجه فتنة رجالها رجال الشيطان الذين لم تعد الآخرة لتشغل بالهم في شيء.
انهارت دعائم ذلك البنيان في وجدانهم، فتنكّرت معالمه التي كانت تدلّ عليه، ودرست السبل التي كانت تؤدّى إليه، وإذا هو أثر بعد عين.
ولا توحي هذه الهويّة التي تداعت بجريمة ثقافية محدودة بزمان ومكان.
ولكنها توحي بجريمة ثقافية تاريخية تتحمّل مفاعيلها السلبيّة البشرية على امتداد أجيالها.
فكأن علياً (عليه السلام) لا يتحدّث إلى متلقين عاصروه بقدر ما يرسلها صيحة عابرة للأجيال.

و- أهل الدنيا/أهل الآخرة:

---

١. ص ٥٣.
٢. ص ٥٣.

وممّا يجدر ذكره، هنا، أنّ البعد الحجاجيّ، وإن كان ناجحاً بامتياز في إبراز الحقيقة، إلاّ أنّه لم يكن قائماً قصد التحويل، تحويل المتلقين من موقف إلى آخر. اليأس شديد الوضوح، والشيطان قد باض وفرّخ في الصدور، والإيمان، قد انهارت دعائمه، وتنكرت معالمه.
باتت وظيفة الحجاج إلقاء الحجة على الآخر، وتبرئة النفس أمام التاريخ.
وأهل الدنيا، في النهج، متعدّدو المشارب والمناهج والغايات.
فهم بنو أميّة، والناكثون، والمتخاذلون، والضالون.
وبنو أميّة هم رعاة الدنيا ورأس الفتنة. ذكرهم (عليه السلام) على هامش حديثه عن عثمان حين قال: «إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه، بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون (الخضم أكل الشيء الرطب) مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع»[1].

وهم حين تدرجهم هويّتهم التي اكتسبوها بفعل الاستعارة في عداد البهائم، يعني أنّهم قد أعلوا الغريزة على العقل. ومن يُعل الغريزة فهو منصاع لشهواته الدنيوية.
والإشارة إلى خضم مال الله تجعل من ذلك المال معتلفاً يفقده وظيفته الحقيقيّة المحكومة بالعقل ليؤدّي وظيفة أخرى محكومة بالغريزة.
وإذا ببني أميّة، وفاق هذه المعادلة الجديدة، خارجون على سلّم القيم الإسلامية والأخلاقيّة والإنسانية.
هذه خصوصيّة رؤية علي (عليه السلام) إلى رجال الدنيا، أما خصوصيّة رؤيته إلى رجال الآخرة فقائمة على نوع من المأسوية اليائسة.
دعا الناس قائلاً: «كونوا كالسابقين قبلكم، والماضين أمامكم»[2].

في إشارة واضحة إلى جيل صالح تقضّى زمانه.
ورجال هذا الجيل «قوّضوا من الدنيا تقويض الراحل، وطوَوْها طيّ المنازل»[3].

واستحضار الخيام منزلاً استحضارٌ لفكرة الرحيل بقوّة. فبيوت الطين والحجارة بيوت استقرار يصحّ أن تطلق عليها اللغة العربية كلمة (مساكن)، أما الخيام فبيوت قلق مستمرّ ورحيل حاضر باستمرار، يصحّ أن تطلق عليها اللغة كلمة (منازل) الكلمة عينها التي استخدمها علي (عليه السلام) في استعارته. ويوحي هذا إيحاء شديداً بقلق رجال الآخرة في دنياهم.
والتقويض منها داراً، وطيّها طيّ المنازل إشارة إلى تفاهتها في نظرهم، وإلى استعدادهم للقيام بكلّ ما يؤمّن لهم آخرة مُطمْئنة.
ويعني كلّ ذلك أنهم أصحاب سلّم قيمي إنسانيّ سام محصّنون من الانزلاق في مهاوي الدنيا وفتنتها.
ز- المنظومةالمفاهيمية:
لم يقتصر جهاد علي (عليه السلام) على إبراز جحيم الفتنة معرّياً أبناء الدنيا أمام الصورة الجليلة لرجال الآخرة، تعدّى ذلك إلى معالجة المنظومة المفاهيميّة التي تحكم تفكير كلّ فريق وسلوكه.
قرأ باستعارته (التقوى) مثلما قرأ (اليقين) و(الوفاء) و(الصدق). وقرأ بها (الثائرة) مثلما قرأ (الضلال) و(الخطيئة).
فهو قد قدّم الثائرة لهبًا حين قال (عليه السلام) عن الرسول أنّه قد «أطفأ الثوائر»[4].

وهل كالنار مقدِّماً لفعل الحميّة الجاهليّة التي تتهاوى عندها وظيفتي العقل والتقوى؟ وقدّم الخطيئة ذات إبرة تسلع كابرة الزنبور: «ألا بالتقوى تقطع حمة الخطايا»[1].

---

١. ص ٤٩.
٢. ص ٢٥١.
٣. ص ٢٥١.
٤. ص ١٤١.

وان تتخلّى الخطيئة عن هويّتها المرجعيّة هنا عبر إضافة (الحمة) إليها لا يعني أنّها صارت زنبوراً، أو معادلاً وظيفياً للزنبور.
فالتقوى، قوام المقام عند الله «إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم»، لا تواجه حمة الزنبور، تواجه حمة ما يضادّها، حمة الخطيئة التي تدخل نار جهنّم. فالاستعارة تقريب للفكرة من ذهن العوام، داخل سياق الحجاج العلوي في مواجهة الواقع المرير الذي آلت إليه الحياة الإسلامية.
وقبالة بشاعة المنظومة المفاهيميّة السلبيّة، أقامت الاستعارة العلوية صورة غرّاء للمنظومة المفاهيمية الإيجابية. فالصدق والوفاء جُنّة واقية «أيّها الناس إنّ الوفاء توأم الصدق، ولا أعلم جُنّة أوقى منه»[٢].

واليقين بنيان واقٍ من الحرّ والبرد والخوف إذا ما تعالى صوته.
أمّا «والناس في فتن انجذم فيها حبل الدين»[٣]، فقد «تزعزعت سواري اليقين»[٤]، فضاع المسكن المأمن. وفي مثل هذه الظروف يصير الصبر بالنسبة إلى الخائف «مطيّة نجاته»[٥]، والتقوى «عدّة وفاته»[٦].

لقد تجلّت المنظومة المفاهيميّة الإيجابيّة ذات بعد حمائي. وما كان هذا البعد الحمائي ليصير محوريّاً بهذا القدر لو كانت الظروف ظروف تعالي الدين على الدنيا.
في مثل هذه الحال تكون وظيفة هذه المنظومة إبداع حياة راقية.
أمّا والظروف ظروف تعالي الدنيا، فالناس غير مشغولي البال بالإبداع، فما يعانونه في ظروف الخوف والضياع يشكل مدعاة لرؤية تحتاج إلى ما يحمي وليس إلى ما يرفع.
ح- كلمةأخيرة:
ويبقى أن الاستعارة العلويّة التي أسهمت، بوصفها أداة تعبيريّة، في الكشف عن العالم المرجعي من خلال رؤية علي (عليه السلام) إليه، لم تقم بوظيفة التعويض عن القصور اللغوي في تقديم خصوصيّة الرؤية فحسب، ولكنها استطاعت، من خلال خياراتها المتعلّقة بالمستعار منه أن تعبّر، وبشكل جليّ، عن عالم مأزوم. فثنائية (الخوف / الأمان) التي شكلت محور الصورة العلويّة نتاج طبيعي لذلك العالم.
ولقد جاءت الاستعارة العلويّة، بالإضافة إلى ذلك، في سياق حجاجيّ. فما انتصر على أرض الواقع هو الدنيا.
وانتصار الدنيا انهيار لسلم قيمي مرتبط بالإنساني والإبداعي في مجال سياسة الأمور. ويفرض هذا الانهيار أن تنبري الخطبة العلوية للدفاع عن قيم الإسلام. ويعني ذلك أن تصير الاستعارة، مثلها مثل التشبيه، استعارةً رسالية.
والذي يبدو أن المنطق العلوي قد تجلّى منطقاً يائساً من تصحيح المعادلة وتصويب الميزان، فالمتلقي لا يشيم فيه أي ملمح لبرق تغييري.
ولذلك كانت وظيفة الاستعارة متمحورة حول إلقاء الحجّة، قصد إثبات أنه قد فعل ما بوسعه، ولا حجة لأحد عليه.
وهي في محاولتها الحجاجية الدفاعية هذه قد تجاوزت زمانها لتعبّر بشكل عميق عن رحله الفتنه عبر التاريخ البشري الممتد إلى زماننا.
ومما يجدر ذكره في هذا المقام، أنّ زماننا الحالي شبيه، إلى حدّ كبير، بزمن علي (عليه السلام).

---

١ . ص ٢٢١.
٢ . ص ٨٣.
٣ . ص ٤٦.
٤ . ص ٤٦.
٥ . ص ١٠٣.
٦ . ص ١٠٣.

فالفتنة تحدق بمجتمعنا، والمفتونون رجال أجراهم المال وراءه فتخلوا عن المنطق، وأسقطوا سلطان العقل، حتى ليصرخ عاقل هذا الزمان: أبهذا القدر ما زال الإنسان متهافتاً؟ فالدنيا بفتنتها تُستخدم مرّة أخرى لإجهاض أرقى ما أنتجته الأمّة، وإن كانت المعركة لم تُحسم بعد، فما زال الواقفون مع خيار علي (عليه السلام) كثيرين أقوياء، ولذلك فالأمّة بخير والحمد لله.